الإعلام والتنمية

تأليف

دكتور محمد سيد محمد
أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة

الطبعة الرابعة

الناشر
دار الفكر العربى
١١ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
ص ب : ١٣٠ ـ ت : ٧٦٠٥٢٢

١٤٠٨ هـ
١٩٨٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

محتوى الدراسة

« فقه الحياة فى رأيى أن يفعل الانسـان دائما ما يفعـله الطفل عنـدما يقف على قدميه لأول مـرة .. أن يخطو خطوة الى الأمـام » .

المـؤلف

مقدمة

ان الفهم التقليدى للبحث العلمى هو جمع لمادة البحث بصور مختلفة ، وتبويبها وفقا للمنهج المقرر • ثم الوصول بصياغة هذه المادة الى أحكام مقرونة بالدلائل ، لاثبات أمر ما ، أو تغليبه على أمر آخر ، أو دحضه بالمقارنة والبرهان • ولكننى أرى أن هذا الفهم التقليدى أشبه بالاجراءات • وأن روح البحث هى الكشف بمعنى الاستجلاء الشامل والاضافة الجديدة للمعرفة •

وتبدأ الصعوبة الأولى أمام الباحث الاعلامى بالتشكيك فى علمه ، وذلك لأن علم الاعلام جديد عالميا ، والمكتبة الاعلامية عالميا متواضعة شديدة التواضع اذا قورنت ــ مثلا ــ بالمكتبة القانونية ، أو بما كتب فى علم الاجتماع • ولكن ذلك لا ينفى أن الاعلام علم له حقوله الخاصة ومناهجه الخاصة وتطبيقاته الخاصة •

ان الدراسات الانسانية تسعى الى هدف استراتيجى واحد هو خير الانسان وترقيته ، ولها أن تتشابك وان تدخل فى علاقات تبادلية ، لذلك نرى علوما مختلفة تسهم فى تنمية علم الاعلام • كما نجد العلوم المتصلة به تتبادل فيما بينها حقولا عديدة من حقول البحث والدراسة • وتسلط هذه العلوم اضواءها من زوايا مختلفة على البحث الاعلامى ، محددة بالزوايا المختلفة ما يخص البحث الاعلامى ، وما يثريه ويوسع دائرته ويعمقه • من هذه العلوم الانسانية الوثيقة الصلة بالدراسات الاعلامية : الاقتصاد ، علم النفس ، الاجتماع ، الادارة ، وغير ذلك • وثمة علوم تطبيقية ترتبط ارتباطا وثيقا بالدراسات الاعلامية وبوسائل الاعلام وهى فى سبيلها الى رابطة أكبر وأوسع نتيجة لتكنولوجيا وسائل الاعلام • ولعل الكيمياء المتصلة بالطباعة والفيزياء المتصلة بالتصوير أقرب الامثلة على ذلك • ان الترابط بين العلوم واقع لا يصح اغفاله ، ولكن الذى لاشك فيه هو أن علم الاعلام له شخصيته المتفردة ، وتذوب فى داخله العلوم الاخرى ، وهذا ما تؤكده هذه الدراسة كما أكدته دراسات عديدة سابقة •

اذا عبر الباحث الاعلامى الحاجز الاول ، وتأكد من قواعد علمه فانه يبدأ فى تقليب أوراقه بحثا عن المنهج السديد ، أما المنهج فهو وليد الواقع ، لان الواقع بجوانبه المتعددة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية وغير ذلك ، هو الذى يفرض علينا المنهج الذى نحلل به هذا الواقع لنفهمه . ومن فهمنا لواقع بشرى ما ، أى لمجتمع ما ، نستطيع أن نرى طريق مستقبله ، وان نحدد مسار حركة التاريخ ، وعندما نفهم واقع مجتمع ما فهما حقيقيا يمكننا كمثقفين وكباحثين أن نعمل ، وبقدر دقتنا فى تحديد مسار حركة التاريخ ، وبقدر مواكبتنا لحركة التطور ، ودفعنا لعجلته دفعا رشيدا واعيا ، يمكن لافكارنا ونظرياتنا أن تنجح .

ولقد دفعنى هذا البحث الى النظر فى المنهج نظرة أكثر عمقا . ان كل شىء فيما عدا الله سبحانه وتعالى ، يخضع لأبعاد متعددة هى التى تبينه وتجعله أكثر وضوحا وجلاء . وبقدر رؤيتنا لأوفى قدر من الأبعاد الرئيسية لموضوع ما بقدر قربنا من حقيقته . ان الحاضر يعانق الماضى بيد ويعانق المستقبل بيد أخرى . ان التفكير جماع لأبعاد العقل والمخ والادراك والالهام . ان الأبعاد التاريخية والفلسفية والاقتصادية والدينية والاجتماعية أبعاد ضرورية لفهم نظرية ما أو تحليل واقعة ما ، ولعل البعد الزمانى والبعد المكانى أشهر الابعاد فى هذا الصدد .

لذلك ينبغى ألا يصبح المنهج قالبا جامدا ، وانما على الباحث أن يمزج ويركب أكثر من منهج ، ليؤكد منهجه هو ، فى دراسته هذه أو تلك ، وفق مقتضيات الأمانة العلمية ، والاخلاص للحقيقة العلمية . اننا نستطيع تعميق ادراكنا لنظرية الابعاد المتعددة بالقاء نظرة على العقل الجماعى والعقل التاريخى للانسان . فلاشك أن تنظيما ما يجمع بين تفكير البشر ، والا كيف نفسر اختراع اللغة ؟ والضوابط والقوانين التى تحكم اللغة ؟ . كذلك لا نستطيع أن ننكر تأثير العقل التاريخى للانسان، والا كيف نفسر ونحن فى أواخر القرن العشرين مناقشة فلاسفة قرون سابقة ؟ . والجدل معهم الى حد العراك ؟ . هذا الى جانب التراكمات التى يبتكرها العقل يوما بعد يوم وتؤثر فى حياتنا المعاصرة وفى كل حياة قادمة .

ولقد حاولت أن الزم نفسى بهذا الفهم فى المنهج الذى اتبعته فى هذه الدراسة ، وهو المنهج الذى سبق لى استخدامه فى بحوثى الجامعية والذى يقوم على محورين متلازمين : احدهما رأسى يتناول عناصر البحث كأعمدة ، والثانى أفقى ينسج حول كل عمود مادته وفروعه ، متسقة مع العناصر الأخرى ، متحاورة معها ومتجادلة ، أى ليست متلاصقة بغير تفاعل • ويعمد هذا المنهج الى تركيب المادة والأفكار طابقا فوق طابق لتنتج فى النهاية ما يشبع نهم القارىء ، ويحس معه بالرضا والاقتناع ، وكأنه قرأ قصة أو شاهد مسرحية ، بغض النظر عن التشويق والعقدة ، لان البحث العلمى هو تقرير فى عموده الفقرى ، والمعلومة هى خلية نيابة ، والتركيبة فى هذا المنهج الذى سبق لى السير عليه فى بحوثى الجامعية السابقة وكان لأساتذتى فضل تسويته وتهذيبه • التركيبة فى المنهج لا تصرفنى عن التحليل ، وانما تعيننى على الربط والاستدلال • وبذلك تقترب صورة البحث من صورة الشجرة مجازا وشكلا • ومن ثم لا تحبس كتاباتى بين جدران الجامعة ، وانما تنطلق الى الشارع القارىء ، والى جمهور المهتمين باعلام •

ماذا يعترض الباحث بعد الامساك بقواعد العلم والاهتداء الى المنهج ؟ لا أظن أن هناك عائقا بعد • وانما يقاس الشوط الذى قطعه بعد ذلك بقدراته الخاصة وبصبره وجهده ، وهذا ما ينبغى أن يعفى الباحث نفسه منه ويدعه لأساتذته وتلاميذه معا • ومهما أوتى الباحث من علم فانما هو قليل ، وعليه أن يخطو خطوة جديدة بشرط أن تكون الى الأمام •

والله ولى التوفيق • والله من وراء القصد ••

المؤلف

تمهيـــــد

ماذا نقصد بالاعـلام والتنميـة ؟

ان ما نقصده بصورة مباشرة وأساسية هو دراسة الدور الذى يمكن أن تؤديه وسائل الاعلام فى تحويل المجتمعات من التخلف الى التقدم . وسوف نعتزم من البداية فى تناول هذه الدراسة أن نبتعد عن أسـاليب الحماسة ، وعن الأمنيات والأحلام القومية ، وعن خيالات الرفـاهية والترف . ولكننا عندما نتعرف على وسائل الاعلام بصورة سريعة ، ونألفها بوجه عام ، فاننا نجد أنفسـنا أكثر انفعالا وحماسا ، وأوسع أملا فى تحقيق التقدم . ان هذه الوسائل التى يطلق عليها وسـائل الاتصال بالجماهير ، أو وسائل الاتصال الجماهيرى ، أشبه بالصندوق السحرى الذى يصنع منه اللاعب الأعاجيب عندما يحسن استخدامه ، والفرق الهام بين الصندوق السحرى ووسـائل الاعلام ، هو اعتمـاد اللاعب على براعته وخفـة يده ، بينما يعتمد الاعلام على الدراسـة الموضوعية والاحصائيات والمعرفة التسجيلية للواقع والتخطيط والمتابعة وما شابه ذلك من أصول العلم ، بالاضافة الى المهارة المهنية والذاتية التى تتطلبها فنون الممارسة فى العمل الاعلامى .

ولتحديد المشكلة ينبغى أن نطرح سؤالا جوهريا من شقين هو : لماذا التنمية ، وما دور الاعلام فى التنمية ؟

ان متطلبات العصر الحديث فى النصف الثانى من القرن العشرين جعلت من التنمية قضية انسانية ملحة . ولعل مجرد الاشارة الى الانفجار السكانى ، والى مشكلة الطاقة والغذاء ، والى الهوة السحيقة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، تكفى دليلا قاطعا على أن التنمية مشكلة انسانية معاصرة . ولقد حاول الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر أن يجيب على هذا السؤال الذى نحن بصدده الآن ، فى خطابه أمام ممثلى معظم المجتمع الدولى عام ١٩٦٠ فى الدورة الخامسة عشر للامم المتحدة بقوله (١) : « ان الشعوب الحديثة الاستقلال تؤمن أن حريتها الحقيقية هى فى ايجـاد مستوى من المعيشة لائق بأبنائها ، ثم ان الشعوب الحديثة

الاستقلال — ومن واجبي أن أقول ذلك هنا صراحة — تتعجل الطريق الى النمو الاقتصادي ، وتشعر أنها لم تعد تملك الوقت لتضييعه ، بعد التخلف الطويل قياسا الى غيرها • ولقد يكون هناك من يرى أن العجلة طريق الى الخطأ ، ولكننا اذا سلمنا بذلك نكون قد ارتكبنا خطأ أكبر ؛ هو نسيان طبيعة الظروف التى نعيش فى ظلالها الآن والتى تجعل من الانتظار أمرا لا تحتمله الشعوب ، ولعل التقدم العلمى أول هذه الظروف التى نعيش فى ظلالها • ذلك أن أى فلاح فى أقصى الجنوب من وطننا فى أسوان الى أقصى الشمال من وطننا فى « القامشلى »(٣) مثلا يملك بلمسة أصبح أن يدير أحد أجهزة الراديو أو يجرى بعينيه على سطور جريدة فاذا هو يسمع ويرى عن مستوى العيش الكريم الذى وصل اليه المواطن الأمريكى العادى ، أو يسمع ويرى عن الأعمال الباهرة التى تقوم بها شعوب الاتحاد السوفيتى ، ثم اذا هذا المواطن يقارن بين حاله وبين ما وصل غيره اليه ، ثم اذا الثورة تملك نفسه من غير حقد على غيره ، نزوعا الى رفع مستوى معيشته بينه وبين غيره من البشر الأحرار •

ولقد يقال لشعوبنا ان الصبر ضرورة وان شعوبا غيرنا قد تحملته ، وانما دعونى هنا أذكر بان طاقة أى جيل على الصبر تقاس بظروف هذا الجيل لا بظروف غيره من الاجيال ، والذين كانوا يقدرون على الصبر مثلا حتى يقطعوا المحيط فى قارب يدفعه الريح ، يختلفون تماما عن الذين يقدرون على قطع المحيط فى بضع ساعات بطائرة نفاثة •

وليست هذه صورة من صور الكلام ، وانما هى صورة الحقيقة ذاتها ، فى هذا الزمان الذى نعيشه ، وان شعوبنا لتشعر انها قد فاتها عصر البخار ، وفاتها عصر الكهرباء ، ويوشك أن يفوتها عصر الذرة بامكانياته الرائعة ، ومن هنا نرى تصميم الشعوب على تحقيق حريتها الاقتصادية ، ومن هنا نرى اندفاعها العنيف فى ميادين التطور الصناعى والزراعى وميادين المساواة (لعله كان يقصد العدالة) الاجتماعية » •

لقد اقترب الرئيس المصرى الراحل فى هذا الخطاب من المشكلة بشقيها الاعلام والتنمية • وبين أن دور الاعلام لا يبدأ فقط عندما تبدأ التنمية وانما يبدأ قبلها عندما يجعل مجتمعا ناميا ما يحس بمرارة موقفه

الحضارى بالنظر الى المجتمعات المتقدمة التى تملك الكثير من أسباب الترف والرخاء والتقدم .

وبعد ربع قرن من وقفة الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر وقف الرئيس المصرى محمد حسنى مبارك يخاطب المجتمع الدولى من فوق منبر الأمم المتحدة أيضا قائلا(٣) ان هدفنا اصلاح نظام الأمم المتحدة وتعديله بما يتلاءم مع الاحتياجات المتطورة . وقال : ان النقطة الأولى : التى يهمنى ان اثيرها فى هذا المجال هى ان المشكلة الاساسية التى أصبحت تواجه الدول فرادى وجماعات هى المشكلة الاقتصادية ولا يقتصر الأمر هنا على المشاكل التى تواجه الدول فى علاقاتها الخارجية بل ان الاقتصاد الداخلى لمعظم الدول أصبح يمثل هما ثقيلا لا يمكن تجاهله أو الاقلال من شأنه واذا كنا جميعا نعانى من هذه الظاهرة فلاشك أن الدول النامية تعانى بدرجة أكبر واعمق وتشعر بانه من الظلم الفادح ان تترك لتواجه وحدها وطأة مشاكل لم يكن لها يد فى خلقها لانها لم تسهم بدرجة ملموسة فى اقامة النظام الدولى الذى افرزها وأنتجها .

ومما يبعث على القلق ان الأوضاع الاقتصادية للدول النامية تزداد سوءا وتفاقما كل يوم رغم ان الحديث لا ينقطع عن وجوب اصلاحها ووقف تدهورها أى ان الفجوة تتسع باستمرار بين الأمل والواقع وهو وضع لا يبشر بالخير ويكفى ان نشير الى أن ديون الدول النامية بلغت أكثر من ٩٠٠ مليار دولار فى نهاية عام ١٩٨٤ وان هذه الطفرة فى حجم الديون قد صاحبها تضخم كبير فى أعباء خدمتها بالنسبة لحصيلة صادرات الدول المدنية بل انها تزامنت مع انخفاض المساعدات الرسمية التى تمنحها الدول الغنية للدول النامية .

ثم تحدث الرئيس المصرى عن مساعدات التنمية التى انخفضت الى النصف قائلا : انه رغم ان الاستراتيجية الدولية للتنمية قد حددت نسبة سبعة من عشرة فى المائة من الناتج القومى الاجمالى للدول المتقدمة كرقم مستهدف لمساعدات التنمية فأننا نجد ان هذه المساعدات لم

تتجاوز فى السنوات الاخيرة نصف الحجم المستهدف بالاضافة الى كل هذا تدهورت شروط التجارة الدولية وانتشرت الممارسات الحمائية فى الدول المتقدمة وتضافرت هذه العوامل لخلق وضع خطر لا يمكن ان تقتصر اثاره على مجموعة دولية بذاتها بل انها سوف تمتد الى النظام الدولى كله فاما ان نخرج معا من هذا المأزق من خلال صيغة واقعية شاملة تأخذ الأمر بالجدية والخطورة اللازمة واما ان نشهد جميعا مزيدا من التدهور والضياع •

وتزداد الصورة سوءا اذا نظرنا الى أوضاع الدول الافريقية الواقعة فى جنوب الصحراء حيث تتفاقم المشاكل الناجمة عن الجفاف •• والتصحر ونقص الغذاء فى الوقت الذى تدهورت فيه معدلات التبادل التجارى الدولى لسلعها مما يهدد حياة الملايين من ابناء القارة ويزعزع الهيكل الاجتماعى فى بلادهم ويبدد آمالهم المشروعة فى تنمية مستقرة ومتواصلة بعد أن أصبح همهم الشاغل هو الحصول على لقمة الخبز وتوفير متطلبات اساسية •

ولابد أن ندرك جميعا ان شعوب هذه القارة قد عانت طويلا من الاستعمار والاستغلال والسيطرة وانها حرمت على مر القرون من الفرصة العادلة لتنمية مواردها المادية والبشرية واستغلال طاقاتها بما يحقق مصالحها •

وكانت القوى المتسلطة على مقاديرها عندئذ تنظر اليها باعتبارها مصدرا للمواد الخام ومن ثم فلم تتح لها ان تسهم فى جنى ثمار الثروات الصناعية والتكنولوجية المتعاقبة •

ثم تحدث الرئيس المصرى عن ضرورة عقد دورة على المستوى الوزارى قائلا :

« لذلك فاننا نؤيد من فوق هذا المنبر الدعوة التى وجهها مؤتمر القمة الحادى والعشرون لمنظمة الوحدة الافريقية لعقد دورة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة على المستوى الوزارى لبحث المشاكل الاقتصادية للقارة الافريقية وحث المجتمع الدولى على اتخاذ الاجراءات اللازمة لدعم الجهود التى تبذلها الدول الافريقية لتحقيق الاصلاح الاقتصادى وتنفيذ مشروعات التنمية وتجنب الكوارث التى تهددها »

كما دعا الى حوار سياسى رشيد بين الدائنين والمدينين قائلا :

فاننا نهيب بحكومات الدول الدائنة ومؤسسات التمويل والبنوك الدولية ان تتعاون مع الدول المدينة فى اطار حوار سياسي رشيد بعيدا عن الضغط بهدف التوصل الى حل دائم لمشاكل المديونية يصون حقوق الشعوب فى الدول النامية ويرعى أمالها فى تأمين الغذاء والخدمات الصحية والتعليمية الاساسية ويوفر لها الاستقرار الاجتماعى والسياسى » .

ان المقارنة بين وجهة نظر مصر فى فاصل زمنى يصل الى ٢٥ عاما يبين لنا حدة مشكلة التنمية فى عالمنا المعاصر . ويبين لنا أهمية أن يبصرنا الاعلام بأبعادها .

وقد يلاحظ القارىء أو المستمع أو المشاهد العادى أو من يسمونه رجل الشارع ان موضوع التنمية أخذ يلح عليه فى هذا الربع الاخير من القرن العشرين من نوافذ اعلامية شتى . وهو على حق فى ذلك لأسباب عديدة ، أولها أن المتغيرات الدولة طرحت المشكلة بطريقة مكثفة فى العقد الثامن من القرن العشرين ، وثانيها ان الامة العربية طرف فى المتغيرات الدولية بسبب البترول وغيره . وثالثها ان المواطن المصرى الذى عانى ودفع من قوته الضرورى فى حروب وأزمات متلاحقة أصبح تواقا الى التنمية أكثر من ذى قبل .

ولكن قضية التنمية ليست الشغل الشاغل لمن يطلق عليه رجل الشارع وحده ، ولكنها الشغل الشاغل أيضا لقيادات البلدان النامية بطبيعة الحال ، حتى أن تعريفا حيويا فى عالمنا المعاصر مثل تعريف الثورة أصبح يضع فى الاعتبار اضافة قضية التنمية اليه (٤) . ولقد كان تقييم الاستراتيجية الدولية للتنمية من أبرز القضايا التى تعرض لها مؤتمر القمة الرابع لرؤساء دول وحكومات البلدان غير المنحازة (١٩٧٣) ، وقد أولى النص الأساسى الذى أصدره المؤتمر أهمية خاصة لتقييم الاستراتيجية الدولية للتنمية (٥) . وذكر النص أن العالم النامى الذى يضم ٧٠٪ من عدد سكان العالم يعيش على ٣٠٪ فقط من الدخل العالمى . كما أن هناك مليارين وستمائة مليون من سكان العالم النامى . منهم ثمانمائة مليون أميون وحوالى مليار يعانون من سوء

التغذية والجوع وحوالى تسعمائة مليون يقل بينهم الدخل اليومى المفرد عن ثلاثين سنتا (مقدرة بالدولار الامريكى) .

كما ذكر التقييم أسباب فشل الاستراتيجية الدولية للتنمية متمثلة فى موقف، حكومات بعض البلدان المتقدمة ، وكذلك تصرفات المؤسسات الأجنبية والشركات الاحتكارية الاخرى التى تستفيد من نهب ثروات البلدان النامية والتى لم تسهم فى خلق الظروف الاقتصادية الخارجية التى تتمشى مع أهداف الاستراتيجية الدولية للتنمية ، بالاضافة الى الارتفاع الذى يبلغ حد التضخم لتكاليف الواردات ، والضغوط التى ترزح تحتها موازين المدفوعات نتيجة للتحويلات التى تفرضها الاستثمارات الخاصة الأجنبية ، وكذا تسديد الديون الأصلية وأعباء الدين الخارجي وارباحه بالاضافة الى الآثار الخطيرة لأزمة النقد الدولية . ومتمثلة أيضا فى السباق نحو التسليح وغزو الفضاء الذى يبتلع مبالغ هائلة ، فى الوقت الذى تتناقص فيه حجم مساعدات التعاون الدولى المتعددة الاطراف بالقياس الى التزايد المطرد لاحتياجات البلدان النامية .

وقال التقرير ان هناك عديدا من المشروعات تهدف الى افادة البلدان النامية بطريقة منظمة من نتائج البحوث العلمية والتقدم التكنولوجى . بيد انه لم يبدأ تطبيق هذه المشروعات بجدية فى الوقت الذى تستأثر فيه البلدان المتقدمة الغربية بعدد كبير من الكفاءات (الكوادر) العليا (العلا) فى المجالات العلمية والفنية التى نزحت اليها من البلدان النامية .

وجاء فى ختام التقرير ما يمكن تسميته نقدا ذاتيا للعالم النامى بأنه لن يتسنى تحقيق الاهداف المتعلقة بالتقدم المرجو الا اذا وجد مفهوم سليم للتنمية ينطلق من تغيير الدعائم الداخلية اللازمة والخاصة بكل بلد ويشمل نمو القطاعات الأساسية فى مجموعها . مثل هذا الاجراء لا يمكن فصله عن اجراء آخر ذو طابع اجتماعى ينطوى على رفع مستويات العمالة الى الحد الأقصى واعادة توزيع الدخول . وايجاد حلول شاملة للمشكلات الحيوية ، وأهمها الصحة والتغذية والاسكان والتعليم . ويبدو جليا أن هذه الأهداف لا يمكن تطبيقها

بغير اسهام واع ديمقراطى من جانب الجماهير • وهذه هى العوامل الأساسية فى أى جهد قومى يستهدف تحقيق تنمية ديناميكية وفعالة ومستقلة •

نخلص من تقرير الدول غير المنحازة للاستراتيجية الدولية للتنمية بأنها مشكلة عالمية • ولكن أليست هى مشكلة مصرية محلية اذا نظرنا اليها من زاوية الرؤية التاريخية للمجتمع المصرى قبل ثورة يولية ١٩٥٢ ثم من الرؤية التاريخية لنكسة ١٩٦٧ ثم من الرؤية التاريخية للمد الجماهيرى بعد أكتوبر ١٩٧٣ ؟

لقد قرأنا كثيرا عن تحليل القوى الاجتماعية فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ وقرأنا كثيرا عن العلاقات الاجتماعية السائدة آنذاك ، ولكننا نوجز وصف مجتمع ما قبل الثورة فى حديثنا عن التنمية فى سطور قليلة أوردها الرئيس السادات فى خطابه يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٤ فى الذكرى الرابعة لوفاة عبد الناصر حيث يقول :

« كانت الصفة الثانية لهذا المجتمع الذى ورثناه هى ضآلة معدل النمو ، بل اكاد أقول انعدامه تماما ، فى نفس الوقت الذى يتزايد فيه السكان زيادة لا مثيل لها تقريبا فى العالم • فى عهد الثورة فقط زاد السكان فى مصر الى الضعف تماما ، الأمر الذى كان يهدد بانفجار اجتماعى وطبقى حاد ، لو لم تسبق الثورة الى وضع قوانينها وتحقيق منجزاتها • وكانت الصفة الثالثة لهذا المجتمع الذى ورثناه هى ظهور بدايات هذا الانفجار الاجتماعى الذى تمثل فى كثير من الاحداث العنيفة التى سبقت الثورة ، فى الريف وفى العاصمة على السواء • وكان الحل الأول هو حشد الجهد القومى من أجل التنمية ، وكان الحل الثانى هو اتخاذ اجراءات عاجلة كالاصلاح الزراعى لتغيير خريطة السلطة السياسية والاجتماعية فى البلاد ، ولاعادة توزيع الثروة توزيعا عادلا ، ثم قوانين التمصير ، ثم اقامة القطاع العام ، ثم قوانين العمل من تحديد الأجور الى اشراك فى الارباح ومجالس الادارة الى التأمينات الاجتماعية وغيرها •

ولقد كان الحوار عقب النكسة عام ١٩٦٧ حول مفهوم الدولة العصرية تعبيرا عن ادراك الشعب المصرى وصفوته المثقفة على وجه الخصوص بأن التنمية هى العامل الحاسم فى احراز النصر • ذلك الحوار

الذى اطلق شرارته الكاتب المصرى أحمد بهاء الدين(٦) • وذهب فيه الى القول بأن قضيتنا مع اسرائيل ليست قضية عسكرية وحسب ، وانه قد نشتبك مع اسرائيل عسكريا عدة مرات ولكن الصراع العسكرى جانب فقط من الصورة الشاملة للصراع ، وان معركتنا مع اسرائيل معركة حضارية مع الغرب المتقدم القوى • وان اقامة مجتمع عصرى سليم متحضر • ودولة عصرية حديثة • هى المعركة التى تحسم هذا الصراع فى مداه الطويل • وقوله بأن من الاوهام التى انتشرت بيننا جميعا ونحن نسعى للحاق بالعصر الحديث وتحدياته انه يكفى ان نشترى « معدات » العصر الحديث •• من آلات ومصانع وأدوات لكى نصبح دولا حديثة ومجتمعات حديثة • ومن المهم جدا ان نعرف الآن أن اقتناء هذه الادوات ليس كل شىء • ان هذا يذكره بخيمة فاخرة يمتلكها بدوى عربى ثرى زارها منذ سنوات • اذا دخلت الخيمة وجدت فيها أدوات العصر الحديث • أكثر من ثلاجة وأكثر من جهاز تكييف وأنواع الراديو الترانزستور وأجهزة العرض السينمائية وكل ما يخطر على البال من معدات وأدوات أخرجتها مصانع أوروبا • دخل هذا كله على حياة البدوى صاحب الخيمة التى أصبحت خيمة فاخرة مصنوعة بدورها فى الخارج • ولكن البدوى صاحب الخيمة نفسه كما هو لم يتغير عقلا ولا منطقا ولا أسلوب حياة •

ليست القدرة على اقتناء أدوات العصر الحديث المادية المصنوعة اذن هى العصرية فهناك قبل ذلك سؤال : ماذا نقتنى وماذا لا نقتنى ؟ ثم هناك قبل ذلك : أن تتحول الادوات فى الايدى العربية الى أدوات خالقة ، لا أدوات صماء • العصرية اذن هى فى الانسان ، فى العادات والتقاليد والاخلاقيات ، فى العلاقات الاجتماعية ، وفى تنظيم العمل وفى دفع ضريبة التنظيم العصرى • والتنظيم ليس معناه كما يفهم أحيانا من الكلمة حشد الناس فى صفوف وطوابير بل من معناه توزيع المسئولية وتحديد الاختصاص واعطاء حق المبادرة فى دائرة هذا الاختصاص على ان يدور العمل كله بعد ذلك بانسجام تلقائى •

والتنظيم بهذا المعنى ليس بديلا عن الاسلوب الديمقراطى فى العمل، فجزء من التنظيم الحى ، ان تنظم عملية التعبير عن الآراء وتتلاقى الخبرات لاستخلاص أسلم الآراء من مزيجها كله ، دون أن يغفل هذا سرعة البت والحسم اللازمة فى المجتمع العصرى •

ان المواطن (الآن) ١٩٦٧ ، في حالة استعداد للتضحية من أجل تجاوز النكسة والانتصار عليها . ولكن التضحية ليست فقط بجزء من المال ، أو بالاستشهاد والموت . أحيانا تكون التضحية بالموت أسهل من التضحية بقبول شروط العصرية والعلمية ومتطلباتها ودفع ثمنها . وهذا ما نحتاج اليه أيضا . والتضحية بقبول منطق المجتمع العصرى والدولة العصرية ، قد يكون أصعب من التضحية بالنفس ، لانها تضحية مستمرة بطيئة — يومية ، يدفعها المرء من تغيير أفكاره وعاداته ومن وضعه الشخصى ومن امتيازاته التى يود الاحتفاظ بها .. الى آخره . ان بقاء أوضاع تقوم على الطائفية أو على خلافات مع اقليات قومية كما نرى فى بعض البلاد العربية مثلا ، ليس مما يناسب الدولة العصرية والمفاهيم العصرية . ان ما نراه من تبعثر جماعات سياسية الى شراذم ، اذا قرأت برامجها وأفكارها لم تجد بينها خلافا ، انما الخلاف شخصى يزكيه الطموح الشخصى ، أو عدم الرغبة فى التفاهم والتنازل ، ليس وضعا عصريا يناسب حياة سياسية عصرية ، عليها أن تتخطى العقد والرواسب القبائلية لتتفرغ لما هو أهم .

ان ما يسود فى الحياة العربية من تقديم الشخصية على الموضوعية ، ومن الدور الكبير الذى تلعبه المعرفة والعلاقة الشخصية والالفة الفردية فى وضع الناس فى هذا المكان أو ذلك ، قبل الصفات الاجتماعية والموضوعية ومدى الالتزام بالقضية ليس جوا يناسب دولة عصرية ، فهو لا يضع الفرد حيث يقدر وحيث يستحق ، وبالتالى لا يجعل البلاد العربية تستفيد من كفاياتها الحقيقية ، فوق أنه ينمى صفات الزلفى والتملق وحاجة كل فرد الى أن يحمى نفسه باتصالاته لا بعمله ، الامر الذى ينطوى على انعكاسات سلبية خطيرة .

ولو تأملنا ، مثلا هذا الفاقد الهائل فى الخبراء والفنيين فى شتى الفروع السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية ممن أخرجتهم من بلادهم أو أعمالهم أراء نادوا بها ، أو موجات السياسة فى شتى البلاد العربية . وكل منهم أنفقت عليه بلاده آلاف الجنيهات ، وعشرات السنين حتى يتكون . لو تأملنا هذا العدد الهائل لتصورنا هول الخسارة » .

مما سبق نرى أن التنمية مشكلة عالمية • وانها مشكلة عربية • وانها مشكلة مصرية ايضا • أليست هى مشكلة عربية اذا نظرنا الى جغرافية المنطقة والى تاريخ المنطقة والى مستقبل المنطقة المشترك ؟ ان الواقع العربى المتناقض والذى يتمثل فى أموال بترولية هائمة على وجهها فى بنوك الغرب ، وفى نقص شديد لدى بعض العرب فى تمويل مشروعات التنمية ، وفى هجرة عربية فى الوقت الذى تعانى فيه أقطار عربية من نقص الطـاقة البشرية لتنفيذ مشروعات التنمية •• ! ان الواقع العربى المعاصر بعناصره وبتناقضاته وخصائصه يؤكد أن التنمية قضية عربية •

والسؤال الذى يفرض نفسه هو : هل هناك تعارض بين قولنا بأن التنمية مشكلة عالمية ومشكلة مصرية ومشكلة عربية ؟ أم أنها تؤدى الى قضية واحدة ؟

ولعل أصدق اجابة توازى الاجابة على سؤالنا ، تلك التى عرضها الرئيس الجزائرى هوارى بو مدين على الصحفى المصرى لطفى الخولى بقوله :

« ان جميع القضايا فى خضم الحياة مرتبطة بعضها ببعض وتتبادل التأثير دوما فيما بينها ، سواء أكانت قضايا محلية أو عربية أو دولية ، فكرية أو عملية • العـالم اليوم — بثورة العلم والتكنولوجيا وبالتقدم الهائل فى وسائل الاتصال — أصبح قرية لا يقع اليوم حادث فى العالم شرقا أو غربا فى أى مكان حتى ولو كان فى جزيرة تاهيتى أو دويـلة « لوكسمبرج » الا ويدخل فى نفس اللحظة (لعله يقصد الوقت أو اليوم) الى بيوت الناس من خلال التليفزيون أو الاذاعة أو الصحف • الحواجز بين القارات وبين الدول سقطت بقوة تطور الحياة »(٦) •

ونلاحظ على ضوء هذا القول ان الاعلام طرف فى قانون علمى هو قانون ترابط عناصر الحياة ، لان وسائل الاتصال الجماهيرية استطاعت أن تحقق اللحظة العالمية •

ويرتبط الاعلام بتقدم المجتمعات المتخلفة فى صـورة تغيير عقول المتخلفين ونفوسهم لتصبح راغبة فى التنمية • وفى صورة تنوير جوانب الحياة بالمعلومات الصحيحة والافكار النافعة ليلتقى التنوير الداخلى فى الناس بالتنوير الخارجى لقضايا الناس •

هذا الارتباط بين الاعلام والتنمية لا يقف عند بداية التنمية ، وانما يواكب مراحل التقدم المختلفة .

ان المراحل — على حد تعبير بريجنسكى — مجرد تجريد تاريخى . وهى أيضا للراحة الفكرية . فالمقصود بها أن تكون علامات طريق تتغير فى فترة من الزمن بشكل غير محسوس ، ولكن بدرجة عميقة أيضا . وانه لمن الصعب القول متى تنتهى مرحلة وتبدأ أخرى ، فلا النهاية ولا البداية يمكن تحديدها بوضوح قاطع ..

ففى العقد الثامن من القرن العشرين بدا واضحا ان معظم البلدان الصناعية المتقدمة ، وعلى وجه الخصوص ، الولايات المتحدة الامريكية آخذة فى الخروج من المرحلة الصناعية فى تطورها . وأن العصر الجديد تصبح فيه التكنولوجيا وبوجه خاص « الاليكترونيات » أكثر العوامل الرئيسية التى تحدد التغير الاجتماعى . ولقد استخدم « دانيال بل » تعبير المجتمع ما بعد الصناعى لوصف هذه المرحلة الجديدة فى التنمية . ولكن بريجنسكى Bregezinski استخدم تعبير المجتمع « التكنترونى » Technetronic وذلك فى كتابه « بين عصرين » — Between Two Ages America's Role In The Technetronic Era

ويقول بريجنسكى(٨) ان التحول الحادث الآن (١٩٧٠) وبالذات فى أمريكا ، يخلق بالفعل مجتمعا يزداد اختلافا عن سلفه الصناعى . ان المجتمع ما بعد الصناعى يصبح مجتمعا تكنترونيا ، أى مجتمعا يشكله ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا تأثير التكنولوجيا والالكترونات . وبوجه خاص فى مجال العقول الاليكترونية والاتصالات .

ان الحياة تبدو مفتقرة الى التماسك عندما تتغير البيئة بسرعة ويصبح البشر أكثر عرضة للتطويع والتشكيل . كل شىء يبدو أكثر انتقالية ومؤقتا . الواقع الخارجى يميل الى السيولة أكثر من الصلابة والانسان يبدو مصنوعا أكثر من كونه أصيلا . حتى مشاعرنا تدرك « واقعا » جديدا كليا ، واقعا من صنعنا ومع ذلك فبمقاييس مشاعرنا حقيقى تماما .

وعندما يتعرض بريجنسكى للمجتمع القادم فى التكنوترونية يقول : بدلا من أن يقبل الانسان ذاته وباعتباره هكذا جاء ، قد يصبح فى معظم المجتمعات المتقدمة أكثر اهتماما بأن يدرك تحليله النفسى الذاتى حسب المقاييس الخارجية ، وبيانات محددة : ما هو معـدل ذكائى ؟ ما هى استعداداتى الداخلية وسمات شخصيتى وقدراتى ؟ وجوانب الجـاذبية عندى ؟ والصفات السلبية ؟ وسيواجه هذا « الانسان الداخلى » الذى كان يقبل عفوية ذاته بشكل عفوى ، سيـواجه أكثر فأكثر تحـدى « الانسان الخارجى » وسيسعى وهو واع وراء صورته الواعية . ويقول : سيعيش الانسان بشكل متزايد فى بيئة هى من صنع الانسان وتتغير بسرعة بيد الانسـان . وعند نهاية هذا القرن (عام ٢٠٠٠) سيعيش ثلثـا الناس تقريبـا فى البلدان المتقدمـة فى مدن . ان النمو الحضرى كان حتى الآن نتاجا جانبيا للسعى العفوى وراء الراحـة الاقتصادية ، ولقوة الجذب المغناطيسية لمراكز السكان ، ولفرار الكثيرين من الفقر واستغلال الريفيين . لم يكن ذلك مخططا بشـكل ارادى لتحسين نوعية الحياة . ولان تأثير هذه المدن العرضية يساهم بالفعل فى عملية القضاء على شخصية الحياة الفردية اذ تتقلص البنية العائلية ويصبح من الصعب الاحتفاظ بعلاقات صداقة متينة وثابتة .

ويضيف بريجنسـكى قائـلا انه فى العصر التكنترونى يتعـرض المجتمع الى انهيار الاتصالات بين الاجيال لعدم ملاءمة الرموز القديمة لكثير من الشباب ، فالجدل يتطلب القبول باطار عام يمكن الرجوع اليه وبلغة مشتركة ، وفى غيبة هذا الاطار يصبح الحوار مستحيلا ، ويرى انه فى المستقبل سيتحول صراع الاجيال من صراع قيم الى صراع خبرة بسبب ازدياد الوسائط الاليكترونية والتجـديدات المستمرة . ولكن بينما يأخذ واقع الانسان المتقدم فى القرن الحادى والعشرين فى التفتت يقول بريجنسكى ان الواقع العالمى سيمتص الفرد بشكل متزايد . ويشركه معه ، وقد يطغى عليه أحيانا . وهو يرى ان الاعلام وراء ذلك . لان التغييرات التى احدثتها الاتصالات والعقول الالكترونية تؤدى الى مجتمع متداخل النسيج بشكل غير عادى فأعضاؤه على صلة سمعية — بصرية وثيقة ومستمرة ، يتفاعلون باستمرار ويتشاطرون فى نفس اللحظة أكثر الخبرات الاجتماعية حدة وهو مجتمع يحث على زيادة الانغماس الشخصى حتى فى أكثر المشاكل بعدا عن الفرد . ان الجيل الجديد لم

يعد يعرف العالم بشكل محدد على اساس القراءة ، ولا على أساس التحليلات المبنية ايدلوجيا ولا على أساس الوصف الشامل ، ان هذا الجيل يمارس ويشعر بالعالم من خلال الاتصالات السمعية — البصرية • هذا الشكل من الواقع القائم على الاتصالات ينمو — وبوجه خاص فى البلدان المتقدمة • بسرعة أكبر مما كان عليه الواقع القائم على الوسائط التقليدية ، المكتوبة • وقبل العقد الأخير من القرن العشرين لن تصبح المسافات مبررا لتأخر المعلومات فى أى جزء من العالم الى المراكز العصبية الحضرية القوية التى ستشكلها المراكز الكبرى من الناس على ظهر الارض • وسيؤدى التليفزيون الاتوماتيكى العالمى الذى سيتضمن فى الدول الاكثر تقدما اتصالا مرئيا مباشرا ، وايضا نظام التليفزيون العالمى عبر الاقمار الصناعية ، سيؤدى ذلك ليكون فى مقدرة بعض الدول غزو المنازل الخاصة فى بلدان أخرى مما سيخلق نوعا من العلاقات الحميمة العالمية لم يسبق لها مثيل • وذلك عندما تتمكن الاقمار الصناعية من حمل الطاقة الكافية لبث برامج تليفزيونية مباشرة لاجهزة الاستقبال دون محطات وسيطة تستقبل وتبث ثانية (كما هو الآن) •

ان الواقع الجديد مع ذلك لن يكون شيئا «كالقرية العالمية» ان المقارنة المثيرة التى عقدها ماكلوهان ستصبح شيئا تاريخيا • فهناك مقارنة أخرى أكثر ملاءمة هى تلك الخاصة « بالمدينة العالمية » المتوترة العصبية والمستثارة وخيث شبكة مفتتة من علاقات الاعتماد المتبادل • ومع ذلك من الافضل وصف هذا الاعتماد المتبادل بأنه تفاعل متبادل لا بأنه علاقة حميمة • ان الاتصالات الفورية تخلق الان بالفعل ما يشبه جهازا عصبيا عالميا • وسيصبح توقف هذا الجهاز العصبى بين حين وأخر بسبب انقطاع الطاقة أو الانهيارات مظهرا من مظاهر الاضطراب ، لسبب محدد هو أن الثقة المتبادلة فى القرية ، لن تكون موجودة فى العملية الخاصة بالتفاعل « العصبى » •

ان انغماس الانسان بعمق فى الشئون العالمية ينعكس ، كما يتشكل بلا جدال فى التغيير الذى حدث فيما كان يوصف ويعتبر حتى الان

بالاخبار المحلية ، فالتليفزيون قد لحق بالصحف فى توسيع الآفاق المباشرة للمشاهد أو القارىء الى الدرجة التى جعلت كلمة محلية تعنى بشكل متزايد كلمة قومية • وفى الوقت نفسه تسعى الشئون العالمية لجذب الانتباه لدرجة لم يسبق لها مثيل • ان المناعة المادية والمعنوية ضد الاحداث الخارجية لم يعد من الممكن المحافظة عليها بشكل فعال جدا فى ظل ظروف ينمو فيها الادراك الفكرى للاعتماد المتبادل علميا ولنفاذ الاحداث العالمية الى داخل البيوت الكترونيا •

وهكذا نرى مدى الترابط بين قضية الاعلام وقضية التنمية فى كافة المجتمعات •

هوامش التمهيد

(١) خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى الدورة الخامسة عشر أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٩٦٠/٩/٢٧ .

ملاحظة : اعتمدنا فى هذا البحث على عدد من خطب الرؤساء وبياناتهم واستشهدنا بفقرات من ذلك ، ليس من باب المجاملة ، ولا من باب اضفاء صفة التأكيد . ولكن لأن الرؤساء والملوك فى العالم الثالث هم مصدر الاتجاهات والسياسات فى أوطانهم .

(٢) القامشلى قرية فى شمال سورية ، علما بأنه فى سنة ١٩٦٠ كانت الجمهورية العربية المتحدة تضم اقليمى مصر وسوريا .

(٣) خطاب الرئيس محمد حسنى مبارك فى الأمم المتحدة فى ١٩٨٥/٩/٢٥ .

(٤) فى حديث الرئيس الجزائرى هوارى بو مدين الى لطفى الخولى (أنظر الأهرام بتاريخ١٨/١٠/١٩٧٤) يعرف الرئيس الجزائرى الثورة بأنها التغيير الاجتماعى الشامل ، والتنمية الاقتصادية المستقلة المكثفة ، والنقلة الحضارية العصرية والانحياز للانسان العامل لا للانسان المستغل .

(٥) مؤتمر القمة الرابع لرؤساء دول وحكومات البلدان غير المنحازة ، الجزائر ، ٩ سبتمبر سنة ١٩٧٣ النصوص الأساسية . تصريحات ، برنامج من أجل التعاون الاقتصادى . مع ملاحظة أن العالم النامى أو العالم الثالث تتزايد نسبته عدديا كل عام ويقل نصيبه من الدخل العالمى فى كل عام .

(٦) أحمد بهاء الدين — مطلوب دولة عصرية — مجلة المصور بتاريخ ١٩٦٧/٧/٢٨ ثم بتاريخ ١٩٦٧/٨/١١ وبتاريخ ١٩٦٧/٨/١٨ .

(٧) حوار الرئيس الجزائرى هوارى بو مدين مع لطفى الخولى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٧٤/١٠/١٨ .

(٨) زبغنيو بريجنسكى — بين عصرين ، أمريكا والعصر التكنترونى (ترجمة وتقديم محجوب عمر) — الطبعة الأولى — دار الطليعة للطباعة والنشر — بيروت — ١٩٨٠ ص ٢٩ الى ص ٣٨ .

الفصل الأول

التنمية الشاملة

ما المدخل الذى سنسلكه لندرك المفهوم المعاصر للتنمية ؟

اذا أخذنا بالقول الحكيم بأن نأتى الأمور من أبوابها فلابد لنا من أن نسعى الى تعريف محدد للتنمية • وأن نجيب على سؤال محدد هو : ما المفهوم المعاصر للتنمية ؟ فلم يعد هذا السؤال سؤالا أكاديميا يناقش فى الجامعات ومراكز البحث العلمى وحسب • ولكنه أصبح سؤال الجماهير فى كافة بلدان العالم الثالث • وقد يبدو السؤال بسيطا غاية البساطة لأنه من السهل أن تشير الى خطط الشعوب فى التنمية ، ولكن من الصعب أن تضع تعريفا لها • وقد يبدو السؤال صعبا نظرا لترابط وشمول عناصر التنمية ، فتبدو أحيانا وكأنها تشمل كافة نواحى الحياة • وتصبح التنمية أمام الناس مثل الفلسفة عندما كانت تسمى أم العلوم •

على أية حال لابد لنا أن نبدأ الأمر من بابه فنطرق تعريف التنمية أولا •

تعريف التنمية :

يعجبنى البدء فى كتب التراث العربى بالمعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى للعلوم عند تناولها • ان البحث فى أصول الكلمات متعة للمتخصص والقارىء ، لأنه بحث مثير ومشوق • وتتبع تطور الكلمة والتغيير الذى طرأ على معناها لدى الأجيال أشبه بتتبع شخصية روائية تدفعها الأحداث الى تغيير معتقداتها ومواقفها تغييرا قد يكون جذريا أو يشبه التحول الكبير ، نضرب لكم مثلا بكلمة ملتزم • كان الملتزم فى مصر أيام حكم محمد على هو ذلك المتسلط الفاحش الثراء والسلطة

الذى يدفع للدولة مبلغا من المال نظير قيامه بجباية الضرائب من السكان مستخدما القوة الجبرية فى تحصيل الضرائب ، ولكن الملتزم فى مطلع القرن العشرين كان فى عرف العامة هو القادر على الانفاق بغير عناء . فكانت الخاطبة عندما تزكى عريسا لدى أهل فتاة تصفه بأنه رجل ملتزم ، أى أنه لا يعانى عسرا ماديا ، وان أموره المالية طيبة . أما الملتزم فى عرف الجيل الذى تكون فكره السياسى والاجتماعى من خلال ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ فهو المناضل السياسى المؤمن بقضية العدل الاجتماعى . لذلك نسعى الى تتبع المعنى اللغوى للتنمية قبل أن نقف على المعنى الاصطلاحى لها .

لو بحثنا فى قواميس اللغة العربية (١) لوجدنا أن تنمية الشىء تعنى ارتفاعه من موضعه الى موضع آخر . ونما المال بمعنى زاد وكثر . ولكن مدلول التنمية فى لغتنا المعاصرة لا تكفيه هذه المعانى ، ونلاحظ أن كلمة التنمية الاقتصادية والاجتماعيةوالثقافية من أكثر الكلمات تداولا فى لغه السياسية والصحافة المعاصرة (٢) وخاصة فى الدول النامية ، كحل لا بديل عنه فى مواجهة المتطلبـات القومية فى ميدان الانتـاج والخدمات . ولتحقيق ما تكون به الدولة متقدمة بالمفهوم السائد فى هذا العصر ، وبالمعايير السياسية والفكرية والاجتماعية العالمية . ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كما يبرزها الاعلام اليوم تعنى من الناحية الحضارية تغييرا أساسيا فى كل أنماط الحياة السائدة . ويتبع هذا تغير نوعى وكمى فى صور العلاقات الاجتماعية فى كافة مجالات النشاط البشرى فى المجتمع . وهذا يعنى ان تنمية المجتمعات المتخلفة هو نقلها من حالة أو مستوى الى حالة أو مستوى أفضل ومن نمط تقليدى معين الى نمط متقدم كما ونوعا .

وقد أطلق علماء الخدمة الاجتماعية على تنمية المجتمع لفظ خدمة المجتمع ، واعتبروها احدى طرق الخدمة الاجتماعية .

وعرفت الأمم المتحدة تنمية المجتمع عدة تعريفات منها :

(أ) العملية المرسومة لتقدم المجتمع كله اجتماعيا واقتصـاديا ، والمعتمدة بأكبر قدر ممكن على مبادرة المجتمع المحلى واشتراكه .

(ب) العمليات التى يمكن بها توحيـد جهود المواطنين والحكومة لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى المجتمعات المحلية ولمساعدتها على الاندماج فى حياة الأمة والمساهمة فى تقدمها بأقصى قدر مستطاع •

(ج) تدعيم المجهودات ذات الأهمية للمجتمع المحلى بالمجهودات الحكومية ، وذلك لتحسين الحالة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية لهذا المجتمع ، على أن تكون خطط الاصلاح بهذه المجتمعات المحلية متمشية ومنسجمة مع خطط الاصلاح العامة للدولة •

كما وضع الاستاذ صلاح الفوال تعريفا للتنمية على الوجه التالى : التنمية هى محصلة الجهود العلمية المستخدمة لتنظيم الأنشطة المشتركة ، الحكومية والشعبية ، فى مختلف المستويات لتعبئة الموارد الموجودة أو التى يمكن ايجادها لمواجهة الحاجات الضرورية وفقا لخطة مرسومة وفى ضوء السياسة العامة للمجتمع •

وبرغم فضل هذه التعريفات جميعا فى السبق الا أننى أرى أنهـا قاصرة عن المصطلح الذى نقصدة الان لمعنى التنمية • واننى أضع أمامكم محاولة من جانبى لتعريف التنمية بأنها :

زيادة محسوسة فى الانتاج والخدمات شاملة ومتكاملة مرتبطة بحـركة المجتمع تأثيرا وتأثرا مستخدمة الأساليب العلمية الحديثة فى التكنولوجيـا والتنظيم والادارة •

يبقى لنـا بعد ذلك أن نتصـور التنميـة كمثلث متسـاو الأضلاع يعبر كل ضلع من أضلاعه عن أبعادها الثلاثية : الاقتصادية والاجتماعية والثقافية • مع التأكيد على أن ما نقصدة بالبعد الاجتماعى ليس بالمعنى المدرسى أو الأكاديمى للاجتماع والمجتمع ولكن بالمعنى الشمولى المعبر عن حركة الجماهير •

التنميـة الاقتصـادية :

شبيه بقولها فى الانسان بأنه صانع التنمية وهدفها نقول أن التنمية الاقتصادية هى قطب الرحى فى التنمية الشاملة • وأساس تعريفنا للتنمية بأنها « زيادة محسوسة فى **الانتاج والخدمات** » يعكس أهمية وضرورة الاقتصاد كعصب للتنمية الشـاملة وعمودها الفقرى فى نفس الوقت •

والتنمية الاقتصادية على حد تعبير الدكتور عمرو محيى الدين هى ثورة العالم الثالث ضد الفقر والبؤس والتخلف بصفة عامة • ولقد ظفرت المكتبة الاقتصادية خلال النصف الثانى من القرن العشرين بسيل من الكتابات الاقتصادية حول التنمية ، وكأن أساتذة الاقتصاد قد اكتشفوا فجأة حقلا جديدا يصولون فيه ويجولون • ولكن حقيقة الأمر أن بروز العالم الثالث ومشكلاته الاقتصادية التى لا تعيش بعيدا عن ظروفه الاجتماعية والثقافية جعل الموضوع ساخنا • ولقد طرح المفكرون الاقتصاديون الغربيون حلولا للمشاكل الاقتصادية التى تواجهها التنمية فى العالم الثالث ، ولكنهم كانوا مقيدين فى حلولهم وافكارهم بالاطار النظرى التقليدى للفكر الاقتصادى الرأسمالى • هذا الفكر التقليدى أثبت عجزه وعدم نفعه للعالم الثالث برغم تناسقة المنطقى وتجريده • وعلى الجانب الآخر طرحت الماركسية بتطبيقاتها السوفيتية والصينية حلا شاملا وذاتيا للانتقال من التخلف الى التقدم • ولكن الاختلاف الشديد فى الظروف تاريخيا وجغرافيا ودوليا بين تجربة السوفيت وتجربة الصين من جانب وبين تجارب الدول الحديثة الاستقلال من جانب آخر لا يبيح التطابق أو التشابه وانما يبيح مجرد الاستفادة بما يتوافق مع طبيعة الاقتصاد النامى فى بلدان العالم الثالث والظروف الموضوعية لهذه البلدان •

ومن هنا يبرز دور أساتذة الاقتصاد من أبناء العالم الثالث الذين يستطيعون الفكاك من التراث الدراسى التقليدى • ويخلقون الاطار الفكرى الملائم لواقعهم الاجتماعى • وهذا هو الجدل الرائع للجديد وهو ينبع من قلب القديم ، وما تبشر به كتابات العناصر غير الواجفة من أساتذة الاقتصاد ، وهم يصنعون اطارا فكريا لمشاكل التنمية الاقتصادية يرتبط بالعالم الثالث ويعكس ظروفه وطموحه •

ولقد كانت الأسئلة المثارة — على سبيل المثال — فى انجلترا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر (٣) هى : ما هو السبب وراء ارتفاع الأسعار ؟ كيف تؤثر القيود على التجارة وعلى مستوى الأسعار ؟ كيف تؤثر حركة الاسعار على نصيب الفئات من الناتج القومى؟ كيف يؤثر توزيع الناتج على عمليتى نمو وتطور الاقتصاد القومى ؟ وما هى العلاقة بين نمو الثورة ونمو السكان ؟ هذه هى بعض الاسئلة التى ظهرت فى انجلترا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن

التاسع عشر ، حين كانت تمر بما هو معروف اليوم تاريخيا باسم « الثورة الصناعية » ولقد أثمرت محاولة الاجابة على هذه الأسئلة بناء فكريا هو الاقتصاد الكلاسيكى البريطانى British classical Economy ويكفى فى هذا المجال أن نحاول الربط بين آراء آدم سميث (١٧٢٣ — ١٧٩٠ م) فى تقسيم العمل وسعة الأسواق ونظرية « ريكاردو » فى القيمة وتوزيع الناتج القومى ، ثم نربط الاثنين بنظرية « مالتس » فى السكان ، وتكون النتيجة بناءا فكريا متكاملا للنمو الاقتصادى •

واذا نظرنا الى واقعنا العربى فى الربع الأخير من القرن العشرين نجد أن أسئلة مختلفة مثارة منها : كيف ألبى بمواردى القليلة احتياجاتى المتزايدة ؟ أى نظرية من الفكر الاقتصادى أنفع لواقعى ؟ كيف نوائم بين الأجر وبين أسعار السوق ؟ هل الوحدة الاقتصادية العربية أو التكامل الاقتصادى أو السوق العربية المشتركة هى البداية أم هى المحصلة ؟ بأى الصناعات أبدأ ؟ هل القروض تدفع عجلة التنمية دفعا حقيقيا أم زائفا ؟ هـل أفتح باب الهجرة للعمـال والعقول العرب أم أضيق فتح الباب ، كيف نتوسع فى سياسة الانفتاح دون أن نغرق فى التضـخم والاستهلاك ؟ كيف أوازن بين الخدمات والانتـاج والمواليد ؟ مـاذا للقطاع العام وماذا للقطاع الخاص ؟ ما هو الاستثمار الأمثل لعائدات وفوائض البترول والمال العربى ؟ •

من هذه الأسئلة ومحاولة الباحثين الاقتصادين الرد عليها يتشكل مفهوم التنمية الاقتصادية واطاره العلمى والتطبيقى •• علما بأن لأساتذة الاقتصاد العرب اجاباتهم القيمة فى هذا السبيل ، وعلما بأن تجـارب التنمية العربية أظهرت رصيدا من النجاح والفشل يمكن تقييمه والافادة منه ، ومن دوران وديناميكية معالجة هذه الأسئلة وغيرها تجسد التنمية الاقتصادية حقيقة حية •

التنمية الاجتماعية :

ان التنمية الاجتماعية لا تقف فى رأيى عند مفهومها القديم فى خدمة البيئة، كاقامة معسكر للشباب فى قرية لردم بركة، أو تشجير طريق على ترعة، وانما البعد الاجتماعى للتنمية يشمل تحليل القوى الاجتماعية السائدة فى المجتمع ، وطبيعة السلطة ، ونظرية الحكم ، ومدى مشاركة الجماهير فى صنع القرار ، ان الجانب السياسى برمته جزء من البعد الاجتماعى

للتنمية . ثم الجانب الموروث فى عادات المجتمع وتقاليده والحوار بين قديمة وجديده ، ووضع المرأة فى المجتمع . ثم الشخصية القومية وابعادها كل ذلك يمثل لنا معنى التنمية الاجتماعية .

وتتفق الدكتـورة عليـه حسـن (٤) مـع هوبهـوس Hobhouse فى أن المقصود بالتنمية الاجتماعية نمو العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وبين الجماعات فى المجتمع على أسـاس ان المجتمع هو مجموعة من الأفراد والجماعات تسود فيما بينهم علاقات اجتماعية . فوجود الانسان فى المجتمع يفرض عليه الدخول فى علاقات اجتماعية مع غيره من أفراد المجتمع .

ويعرف روجرز التنمية فى منتصف العقد الثامن من القرن العشرين بأنها عملية مشاركةفى التغير الاجتماعى بهدف احداث تقدممادى واجتماعى بما فى ذلك زيادة فى المساواة والحرية وغيرها من الحقوق لغالبية الشعب فى المجتمع من خلال التحكم فى البيئة بشكل أفضل . وعدل روجرز وولبور شرام تعريفهما للتنمية ليصبح « عملية تغيير مقصود نحو النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى تحتاجه الدولة (٥) .

وعندما تذكر كلمة اجتماعى الى جانب التنمية فانها تعنى نمـوا اجتماعيا أى أن عملية النمو هذه تعنى نمو العلاقات الاجتماعية ، فعملية التنمية عملية تغيير شامل للقوى الاجتماعية وغير الاجتماعية تسير فى اتجاة محدد لتحقيق أهداف محددة متفق عليها . وبناء على ذلك فهى عملية تغيير اجتماعى مقصود حيث تتضمن الطبيعة الغائية للتغيير . كما انهافى الوقتذاته عمليةتغير حر تتضمن الطبيعة التلقائية. فهى اذن عبارة عن عملية تغيير وتغير معا . ويتطلب التغير التنظيم والتنسيق لاعادة التكامل فى المجتمع . وهذه الوظيفة تقوم بها التنمية ، وتعتبر من العلامات المميزة لها . كما تتميز التنمية الاجتماعية بأنها تنظيم حر له فاعليته فى مقابلة حاجات أفراد المجتمع حيث لا تقوم على الجبر والالزام ، وانمـا تقوم على تعاون وتضافر جهود المجتمع .

ولنضرب مثلين يسهمان فى اجلاء البعد الاجتماعى للتنمية ، المثل الأول يبين تأثير البيئة الاجتماعية المتخلفة على الانسان كصانع للتنمية . يقول مالك بن نبى فى تأثير البيئة الاجتماعية على موقف الفرد وما يمكن أن نراه كعائق لنمو الفرد كعنصر متحرك من عناصر البناء (٦) : « ان

الحياة الاجتماعية فى البلدان المتخلفة مغلفة بلفائف من انعدام الفاعلية موصومة بنقائص من كل نوع ، وتبدو هذه اللافاعلية من تلقاء ذاتها لنظر المرء فى صورة انعكاس لثقافة معينة ، وهى فضلا عن ذلك تبدو فى مظهر مزدوج هو المظهر النفسى الفردى والمظهر الاجتماعى الجماعى • فمن الملاحظ ان طالب الطب (المسلم) « يقصد فى البلدان النامية » الذى يذهب لتلقى علومه فى احدى العواصم الاوربية يحصل على نفس الدبلوم الذى يحصل عليه زميله الانجليزى مثلا بل انه كثيرا ما يتفوق عليه اذا ما كان أكثر استعدادا وذكاء ، لكنه لا يحصل غالبا على فاعليته ، أعنى طريقة سلوكه وتصرفه أمام مشكلات الحياة الاجتماعية » •

والمثل الثانى يوضح لنا ارتباط الحرية فى المجتمع بالتنمية ، وبمعنى أخص ضرورة حرية الصحافة لاحراز التقدم • فالسؤال الذى يطرح نفسه فى البلدان النامية هو ما مدى تعبير الصحف بوجه خاص عن الرأى العام من جانب ، ومدى قدرة هذه الصحف وقدرة محرريها على كشف الفساد الاجتماعى من جانب آخر ، وما قدر الحرية الممنوحة لها فى النقد ؟ وما هى ضمانات هذه الحرية ؟ ضمانات من ملكية الصحف ومن نقابة الصحفيين ومن المؤسسات والأحزاب والتنظيمات الدستورية والقانونية فى المجتمع • ضمانات للصحيفة كمؤسسة اجتماعية وضمانات للمحرر كمهنى يزاول عمله •

ان القانون الذى يقيد حرية الصحافة يعوق التنمية فى المجتمع • لأنه يحرم الرأى العام من المعرفة ومن تصحيح أخطاء المخططين أو سلبيات وحدات الخدمات أو عبث وحدات الانتاج •

ويستشهد الدكتور أحمد بدر(٧) بقول « كارل ماركس » عام١٨٤٣ عن الحرية والرقابة : « تسمع الحكومة صوتها فقط وهى تعرف أنها تسمع صوتها فقط ، ومع ذلك فهى تتصرف على اعتبار أنها تسمع صوت الشعب وتطلب من الناس أن يتقبلوا ذلك على أنه حقيقة • وهكذا يقع الناس فى الشك والحيرة أو يكونون سلبيين ويعزفون عن المشاركة فى الحياة السياسية ويهتمون فقط بشئونهم الخاصة • واذا كان على الناس أن ينظروا الى الكتابات الحرة على أنها كتابات غير قانونية فسيتعودون على اعتبار ما هو غير قانونى على أنه حر • فالحرية غير مشروعة • وما هو مشروع لا يعبر عن الحرية ونتيجة لذلك فان الرقابة تقتل الروح المتمدينة » •

ويرى الدكتور الحسينى(٨) انه برغم الصعوبة فى تحديد الاهتمامات الاســاسية من وجهة نظر المنظور الاجتماعى لدراسة التخلف والتنميــة الا أنه بالامكان صياغة أربعة تساؤلات أساسية يحاول العلماء المحدثون تقديم اجابات عليها وهى :

١ ـ ما هى الأسباب أو العوامل الكامنة وراء ظـاهرتى التخلف والتنمية • ولماذا استطاعت مجتمعات معينة ان تنمو بشــكل أسرع من مجتمعات أخرى ؟

٢ ـ ما هى الاتجاهات التى تتخذها عملية التنميــة الاقتصــادية والتغير الثقافى ، وهل يمكن القول أن ثمة مراحل متتالية فى التنمية ؟

٣ ـ الى أى مدى تتطلب التنمية الاقتصادية حدوث تحول اجتماعى ثقــافى ؟

٤ ـ كيف تستجيب الدول النامية للمؤثرات المختلفة التى تتلقاها من المجتمع الدولى ؟

التنمية الثقافية :

ان أول ما تهدف اليه التنمية الثقافية هو بناء الانسان بناء معنويا ، ومن هذا الهدف تبرز الأهداف الثانوية ، ويبرز فى نفس الوقت دور الاعلام فى تحقيق هذه الأهداف • وتتفق معظم أهداف وزارات الثقافة ووزارات الاعلام فى البلدان النامية فى مفهوم التنمية الثقافية • ولكن الصعوبة تبدأ مع التطبيق ومع التخطيط الثقافى والاعلامى • وذلك لأن العمل اليومى يستوعب فى كثير من الاحيان طاقات اجهزة الثقافة والاعلام فيتوه منها الطريق الذى رسمه التخطيط أو يتعثر تنفيذ أمهات الأعمال الثقافية بسبب تركيز الجهد على مانشتــات الصحف ونشرات الأخبار فى الاذاعة والتليفزيون وما حول ذلك •

يرى مالك بن نبى انه لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء بل بمقدار ما فيه من أفكار • ولقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة ، كأن يحدث فيضان أو تقع حرب فتمحو منه عالم الأشياء محوا كاملا ، أو تفقده الى حين ميزة السيطرة عليه فاذا حدث فى الوقت ذاته ان فقد

المجتمع السيطرة على عالم الافكار كان الخراب ماحقا • أما اذا استطاع ان ينقذ أفكاره فانه يكون قد انقذ كل شيء لانه يستطيع ان يعيد بناء عالم الأشياء •

يروى يوسف السبعاعى (٩) تجربته كوزير للثقافة فى مصر (١٩٧٤) بأن الأهداف الأساسية لسياسة وزارته كانت واضحة وسهلة ، فالى جانب بناء الانسان كانت الأهداف هى : اثراء الوجدان العربى بالقيم الروحية والتقاليد الأصيلة ، محو الأمية الثقافية وبناء المواطن المستنير الذى يبدع ويبتكر ويبنى الدولة العصرية ، اشاعة التفاؤل والاشراق ، ازالة كل الضغوط النفسية والاجتماعية وتحقيق جو ديمقراطى حر تزدهر فيه كل طاقات الفكر الخلاق والابداع الفنى الرفيع •

ويقول الوزير أنه عند بدء التنفيذ بدأت الفجوة واضحة بين الأمل والعمل ، بين الحلم والواقع • كيف نبنى الأنسان العربى الحر المتفائل المبدع المفكر الخلاق ؟ وبأى وسيلة نصل الى هذا الهدف ؟ ما هو الكتاب الذى يجب أن نقدمه لعقله ؟ واللوحة التى تنمى من خلالها ملكاته واللحن والتمثيلية والفيلم والمسرحية وبقية الزاد الثقافى الذى يشبع حاجاته الروحية والمعنوية ، التى لا تقل أهمية — ان لم تزد — عن مطالبه المادية الأساسية ؟ ولكن أشهد أن المناخ الرائع الذى أشاعه النصر العظيم فى ٦ أكتوبر ، ملأ نفوسنا بالثقة والاصرار ، وبدأنا تتغلب على العقبات والمشاكل ، وبدأت صورة الأمل والعمل والحلم والواقع تأخذ شكلا جديدا •

لاشك فى أن هذه الأهداف تصلح جزءا أساسيا فى مجال التنمية الثقافية ، ولا شك أن عناصر هذه الأهداف يمكن النظر اليها كجزء أساسى لورقة عمل فى مجال الثقافة الى جانب عناصر أخرى أهمها الثقافة الجماهيرية • ففى مجال التنمية الثقافية يبرز دور الثقافة الجماهيرية لأن هذا الجهد الثقافى (١٠) يمكننا من قياس درجة التقدم فى مجال خلق معرفة ديمقراطية لها دورها فى خلق الشخصية الوطنية المستقلة • تلك الشخصية المتميزة بقيمها الخاصة وبثقافتها الخاصة • وهذا الجهد المبذول فى مجال التنمية الثقافية يحتاج الى توسيع دائرته وأن يطرق باستمرار مجالات أرحب بسبب الاحتياج المتزايد للانسان من منهل الثقافة •

وبعد أن ألمنا بمفهوم التنمية الشاملة يمكننا أن نزيد معرفتنا بها بالمامنا بالوجه الآخر : التخلف . ما هو مفهوم التخلف ؟ .

معنى التخلف :

قبل أن نحدد معنى التخلف لابد لنا من الاجابة عن سؤال جوهرى هو أين تقع البلدان النامية أى العالم الثالث على الخريطة الاقتصادية والسياسية العالمية ؟ .

يمكننا أن تتبين العالم الأول (١١) وهو يضم الدول الرأسمالية المتقدمة (على تفاوت كبير فى مدى التقدم) التى يمثل سكانها ١٨ ٪ من سكان الأرض . ولكنه مع ذلك يحقق ثلثى الناتج الاجمالى العالمى ، ويصدر ثلثى الصادرات العالمية ، ويتراوح متوسط دخل الفرد فيه بين ٤٢٩٠ دولارا فى أقل دولة دخلا وبين ١٦٦٩٠ دولارا فى أكثرها دخلا. وتتجمع دول العالم الأول اقتصاديا فى منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية.

وأعضاؤها : الولايات المتحدة ، كندا ، اليابان ، المانيا الغربية ، فرنسا ، بريطانيا ، هولنده ، بلجيكا ، السويد ، النرويج ، الدانمرك ، فنلندة ، النمسا ، سويسرا ، ايطاليا ، أسبانيا ، البرتغال ، اليونان ، تركيا ، استراليا ، نيوزيلندة ، أيسلندة ، ايرلندة ، لكسمبرج . كما يعبر عنها سياسيا وعسكريا حلف شمال الاطلنطى . ثم ان فى داخلها تكتلات مثل السوق الاوربية المشتركة .

ثم صدر تقرير التنمية فى العالم عن البنك الدولى للانشاء والتعمير عام ١٩٨٧ يبين لنا أن نصيب الفرد من الناتج القومى الاجمالى فى عام ١٩٨٥ كان فى البلدان المتقدمة الرأسمالية على النحو التالى :ـ

الولايات المتحدة الأمريكية :	١٦٦٩٠	دولارا
سويسرا :	١٦٣٧٠	دولارا
النرويج :	١٤٣٧٠	دولارا
كندا :	١٣٦٨٠	دولارا
السويد :	١١٨٩٠	دولارا
اليابان :	١١٣٠٠	دولارا

الدانمرك :	١١٢٠٠	دولارا
المانيا الغربية :	١٠٩٤٠	دولارا
فنلنـدا :	١٠٨٩٠	دولارا
استراليـا :	١٠٨٣٠	دولارا
فرنسـا :	٩٥٤٠	دولارا
هولنـدا :	٩٢٩٠	دولارا
النمسـا :	٩١٢٠	دولارا
المملكة المتحدة :	٨٤٦٠	دولارا
بلجيكـا :	٨٢٨٠	دولارا
نيوزيلندة :	٧٠١٠	دولارا
ايطاليـا :	٦٥٢٠	دولارا
ايرلنـدة :	٤٨٥٠	دولارا
اسبانيـا :	٤٢٩٠	دولارا

والعالم الثانى يتكون من الدول الاشتراكية (الشيوعية) وهو يضم ٩٪ من سكان الأرض ، ويصدر حوالى ١٠٪ من الصادرات العالمية ، ويتراوح دخل الفرد فى دوله بين ٢١١٠ دولارا ، ٣٩١٠ دولارا . ويمثله اقتصاديا مجلس المعونة الاقتصادية المتبادلة (الكوميكون) ويجسد تعبيره السياسي والعسكرى فى حلف وارسو .

أما العالم الثالث فهو مجموعة دول آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، وهى لا تحقق الا ١٧٪ من الناتج الاجمالى العالمى . وتبلغ صادراته بدون البترول ١١٪ من الصادرات العالمية . وأهم تجمع سياسى للعالم الثالث هو حركة دول عدم الانحياز .

يتساءل « تشيلسوفورتادو » أستاذ الاقتصاد ووزير الثقافة فى البرازيل (١٩٨٦) فى كتابه النمو والتخلف : ما هو التخلف ؟ ويجيب بأنه « حالة اقتصاد مزدوج يتعايش فيه قطاعان أحدهما قطاع سابق للرأسمالية ، اكتفائى بنسبة كبيرة . والاخر قطاع متكامل مع الاقتصاد العالمى الحديث فنيا وتجاريا . وتعرف درجة التخلف بالاهمية النسبية لهذين القطاعين أكثر من تعريفها بمستوى دخل الفرد أو معدل نموه » .

وتوصف الدول المتخلفة بكلمة الدول النامية ، وهى التسمية الاكثر شيوعا لانها تحترم مشاعر الشعوب ، كما توصف فى بعض الاحيان بالدول الاقل تقدما أو بالدول المتأخرة أو الفقيرة ، وتقابل التسمية فى الفرنسية كلمة Sous-Developpement وكلمة Under developed فى الانجليزية ، كما توصف مجتمعات هذه الدول فى أحيان أخرى بالمجتمعات الانتقالية .

وقد تطور التقدير النقدى لتحديد الدول النامية وفق نصيب الفرد من الناتج القومى الاجمالى . كان المقياس أقل من ٢٥٠ دولارا وأصبح فى عام ١٩٨٥ يبلغ ٤٠٠ دولارا . لقد ذكر تقرير البنك الدولى عن التنمية فى العالم عام ١٩٨٧ فى صفحة التعاريف أنه قسمت البلدان النامية الى اقتصاديات منخفضة الدخل وهى التى بلغ فيها نصيب الفرد من الناتج القومى الاجمالى فى عام ١٩٨٥ ما يساوى ٤٠٠ دولارا أو أقل ، أما اقتصاديات البلدان النامية ذات الدخل المتوسط فهى التى كان نصيب الفرد فيها عام ١٩٨٥ من الدخل القومى الاجمالى يبلغ ٤٠١ دولارا أو أكثر .

ومن البديهى أنه ليس هناك حدود للنمو والتقدم الا حدود العبقرية البشرية ذاتها . والذى لا شك فيه هو أن الدول جميعا المتقدمة والمتخلفة تسعى دائما لمزيد من التنمية . ولقد حاول الباحثون وضع معايير يسترشدون بها للتفرقة بين الدول النامية وتلك المتقدمة ، ولكن هذه المعايير كانت مقاييس مادية وعامة (١٣) فهى تعبر عن متوسطات لمجموعات من الشعوب ، ولا تمثل الواقع بتفاصيلة التى تعكس أحوال البشر كآدميين وليست كمتوسطات وهمية .

وعلى سبيل المثال كم من دولة تدخل فى نطاق الدول المتقدمة بمقاييس الدخل القومى ، ولكن يعيش فيها ملايين الفقراء الذين يزيدون فقرا عن زملائهم فى الدول التى تدخل فى نطاق الدول المتخلفة بمقاييس الدخل القومى أيضا؟ ان القشرة الخارجية لا تعبر تعبيرا صادقا عن الجوهر فى كثير من الاحيان ، فقد أعلن راديو لندن فى أول فبراير عام ١٩٧٥ فى تقرير « لميكل ليفر » مراسل الاذاعة البريطانية فى تايلاند بأنه اطلع على تقرير أقشعر له بدنه فى تايلاند ، يقول أن ٥٥ الف طفل

ماتوا من قلة الطعام فى تايلاند • وعلق على التخلف الذى شاهده هناك بأن الفرق شديد بين صور الدعاية السياحية وحقيقة الشعب المتخلف فى تايلاند •

وتكاد تجمع أفكار المتحدثين فى موضــوع التنمية بأن العدالــة الاجتماعية ضرورية فى تحقيق تقدم البلدان المتخلفة • وانه ينبغى تقييم مدى التقدم والنمو بالتغيير الجوهرى فى تطور المجتمع ، ذلك التغيير الذى يؤدى الى تحقيق التقدم الاجتماعى ، وليس من الايسر (١٣) تعريف الدولة المتقدمة بأنها تلك الدولة التى وصلت الى مرحلة من التقدم تمكنها من النمو الذاتى بمعدلات مناسبة دون حاجة الى معونة خارجية • والمشكلة هنا ليست مشكلة الأضداد ، فالفرق واضح بين الدول التى فى أعلى درجات ســلم النمو وتلك التى فى أدنى الدرجات ، ولــكن المشكلة تتعلق بالدول التى تقع بين النقطتين وهى الدول التى تأمل فى التعرف على قريناتها من الدول النامية ، متأكدة من وحدة الهدف معها حتى تضمن مساندتها فى مطالبها العادلة فى سبيل النمو •

ويرى « والتر الكان » (١٤) أن كلمة التنمية كلمة مبهمة ، وأنه ليس هناك تعريف بسيط لها • ولكنه يرى أن خصائص البلدان النامية واضحة ، وأنه رغم الاختلاف الكبير بين البلدان المتخلفة بعضها عن بعض • الا أن الأمر الوحيد المشترك بينها جميعا هو تعريفها بأنهــا البلدان التى تعانى غالبية شعوبها مستوى معيشة منخفضة نسبيــا • وان هذا المستوى المنخفض للمعيشة يكمن وراء معظم خصائص تلك البلدان •

ومن الطبيعى أن يعيش معظم سكان البلدان المتخلفة فى بيئات ريفية أكثر من معيشتهم فى المدن • وينفق ذو الدخول المنخفضة نسبة كبيرة من دخولهم على الطعام ، ولما كانت البلدان الفقيرة لا تستطيع استراد الطعام بسهولة ، فان أكبر الجهد الانتاجى لا بد وان يكرس لانتاج الطعام وتجهيزه وتوزيعه • ولا ينبغى الاستنتاج من ذلك ــ على نحو ما يحدث غالبا ــ أن معظم سكان تلك البلدان يشتغلون بالزراعة • حقا ان التخصص المهنى أحــد خصائص الاقتصاد النامى ، حيث تصبح درجة التخصص المهنى فى أى اقتصاد وظيفة لمدى السوق • وتدل الدخول المنخفضة على اسواق صغيرة • ومن ثم على درجة منخفضة من التخصص •

وبتعبير عملى فان ذلك يعنى أنه بينما يعيش معظم سكان الريف فى المزارع ، وهى فى العادة مزارع أسرية صغيرة تتراوح بين خمسة وعشرة « أكر » * فان جزءا كبيرا من نشاطهم يجرى فى التجارة البسيطة وحمل المحاصيل للسوق وبناء البيوت واصلاحها أو حياكة الملابس وانشطة أخرى لا يقرنها المرء عادة بالزراعة .

ان الدول ذات الدخل المنخفض بحكم تعريفها هى الأقل نموا . وهو التعبير الدارج الذى استخدمته الأمم المتحدة لتصفها به . ولكن ذلك لا يدل على أنها غير نامية . فالتنمية كلمة مبهمة بطبيعة الحال ويصعب الامساك بها ، ولا يبدو لها تعريف جامع مانع ، ويبدو ذلك جليا عندما يبدأ المرء المحاولة .

ويحاول بعض الباحثين التفرقة بين الدول المتقدمة والدول النامية بمقياس نصيب الفرد من الدخل القومى وهو المقياس الذى اخذت به الأمم المتحدة فى تعريفها للبلدان النامية بأنها تلك التى يقل دخل الفرد فيها منسوبا للدخل القومى عن ثلاثمائة (٣٠٠) دولار امريكى فى السنة . ويرى آخرون أن نسبة الصادرات الصناعية للدولة الى الصادرات الكلية انها هى التى يمكن قياس درجة تقدمها أو تخلفها بها ، بمعنى أن الدولة التى تزيد نسبة صادراتها المصنعة فى جملة صادراتها أقرب الى التقدم ، والدولة التى تزيد صادراتها من المواد الخام فى جملة صادراتها أقرب الى التخلف . وقسم بعض الباحثين مراحل النمو أو التحول والتغيير فى البناء الاجتماعى نحو التقدم والنمو بمراحل أولها المجتمع التقليدى ثم المجتمع المعد للنمو ثم مجتمع النضج ثم مجتمع الاستهلاك الكبير .

ويذهب بعض الباحثين (١٥) الى القول بأنه لا يمكن لأحد أن يجهل أن هناك فى عالم اليوم مجموعة بلدان (متقدمة) تضم على وجه التقريب كل أوربا غير الاشتراكية ، والولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، واستراليا ، ونيوزيلندة ، واسرائيل ، وجنوب افريقيا فى قسم الاقلية البيضاء ، واليابان . وتوضع على حدة الأربعة عشر بلدا اشتراكيا (شيوعيا) فى العالم ، التى يعترف بأنها — برغم انها لا تصل الى مستوى بلدان المجموعة الأولى — لا يمكن اعتبارها متخلفة . ثم الاكثرية الساحقة من بلدان العالم التى تسمى بالعالم الثالث .

ونحن لا نرى وضع اسرائيل مع الدول المتقدمة . وليس ذلك للتقليل من شأنها وهى دولة تملك السلاح الذرى . ولكن لأن الاقتصاد الاسرائيلى يعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية . ولأن المجتمع الاسرائيلى له طبيعة مهاجرة لم يشهد لها التاريخ سابقة . ولان الثقافة الاسرائيلية تقوم على أمور خاصة جدا جانب منها أساطير قديمة لها صبغة دينية والجانب الثانى صورة متميزة من صور الثقافة الغربية المعاصرة . ومن ثم نرى أن حالة اسرائيل حالة خاصة .

وفى تقرير البنك الدولى عن التنمية عام ١٩٨٤ عمد الى تقسيم البلدان النامية الى بلدان منخفضة الدخل ، وهى التى قل نصيب الفرد فيها من الناتج القومى الاجمالى فى ١٩٨٢ عن ٤١٠ دولارا . ثم البلدان النامية متوسطة الدخل ، وهى التى وصل فيها نصيب الفرد من الناتج القومى الاجمالى فى ١٩٨٢ الى ٤١٠ دولار أو أكثر . وهذه البلدان النامية متوسطة الدخل قسمت بدورها الى مصدرة للنفط ومستوردة للنفط .

وترى الدكتورة جيهان رشتى(١٦) أن الصعوبة التى يواجهها الباحث وهو يحاول تحديد خصائص المجتمعات المختلفة تتلخص فى صعوبة الفصل بين خصائص تلك المجتمعات . وتلاحظ أن الباحث يلجأ الى الاستقطاب أى شرح الخصائص السائدة فى مختلف المجتمعات على أنها خصائص مطلقة وهذه النظرة لا ترى أن هناك بين الأبيض والأسود مناطق رمادية .

وتحذر الدكتورة جيهان من الاستقطاب ، لان أى نظام سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى سواء كان تقليديا أو انتقاليا أو حديثا — قد يجمع بين الخصائص التقليدية والحديثة . فاذا تصورنا مجالا يبدأ من واحد وينتهى بعشرة نستطيع أن نضع المجتمع التقليدى عند رقم ٣ مثلا والمجتمع الانتقالى بين رقمى ٥ ، ٧ . والمجتمع الحديث عند الرقمين الثامن والتاسع ، باعتبار أن المجتمع كلما اقترب من رقم ١٠ كان مجتمعا حديثا ومتقدما وكلما أقترب من رقم ١ كان متخلفا وتقليديا . ولكن لا نستطيع ان نجزم بوجود مجتمع حديث ١٠٠٪ يقع فى آخر الطرف الايسر ووجود مجتمع متخلف ١٠٠٪ يقع فى أول الطرف الأيمن

لان الصفات الحضارية والتقليدية تتواجد فى كافة المجتمعات ، وأنما تختلف الدرجة وتتفاوت النسبة .

ويفرق الدكتور الفاروق يونس بين الخصائص العامة للدولة النامية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . فهنالك خصائص اقتصادية عامة حيث تشتغل الغالبية الكبرى من السكان بالزراعة وحيث تصل نسبة المشتغلين بالزراعة أحيانا الى ٩٠٪ ممن مجموع السكان ، وان تراوحت أحيانا أخرى بين ٧٠٪ و ٩٠٪ من عدد سكان الدولة ، وحيث تنتشر ظاهرة التضخم السكانى المطلق فى الزراعة بمعنى أنه يمكن تخفيض عدد العاملين حاليا فى الزراعة دون أن يترتب على ذلك أى مساس بحجم الانتاج الكلى لقطاع الزراعة الى جانب انتشار ظاهرة البطالة المقنعة فى الريف ، وبشكل خطير فى بعض الاحيان ، مع قلة فى فرص العمل خارج قطاع الزراعة . والى جانب قلة المدخرات أو انعدامها تقريبا بالنسبة للطبقات الشعبية .

كذلك من بين الخصائص الاقتصادية للبلدان النامية اننا نجد الانتاج الزراعى فى معظمه من الحبوب والمواد الخام مع نسبة منخفضة من الانتاج فى المواد الغذائية المحتوية على نسبة عالية من البروتين . واتجاه الشطر الأكبر من النفقات الاستهلاكية للأفراد والأسر نحو الطعام وما على شاكلته من ضرورات الحياة . ويتألف الجانب الأكبر من صادرات الدولة من المواد الأولية والمواد الخام .

ثم هنالك خصائص سكانية (ديموجرافية) عامة أولها ارتفاع معدل المواليد بصفة عامة حيث يصل هذا المعدل فى كثير من الدول النامية الى أكثر من أربعين لكل ألف من السكان . وثانيها — ارتفاع معدل الوفيات عامة ومعدل وفيات الأطفال بصفة خاصة ، وانخفاض متوسط عمر الفرد عن نظيره فى الدول المتقدمة . وثالثها — انتشار أمراض سوء التغذية النقص الظاهر فى المواد الغذائية الأساسية . ورابعها — انخفاض المستوى الصحى نتيجة لانتشار الوسائل البدائية فى العلاج بين أغلب السكان ، ونتيجة لقلة المرافق الصحية العامة . وخامسها — ازدحام البيئات الريفية عادة بالسكان بشكل لا يتناسب مع مواردها الاقتصادية .

ثم هناك خصائص ثقافية وسياسية عامة تنحصر فى ارتفاع نسبة الأمية بين الناس ، والأخذ بأساليب عتيقة فى التعليم ، وانتشار ظاهرة عمالة الأطفال على نطاق واسع وعلى الاخص بين الطبقات الشعبية ، وضعف الطبقة المتوسطة فى المجتمع وعدم توافر عوامل نموها . وانخفاض المركز الاجتماعى للمرأة فى المجتمع وخضوع السلوك الفردى وعلى الاخص بين الطبقات الشعبية لتقاليد متوارثة أكثر منها لقيم جديدة اقتضتها طبيعة التطور والتغيير فى سبيل التنمية .

وفى خصائص التخلف نجد الدكتور عمرو محيى الدين (١٧) لايعترف بمتوسط دخل الفرد كتعريف للتخلف ، وانما يضعه كمؤشر فقط للتخلف ضمن مؤشرات عديدة أخرى . ويرى أن الدول المتخلفة هى الدول التى تسودها أساليب الانتاج المتخلفة ، وأسلوب الانتاج يتكون من قوى الانتاج المستخدمة (بشقيها المادى والبشرى) وعلاقات الانتاج التى تعمل هذه القوى فى اطارها . وتخلف أسلوب الانتاج يعنى تخلف قوى الانتاج وعلاقات الانتاج فى نفس الوقت ، ويقسم خصائص التخلف الى نوعين من الخصائص ، النوع الأول هو الخصائص المادية أو الاقتصادية وتشمل الاختلالات الهيكلية ، والنوع الثانى هو الخصائص غير المادية ويمكن أن يطلق عليها تخلف البنيان الاجتماعى ، أو ما قد يطلق عليه البعض تخلف الاطار الحضارى أو الثقافى . أما الاختلالات الهيكلية فتأخذ مظاهر متعددة : أولها اختلال العلاقة بين الموارد المادية والموارد البشرية . وهـذه يمكن ارجاعها الى خاصيتين أساسيتين همـا الانفجار السكانى من ناحية وانخفاض أو ضعف مستوى التراكم الرأسمالى من ناحية أخرى ، مما يؤدى الى هذا المظهر الأول من مظاهر الاختلالات الهيكلية . أما المظهر الثانى من مظاهر الاختلال الهيكلى فهو اختلال الهيكل الانتاجى ، وهو نتيجة طبيعية للمظهر الأول للاختلال ، وهو الانفجار السكانى وانخفاض مستوى التراكم الرأسمالى . أما المظهر الثالث فهو شيوع البطالة المقنعة ، وهى نتيجة لتفاعل مظاهر الاختلالات الهيكلية الثلاث السابق الأشارة اليها . فالانفجار السكانى حينمـا يأخذ مكانه فى هيكل انتاجى منحرف مع انخفاض مسـتوى التراكم الرأسمالى (الاستثمار) فى نفس الوقت ، فان هذا لا بد وأن يفرز البطالة المقنعة كمظهر أساسى لهذا الاختلال . وبالتالى فالبطالة المقنعة تعكس طبيعة الهيكل الاقتصادى السائد ومدى اختلاله ، أما المظهر الرابع من مظاهر الاختلالات الهيكلية فهو اختلال هيكل الصـادرات

(أو القطاع الخارجى) فى الدول المتخلفة • وهذا المظهر الأخير من مظاهر الاختلال انما يعود الى ظروف تاريخية معينة وهى دخول الدول المتخلفة كجزء من السوق الرأسمالى العالمى فى القرن التاسع عشر وما تبع ذلك من نمط التخصص وتقسيم العمل فى اطار هذه السوق بين الدول التى مارست الثورة الصناعية وتلك التى لم تمارسها •

هذا عن الخصائص الاقتصادية أو المادية ، أما النوع الأخر من الخصائص فهو الخصائص غير المادية ، وهى تخلف البنيان الاجتماعى بما يشمله من النظم والعلاقات الاجتماعية والنظم السياسية والقيم السائدة والسلوك والعادات والتقاليد والاتجاهات • والتخلف فى هذا الصدد يعنى معنى محددا وهو أن هذه الهياكل الاجتماعية والثقافية تمثل عائقا للنمو والتقدم •

ويتساءل الدكتور زكى نجيب محمود : (١٨) ما الذى يميز — فى عصرنا هذا — بلدا نما وارتقى وأسهم فى اقامة الصرح الحضارى ، الذى هو نفسه العصر بحيث اذا غابت تلك الخصائص عن بلد آخر عد متخلفا ؟ ونوجز مقاييسه فى الفروق بين التخلف والتقدم على شكل جدول فيما يلى :

المقاييس	الدول المتقدمة	الدول المتخلفة
العلم	ليس موضعا لاختلاف الرأى ان البلد الذى حقق النمو هو ذو علم ، وما يلحق العلم من تقنيات (تكنولوجيا) . وأن درجة العلم وتقنياته تزيد مع كل بلد دقة وتقدما أو تنقص بحسب درجات النمو المتفاوته .	البلد المتخلف أو الذى هو لا يزال يسعى لينمو حتى يبلغ حدا يؤهله للدخول فى عصره اخذا وعطاء ، فان أهم علامة له هى فقره فيما يقدمه من ابداعه الى دنيا العلم والتقنيات . مع التأكيد على عنصر الابداع وضرورته .
التعليم	لا وجود للامية . ومن حيث الكيف نجد التعلم ينتهى بالمتعلمين الى قدرة على الابتكار .	الامية جاثمة على عقول أبنائها بدرجات متفاوتة . ومن حيث الكيف نجد التعليم يقف بالمتعلمين عند مجرد المحاكاة .

المقاييس	الدول المتقدمة	الدول المتخلفة
التغيير	أبناء البلدان المتقدمة لا يترددون كثيرا فى تغيير ما يرونه فى حياتهم معوقا للسير نحو الهدف المقصود .	أبناء البلدان المتخلفة يوشكون ان يجعلوا للمعوقات أولوية على تحقيق الاهداف .
تمجيد الماضى	يرى أبناء البلدان المتقدمة ان تمجيد الماضى يكون بالسير على منهج الاسلاف ، فى أن يغيروا ويتغيروا ليسيروا من حاضر استنفد أغراضه الى مستقبل جديد .	يرى ابناء البلدان المتخلفة ان التمجيد فى أن يبقى الماضى على حاله ليكون الحاضر نسخة ثانية من ذلك الماضى . ثم ليجىء المستقبل نسخة ثالثة .
صورة الحكم	الرأى المأخوذ به فى تسيير الحياة هو — فى الاعم الاغلب — حاصل جمع الآراء التى يبديها أفراد الشعب ، ويتمثل ذلك فى عملية التصويت عند اتخاذ القرار ، أو فى الانتخابات .	الرأى المأخوذ به فى تسيير الحياة هو — فى حقيقة الامر — لرجل واحد ، أو لعدد قليل من أصحاب النفوذ .

تتحدث الدكتورة شاهيناز طلعت[١٩] عن مفهوم العصرية Modernization فتورد أراء الباحثين الغربيين وعلى رأسهم اتزيونى Etzioni قائلة : « ان الانتقال من مجتمع تقليدى الى عصرى يشمل ما يلى » :

١ — ثورة سكانية يهبط فيها بشدة معدل الوفيات والمواليد .

٢ — الحد من نمو الأسرة وتضخمها .

٣ — دعوة طبقات المجتمع لزيادة معدلات خفة الحركة .

٤ — الانتقال من البناء القبلى الى بيروقراطية من نوع ديمقراطى .

٥ — الحد من تأثير الدين . (هكذا) .

٦ — فصل التعليم عن الأسرة وحياة المجتمع . (هكذا) .

٧ — نمو الثقافة الجماهيرية التى يغذيها التعليم الجماهيرى وتطوير وسائل الاتصال الاعلامية .

٨ — اتباع سياسة الاقتصاد الحر وزيادة التصنيع .

ولا شك أن هذه النقاط لا تناسب مجتمعنا المصرى وامثاله من المجتمعات العربية والاسلامية . فعلى سبيل المثال يعد الحد من تأثير الدين عاملا من عوامل التخلف والتأخر فى مثل هذه المجتمعات . كذلك فان فصل التعليم عن الأسرة وحياة المجتمع يصبح بغير هدف ولا معنى . ويمكن أن نلاحظ التضارب فى هذه النقاط ، فان نمو الثقافة الجماهيرية فى البلدان العربية والاسلامية يعنى التوسع فى مدارس تحفيظ القرآن الكريم فى حين أن ما يقصده المفكرون الغربيون فى هذا الصدد هو المعنى القريب من « الفولكور » . أما عن سياسة الاقتصاد الحر فى البلدان النامية فهى بالتأكيد نقيض للتصنيع فى هذه البلدان النامية .

والتخلف كما يراه « ولبور شرام » (٣٠) ليس وصفا مهنيا . انما يعنى أن النمو الاقتصادى (والتغيرات الاجتماعية التى ينبغى أن تصحب النمو الاقتصادى) لم يجتز بعد نقطة معينة .

ولعل أقرب الأمثلة توضيحا للمعنى الانسانى للتخلف المثل الذى ضربه «شرام» فى كتابه المشار اليه بأسرتين رمز للأولى باسم اسرة «ايفيه» وجعل موطنها غرب افريقيا الوسطى . تتكون الأسرة من الزوج والزوجة وهما فى منتصف العمر . لهما ولد فى الثالثةعشر من عمره وابنه فى الثانية من عمرها . هما الباقيان من خمسة أطفال انجبتهم الأسرة الصغير . ومع هؤلاء جميعا يعيش الجد المسن العاجز عن الكسب . ويرسم المؤلف ملامح الأسرة بالدفء العاطفى والقناعة الى جانب الذكاء الفطرى . ويجعلك تحس بأن العائلة لا يحركها طموح لتحسين حالتها أو الارتقاء برغم مواهب أفرادها . ولكنك ستدرك أنهم يتناولون من الطعام نصف ما يتناوله الأوربى فى القيمة الغذائية ، فضلا عن النوع بطبيعة الحال . وستدرك أنهم فى أغلب الوقت مرضى بالأمراض المتوطنة وفوق ذلك فليس أمام رب الأسرة مجال لاختيار مهنته فليست فى القرية صناعة يمكن أن يحصل فيها على عمل . وهو أمى وبرغم ذلك يتميز الرجل بصفاء الذهن وحدة الذكاء . كما تتميز الزوجة بالمهارة فى نسج براويز فنية باهرة الالوان ، وفى عمل سلال من الكروم . وابن الثالثة عشرة يمتاز بذاكرة قوية ، ولكنه نسى القراءة والكتابة التى أمضى ثلاثة أعوام فى المدرسة الابتدائية يحاول أن يلم بها ، فقد عاقه المرض وبعد المدرسة عن سكناه عدة كيلومترات عن التعليم . ويصل «شرام» بنا فى ختام

حديثه عن هذه الأسرة بأن هذه العائلة تمثل موردا لم يستخدم استخداما كاملا • وهذا الذى يصل اليه « شرام » يوضح لنا معنى التخلف • وهذه الأسرة الرمزية نستطيع أن نجدها فى ريفنا العربى وفى بلدان العالم الثالث • كما نجد الأسرة الثانية التى رمز اليها « شرام » باسم عائلة « بوفانى » وجعل سكناها فى بلد قديم هو جنوب آسيا • وهى بذلك تحظى بتراث قديم من الدين والفلسفة والشعر • وهى تشبه العائلة الأولى فى مستوى معيشتها • ومظهر هذه العائلة يدل على أنها أقوى بنيانا وأحسن صحة غير أنها عائلة اعتادت الأوبئة التى تكتسح البلاد • وهذه العائلة الآسيوية تبلغ اربعة عشر نفرا ، وتعيش العائلة مجتمعة فى بيوت كل بيت مكون من حجرة واحدة يضمها جميعا « دوار » • يفصله عن بقية القرية حائط منخفض • والعائلة فى الحقيقة ثلاث أسر • رب العائلة وزوجة فى حجرة بزاوية « الدوار » وفى حجرتين متلاصقتين يقيم ولدا رب العائلة مع زوجتيهما وأولادهما • فالعادة أن يحضر الاولاد زوجاتهم ليعشن معهم فى « الدوار » • تعيش العائلة على الزراعة ، ويجتمع الآدميون والحيوانات فى ساحة الدوار • وعندما يتطلب الأمر قرارا عائليا ، يذهبون الى رب العائلة ، فيفكر ويتأمل ويستغرق فى التفكير والتأمل • وما يقوله فى النهاية لا يقبل النقاش ، ولو أن الاولاد أحيانا يهزون رؤوسهم فى خيبة أمل ، ولو اختلف معه أحد من أولاده فليس أمامه الا الامتثال أو المغادرة ، وقد فعلها بعضهم وذهب الى المدينة•

وبدأ التوتر فى العائلة عندما بدأ التغيير يأخذ طريقة للقرية ، بعثت الحكومة خبراء التنمية الى القرية لزيادة انتاج الارز • ويسأل رب العائلة : ولماذا نزيد انتاجنا من الارز ؟ فيرد الابناء : لنزيد أموالنا • ويقول الشيخ : المال مهم • ويقول الأبناء : بالمال يمكن أن نرسل الأولاد الى المدرسة • فيسأل الشيخ : نرسلهم ليتركونا ؟

ويصل بنا « شرام » فى النهاية الى القول بأنه لو أن رب العائلة كان أصغر سنا أو لو أن النظام كان يسمح للشباب بأن يكون له صوت أكبر فى الوصول الى قرارات لتغير الحال •

هذا الذى يذكره « شرام » يوضح لنا معنى التخلف ويوضح لنا عوائق التنمية • ان أبطال قصتى « ايفيه » و « بوفانى » تذكرنا بعشمان

بيومى بطل قصة نجيب محفوظ « حضرة المحترم » . ذلك الفتى الذى أراد أبوه أن يجعل منه « سواق كارو » مثله ، ولكن شيخ الكتاب قال له : يا عم بيومى توكل على الله وادخل الولد المدرسة الابتدائية . فذهل الرجل وتساءل ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة ؟ فقال الشيخ : الولد ذكي وعاقل ، وربما رأيته يوما من رجال الحكومة .. وقهقه عم بيومى غير مصدق فقال الشيخ : عليك بمدارس الاوقاف فربما قبل بالمجان ..

وتردد عم بيومى زمنا ثم تمت المعجزة ونجح عثمان فى المدرسة نجاحا مذهلا حتى حصل على الابتدائية . تميز عن أقرانه الحفاة من ابناء الحارة ورأى بعينيه الحادتين أول شرارة مقدسة تنطلق من فؤاده النابض ، وأيقن أن الله يبارك خطاه ويفتح له أبواب اللانهاية . والتحق بالمدرسة الثانوية بالمجان كذلك ، فحقق من النجاح ما لم يصدقه أحد فى حارة الحسينى ، ومرض عم بيومى مرض الوفاة . وابنه فى السنة الثانية ، فندم الرجل على ما فعله بانه وقال له ها أنا اتركك تلميذا لا حول له ، فمن يسوق الكارو ومن يحفظ البيت ؟ وفاضت روح الرجل وهو حزين . وضاعفت الام من نشاطها مؤمنة أن يجعل الله من ابنها كبيرا من الأكابر ، أليس الله بقادر على كل شىء ، ولولا وفاة الام بغير توقع لأكمل عثمان تعليمه فى المدارس العليا ، وقد اشتدت لذلك حسرته ، وضاعف من حدتها ضياع طموحه وأحلامه اللاهثة المقدسة . ومقدسة عنده أيضا ذكرى والديه . وفى كل موسم يزور قبرهما وهو من قبور الصدقة ضائع بين القبور فى العراء . وهو اليوم وحيد مقطوع من شجرة — قتل أخوه الأكبر — وكان شرطيا — فى مظاهرة ، وماتت أخته فى مستشفى الحميات ، وأخ مات فى السجن ، انه يتذكر أسرته فيشفى بالتذكر ويرثى لوالديه ، ماذا كان من شأن أبيه ؟ كان المرض والكبر قد أقعده ، فكانت نزهته أن يفترش « فروة » أمام البيت . لا يكاد يرى أو يسمع . يتأمل عجزة ، يتأوه هاتفا : اللهم لطفك ورحمتك . كان فى زمانه من رجال الحارة الاشداء ، عاش حياة طويلة معتمدا على عضلات ذراعيه وساقيه ، يعمل بلا انقطاع ويعانى على المدى شظف العيش والفقر ، قوة مهدرة تتغذى على لا شىء ويقهقه فى الملمات بلا سبب ولا معنى . ووجد ذات مساء ميتا حيث يجلس على الفروة .

فلم يدر أحد كيف حضره الموت ولا كيف تلقاة هو ، أما أمه فكانت ميتتها أدعى للدهشة ، كانت تغسل فأنطوت على نفسها حتى تقوست وراحت تصرخ من شدة الألم ، وجاءت سيارة الاسعاف فحملتها الى القصر العينى ، وتقرر اجراء جراحة لها فى الاعور ماتت فى أثنائها . هذه الأسرة ضحية فريدة للمعاناة ، كما يرى نجيب محفوظ . أو بمعنى آخر كانت ضحية للتخلف . أنها واحدة من ملايين الأسر فى العالم الثالث .

بل ان التخلف يقلب الظاهرة الصحية الى ظاهرة مرضية .. فيتحول التعايش الى فتنه ، والتكامل الى تنافر ، والتسامح الى تعصب وحواجز وجمود . ويتحول الجهاد والاستشهاد والبطولة الى خرافات وموالد وأضرحة . يضرب جلال كشك (٣١) نموذج الثورة المهدية فى السودان مثالا على الانتكاس فى الثورة قائلا :

« الصوفية مثلا تتعرض لعوامل الفساد والانهيار والالتواء ، وهى تتأثر بالتخلف العام الذى يصيب المجتمع ، فعندما يتدهور الوعى الدينى والثقافى عند شيوخها ، ينعكس ذلك فى غلبة الجانب الاسطورى ، بل انتشار الخرافات فى دين معجزته العقل .. بل تتخذ مظاهر بعيدة عن روح الدين وتعاليمه » .

والسلطة المستبدة لا تفوتها أهمية الطرق ، ومدى تأثيرها ، ولذلك سرعان ما تتجه لاستغلالها لتخدير الجماهير وتمزق وحدتها — استخدامها لنشر مفاهيم تجرد الاسلام من مضمونه الثورى ، وتحض على الاستسلام للواقع أى الحكم الاستعمارى أو الاستبدادى وترك الدنيا للمستغلين والمستعمرين .. حتى أن الحركة الوطنية فى شمال افريقيا كانت تضع فى مقدمة أهدافها مكافحة الطرق ، التى نجح الاستعمار فى تحويلها الى ركائز تحمى وجوده بالفكر واحيانا بالعمل المسلح ضد الحركة الوطنية ، مع أن المعروف تاريخيا أن هذه الطرق فى بدايتها كانت هى التشكيلات المسلحة التى نشأت شعبيا لمقاومة الغزو الأوربى ، وأن معظم الاولياء فى العالم العربى منذ القرن الثانى عشر هم من المجاهدين ضد هذا الغزو ، كرمتهم الجماهير بحفظ السيرة وتلاوة قصص البطولة ، ولكن بتباعد الزمن ، وتدهور المجتمع ، وعجز الرجال ، تتحول البطولة الى أسطورة أو كرامة ويتحول البطل الى ولى .. ولا يبقى من كفاحه الا الضريح .

ويستثمر الاستعمار هذا التدهور لكى يصرف الجماهير عن محـاولة البطولة الى انتظار الكرامة • مستغلا جامعى النذور من ورثة الضريح •

ونستطيع أن نتصور نموذجا للفرق بين التخلف والتقدم بزيارة مجزر للماشية فى بلد صناعى متقدم ، وذبح ماشيتنا فى المجازر العادية فى بلداننا النامية فضلا عن ذبائح القرى ، أن اقصى ما نستطيع الحصـول عليه هو اللحوم • وفى البلد المتقدمة تعتبر اللحوم من الناحية الاقتصادية منتجا ثانويا •• ففى هذه البلدان المتقدمة يستخرج من الدم المستخلصات التى تستخدم فى الطب والصـناعات الآخرى ، ولعـل من أهمهـا « الجاماجلوبيولين » التى تصنع منها أدوية لعلاج بعض الحالات المرضية المستعصية • وتؤخذ الغدد من الحيوان المذبوح للاستفادة بها ولعل من أهمها الغدة التى فوق الكلية «ادرينال جلاند» التى تؤخذ بعدذبح الحيوان مباشرة وتوضع فى وعاء درجة حرارته ٧٠ د تحت الصفر تقريبا ليستخلص منها « الكورتيزون » ومن النخاع يستخلص فيتامين « د » هذا الى جانب انتاج اللحوم مجزأة مخلاة من العظام فى تعبئة بديعة وفق حاجة الاستهلاك ورغبة المستهلك • هذا الى جانب صناعة الصوف وصناعة الجلود ومسحوق العظام الذى يستخدم علائق للطيور وغيرها • كم هو العائد من الذبيحة فى البلدان النامية ! وكم هو الفاقد منها عندما يسيل دمها فوق تراب القرية فى البلدان النامية ! والزراعة وتربية الدواجن فى أشد الحاجة الى كل قطرة دم سواء للسماد أو لاضافتها لغذاء الدواجن •

الهوامش

(١) فى المنجـد . (نمى ينمى . نميـا . ونميـا . ونماء . وتنمية) المال وغيره : زاد وكثر . ونمى الخضاب فى الشـعر أو اليد : ازداد سوادا . ونمت الابل : تباعدت تطلب الكلأ فى القيظ . ونما الصيد : غاب عنك بعد أن أصيب فمات بحيث لا تراه .

ونمى تنمية ، الشيء . جعله ناميا . ونمى الحديث الى فلان . رفعه اليه وعزاه بلغة على جهة الافساد ، يقال ينمى أحاديث الناس . (انمى انماء) الشيء : زاده فأنمى هو أى زاد . أنمى الحديث : أداعه على وجه النميمة . أنمى الصيد : رماه فأصابه ثم ذهب عنه فمات وضدها (أحمى) اذا رماه فقتله لساعته ومنه قولهم خذ ما أحميت ودع ما أنميت .

ـ أنمى الراحل الابل : باعدها . أنماها الكلأ : سمنها أنمى الكرم صارت فيه نوام أى قضبان عليها عناقيد ، أنميت لفلان : تركته فى قليل الخطأ حتى يبلغ به أقصاه فيصبح حيث لا يكون لصـاحب الخطأ عذر مقبول .

(تنمى تنميه) الشيء : ارتفع من موضعه الى موضع آخر . انتمى البازى : ارتفع من موضعه الى موضع آخر . النامية ـ نامية الكرم : القضيب التى تكون عليه العناقيد .

(لويس معلوف ـ المنجد ـ الطبعة الثانية عشر ـ نيسـان ١٩٥١ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ص ٩١٨ ـ ٩١٩) .

(٢) يطلق البعض كلمة متنامية على البلدان السـاعية الى النمـو واضافة التاء الى الفعل تفيد الطلب والسعى مثل تناوم وتغافل . ويطلق البعض كلمة الدول الساعية الى النمو ولكن كل دولة متقدمة أو متخلفة ساعية الى النمو . ويطلق البعض كلمة الدول الأقل تقـدما أو القليلة التقدم .

(٣) د. عمرو محيى الدين ـ التخلف والتنمية ـ دار النهضـة العربية ١٩٧٦ . ص ٢٢ .

(٤) د. عليه حسن حسين ـ التنمية نظريا وتطبيقيا ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الاسكندرية ـ ١٩٧٧ ـ ص ٥ ، ص ٦ .

(٥) د. فرج الكامل ـ تأثير وسائل الاتصال ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٨٥ ـ ص ١٤٨ .

(٦) مالك بن نبى ـ مشكلة الثقافة ـ ترجمة عبد الصبور شاهين ـ دار الفكر ـ بيروت الطبعة الثانية ١٩٥٩ ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٧) د. أحمد بدر ـ الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية ـ دار القلم بالكويت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٤ ص ٣٥٩ .

(٨) د. السيد محمد الحسينى وآخرون ـ دراسـات فى التنمية

الاجتماعية — دار المعارف — الطبعة الرابعة — القاهرة — ١٩٧٩ — ص ٢٧
(٩) يوسف السباعي — العبور الثقافي — مجلة الثقافة — أكتوبر ١٩٧٥

(١٠)
Bissekri, Fayçal - Interaction du Développement Economique et de Développement des Mass Media en Algéri - Thèse pour le Doctorat de 3ème cycle en sciences de l'information - Université Paris II - 1976 - P 208.

(١١) د. اسماعيل صبري عبد الله — في التنمية العربية — دار المستقبل العربي — القاهرة — ١٩٨٣ ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١٢) د. حامد السايح — معالم على طريق التنمية في السبعينيات — محاضرة بمعهد الدراسات المصرية ٦٩/٧٠ .

(١٣) المرجع السابق ومع ملاحظة ان البلدان الغنية تسعى للحصول على قروض لمزيد من التنمية .

(١٤)
Walter Elkan - Development Economics, Penguin - London, 1973, P. 13 - 27.

* الأكر = ٤٠٤٦ر٨٦ مترا مربعا . والفدان = ٤٢٠٠ر٨٣٣ مترا مربعا . والدونم = ٢٥٠٠ مترا مربعا في العراق ويساوى الف متر مربع في الاردن وفلسطين . أما الهكتار = ١٠ آلاف من الأمتار المربعة .

(١٥) ايف بينوت — ما هي التنمية (ترجمة سعيد أبو الحسن) — دار الحقيقة — بيروت — ص ٦ .

(١٦) د. جيهان رشتي ، نظم الاتصال — الاعلام في الدول النامية — الطبعة الأولى دار الفكر العربي ١٩٧٣ ص ٧ ، ٨ ، ٩ .

(١٧) د. عمرو محيي الدين ، التخلف والتنمية ، دار النهضة العربية ١٩٧٦ ص ٥٣ .

(١٨) د. زكي نجيب محمود — نماء وانتماء — جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣ — ٤ — ١٩٨٤ .

(١٩) د. شاهيناز طلعت — وسائل الاعلام والتنمية الاجتماعية — الطبعة الأولى — مكتبة الانجلو — ١٩٨٠ ص ٥٧ .

(٢٠) ولبور شرام ، ترجمة محمد فتحي ، أجهزة الاعلام والتنمية الوطنية — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ صفحة ٢٣ .

(٢١) جلال كشك — رحلة في منابع مايو — الطبعة الأولى — لندن — ١٩٧٧ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

الفصل الثانى

الاعلام : دراسة مقارنة

فى بلادنا وفى معظم بلدان العالم تجذب كلمة الاعلام أنظار الناس وأسماعهم ، لأنها ترتبط بما يؤثر فى حياتهم ، ولأنها تثير غريزة حب الاستطلاع فيهم • ومن هنا تبدأ مخاطر البحث فى الاعلام • من أى باب يدخل الباحث ؟ وفى أى طريق يسير ؟ والى أية غاية يريد أن يصل ؟ واذا كان البعض يرى فى البحث الاعلامى مغريات الشيوع فان ذلك يفرض على الباحث الاعلامى ان يحدد بدقة ماذا يقصد ببحثه ، حتى لا يتشتت أو يصبح كلامه كالماء فى الغربال • ومن هنا نسأل أنفسنا سؤالا جاء حينه وهو ما مدخلنا الى الاعلام ؟

انه مدخل التنقية والاستجلاء لمفهوم الاعلام وتعريفه والمقارنة لوسائله وتأثيرها •

لقد شاعت كلمة الاتصال ، وشاع الاتصال بالجماهير • والاتصال الجماهيرى كتعبير عن الاعلام • وأصل الكلمة اللاتينية Communis تعنى الشىء المشترك • والفعل اللاتينى Communicare معناه يذيع أويشيع • فالاتصال أمر عام أعم من الاعلام وأقدم • ففى داخل العائلة الحيوانية وعند الطيور والاسماك يوجد الاتصال بينها وبين أقرانها ، وبينها وبين بعضها البعض • ومن ملاحظة الانسان العادى للخيل والكلاب وحركة النحل والنمل يمكن ان ندرك ذلك • وما يكشفه العلم أوسع وأرحب • وما يصدقه المؤمن بأن كل ما فى هذا الكون يسبح لله سبحانه وتعالى ، وان كلا قد علم صلاته وتسبيحه يجعل دائرة الاتصال تعم الكون بأكمله • فأى اتصال نريد ؟

اننا نريد ان نبحث فى الاتصـــال الانسانى :

الانسان يتصل بذاته ويتصل بغيره • والاتصال الذاتى هو مايحدث داخل عقل الفرد ويتضمن أفكاره وتجاربه ومدركاته • وفى هذه الحالة يصبح المرسل هو المتلقى ذاته • ويفسر لنا نمو الطفل الاتصال الذاتى وأهميته وتطوره • يولد الطفل وليس لديه معان ، ولكن سرعان مايضفى على العالم معنى ونظاما يجعل الحياة مفهومة لديه(١) •

ان الانسان يحاول ان يتصل بغير الانسان من حيوانات وطيور بل وعوالم اخرى فى الفضاء • وللانسان اتصالات فى أحلامه • بل ان بعض المسجونين يقول ان الاحلام تكثر فى السجن كتعويض عن الاتصال الذى يفقدونه فى حياتهم العادية فأى اتصال انسانى نريد ؟

اننا نبحث فى اتصال الانسان بأخيه الانسان اتصال وعى وادراك • وهكذا نقترب من بوابة المدخـــل وهو الاتصـــال المباشر والاتصـــال الجماهيرى •

ما الفرق بين الاتصال المباشر والاتصال الجماهيرى :

الاتصال المباشر هو اتصال شخص أو هيئة بصديق أو بعدد محدود من أفراد أسرته أو عدد من زملائه فى العمل وما شابه ذلك أما الاتصال الجماهيرى فهو اتصال شخص أو هيئة بالجماهير الغفيرة سواء كانت جماهير نوعية أو عامة أو مرتبطة بأقليم معين أو منطقة بذاتها أو بالعالم أجمع • وفى الاتصال الجماهيرى يبرز دور الوسيلة المستخدمة فى الاتصال حتى يصل الامر ببعض اساتذة الاتصال بأن ينسب اليها كل الفضل فى العملية الاتصالية فيرى أن الاتصال هو الوسيلة ومن البديهى أن بروز دور الوسيلة فى الاتصال الجماهيرى يرجع الى طبيعة هذ االنوع من الاتصال حيث يعجز الفرد بحواسه الطبيعية عن الوصول برسالته الى جماهير واسعة عريضة • واذا كان للاتصال الجماهيرى وســائله وهى الراديو والتليفزيون والصحيفة وغير ذلك مما سنفصله بعد قليل ، فان للاتصال الشخصى وسائله أيضا وهى المقهى والتليفون والزيارات العائلية والجلسات الخاصـــة والنوادى الخاصة والخطابات وما شابه ذلك •

ـ هل الاتصال الشخصى نقيض للاتصال الجماهيرى ؟ وهل هناك تعارض بين أهدافهما ؟

ـ ليس هناك تناقض ولا تعارض بين الاتصال الجماهيرى والاتصال الشخصى لا فى الاسلوب ولا فى الوسائل • فقناة التليفزيون وسيلة اتصال جماهيرى والتليفون وسيلة اتصال شخصى • بل ان التكامل والتعاون بين الاتصال الجماهيرى والاتصال الشخصى يساعد فى بلوغ الاهداف • ولعل دور القيادات النقابية والحزبية فى الاتصال المباشر الى جانب الصحف والنشرات والمطبوعات التى تعد ضمن وسائل الاتصال الجماهيرى يؤكد التكامل والتعاون بين نوعى الاتصال • ولكن ينبغى الا نضع هذين النوعين من الاتصال وجها لوجه ، أو نعتبرهما وجهين لعملة واحدة ، أو نزنهما بميزان واحد ، لان الفرق فى التأثير بينهما وفى استخدام الوسائل فرق هائل • والاتصال الجماهيرى هو أساس حديثنا ، وهو أساس حديث الناس ، ومن الحديث عنه يتعرض الباحث لفرعية من فرعياته ولورقة فى شجرته الباسقة وهى ورقة الاتصال الشخصى •

وفى رأيى أن تعبير الاتصال الجماهيرى فى الانجليزية (Mass Communication) هو نفس تعبير الاعلام (L'information) فى الفرنسية • واستخدامنا لكلا التعبيرين بمعنى واحد فى اللغة العربية لا غبار عليه • وعلى ذلك فان تعبير الاعلام وهو الاكثر شيوعا فى لغتنا المعاصرة هو بديل ومعادل لتعبير الاتصال الجماهيرى •

تتلخص عملية الاتصال الجماهيرى أو العملية الاعلامية فى السؤال المركب المعروف من يقول ماذا وبأية وسيلة والى من وبأى تأثير ؟ • وهذا السؤال المركب يبين لنا طبيعة الاتصال الجماهيرى فى كونه عملية مستمرة ومركبة ويحلل لنا العناصر الرئيسية الستة فى عملية الاتصال وهى :

١ ـ المصدر Sourse

٢ ـ الرسالة Message

٣ ـ الوسيلة Medium

٤ — المســتقبل Receiver

٥ — التــأثير Effects

٦ — رد الفعــل Feed back

لا نستطيع القول بأى العناصر أقوى أو أنفع ، أو لابد من توافرها، فكل عنصر منها يشبه الحلقة فى السلسلة لابد من وجودها لتتم عملية الاتصال الجماهيرى • وقد يكون **المصدر** فردا أو مؤسسة أو فريق عمل أو تنظيما سياسيا أو نقابيا • ويذهب بعض البــاحثين الى التمييز بين مصدر رسمى يقوم بالعمل الاعلامى كوظيفة أو مصــدر رزق • وبين مصدر غير رسمى يقوم بالعمل الاعلامى بطريقة عفوية • ولكن هــذا التمييز فى رأيى بغير معنى ولا فائدة منه للبحث الاعلامى • **والرسالة** جملة المعلومات والأفكار والمعانى والتصورات التى يريد المصدر نقلها الى المستقبل ولأن المعانى نسبية ، وتتسم بشىء من الذاتية • لذلك فاننا نؤكد ما أورده بعض أساتذة الاعلام بأن المعانى فى الناس وليست فى الرسالة • وفى أثناء تدفق الرسالة خلال شبكات عديدة من الاتصال تتعرض الرسالة لمن يسميهم بعض علماء الاتصــال بحراس البوابات ، فيقومون بنقلها كمــا هى أحيانا وبحذفها أحيــانا أخرى ، أو يغيرون فيها ، وقد تتعرض الرسالة الى أخطاء واضافات لم تــكن فيها • أما **الوسيلة** وقد يطلق عليها أحيــانا اسم القناة فانها تقوم بنقل الرمــوز التى تحويها الرســالة الى المستقبل أى الجمهور ، ولأن عملية الاتصال الجماهيرى تتضمن فى جوهرها توجيه الاتصــال فى نفس الوقت الى مجموعات واســعة وغير متجــانسة من البشر وبشــكل جمــاهيرى • لذلك فان أهم ما يميز وسيلة الاعلام (صحيفة أو راديو أو تليفزون أو ســـينما أو كتاب •• الخ) هو سهولة الحصول عليها أو ســـهولة التعرض لها • ويعتبر **المستقبل** والوصول اليه هو هدف عملية الاعلام برمتها ، وهو لب القصيد فى أطراف العمل الاعلامى • وعلى المستقبل تجرى الدراسات والبحوث لمعرفة تأثير العملية الاعــلامية فى معلوماته واتجاهاته وسلوكه • ولا شك أن دراسة المستقبل والمام رجل الاعــلام بظروفه وأحواله التعليمية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك يســاعد كثيرا فى التخطيط الاعلامى وفى اختيار الرسائل والوسائل التى تحقق

أهداف العمل لاعلامى • وعند الحديث عن **التاثير** فان الاتصـــال الجماهيرى أقل احكاما فيه من الاتصال الشخصى ، وان كان للاتصال الجماهيرى برغم ذلك التفوق فى الاتســاع والشمول وأحيانا فى عمق التأثير • وفى الاتصال الشخصى يقف المصدر والمستقبل وجها لوجه • ويتميز الاتصـــال الشخصى بأنه اتصال يتم خلال طريق ذى اتجاهين ، وله رد فعل سريع مما يحدث التقارب ويزيل عوائق الاتصال • ولكن ذلك لا يقلل من أهمية تأثير الاتصال الجماهيرى عندما يكون فعالا وناجحا • وختام عملية الاتصـــال الجماهيرى هو **رد الفعــل** وهو دليل استجـابة المستقبل للرسالة وهو فى نفس الوقت رسالة ثانية من المستقبل للمصدر• ورد الفعل يسمى ايجابيا اذا حقق التأثير المقصود ويسمى سلبيا اذا لم يحقق التأثير ، ومن ثم يبحث المصدر فى تعديل رسالته اذا أراد أن يحقق التأثير المطـلوب •

هذا هو مفهوم الاتصال الجماهيرى(*) الذى اتفقنا على استخدام لفظ الاعلام للتعبير عنه • فما هو الاعلام ؟ وما هى وسائله ؟

الاعلام بالمعنى البسيط الدارج هو الاخبـــار ويرى الكثيرون أن الاعلام والصحافة شىء واحد • ففى رأيهم أن كلمة الصحافة لا تقتصر على المواد المطبوعة ، ولكنها تشمل جميع وسائل الاعلام • وهم يقسمون الصحـــافة الى ثلاثة أنواع : صحافة مطبوعة ، وصحـــافة مســـموعة ، وصحـــافة مرئية • ولكن ما هو تعريف الاعـــلام ؟ اننى أرى ما رآه أستاذنا الدكتور عبد اللطيف حمزة(٢) بأن أوضح تعريف للاعلام هو التعريف الذى وضعه العالم الالمانى « أوتوجروت » بأن الاعلام هـــو التعبير الموضوعى لعقلية الجمـــاهير ولروحها وميولها واتجاهاتها فى نفس الوقت • والمقصود بموضوعية الاعلام أنه ليس تعبيرا ذاتيا من رجل الاعلام ، فدوره فى المجال الاعلامى يختلف عن دور الأديب أو الفنان ، اذ يعتمد التعبير الموضوعى على الحقائق والأرقام والاحصائيات • وينبغى أن تكون الحقائق التى يبنى عليها الاعلام السليم معبرة تعبيرا صـــادقا عن عقلية الجماهير وميولها واتجاهاتها ، واذا كان الأدب أو الفن يجد متسعا وترحيبا فى وسائل الاعلام ، واذا كانت هـــذه الوسائل تتزين بالفنون الجميلة وأساليبها عندما تقدم للقراء والمشاهدين والمستمعين فان ذلك لا يغير من مفهوم الاعلام بأنه تعبير موضوعى لعقلية الجمـــاهير

وميولها ، وانما يؤكد العلاقة الوثيقة بين العلم والفن فى حقول الدراسات الانســانية وتطبيقاتها • ويفجر فى نفس الوقت القضية المزمنة وهى : ما الفرق بين الاعلام والدعاية والتربية والثقافة ؟ وهى قضية تخــدم بطرحها كل هذه الموضوعات •

لقد اتفقنا مع « أو توجروت » فى تعريفه للاعلام ، أما الدعاية (٣) فهى علم صنع التأثير بصرف النظر عن الحقيقة ، وهــل هى موجودة بتمامها وكمالها فى المادة التى يراد احداث التأثير بواسطتها أو أن الحقيقة فى هذه المادة جزئية أو منعدمة تماما • والدعاية هى صنع الانطباعات المقصودة •

أما التربية أو التعليم فان هدفها الأول كما يراه المرحوم عبد اللطيف حمزة (٤) هو نقل تراث الأمة الاجتماعى من جيل الى آخر • وهذا التراث الاجتماعى فى ذاته ليس موضوع خلاف بين المربين أو المعلمين فى معظم الاحيان (٥) والهدف الثانى للتربية هو العمل على تكوين شخصية المواطن من حيث الخلق والذوق ونحو ذلك •

واذا وقفنا أمام مفهوم الثقافة بوجه عام (٦) لتحديد مصطلح عربى معاصر لمعنى الثقافة ، فاننا نجد أن مفهوم الثقافة يتداخل مع مفــاهيم الحضارة والدين والعلم والتربية وغير ذلك •

ويختلف تفسير الأنظمة السياسية لمعنى الثقافة وارتباطها أو انعزالها الطبقى ، ولكل جانب من الجوانب المتعلقة بالثقافة الدراسة التى تكشفه وتستقصيه • وهى فى مجموعها لا تعنينا فى هذا المجال الا أن نستخلص من مجرد الوقوف أمامها مصطلحا عربيا لكلمة الثقافة وهو فى رأيى :

« الثقافة تعبير عن الفكر الانسانى ، وتنمية لهذا الفكر بمختلف الوسائل المتاحة فى المجتمع » •

ان الفروق بين الاعلام والدعاية والثقافة والتربية واضحة ، ولكل منها سماتها الخاصة وجداولها التى تنفرد بها وان اشتركت فى بعض الغايات والأهداف وتداخلت فى بعض الوسائل •

واذا نظرنا الى وسائل الاعلام المختلفة فاننا نستطيع أن نحصر أهمها فيما يلى :

١ ــ الصحف ٠

٢ ــ الراديو والتليفزيون ٠

٣ ــ السينما والمسرح ٠

٤ ــ وكالات الأنباء ٠

٥ ــ وكالات الأعمدة الصحفية ٠

٦ ــ الكتاب ٠

٧ ــ النشرة ٠

٨ ــ الخطبة والمناظرة ٠

٩ ــ النــدوة ٠

١٠ــ المؤتمر الصحفي أو الأدبي أو العلمي ٠

١١ــ السوق أو المعرض ٠

ويضيف البعض الرحلات وأماكن السياحة ، كما يمكن أن نضيف شرائط « الكاسيت » والتسـجيل والفيديو كاسيت والاسطوانات ٠ ولاشك أن لكل وسيلة من هذه الوســائل خصائص ومميزات تنفــرد بها أو تشــترك مع غيرها من الوسائل ٠ ومن خصــائص كل وســيلة والظروف المحيطة بهــا يتبين مدى تأثيرها في الجماهير ٠ لذلك سميت وســائل الاتصال الجماهيري ، وسمى الاعلام علم الاتصال بالجماهير ٠

وقبل أن نتحدث عن أهم وســائل الاعلام بشيء من التفصيل لابد أن نؤكد أن الاعلام ظاهرة قديمة صاحبت الانسان الأول ، وعبرت عن غريزة حب الاستطلاع الانساني ٠

لقد عرفت المجتمعات الانسانية الاعلام واحتاجت اليه منذ كانت تعيش في قبائل بدائية تسكن الكهوف ٠ كانت القبائل البدائية التي تسكن الــكهوف اتقاء البرد والحيوانات المتوحشة والأخطار الأخرى تمارس الاعلام في صور عديدة ، منها صورة الرجل الحاد البصر أو المرأة القــوية الملاحظة ، حيث يقف للمراقبة والابلاغ عن الأخطار أو فرص تتعلق بحياة القبيلة ٠ فيعلم رجل الاعلام القديم عن تحرك قبيلة

معادية أو قطيع من الحيوانات • وذلك لتتخذ القبيلة استعدادها للحرب أو الصيد •

ولقد لعبت دور العبادة وأماكن التجمع دورا رئيسيا فى الاعلام ، فكان الفراعنة فى مصر القديمة يلجأون الى معابدهم ، فيضعون عند مداخلها الألواح الحجرية مدونا عليها ما يريدون ابلاغه للجمهور • وفى أثينا وروما القديمتين كانت الحمامات وحلبات الرياضة الى جانب ساحات المعابد تقوم بنفس الدور • وفى مصر الاسلامية أدى المسجد دورا متكاملا فى الاعلام •

وبتقدم العصور لم يستطع الانسان الاستغناء عن الاعلام ، بل زادت حاجته اليه وأصبح ما كان يقوم به الرجل الحاد البصر أو المرأة القوية الملاحظة تقوم به مؤسسات ضخمة تضم آلاف الفنيين والمتخصصين• وبدلا من الصوت العادى أو البوق أو قرع الطبول أصبحت الآلة فى عملية الاعلام تبصر وتسمع وتسجل ، ويصل صوتها للعالم بأسره •

وينبغى أن ندرك أن الوظائف الاعلامية لم تتغير على مدى القرون فيما بين القبيلة ساكنة الكهف وحضارتنا العصرية حيث يمشى الانسان على القمر • وما حدث هو بروز مستحدثات وهياكل لتكبير هذه الوظائف الاعلامية ومد نطاقها •

وتبدو قصة وسائل الاعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية زمنيا من مواليد الساعة الأخيرة فى يوم الحضارة • ففى عام ١٨٣٢ اخترع التلغراف ، ثم بدأ عصر اللاسلكى عام ١٨٧٣ باكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية ، وتأسست شركة ماركونى عام ١٨٩٦ حيث أصبح الاتصال اللاسلكى حقيقة علمية وحقيقة تجارية فى نفس الوقت • وكان اختراع كاميرا السينما عام ١٨٩٤ ، وخرج أول فيلم سينمائى مدته أربع دقائق الى الوجود عام ١٨٩٥ صامتا حتى نطقت الأفلام عام ١٩٢٨ بعد أن تطورت السينما تطورا هاما فيما بين هذين التاريخين • ثم قفزت بعد ذلك كما نعلم جميعا قفزات واسعة • وفى عام ١٩٠٦ بدأ الصوت الآدمى يذيع الرسائل الصوتية على الموجات • وفى أواخر العقد الثانى من القرن العشرين بدأ انتشار الراديو • وفى عام ١٩٢٣ أخترعت الطريقة الالكترونية لاختبار الصور المرسلة لاسلكيا وبدأ عصر التليفزيون علميا

وأخذ ينشر تجاريا منذ عام ١٩٣٦ . وقد أطلق أول قمر صناعى فى العالم فى أكتوبر عام ١٩٥٧ وهو القمر السوفيتى « سبوتنيك » . وقد أطلق القمر الصناعى العربى للاتصالات فى فبراير ١٩٨٥ ، وبالطبع لقد سبقنا الأمريكيون والأوربيون وغيرهم فى استخدام الأقمار الصناعية للاتصالات .

ولنقف قليلا أمام كل وسيلة من تلك الوسائل وقفة مقارنة واستجلاء .

الصحف :

من أكثر الأقوال شيوعا عن الصحافة انها مهنة البحث عن المتاعب . ولكننى لا أذهب مع القائلين بأن الصحافة هى مهنة البحث عن المتاعب . فان هذا التعريف وان بدا رومانسيا طريفا الا أنه بغير معنى دقيق محدد . واننى أستطيع أن أضع محاولة لتعريف الصحافة بأنها مهنة البحث عن الحقائق ونشرها بطريقة رشيدة تنفع المجتمع وتنميه .

ولقد تطورت صناعة الصحافة فى القرن العشرين نتيجة لعوامل رئيسية هى .

١ — التقدم العلمى فى هذا القرن .

٢ — انتشار تطبيق المبادىء الاشتراكية الماركسية فى عدد من دول العالم .

٣ — وضوح ظاهرة الاحتكارات الرأسمالية .

٤ — انتصار الشعوب المناضلة فى سبيل تحرير أراضيها والتخلص من سيطرة الاستعمار .

ويتسم هذا التطور فى صناعة الصحافة بسمتين أساسيتين : الأولى تنصب على الشكل ، ويتجلى ذلك فى اختفاء الفرد المالك للصحيفة الى حد كبير فى كثير من دول العالم الرأسمالى المتقدم . وتبعية الصحف فى ملكيتها الى شركة مساهمة ، ثم تطور الأمر الى الاحتكار ، ودخول عدة صحف فى شركة واحدة أو مساهمة عدة شركات فى عدة صحف . وذلك تبعا لنظريتهم القائلة بأن الحلقة الضعيفة فى السلسلة تعوضها حلقة قوية ، وان ذلك يجنب الهزات الاقتصادية . كذلك تطور الشكل فى صناعة الصحافة بضخامة الآلات والأجهزة والمعدات وأنواع المواد الخام من ورق وألوان وغير ذلك .

أما السمة الثانية .. فتنصب على المضمون . ومن البديهى أن الصحافة وهى مرآة المجتمع لابد أن تعكس معتقدات المجتمع وأفكاره ووجهة نظره والمؤثرات الاقتصادية والسياسية والنفسية التى يتأثر بها المجتمع ، فمن الضرورى أن يتبع سيطرة الاحتكارات الرأسمالية على الصحف احتكار الأفكار ذاتها واحتكار الاعلام والمعرفة . وأن تدافع الصحافة الاشتراكية الماركسية عن سيادة الطبقة العاملة ومبادىء الشيوعية . وان تخوض صحافة البلدان النامية معركة حامية الوطيس ضد الاستعمار .

والظاهرة الجديرة بالاهتمام فى المجتمع الرأسمالى المتقدم هى سيطرة الشركات الاحتكارية من صناعات أخرى ــ كصناعة الأسلحة ــ على الصحافة ، بما يعود بالضرر على شعوبها وعلى العالم بأسره . ويذهب جواهر لال نهرو الزعيم الهندى الأسبق وأحد أقطاب دعوة السلام فى القرن العشرين فى كتابه لمحات من تاريخ العالم الىأن شركات الاسلحة قاومت فكرة نزع السلام بالصحافة . وذكر أن احدى لجان عصبة الأمم التى انتدبت خصيصا للتحقيق فى مسألة المصانع الخاصة للأسلحة أكدت أن هذه المصانع قد أبدت نشاطا كبيرا فى بث روح الفزع من الحرب ، كما أثبتت أن هذه المصانع تعمل على نشر تقارير خاطئة عن المصروفات الحربية والبحرية لبلاد عديدة بقصد اغراء بلاد أخرى بزيادة نفقاتها على التسليح .. وأن هذه الشركات اشترت الصحف للتأثير فى الرأى العام بما يخدم مصالحها ..

وقد ذكر الكاتب البريطانى الشهير « هارولد لاسكى » فى كتابه « محنة الديمقراطية » أن احدى شركات الأسلحة الفرنسية اشترت جريدتين فى فرنسا لتحقيق مصالحها الخاصة ، وعلق لاسكى على ذلك بقوله :

« ان القدرة على توجيه الأخبار وجهة معينة هى نفسها القدرة على منع الجمهور من أن تصله المادة التى يمكنه على أساسها أن يبنى أحكاما متزنة . وأن كل من يقارن الطريقة التى عالجت بها الصحافة البريطانية موضوع نزع السلاح خلال الفترة من مؤتمر جنيف عام ١٩٣٢ بالأهمية الكبرى التى أضفتها تلك الصحافة على تتبع أخبار السلوك الجنسى لأحد رجال الدين الانجليز فى الفترة نفسها لن يجد أقل صعوبة فى

اكتشاف الطريقة التى يتكون بها الرأى العام فى احدى الدول الديمقراطية الرأسمالية » •

ولطالما يثار سؤال حول الصحافة هل هى حرفة أم فن أم صناعة ؟ يجيب الدكتور خليل صابات (٧) أنها كل ذلك فى آن واحد وبنسب مختلفة حسب استعداد المحررين وميلهم ، وكذلك حسب الظروف التى يعملون فيها • ويرى « ويكهام ستيد » أن الصحافة أكثر قليلا من الحرفة وأنها تختلف عن الصناعة فهى بين الفن والمرفق العام •

ان الحوار حول فنية الصحافة وحرفيتها واعتبارها صناعة يعكس التصور العام لمعنى الصحافة بأنها الاعلام ، الى جانب ما يعكسه من اهتمام خاص بالجريدة والمجلة • ان هذا السؤال بين حرفية الصحافة وفنيتها وكونها صناعة يمكن أن يدور مع معظم وسائل الاعلام ، ويسير فى نفس دوائر النقاش • ولا بأس فى ذلك فالصحف من جرائد ومجلات هى التى أعطت لحضارتنا الحديثة معنى الاعلام المعاصر • والصحف من جرائد ومجلات هى الأم التى نشأ من أبنائها من فاقها فى بعض الوجوه ، ومن اختلف عنها فى الملامح والسمات اختلافا وجوهريا ، كالاذاعة التى اعتمدت على الكلمة المسموعة بدلا من الكلمة المكتوبة ، أو السينما التى اعتمدت على الصورة أساسا ثم الحوار بعد ذلك ، ولكن يشد كل وسيلة من وسائل الاعلام مهما اختلفت ملامحها وسماتها خيط يربطها بالأم الجريدة والمجلة •

ان هذا الخيط الوثيق الذى يربط مختلف وسائل الاعلام بالصحف خيط ذو ضفيرتين الأولى تحمل الشكل والثانية تحمل المضمون • لقد أخذت معظم وسائل الاعلام أشكال التحرير الصحفى والاعلام الصحفى والاخراج الصحفى وفصلتها على نفسها • كما أخذت الخبر وما يتشقق عنه من تقرير صحفى بأنواعه التى تشمل التحقيق والريبورتاج والحديث والماجريات وصنعت منه الكثير من محتواها •

قد يرى البعض أن الخبر هو الذى يربط معظم وسائل الاعلام بعضها ببعض ، ولكن ذلك يدخل فى باب النظرة الجزئية وعدم رؤية الجزء فى اطار الكل • ان الصحف كوسيلة اعلام أم وهى تعتمد على الخبر وما يتشقق عنه من فنون التحرير لا تقف روابطها بوسائل الاعلام

الأخرى عند حد المضمون وانما تتجـــاوزها الى الشـــكل • كما أن استخدام الصحف للفنون الجميلة واستعانتها بها يشكل موردا شربت منه وسائل الاعلام الأخرى دون أن يبعدها ذلك عن ساحة الاعـلام ويدخل بها فى ساحة الفن الصرف •

لقد سبقت الصحف معظم وسائل الاعلام أو بمعنى أدق ســبقت وسائل الاعلام التكنولوجية (اذاعة وتليفزيون وسينما) ولكنهــا لم تتخلف نتيجة ظهورهم وبروزهم على أشكال العمالقة ، بل انها ظلت فى مسيرتها الطويلة تضيف فى كل يوم قارئا جديدا وسطرا جديدا وفنـا جديدا يجعلها أم العمـالقة ، ويضيف الى سطوتها السابقة لوجودهم ســطوة أكبر وأقوى • ومن جانب آخر ضمت تحت جناحيها اهتمامات متزايدة للراديو والتليفزيون والسينما والمسرح والكتاب وغير ذلك مما أكد أنهــا وسيلة الاعلام الأم • فعلى صفحاتها تعيش وتزدهر وتنقد كافة وســائل الاعــلام •

ان الصحف أعطت وأخذت وأثرت وتأثرت وسنجد ذلك بدرجــات متفاوتة مع مختلف وسائل الاعلام وفى مختلف وسائل الاعلام •

الراديو والتليفزيون :

كانت الصحف من جرائد ومجلات على اختلاف ألوانها ومواقيت صدورها وسيلة الاعلام الأولى فى القرن التاسع عشر ، ولكن القــرن العشرين شهد منافسة جديدة للصحف تتمثل فى الاذاعة « الراديو » ثم « التليفزيون » وأصبح الكثيرون يطلقون على « الراديو » تســمية الصحافة المسموعة وعلى « التليفزيون » الصحافة المرئية أو الشاشــة الصغيرة نسبة الى شاشة السينمــا • والواقع أن العلاقة وثيقــة بين الصحافة المكتوبة وبين وســائل الاعلام الأخرى ، ولكنها أشد ما تكون ارتباطا بالراديو والتليفزيون • وبرغم أن العالم لم يعرف الاذاعة الا فى أواخر العقــد الثانى من القــرن العشرين وأوائل العقد الثالث الا أن المذياع وبخاصة بعد انتشــار « الراديو الترانزستور » الذى يعمــل بالبطاريات الجافة ، أصبح جزءا لا يتجزأ من حياة الانسان فى أى مكان •

وتحظى الاذاعة باعتبارها وسيلة اعلامية بميزات عديدة أهمها سعة الانتشار وقوة التأثير فى البلدان النامية ، وذلك لعدة أسبــاب يمكن ايجازها فيما يلى :

١ — قلة التعليم أو ندرته فى بعض الأماكن مما يجعل الكلمة المسموعة أسهل بل ربما تصبح الوسيلة الاعلامية الوحيدة الممكنة عندما ينعدم عدد القارئين الكاتبين فى قرية ما •

٢ — كثرة أوقات الفراغ وعدم تنظيمها أو الاستفادة منها وبخاصة فى المجتمعات الزراعية مما يدفع الى الملل فلايجد المستمع أمامه غير « الراديو » يدير مفاتيحه ليدفع عن نفسه السأم والملل •

٣ — انخفاض المستوى المادى فلا تجد الاسرة فائضا تذهب به الى السينما أو المسرح كل اسبوع •

٤ — قلة الثقافة بحيث لا يصبح الكتاب هو المنافس القوى للاذاعة•

٥ — انتشار ظاهرة الاستماع الجماعى فى البلدان النامية مما يتيح فرصة لرد الفعل الجماعى فيتضاعف التأثير • وعلى ضوء هذه الحقائق يمكننا ان ندرك تأثير الاذاعة واهميتها فى البلدان النامية •

هذا بالاضافة الى خصائص الاذاعة الاعلامية حيث نجد المذياع فى معظم البيوت ، بل اننا نجده فى المدن الصغيرة لا يكاد يخلو منه مقهى حيث يجتمع الناس لسماعه ، كما أن للراديو ميزة التنقل مع المسافر وله ميزة الانتشار فى السيارة وفى القطار والباخرة • وهذا بالاضافة الى حيوية الكلمة المسموعة التى تتمثل فى الصوت الانسانى وحيوية الموسيقى • والاستماع الى الراديو لا يتطلب جهدا فليست هناك قراءة أو استعمال للنظر فى المتابعة وقلب الصفحات كما يحدث فى مطالعة الصحيفة• وتتميز الكلمة المذاعة بالسرعة ، فاذا تصورنا حدثا وقع الآن، وأذيع بعد نصف ساعة فانه يصبح قبل مضى ساعة على وقوعه موضوع مناقشة وتعليق من الناس •

ونستطيع أن نلمس أثر الاذاعة فى البلدان النامية على وجه الخصوص من وصف أحد خبراء الأمم المتحدة لتجربة دخول « الراديو » لأول مرة قرية معزولة من قرى الشرق الأوسط فيقول :

« شاهدت ذات مرة وأنا فى قرية معزولة من قرى الشرق الأوسط جهاز « راديو » يراه القرويون لأول مرة ، وقد أدير فى بيت العمدة • لقد أوضح ذلك الجهاز على الفور أن المعرفة قوة • لقد أضفى على

صاحبه مكانة ومنزلة . كان أول من يعرف الأخبار . لقد أصبح ذلك الجهـاز الصغير للقرويين بسـاطا سحريا يحملهم الى ما وراء الآفـاق التى يعرفونها » .

ويروى هذا الخبير ما أثر فيه وما يدل على تأثير الاستماع الجماعى للراديو فيقول : « ولكن الذى ترك فى نفسى أثرا لا ينسى عن تأثير الراديو هو مشهد جماعة من الفلاحين وهم يسمعون لأول مرة قائدا من قادتهم فى المذياع يدعوهم الى المشاركة فى حكم بلادهم . هؤلاء الفلاحون لا يعرفون من حكومتهم أعلى من محصل الضرائب والخفير ، فتخيـل دهشتهم وعدم تصديقهم وما ارتسم على وجوههم من حيرة وأمل فى صورة لا يمكن أن تنسى » .

وبرغم ذلك فان الاذاعة باعتبارها وسيلة اعـلام لا تخلو من بعض العيوب . فالبرنامج الذى لا يشد المستمع اليه عديم الفائدة . كذلك من العيوب الخارجة عن ارادة الاذاعيين ولكنها موجودة فى الوسيلة ذاتها حدوث أى تداخل صوتى خارجى يفسد الاستماع . فاذا دق جـرس التليفون أو جرس الباب فجأة ، أو اذا صاح طفل فى البيت أو مـرت سيارة مزعجة أو مرت طائرة منخفضة .. كل ذلك وغيره من شأنه أن يفوت على المستمع فرصة متابعة البرامج فى سهولة ويسر . وهناك عيب فى طبيعة الوسيلة ذاتها هى أن الراديو يلزم المستمع بتحديد وقته ويجبره على هذا التحديد ، وكثيرا ما تفوت فرصة سـماع برنامج معين لأن الشخص مشغول فى عمله أو فى أمر هام ، ومن الصعب أن يسمعه مرة ثانية ، وذلك لأن الاذاعة بطبيعتها وسيلة زمانية تتعلق بالوقت وصفحاتها وسطورها هى الساعات والدقائق .

وعندما نتحدث عن التليفزيون وهو الصق وسائل الاعلام «بالراديو» حتى أن الحديث عن أحدهما يكاد يعنى الحديث عن كليهما معا ، فاننا نلحظ أنه يجمع بين الوسيلة السمعية والوسيلة البصرية فى وقت واحد . وعن طريق التليفزيون نستطيع أن نرى الحدث لحظة ميلاده ووقت حدوثه . نستطيع أن نشهد افتتاح الدورة البرلمانية أو مباراة كرة قدم وغير ذلك فى الوقت الذى تقع فيه هذه الأحداث . هذا بالاضافة الى جاذبية التليفزيون الملون الذى ينتشر يوما بعد يوم فى كثير من بلدان

العالم . ويستطيع التليفزيون بصفة عامة أن يجمع بين الصورة الفنية والصوت المعبر والموسيقى التصويرية فى وقت واحد كما تفعل السينما . ولاشك أن حشد الصورة والصوت والموسيقى له تأثير بالغ على الجمهور وبخاصة عندما يقدم له وهو فى بيته وفى جلسته المريحة دون أن يكلف نفسه مشقة الذهاب اليه كما يحدث فى المسرح والسينما .

وملكية الاذاعات فى غالبية دول العالم تابعة للدولة نظرا لخطورة وأهمية هذه الوسيلة الاعلامية فى العصر الحديث . ولكن ذلك لا يمنع من أن بعض الدول الرأسمالية والولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص تقوم فيها ملكية الاذاعات على أساس شركات تجارية تمولها الاعلانات . وكذلك الشأن بالنسبة للتليفزيون . وليست كل البلدان الرأسمالية تدار فيها الاذاعات على هذا النحو ففى بريطانيا مثلا تتبع الاذاعة فى ملكيتها هيئة خاصة وهى من محطات الاذاعة المتقدمة ولها شهرة عالمية . أما فى البلدان الاشتراكية فلا مجال بطبيعة الحال لأن تكون الاذاعة مملوكة للأفراد أو الشركات . وان كانت بعض المحطات فى البلدان الاشتراكية تذيع الاعلانات فانه ينطبق عليها فى هذا المجال ما ينطبق على الاعلانات فى صحف البلاد الاشتراكية .

وتتفق كل الاذاعات التى تملكها الحكومات على أن أهداف الاذاعة هى الاعلام والتوجيه والتسلية . فمن واجب الراديو أن يقدم للمستمعين برامج ومواد اذاعية تشمل الاخبار ، ومواد أو برامج تفسر الاخبار ، وترفع مستواهم الثقافى ، ومواد أو برامج ترفه عنهم وتسليهم . والحدود ليست فاصلة بطبيعة الحال بين الأهداف الثلاثة ، وانما يمكن أن يكمل الهدف هدفا آخر اذا أحسن التنسيق بين هذه الأهداف . هذا بالنسبة للاذاعات التى تتولى الدول أمورها . أما الاذاعات التجارية فانها تعتمد فى ميزانيتها على أموال المعلنين كما هى الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية . فانها لا تتقيد بهذه الأهداف الثلاثة ، ولكن الاذاعات التجارية يحكمها ذوق الجمهور وشروط الحكومة التى ترخص لها بالعمل تجاريا وتمنحها موجة من موجات الأثير . وفيما يختص بذوق الجمهور المستمع فانه تبين أن جمهور المستمعين ينصرفون عن هذه المحطات الى محطات أخرى عندما يحين موعد نشرة الاخبار فى المحطات الأخرى ، لذلك تضطر الاذاعات التجارية الى تقديم الخدمة الاعلامية لا حبا فى

الاعلام وليس من باب خدمة المجتمع ولكن في سبيل الاحتفاظ بالمستمع وحتى لا تفقد محطة الاذاعة قيمتها لدى المعلنين الذين يقدرون قيمة المحطة بعدد المستمعين اليها • هذا الى جانب ان الحكومة عندما تمنح ترخيصا لمحطة تجارية تشترط عليها في عقد الترخيص أن تقدم يوميا عددا معينا من نشرات الاخبار محدد الدقائق ، وبالاضافة الى ذلك تلجأ المحطات التجارية الى وسائل جذب عديدة للمستمعين مثل أحاديث كبار الادباء والصحفيين والكتاب •

والتسلية أو الترفيه ليس عيبا أو شيئا مخجلا •• لأنه من واجب الاذاعيين أن يبذلوا جهدا في تخفيف أعباء الحياة عن الشعب العامل • ومن شأن هذا الترفيه أن يجدد النشاط ويروح عن النفس ويشيع السعادة بين المستمعين • ولكن ينبغي أن يكون الترفيه مشروطا بعدم الاسفاف أو الابتذال أو التشهير بفئات معينة من المجتمع أو الترويج لكل ما هو غير انساني وغير نبيل • وفي التسلية والترفيه الباب مفتوح على مصراعية للدعابات والطرائف ، وكافة المواد الاذاعية المسلية • وكثيرا ما تكون مواد الترفيه المذاعة ذات مغزى تثقيفي أو تربوي ، فقد كان « برناردشو » على سبيل المثال كثير النكات ولكنها في معظمها كانت تهدف الى الرقي والمتعة ما • وكان « بنجامين فرانكلين » أحد زعماء الحرية في أمريكا ينشر في الصحف تقويما يطلق عليه تقويم « ريتشارد المسكين » يحوى النوادر والأمثال وحكما مسلية وهادفة في الوقت نفسه •

وفي النهاية فاننا نرى أنه سواء كانت محطة الاذاعة رسمية أو بمعنى أشمل تحت رعاية الدولة ، أو محطة تجارية ، فانها جميعا لابد أن تقدم لجمهور المستمعين : الاعلام والتثقيف والترفيه • ثم تكون المقارنة بين حجم وأولوية هذه الاهداف الثلاثة بين اذاعة وأخرى •

وكالات الانباء :

تناقلت المجتمعات البدائية الاخبار بطرق المنادين والرواة والرسل ، وغير ذلك • ثم انتقلت طرق نقل الأخبار بين البشر من المرحلة الصوتية الى الكتابة ، فظهرت الرسائل والكتيبات الصغيرة التي تحمل الاخبار • وباختراع الطباعة وانتشار الصحف أصبحت مهنة جمع الأخبار من المهن

التى تحتاج الى جهود متضافرة • ومع اتجاه الصحف الى العناية بالخبر لم يعد فى مقدور الصحيفة بمفردها أن تغطى حاجتها المتزايدة من الأخبار • ومن ثم نشأت الحاجة الى مؤسسات تجمع الأخبار وتبيعها للصحف وللمهتمين بالأخبار • وهكذا ظهرت وكالات الانباء • وفيما بين عامى ١٨٣٥ و١٨٥٠ تكونت الوكالات الرئيسية للأنباء •

وترجع بداية تاريخ وكالات الأنباء(٨) الى عام ١٨٢٥ حين جاب شاب فرنسى من أصل مجرى يدعى « هافاس » عواصم أوروبا لكى يتعاقد مع مراسلين يمدون مكتب الأنباء الذى أنشأه فى باريس بأخبار تلك العواصم •وكانت الأخبار ترد الى المكتب المذكور — فى أول الأمر — اما بالبريد أو بواسطة أناس مخصوصين ، حيث تترجم وتعاد صياغتها ثم توزع على المشتركين من رجال السلك الدبلوماسى وكبار رجال المال والتجارة • ومن طريف ما يذكر أن الصحف فى ذلك الوقت قابلت عرض هافاس بمدها بالأنباء بالرفض التام لان المقال كان ما يزال صاحب السيادة فى الجريدة • ولكن الوضع سرعان ما تغير مع ظهور بوادر الصحافة الشعبية عام ١٨٣٦ حين أنشأ « أميل دى جيراردان » صحيفة « لابرس » وظهر بوضوح اتجاه القراء الى الاستزادة من الأخبار وكان هافاس قد توقع هذا التحول واستعد له بشراء مؤسسة صغيرة مشابهة لمؤسسته حققت له مزيدا من المساهمين ومن مصادر الانباء ، وباندماج المؤسستين معا أنشأ عام ١٨٣٥ وكالة هافاس • ومنذ ذلك الوقت زاد هافاس فى عدد مراسليه وحسن أساليب حصوله على الأنباء باستخدام « السيمافور » ، وهو نوع بدائى من التلغراف كان شائعا فى فرنسا فى ذلك العصر • وفى عام ١٨٤٠ أقدم هافاس على استخدام الحمام الزاجل لنقل الأنباء من عاصمة الى أخرى ضمانا لسرعة وصولها • والحقيقة أن عامل السرعة كان من أهم العوامل التى دفعت الصحف أخيرا الى الاشتراك فى وكالة هافاس • وفى عام ١٨٤٨ أخذ هافاس فى اقامة روابط منتظمة بين باريس ولندن وبروكسل ثم مدها بعد عامين لتشمل بأريس وروما وفيينا ومدريد ومدن ألمانيا الرئيسية •

هكذا كان تاريخ نشأة أول وكالة أنباء عرفها العالم وكانت حافزا لانشاء وكالات أخرى مماثلة مثل وكالة ولف الألمانية عام ١٨٤٩ ووكالة رويتر الانجليزية عام ١٨٥١ •

ولاشك أن اختراع التلغراف الكهربائى فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر ومد الكابلات الكهربائية تحت البحر عام ١٨٥٨ بين أمريكا الشمالية وأوروبا ، وبين انجلترا والهند واليابان قد ساعدت مساعدة فعالة على تطور وكالات الأنباء وعلى تقدم الصحافة ، حتى ليؤكد البعض أن هذا الاختراع يأتى فى الأهمية بعد اختراع المطبعة مباشرة بالنسبة لتطور الصحافة .

ولقد أصبح انشاء وكالة أنباء وطنية فى الدول الحديثة الاستقلال مظهرا من مظاهر استقلالها . لذلك نجد أن سعى دول العالم الثالث الى انشاء وكالات انباء وطنية يأتى فى قائمة المهام الاولى التى تحرص عليها هذه الدول . ولقد ساعد على ذلك الاهتمام اعتماد الحكومات على الاعلام كسند للحكم يباشر مهامه اليومية . ولكن هذه الوكالات المحلية أو الوطنية وان تفوقت قدراتها تظل محدودة التأثير اذا قورنت بوكالات الأنباء العالمية . وقد تنمو وتزدهر وكالة فتصبح ذات أهمية خاصة ولكنها تبقى مع ذلك وكالة محدودة التأثير اذا قورنت بالوكالات العالمية ، وتمثل وكالة أنباء الشرق الأوسط هذا النموذج للوكالة المحلية المتطورة .

وسنضرب بوكالة الأنباء الفرنسية مثلا للوكالات الدولية كما نضرب بأنباء الشرق الأوسط مثلا للوكالة المحلية المتطورة .

وكالة الانباء الفرنسية « اجنس فرانس برس » :

امتدادا لنشاط الوكالة التى أسسها « شارل هافاس » عام ١٨٣٥ ومما بقى من حطام هذه الوكالة عقب الحرب العالمية الثانية نشأت وكالة الأنباء الفرنسية التى تعد واحدة من أكبر وكالات الأنباء العالمية . وهى مؤسسة ذات كيان مستقل ، ولا نستطيع أن نقول أنها مؤسسة تجارية بالمعنى الكامل لمفهوم المؤسسة التجارية ويحرص قانونها الصادر فى يناير ١٩٥٧ على أن تكون هيئة مستقلة ، وانها تبتعد تحت أى ظرف من الظروف عن أية مؤثرات أو اعتبارات يمكن أن تفسد دقة المعلومات والأخبار التى تنشرها .

وليس للوكالة علاقة بالحكومة الفرنسية ، وانما يمكن القول بأن علاقتها بالدولة ، وهى علاقة غير مباشرة • ويتكون مجلس ادارة الوكالة من خمسة عشر عضوا • وينتخب الناشرون الفرنسيون (أصحاب الصحف) ثمانية منهم ، وثلاثة أعضاء يمثلون الراديو والتليفزيون ، وتختار الحكومة ثلاثة أعضاء وعضو عن الخزانة ، ويتم انتخاب هؤلاء كل عام • وحيث أن الناشرين لديهم الأغلبيـة ، لذلك من الصعب أن يوجد رئيس مجلس ادارة لا يوافقون عليه •

وتعد وكالة الأنباء الفرنسية وكالة دولية ووطنية فى نفس الـوقت على عكس الحال فى بريطانيا حيث تعد « رويتر » هى الوكالة الدولية « والبرس أسوسيشن » Press Association هى الوكالة الوطنية أو المحلية • أما الوكالة الفرنسية فلها وجهان وجه وطنى والآخـر دولى • وعدد الذين يعملون بمرتب شهرى فى هذه الوكالة وفق احصائيات عام ١٩٧٧ يبلغ ٢٠٥٠ موظفا منهم ٧٨٠ صحفيا فرنسيا وأجنبيا فى بـاريس وفى خارج فرنسا و١٧٠ يعملون فى المحـافظات الفرنسية يضمهم ١٣ مكتبا أساسيا وخمس مكاتب فرعية • الى جانب الفين يعملون بالمكافأة غير الثابتة • أما ميزانية الوكالة عام ١٩٧٧ فقد بلغت ٢٣٠ مليون فرنك فرنسى •

وتذيع الوكالة نشراتها بخمس لغات :

— الانجليزية : وتخدم شمال أوروبا وأفريقيا وأمريكا وكندا •

— الأسبانية : وتخدم أمريكا اللاتينية وأسبانيا •

— الألمانية : وتخدم ألمـانيا الشرقيـة والغربية وجنوب سـويسرا والنمسـا •

— البرتغالية : وتخدم البرتغال والبرازيل •

— العربية : وتخدم البلدان العربية والاسلامية •

وتستفيد ٦٠ وكالة أنباء أجنبية من خدمات وكالة الأنباء الفرنسية • وليس للوكالة الفرنسية علاقة مع رويتر ، ولكن الوكالة الفرنسية تبيع خدماتها فى لندن بطريقة مباشرة • أما فى الولايات المتحدة فبالرغم من أن للوكالة الفرنسية ثلاثة مكاتب رئيسية الا أن هناك اتفاق بينهما وبين

الأسوشيتدبرس لتبادل الخدمات فى النطـــاق الجغـــرافى • وللوكالة الفرنسية علاقة تبادل مع تاس ومع وكالة انباء الصين • أما ألبانيا فهى الدولة الوحيدة بين الدول الاشتراكية التى ترفض خدمات وكالة الأنباء الفرنســية •

وبالنسبة لوكالات الأنباء العربية فان هناك علاقة تبادل بين كل منها وبين وكالة الأنباء الفرنسية • الا أن هناك علاقة خاصة تربط الوكالة الفرنسية بوكالة أنباء الشرق الأوسط بدأت منذ عام ١٩٦٨ حينما رأت الوكالة الفرنســية أن تقدم خدماتها باللغــة العربيــة للبلدان العربية والاسلامية وتم الترتيب مع وكالة أنباء الشرق الأوسط بتوظيف عدد من المترجمين الصحفيين فى القاهرة • وأصبحت وكالة أنباء الشرق الأوسط تقوم بالتنسيق وتتولى نقل الخدمة الصحفية للوكالة الفرنسية • كما حصلت وكالة أنبــاء الشرق الأوسط على مســاعدة فنية من الوكالة الفرنســية وتشارك الوكالتان فى النفقات ، وقد توقف هذا الاتفــاق عام ١٩٨٧ ، ونقل المقر الى قبرص •

وفى مقر الوكالة بباريس يوجد حاسب آلى الكترونى (كمبيوتر) • وتبث الوكالة مليون كلمة يوميا ، ولها ١٢٠ ألف كيلو متر من الكابلات، وتستخدم فى ارسالها البرقيات والتليفون والتليفون الكاتب واللاسلكى والقمر الصــناعى •

وتخدم الوكالة ١٢٠٠٠ جريدة ومجلة فى مختلف بلدان العالم ومئات من محطات الراديو والتليفزيون •

وبرغم أن كل وكالة من وكالات الانباء العالمية تنتشر فى كافة أرجاء المعمورة الا أن مجالا للتفوق يبرز فى مناطق جغرافية لكل وكالة ، أشبه بالمجــال المغناطيسى • ففى أمريكا الشــمالية تتفــوق اليونيتدبرس والأسوشيتدبرس • وفى دول « الكومنولث » البريطانى تتفوق رويتر • وفى البلدان الناطقة بالفرنسية « الفرانكفون » تتفوق وكالة الأنبــاء الفرنسية • أما وكالة تاس فمن الطبيعى أن تتفــوق فى الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية •

وكالة أنباء الشرق الاوسط :

تحققت أول محاولة لانشاء وكالة مصرية للأنباء عام ١٩٥٠ عندما أنشأ الدكتور حسنى خليفة وكالة الأنباء المصرية التى كانت تصدر نشرة صباحية باللغة الانجليزية تلخص الأخبار والآراء التى تنشرها الصحف المصرية • وكانت خدمات هذه الوكالة موجهة لخدمة السفارات والهيئات الأجنبية التى تريد أن تعرف الكثير عما تنشره الصحافة المصرية فى المقام الأول • كما أصدرت هذه الوكالة نشرة أسبوعية لنفس الغرض ، اذ أنها كانت تحتوى على عرض أسبوعى باللغة الانجليزية للأخبار والتحقيقات والمقالات ، فضلا عن تحليل الاتجاهات لتلك الصحف • ثم وسعت الوكالة مجال نشاطها الى السودان ، فكانت تنشر فى الخرطوم نشرتين يوميتين تتضمنان أنباء مصر ، ومن ناحية أخرى كانت تصدر فى القاهرة نشرة أخرى عن أخبار السودان ، وكانت هذه الوكالة تتلقى اعانة مالية من الحكومة تساعدها على تأدية واجباتها ، ولكنها نشرت أخبارا غير دقيقة تتعلق بالسودان فسحبت الحكومة المصرية رخصتها فى أكتوبر عام ١٩٥٤ •

وكانت هناك محاولة أخرى لانشاء وكالة أنباء مصرية قام بها عبد المنعم الصاوى عام ١٩٥٣ عندما أسس « مكتب مصر للصحافة » وكان يوزع الأخبار بالعربية والانجليزية ثلاثة مرات فى الأسبوع • وكانت خدمات هذه الوكالة شبيهة بوكالة الأنباء المصرية •

وبتطور الأوضاع السياسية فى مصر باستقرار ثورة ٢٣ يوليو برزت الحاجة الى وكالة أنباء قوية فتأسست فى يناير ١٩٥٦ وكالة أنباء الشرق الأوسط شركة مساهمة رأس مالها عشرون ألف جنيه وساهمت فى انشائها صحف الأهرام ودار أخبار اليوم ودار الهلال ودار التحرير • وكان مجلس ادارتها يتكون من أعضاء يمثلون هذه الصحف • وفى ٤ أبريل ١٩٦٢ تنازل عنها أصحابها دون مقابل وأصبحت احدى شركات المؤسسة العامة للانباء والتأليف والنشر •

وأصدرت المؤسسة قرارا باستمرار الوكالة فى العمل كشركة مساهمة متمتعة بجنسية الجمهورية العربية المتحدة • ونص القرار على أن غرض الشركة هو نشر الأخبار فى البلاد المختلفة عن طريق مكاتبها فى مختلف

البلاد العربية والأجنبية بواسطة الأجهزة المركبة فى مركزها الرئيسى وفى مكاتبها فى الخارج لارسال واستقبال الأخبار الصحفية • وكذلك تنوير الرأى العام فى الجمهورية العربية المتحدة بالأنباء الداخلية والخـارجية وتعريف بمختلف التيارات العالمية ومحاربة الأخبار المدسوسة والمغرضة ضد ج• ع• م والعالم العربى ، كما تقوم بطبع واصدار الأفـلام عن الأحداث العالمية وتوزيعها بواسطة مكاتبها الى الخارج •

وكانت الدولة ترعى الوكالة منذ انشائها وتمنحها اعانة مالية محدودة تسد العجز فى ميزانيتها تقدر بحوالى ٣٢ ألف جنيه • وظل هذا الوضع حتى عام ١٩٦٢ عندما أصبحت الوكالة احدى شركات القطاع العام ، فمنحتها الدولة اعانة تأسيس واعانة للتوسع وصلت الى نصف مليـون جنيه ، فتمكنت من شراء كميات كبيرة من الأجهزة والمعـدات الحديثة وأجهزة الاستقبال والارسال ، وماكينات التيكرز وقطع الغيار ، وزودت بها المركز الرئيسى وتوسعت فى انشاء المكاتب الخارجية وتعزيز القـائم منها • وبعد أن كانت المكاتب قاصرة فقط على بعض البلاد العربية ، عقدت اتفاقيات مع بعض البلاد الأجنبية ، وفى سنة ١٩٦٧ صدر قرار بتصفية الوكالة لانشاء وكالة جديدة باسم الصحافة العربية المتحدة مع التخلص من جميع العاملين فيها بنقلهم الى وظائف فى الوزارات • ولكن الدور الذى قامت به الوكالة خلال حرب ١٩٦٧ أوقف اجراءات التصفية ثم أعيد تنظيم الوكالة فى ١٩٧١ وأصبحت احدى المؤسسات التابعة لاتحاد الاذاعة والتليفزيون •

❋ ❋ ❋

تسعى كل دولة نامية أن تكون لها وكالة أنبائها الوطنية ، ولكن تبقى مشكلة أبناء البلدان النامية فى معرفة أخبار العالم • ان وكالاتهم المحلية لاتستطيع أن تنتشر فى كافة بلدان العالم • لذلك لابد لهم من أن يعرفوا أخبار العالم من وكالات الأنباء العالمية • وهذه هى مشكلتهم • لأن وكالات الأنباء العالمية مهما حاولت الحياد والموضوعية انما هى تعبر عن مصالح وسياسة وثقافة وحضارة مختلفة ••

والواقع أن عدم حيدة وكالة الأنباء العالمية قد دفع كثيرا من المفكرين الى المطالبة بانشاء وكالة أنباء عالمية تابعة للأمم المتحدة •

والأمر الذى لاشك فيه(٩) ان اضطلاع الأمم المتحدة بانشاء وكالة عالمية للأنباء أو أكثر من وكالة سيكون بمثابة تدعيم عظيم الشأن لمبادىء ميثاق الأمم المتحدة ، وللسلام العالمى • وخطوة أساسية لتأمين حرية ضمير الصحفى العامل فى ميدان نقل الأنباء وجمعها على نطاق دولى والتعليق عليها ، على أن تضفى الأمم المتحدة على العاملين فى هذه الوكالة الدولية نفس الحصانة الدبلوماسية التى تضفيها على سائر موظفيها الدبلوماسيين •

وليس من شك فى أن تحقيق قيام وكالة للأنباء تابعة للامم المتحدة ، وخاصة اذا تفرعت عن تلك الوكالة عدة وكالات اخبارية متخصصة للعلوم والفنون والآداب ، من شأنه حتما زيادة التآلف بين شعوب العالم نتيجة لزيادة معرفة تلك الشعوب معرفة وثيقة بعضها بحياة البعض الآخر ومشكلاته الحقيقية ، أو تقدمه فى نواحى العلوم والفنون والآداب ، والرقى الاجتماعى والانسانى عامة ، وهذه المعرفة الشاملة ستكون بلاشك عاملا هاما فى توطيد دعائم التعاون والسلام العالمى وحل المشكلات العالمية فى جو من الثقة والتفاهم ، الامر الذى يحول دونه حاليا العداء الشديد القائم بين وكالات الأنباء فى الشرق والغرب وانغماسها فى معركة الحرب الباردة أو بمعنى آخر فى معركة التمهيد لفناء العالم ولأن وكالات الأنباء تنقل الأخبار من جميع أنحاء العالم وتوزعها الى معظم أنحاء العالم فيقرؤها الناس فى الصحف أو يسمعونها فى الاذاعات ، أصبحت الأخبار العالمية كثيرة التداول ، وأصبح القارىء والمستمع والمشاهد يهتم بها ويتأثر بها • وبذلك خلقت أو ساعدت وكالات الأنباء فى عالمية الخبر وفى ظهور السمة العالمية لمعظم وسائل الاعلام •

المسرح والسينما :

يعد المسرح من أقدم وسائل الاتصال ، وتمثل طقوس الرقص عند الانسان البدائى بذرة المسرح ونواته ، ولقد عرفت الحضارات القديمة هذه الوسيلة من وسائل الاتصال والفن • وكان للفراعنة مسرحهم ، ولكنه كان مسرحا دينيا قاصرا على الكهنة ورجال الدين • وعندما يذكر تاريخ المسرح فانه يرتبط مباشرة بالحضارة الاغريقية ، فقد اهتم الاغريق بالمسرح وخاصة فى المناسبات الدينية والوطنية • ومن خلال المأساة والملهاة كنوعين متميزين من المسرحيات ، تناولوا موضوعات دينية

واجتماعية وأدبية تهدف الى توعية المشاهدين وتعليمهم ونقد صور الحياة الاجتماعية السائدة •

ويفسر بعض النقاد بروز المسرح الاغريقى وتطوره بطبيعة الديانة الاغريقية التى تصور الآلهة فى صور بشرية يمكن أن تقف على المسرح وتتحدث وأن تمارس فضائل الانسان ونواقصه ، والى طبيعة العقلية الاغريقية وولعها بالحوار والمناقشة والنقد •

ويعكس اهتمام النقاد والفلاسفة الاغريقيين بالمسرحية وأسسها الفنية اهتمام الاغريق عامة بهذا الفن الذى أدى المسرح من خلاله دورا رئيسيا فى الاعلام •

والمسرح ليس تراثا عربيا قديما ، ولكنه نتاج للنهضة العربية الحديثة • وبرغم ازدهار حركة الترجمة فى الحضارة العربية عن الاغريق ، وبرغم أن العرب قد نقلوا — منذ الدولة الأموية — عن الاغريق الكثير من علومهم وفنونهم الا أن المسرح لم ينل اهتمامهم • ويرجع معظم النقاد عزوف الحضارة العربية عن المسرح الى طبيعة الشعر العربى كشعر غنائى لا يصلح للتمثيل ، والى ارتباط المسرح اليونانى بالأطر الدينية الوثنية التى تتعارض مع عقيدة الاسلام محور الحضارة العربية • وعندما تعمق اتصال العرب بأوربا فى القرن التاسع عشر انتقلت المسرحية مع الأفكار الجديدة التى حملها الأدباء العرب نتيجة لهذا الاتصال • وقدم مارون النقاش منشىء المسرح العربى ترجمة لمسرحية البخيل لموليير ، ثم بعض قصص ألف ليلة وليلة ، ومن خلال الاقتباس ازدهر المسرح العربى حتى وقف على قدميه وظهرت المسرحية العربية المتكاملة فى القرن العشرين • ومن الجدير بالذكر أن التليفزيون — وبخاصة فى مصر — استطاع من خلال عرضه للمسرحيات أن يقدم المسرحية لملايين المشاهدين الذين لم يكونوا ليروا المسرح على الاطلاق • واستطاع بذلك أن يوسع من جمهور المسرحية وان ظل جمهور المسرح ضيقا نسبيا • كما أن الراديو — وخاصة المحطات الثقافية — بتقديمه مسرحيات من التراث العالمى باخراج اذاعى ونقد فنى وأدبى أسهم فى انعاش المسرحية كوسيلة اعلام •

وبرغم آلاف السنين التى تفصل بين ميلاد المسرح وبين ميلاد السينما الا أنهما توأمان فى بعض الوجوه ، وان اختلفا فى بعض الوجوه ، فالسينما فن جماهيرى ، وللسينما تأثير على قاعدة الهرم الاجتماعى فى كافة المجتمعات . ورواد المسرح من الطبقات الاكثر ثقافة وقدرة اقتصادية فى كافة المجتمعات وحظ السينما فى الاستفادة من التكنولوجيا أوفر كثيرا من حظ المسرح . اننا عندما نقارن استفادة المسرح بالأضواء والمسرح الدائرى وما شابه ذلك باستفادة السينما بالسينما سكوب وبالأفلام الملونة والأفلام المجسمة صورة وصوتا وغير ذلك .. عندما نقارن لا نتردد فى القول بأن حظ السينما أوفى وأكبر ، وهو ما جعل تأثيرها يصل الى ملايين عديدة من البشر فى كافة الأقطار . ان قصة تطور السينما تتميز بالقفزات المتلاحقة . لقد قدم الاخوان «لويس» و « أوجست لوميير » أول عرض للصور المتحركة فى العالم فى احدى مقاهى باريس فى ٢٨ ديسمبر ١٨٩٥ ، ثم ظهر أول فيلم يبلغ طوله ألف قدم عام ١٩٠٥ ثم ظهر فيلم « كوفاديس » الايطالى عام ١٩١٢ ، ثم نشط الانتاج السينمائى فى الولايات المتحدة عنه فى أوربا بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية (١٠) .. وحمل عام ١٩٢٧ تقدما جديدا أو قفزة جديدة فى الفن السينمائى بظهور السينما الناطقة ، وتلاحقت بعد ذلك القفزات متمثلة فى الفيلم الملون والصوت المجسم وغير ذلك . ثم كان لانتشار التليفزيون أكبر الأثر فى نقل الفيلم السينمائى الى بيوت الناس وأنديتهم . كما أن طبع الأفلام الستة عشر مليمتر والثمانية مليمترات جعل امكانية عرض الأفلام فى البيوت والطائرات والقرى والأندية واسعة هذا الى جانب زيادة عدد النسخ المطبوعة من الفيلم الواحد مما جعل سعة انتشاره فى عدد وفير من دور العرض فى بلدان متعددة ومدن متعددة .

ولقد أطلق أحد النقاد الأوربيين على السينما الفن السابع حيث جاء ترتيبها فى رأيه بعد العمارة والموسيقى والرسم والنحت والشعر والرقص. وهناك اختلاف كبير فى وجهات النظر لتحديد مهمة السينما المعاصرة ، وذلك لأن مفهوم السينما ووظيفتها يختلفان اختلافا كبيرا تبعا لاختلاف النظم الاجتماعية والثقافية السائدة . والسينما هى الصناعة الرابعة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد تكونت رابطة السينما الامريكية فى

العقد الثالث من القرن العشرين كتكتل من المنتجين لحمايتهم — كما يزعمون — من الهزات الاقتصادية .

وقد لعبت السينما الأمريكية دوراً هاما فى خلق اتجاه مؤيد لدخول الأمريكيين الحرب العالمية الثانية مع الحلفاء كما لعبت دورا فى محاولة توجيه الرأى العام فى صالح السياسة الأمريكية فى حرب فيتنام . وعندما حاول بعض المخرجين أن ينقدوا فى أفلامهم السياسة الأمريكية اصطدموا مباشرة بسطوة الرأسمالية الأمريكية ووضعت بعض أسمائهم فى القوائم السوداء مما دفعهم الى الهجرة .

وتنقسم الأفلام السينمائية الى أفلام روائية وهى لب صناعة السينما وجوهرها ، والى أفلام تسجيلية وجرائد سينمائية وهى الأفلام التى تعتمد على الأخبار أو الأحداث بمعنى أدق ، والى أفلام الرسوم المتحركة ، والى أفلام الاعلانات والدعاية كالاعلان عن سلع أو خدمات والدعاية السياحية وما شابه ذلك .

وأشهر تصنيفات الأفلام كما تصنفها أحدى الصحف البارسية المتخصصة هى :

مغامرات	Aventures
كوميديا	Comedies
كوميديا درامية	Comedies Dramatiques
كوميديا موسيقية	Comedies Musicales
رسوم متحركة	Dessins Animes
أفلام قصيرة	Courts Metrages
أفلام وثائقية	Documentaires
دراما	Drames
نفسية	Psychologiques
الاثارة الجنسية	Erotiques
الجاسوسية	Espionnage
أفلام خيالية وعجائب	Fantastique

أفلام موسيقية	Films Musicaux
أفلام سياسية	Films Politiques
أفلام استعراضية	Grands Spectacles
حـــروب	Guerre
بوليســية	Policiers
رعــب	Horreur
رعاة البقر	Westerns

والحدود ليست فاصلة بين أنواع الأفلام المختلفة • فالعلاقة مثلا بين الفيلم التسجيلى والفيلم الروائى أعمق مما يراه البعض بتخصيص الفيلم التسجيلى لقول الحقيقة وتخصيص الفيلم الروائى لسرد القصة •

لقد كان تعريف(١١) السينمائيين القدامى للفيلم التســجيلى هــو التفسير الابداعى للحقيقة ، والحقيقة فى الفيلم التسجيلى لا تعــالج على أنها خلفية العمل السينمائى ولكنها موضوع الفيلم ذاته ، وكان تركيز الفيلم التسجيلى على انجاز تشكيل مماثل للبيئة الواقعية والقوى التى تتحرك خلال التاريخ والثقافة فى مجتمــع من المجتمعات • وعندما جاء الفيلم الروائى بتشويقه الدرامى استعار الفيلم التســجيلى التشــويق الدرامى بدون حركة وبدون خط مسلسل لقصة وانما لتسجيل الحقيقة ، وقد اعانه تطور أساليب « تكنيك » سينما الواقع أو السينما المباشرة •

وقد يكون تعريف الفيلم التسجيلى بأنه التفسير الابداعى للحقيقة موضع نقد • فهذا التعريف قد يبدو مضللا • لأن السؤال الذى يطرح نفسه من هذا التعريف هو : ما هى الحقيقة ؟

ان العلاقات الانسانية الدقيقة والمعقدة التى عالجتهــا وتعــالجها الافلام الروائية هى على وجه التأكيد جزء من الحقيقة بقدر ما تكون كذلك الأوجه الأخرى التى عالجتها وتعالجها الافلام التسجيلية • ان الخرافات والحواديت وقصص الجان لها جذورها فى تربة الحقيقة • وأبطال من أمثال كريشنا وعلاء الدين وسندريلا وجاك القاتل العملاق كل هؤلاء لهم أنماطهم الأساسية فى الحياة الواقعية •• ومن ثم فانه يمكن القول على نحو ما بأن الخرافات والحواديت وقصص الجان والقصص الشعبى هى كذلك تفسيرات ابداعية للحقيقة •

ان العلاقة التى تبدو وثيقة بين الفيلم الروائى والفيلم التسجيلى تدور مع الانواع الاخرى من الافلام بصلات أوثق وبروابط أعمق . ويقف الباحث الأعلامى أمام الأفلام الروائية والجرائد السينمائية وقفة بمعناها الواسع .

ولاشك أن العلاقة بين السينما والشباب (١٢) هى أول العناصر عند قياس تأثيرها على المجتمع . ويرتبط ذلك بتقليد النجوم وأسلوبهم . فى الحب والحديث وملابسهم وزينتهم وطريقة حياتهم كما تبرزها الأفلام وكما تبرزها المجلات . ويجنح الشباب الى تقمص شخصيات أبطال الأفلام فى كثير من الأحيان . وينبغى أن تنتشر أفلام الأطفال ويتسع مداها حتى لا تصبح القاعدة المتفشية ان يشاهد الأطفال الأفلام التى صنعت أصلا للكبار .

ان السينما تمثل للشباب المبكر من أبناء الدول النامية وبخاصة سكان البنادر ومدن الأقاليم زادا أسبوعيا من الترفيه والتسلية وتمضيه وقت الفراغ ينتظرونه بشغف بالغ فى دار العرض الوحيدة أو أكثر من دار عرض فى المدن الكبيرة . ومن هنا يبرز مدى التأثير الذى تصنعه السينما فى عقول الشباب وسلوكهم .

تستطيع السينما أن تخرب عقول الشباب ونفوسهم بخلق عالم حالم مشحون بالمغامرات والحب والأبهة(١٣) والنجاح ، يهيىء للمشاهد جوا من الاسترخاء ، يكون بمثابة المخدر الذى يساعده على الهروب من واقع الحياة ، ويصرفه نهائيا عن خطة التنمية ويبدد طاقاته ويدمرها . ان استغلال الفيلم للاهتمامات الجنسية واثارتها واشاعة أحلام اليقظة والخيال المريض وضربة الحظ والوان التعصب الذميم لا يدمر عقول الشباب ونفوسهم فقط وانما يقضى على المجتمع بأسره .

ما هو الطريق اذن لاسهام السينما فى التنمية ؟ أو بمعنى أكثر شمولا ما هو الطريق السليم الى السينما ؟

ان معالجة الواقع وربطه باتجاه التطور المطلوب هو المحور الذى ينبغى أن تسلكه السينما فى البلدان النامية لتبنى شخصية الانسان الجديد المتحفز للتقدم والذى يواجه تحديات العصر وسدود التخلف وينتصر

عليها . وان تجسد كراهية كل ما هو سيىء ورخيص وسلبى فى حـركة المجتمع نحو التقدم . كل ذلك من خلال الحياة العادية للناس ومن خلال الواقعية بصدقها وبساطتها .

ان المقارنة بين « الفيلم » الممتاز وبين « الفيلم » الساقط وأثرهما على المتفرج كالفرق بين الوجبة الشهية والطعام الفاسد المتعفن . « ان أثر الصورة فى الفيلم الممتاز يحفر فى النفس حفرا ، تكاد الاصابع تمتد من الشاشة الى قلب المشاهد وتحركه . ولكن السينما لا تفعل هذا فى الافلام الهابطة . انها حتى لا تجلس فوق جلد المتفرج انما يحس بهـا الانسان كنوع من « الهاموش » المؤذى الذى يتجمع حول أضـواء الكاميرا ويود الانسـان ان يتناول فى الحال علبة (بايروسـول) ليزيله[١٤] .

وفى مقدور الفيلم الجيد[١٥] ان يجمع بين الحقيقة والخيال ، والواقع والمستقبل ، مما يفتح أمام المشاهدين مغاليق الحياة . ولو اخذنا بالقول بأن الخيال أصل الواقع ، وهو الطريق الى الطموح ، لتأكد لنا عمليا ان السينما حقيقة من الاسس القوية فى زيادة المعارف ورسم الطريق الى النجاح وتحقيق الآمال — ألم تذهب السينما بخيالها الى القمر قبل ان يتحقق ذلك بوقت طويل .. ؟ !

ولعل الاخطاء التى تؤخذ على السينما الامريكية من جانب والاخطاء التى اخذت على السينما السوفيتية فى بعض مراحلها من جانب آخر يمكن ان تجنبنا فى العالم الثالث تكرار مثل هذه الاخطاء وان تقدم لنا فى نفس الوقت دليلا يبعدنا فى العمل السينمائى عن مسـالك الزلل .. وتتلخص الاتهامات الموجهة للسينما الامريكية فيما يلى[١٦] :

١ — انها تباعد بين الجماهير وبين التفكير المنطقى المنظم .

٢ — انها تغرق الجمهور فى عالم هروبى وتبعد الناس عن مناقشة مشكلاتهم الحيوية .

٣ — انها تشوه الحقائق التاريخية ؛ بل لقد وصل بها الامر عام ١٩٣٠ الى انتاج سلسلة من الافلام تمجد الامبراطورية البريطانية وتناصر الاستعمار .

٤ — انها تساعد على الترويج للقيم التعصبية والتفرقة بين النـاس والشعوب وتمجد اسطورة الرجل الابيض ورسالته .

٥ — انها تمجد استخدام القوة والعنف على أسس طبيعية وتمهـد للحرب كنهاية طبيعية حتمية .

٦ — انها تروج نظرية احتقار العمل الجماهيرى والجماعى . وتظهر التكتلات الجماهيرية بمظهر القطيع المسلوب الارادة المنساق كالحيوانات.

وتتلخص اخطاء السينما السوفيتية بالدعاية الفجة فى بعض الاحيان وبتأثرها بعبادة الفرد فى عهد ستالين اذ حلت شخصية ستالين فى بعض الفترات محل الشخصيات الشعبية الاصلية التى يعنى بهـا عادة الفيلم السوفيتى .

والحديث عن مدى الأثر الذى تؤديه السينما لا يمكن ان يخضـع للحصر . ومازالت حكاية الشاب الجـزائرى أحمد الذى كان يعمـل فى مقهى شعبى بساحة بور سعيد فى العاصمة الجزائرية عام ١٩٧١ تشد مشاعرى . كان أحمد أيام حرب التحرير صبيا يقدم للثورة تضحيـات متواضعة ، ويغيظ جنود الاستعمار بمشاهدة الأفلام المصرية . ومن الأفلام المصرة تعلم اللغة العربية . ومازال حديث المناضـل العراقى حميد يملأ سمعى منذ عام ١٩٧٤ ، فى رحلة القطار من بغداد للبصرة . قال ان شباب أسرته كان يشاهد عبد الوهاب فى الفيلم فى العقد الرابع من هذا القرن فيحفظ ألحانه ويرتدى كل منهم حلة تشبه حلته ويضـع المنديل بنفس طريقته . كان الوطن العربى مقسما ومجزءا وكان « الفيلم » يخلق الذوق العربى العام ويوحد المشاعر والوجدان وحتى نمط السلوك والزى .

واذا كان من واجب الاعلام فى أى مجتمع أن يقدم للمجتمع الدولى الشخصية الوطنية فان الفيلم يقوم بهذا كله وبصورة أكثر شمولا وأوقع أثرا لانه يستخدم عناصر الدراما ولا يقتصر على عناصر الخبر .

الكتـــاب :

يحظى الكتاب بشىء من الاحترام كوسيلة من وسائل الاتصال . وهو بخصائصه الذاتية يجمع بين فضائل وسيلة الاتصال الجمـاهيرى بحكم الاعداد المطبوعة منه وبين فضائل الاتصال المبـاشر لأن القـارىء

لابد وأن يخلو له ويعد نفسه ويتهيأ للقراءة . ولان الكتاب يمتاز بالعمق والدراسة ، فهو وسيلة مفضلة للباحثين عن المضمون الجاد . ويرتبط انتشار الكتاب بالمستوى التعليمى فى المجتمع ، فكلما ارتفع مستوى التعليم زاد توزيع الكتب . وكلما انخفض مستوى التعليم تقل قراءة الكتب . والمدينة هى بيئة الكتاب فهو يقل أو يكاد ينعدم فى القرية ، غير ان وسائل الاعلام الاخرى تقلل تدفق الكتاب فى العواصم الكبرى بمغرياتها وبتبديد طاقات التطلع للمعرفة لدى الراشدين من الشباب .. ولان جمهور وسائل الاعلام متداخل ، فان الظروف التى تمنع بعض الوسائل من الاستحواذ على جمهورها تتيح الفرصة لوسائل اخرى من الاستحواذ على نفس الجمهور . لقد ساعدت فى مصر ظروف الحرب العالمية الثانية فى زيادة توزيع الكتب ، لان وقت البقاء فى البيوت اضحى أطول ولأن المسارح ودور السينما والنوادى فى ظل الغارات الجوية تفقد معظم روادها .

وتقول احصائيات(١٧) عديدة ان الاتحاد السوفيتى أكبر دولة منتجة للكتب . فربع انتاج الكتب فى العالم يطبعه السوفيت . وهناك ثلاثة دور نشر كبيرة تنشر كتبا بلغات أجنبية تبلغ حوالى ٥٦ لغة منها اللغة العربية . وفى الاتحاد السوفيتى ٣٦٠ ألف مكتبة للاطلاع يزورها سنويا ما يزيد على ١٨٠ مليون قارىء . ولديهم ٢٠٠ دار نشر كبرى تصدر ثلاثة آلاف نسخة فى الدقيقة الواحدة وأربعة ملايين نسخة فى اليوم الواحد .

ولقد أطلق على الشعب السوفيتى بأنه شعب قارىء للكتب . وقد عزى بعض المحللين الغربيين (١٨) عادة قراءة الكتب لدى الشعب السوفيتى الى خلو وسائل الاعلام الجماهيرى من أسباب التسلية بل وعدم وجود هذه الوسائل نفسها . فالمجلات والصحف والراديو والتليفزيون ليست على نطاق واسع ، والموجود منها ذو طابع سياسى .. واذا كان ذلك فى الماضى فالمجتمع السوفيتى الآن يجتاز ثورة فى وسائل الاعلام الجماهيرى . لا بالنسبة لتوفير التليفزيون فحسب .. بل ويبذل جهدا ضخما فى جعل محتويات هذه الوسائل خفيفة ومسلية .

ويرد بعض الباحثين ذلك التطور الى تأثير الاتصال الدولى على الاتحاد السوفيتى ، ويتساءل هؤلاء الباحثون . اذا كان البعض يعلل انتفاضات بعض الشباب الى مرحلة المراهقة وصراع الاجيال ، فكيف

يفسر لنا هؤلاء اهتمام الشباب السوفيتى بالموسيقى الغربية ، ولماذا يهتم الفنانون السوفيت بطبع اللوحات التجريدية . وهناك من يرى تشابها بين اشكال الثورة الفردية فى كل من الاتحاد السوفيتى والغرب ، بسبب وسائل الاتصال أى ان وسائل الاتصال الدولية الكافية فى رأى هؤلاء . تجعلنا جميعا جزءا من حضارة واحدة يؤثر فيها كل منا على الآخر ويتأثر به .

وليست هناك علاقة ثابتة بين ارتفاع المستوى الاقتصادى وزيادة توزيع الكتب ، فقد تزهد المجتمعات المترفة فى الكتاب وتلجأ الى وسائل أكثر ترفيها . وقد تكون هناك سمات خاصة للثقافة الوطنية فى مجتمع من المجتمعات تجعل للكتاب أو لنوع من الكتب وضعا اكثر انتشارا ، فمن الشائع بين المثقفين العرب ان العراق من اكثر العرب قراءة للشعر ، وان المصريين من اكثر العرب قراءة للقصة الطويلة . واذا تأملنا تحليلا امريكيا لازدهار الكتاب فى أوروبا عنه فى امريكا .. فاننا نجد عمقا تاريخيا لهذه الظاهرة .. ماذا يقول التحليل الامريكى[١٩] ؟

« ومما يلفت نظر الاجانب المولعين بالملاحظة . ان الامريكيين ليسوا قراء كتب . وهناك شىء من الصدق فى تعميمهم هذا ، فبينما تجد ان الأوروبيين قراء كتب ، فان الامريكيين يتميزون بقراءة الدوريات . ولعل مما له مغزاه ان أقل من ١٢ صحيفة من الصحف اليومية البالغ عددها ١٧٦١ فى الولايات المتحدة الامريكية ـ تصدر ملاحق منتظمة لاستعراض الكتب » .

وقد أشار هلموت ليمان هاويت ـ وهو مؤرخ لنشر الكتب ـ ان الكتب فى امريكا تعتمد على الصحافة الدورية القوية . وعلى النقيض من ذلك لا يوجد هذا الاعتماد فى أوروبا ، حيث للكتب تقاليدها الخاصة بها ، وهى أقدم وأكثر أصالة من تقاليد الدوريات . وقد اكتشف ان سر الاختلاف بين الاتجاهات التى يتخذها الاوربيون والامريكيون نحو الكتب يكمن فى الاختلاف بين الأغراض التى استخدمت الطباعة من أجلها اصلا فى القارتين . فيقول ان الطباعة فى أوربا ، قد بدأت فى مجتمعات استقرت طويلا باعتبارها وسيلة سهلة وزهيدة الثمن لنشر التراث الادبى المتراكم من كنوز المخطوطات فى العالم القديم وعالم القرون الوسطى . أما فى امريكا فقد اصبحت الطباعة قوة هامة للتعمير

والتوسع غربا ، ويضيف : « لقد غزت المطبعة الاوربية الفكر أساسا ، أما المطبعة الأمريكية فقد غزت العمـل أساسا . وفى أوروبا كان معنى الطباعة منذ البداية هو الكتب ، أما فى أمريكا فقد كان معنى الطبـاعة منذ البداية تقريبا هو الصحف » .

ومع ذلك ، فقد تحول قراء الكتب من طبقة محددة الى جمهور شعبى عريض بنفس الطريقة التى حدثت للصحف والمجلات . وفى انجلترا تحول الجمور القارىء للكتب من الطبقة العليا الى الطبقة الوسطى فى القرن الثامن عشر . ففى منتصف هذا القرن ، لم يعد المفكرون والأدباء يكتبون لدائرة معارفهم الصغيرة . ولكن بدلا من ذلك كان الروائيون من الطبقة الوسطى ، أمثال ريتشارد سون وفيدلنج ، يكتبون لجمهور الطبقة الوسطى ، وكان الكثير من أفرادها يقرءون الشعر لانهم يسمون بأنفسهم من خلال استمتاعهم بالشعر . وفى أواخر القرن ، كان التعليم ومعه قراءة الكتب ، قد تغلغلا بين الطبقة العاملة وكان الجمهور القارىء الجديد لايزال صغيرا بالقياس الى جماهير القراء الضخمة بعد ذلك الوقت ومع ذلك فقد كان كبيرا بالقياس الى المراحل السابقة . ويبدو ان هذا التحـول فى الجمهور قد صـاحبه ميل أشد للقراءة من أجل المتعة والاسترواح اكثر مما مضى ، وهو اتجاه اسهم فى تطور القصة الطويلة والولع الشديد بقراءة الرواية الذى عم انجلترا نحو نهاية القرن الثامن عشر .

وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، كانت أغلبية مايقرؤه الأمريكيون وافدة من انجلترا ، ويعنى بذلك الكلمات لا الكتب فلم تكن الكتب المنشـورة فى انجلترا تتمتع بحماية حق المؤلف فى هذه البلاد ، وقد وجد الناشرون الأمريكيون أنه من الأربـح لهـم أن يعيـدوا طبع الكتب الانجليزية دون ان يدفعوا شيئا للمؤلفين ، بدلا من المغامرة بالتعـاقد مع كتاب امريكيين . وكان من نتائج ذلك زيادة عدد الكتب زهيدة الثمن الموجهة للجماهير فى هذه البلاد عنه فى بريطـانيا . وحتى بعد منتصف القرن التاسع عشر ، عندما اصبحت الكتب المعاد طبعها رخيصة الثمن فى انجلترا ، استطاع الناشرون الامريكيون اصـدار نفس تلك الكتب فى نيويورك بأسعار ارخص .

الخطبـــة :

لاشك أن الخطبة هى أقدم وسائل الاتصال ، وهى بعد القصيدة أقدم الفنون الأدبية أيضا • وكانت الخطابة عند « أرسطو » تعبيرا عن الأعلام ، كما نطلق لفظ الصحـافة على مختلف وسائل الاتصـــال الجماهيرى ، فقد عرف الفيلسوف القديم دراسة الخطابة بأنها البحث عن جميع وسائل الأقناع المتوفرة • وقسم دراستها الى الشخص المتحدث ثم الحديث ثم المستمع ، وكأنما أراد ان يقترب من السؤال المشـــهور الذى نمسك بمفاتيحه عند حديثنا عن وسائل الاتصال فى قولنا : من يقول ماذا ولمن وبأى وسيلة وبأى تأثير ؟ • وقد عرفها العرب منذ الجاهلية وكان لها عندهم شأن عظيم ولعل اسواق العرب اكبر دليل على ذلك • وهى وسيلة اتصال ترتبط بالجماهير ارتبـاطا مباشرا • وتزدهر فى المواقف والظروف التى تثير مشاعر الجماهير وتلهب عواطفهم • ولاشك انها من أبرز وسائل الاتصال ارتباطا بالثورات السياسية والاجتماعية والثقافية • وموضوع الخطابة ــ كما يقول ابن خلدون ــ هو الاقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور الى رأى أو صدهم عنه • هذا الى جانب الخطـابة الدينية التى تزدهر عندما يتوفر لخطبـائها قدر من الذكاء الاجتمـاعى والثقافة العامة فترتبط قواعد الدين بحيـاة الناس اليوميـة وشـــئون معيشـــتهم •

ويرى النقاد انه ينبغى أن تكون مادة الخطبة واضحة المعانى ، سليمة الافكار يسهل فهمها على عامة الجمهور حتى يتفاعل معها • وينبغى ان تكون عباراتها قصيرة الفواصل ، قوية التأثير • كما يؤكد النقاد على شخصية الخطيب وأثرها فى نجاح الخطبة ، فالخطيب الحاضر البديهة ، **السليم النطق ، القوى الشخصية ، يعتمد على قوة شخصيته أكثر من** اعتماده على قوة كلماته وعباراته •

ولاشك أن المناظرة والندوة والمؤتمر والملتقى صور من صور الخطب والأصل فى الندوات (٣) أو (المآدب الفكرية) انها اجتماعات صغيرة أو كبيرة أقيمت لمناقشة موضوعات هامة وخطيرة ، وقد يكون من الخير الندوة أن يكون عدد الحاضرين فيها قليلا أو محدودا • فان ذلك يتيح الفرصة للمناقشة العميقة المفيدة ، أما اذا كان عدد الحاضرين كبيرا فان ذلك يكون ادعى لتشويش الافكار ، وارهاق الاعصاب •

وترتبط الخطبة فى تاريخها القديم والحديث بالديمقراطية ، لقد كانت مقارعة الحجة بالحجة فى أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام وكانت الخطابة عند اليونان والرومان تعبيرا عن الديمقراطية والحرية ، ولاشك ان الاشكال الجديدة المنبثقة عن تطور الخطابة كالمناظرة والندوة والمؤتمر تدفع رجل الاعلام الى تأمل جانب الديمقراطية بينها جميعا . ان الحوار بين اثنين بمفردهما أو بحضور عدد محدود يختلف عن الحوار بينهما فى مؤتمر أو ندوة ، فكلما كان الحوار فى محيط ضيق تميز بمحاولة البحث عن الحقيقة وبقلة النفاق الاجتماعى ، وكلما اتسع جمهور الحوار برزت محاولة الكسب بغض النظر عن الحقيقة . وبرز النفاق الاجتماعى فى صورة عدم التنازل عن الرأى . وذلك أمر طبيعى لان هم المتحاورين لا ينصب على أقرانهم فى الحوار وانما يصبح جمهور المستمعين هو هدف كل متحاور ، لان هذا الجمهور الصامت هو الذى يستمع ويقارن ويقرر ويتخذ موقفا بالتأييد أو الرفض .

النشـــرة :

قد ينظر القارىء بشىء من عدم الاكتراث الى النشرة كوسيلة اعلام . ولكننا كاعلاميين ينبغى ان تكون لنا نظرة مختلفة . ان النشرة لاعضاء الحزب والنشرة للسياح وللمتخصصين وسيلة اعلام مناسبة تتفوق فى تأدية أهدافها على وسائل اعلام الكترونية ضخمة . وللنشرة أهمية أخرى أكبر خطرا واكثر فائدة عندما تصبح كالكلام البليغ السهل الممتنع . فمثلا تصبح الدراجة فى بعض الاحيان أهم فى الانتقال من السيارة عندما تضيق الطرقات الى الحد الذى لا يسمح للسيارة بالمرور . وبرغم ان ذلك لا يحدث الا نادرا الا انه ممكن الحدوث مرة ثانية اذا لم نجد للسيارة البترول الذى يدير محركها .

وفى الخمسينات ، قامت القوات الجوية الامريكية بتمويل[٢١] دراسات فى هذا المجال لتقدر بدقة قيمة المنشورات الملقاة من الطائرات ، كوسيلة دعاية أو كوسيلة اعطاء معلومات حيوية فى حالة تعطل خطير لطرق الاتصال الطبيعية ، مثلا بعد انفجار قنبلة ذرية . وبعض نتائج هذا البحث لم تأت بجديد ، مثل النتيجة القائلة بأن الاشخاص الغرباء عن بعضهم البعض نادرا ما يوصلون لبعضهم موضوعات المنشورات ، بينما جاءت بعض النتائج الاخرى اكثر فائدة وايجابية ، مثلا حقيقة

ان الاطفال يلعبون دورا ذا أهمية لم يكن يقدره أحد بنشر المنشورات التى يحبون جمعها ، وكذلك الرسائل المكتوبة ، ويتوجهون عادة للكبار المعروفين لديهم أكثر من الجيران أو الغرباء •

ان المقارنة بين وسيلة اعلام واخرى يشبه الى حد كبير اختيار المعلن وسيلة أو أكثر لنشر اعلانه ، ولاشك فى انه يعتبر اختيار وسيلة نشر الاعلام المناسبة من أهم عناصر نجاحه •

والاعلامى الناجح يقاس نجاحه بمدى قدرته على الوصول بالرسائل الاعلامية الى جمهوره • وبقدر اختياره للوسيلة المناسبة بقدر نجاحه •• وهناك عدة مقاييس يضعها رجل الاعلام فى اعتباره عند المقـارنة بين وسـيله واخرى •

أولا : شخصية الوسيلة :

وتتكون شخصية الوسيلة من :

المساحة الجغرافية : التى تصل اليها هذه الوسيلة • فقد يرغب رجل الاعلام فى الوصول الى حى معين من أحياء المدينة ، وقد يـرغب فى الوصول الى سكان مدينة بأكملها ، أو يرغب فى الوصول برسـالته الاعلامية الى سكان الجمهورية كلها أو سكان الوطن العربى أو حوض البحر المتوسط وهكذا • ومن هذه الزاوية نجد ان رجل الاعلام احيانا يريد الوصول برسالته الاعلامية الى دائرة قطرها عدة امتار ، وأحيانا الى دائرة قطرها آلاف الكيلو مترات •

كما تتكون شخصية وسيلة الاعلام أيضا من **قدرتها على الوصول** الى مجموعات خاصة تربطهم رابطة واحدة مثل رابطة المهنة • مثال ذلك مجلة طبية ، فلاشك ان قراءها معظمهم من الاطباء • ووجود وسـيلة اعلام تصل الى مجموعة معينة يحتاج رجل الاعلام الوصول اليها ليحقق هدفين فى وقت واحد الاول وصول الرسالة الاعلامية للاشخاص الذين يريدهم والثانى توفير النفقات والوقت والجهد •

وتتكون شخصية وسيلة الاعلام ايضا **من خصائصها الحسية ..** **هل هى** وسيلة ناطقة أو وسيلة مكتوبة أو وسيلة مرئية . حتى يستطيع رجل الاعلام ان يفاضل وان يقارن بين مختلف الوسائل التى تنقل رسالته بالطريقة السمعية أو الطريقة المكتوبة أو بطريقة السمع والبصر . كما يمكنه ان يفاضل بين استخدام الحركة او الالوان . ويفاضل ايضا بين أنواع الورق وطريقة الطباعة ..

النقطة الرابعة التى تتكون منها شخصية وسيلة الاعلام هى **فترة اهتمام الجمهور بهذه الوسيلة والمقصود** بفترة اهتمام الجمهور هو الوقت الذى تعيشه وسيلة الاعلام أى المدة التى يحتفظ بها ، فحياة الجريدة مثلا هو يوم صدورها وحياة المجلة الاسبوعية هى الفترة ما بين يوم صدورها ويوم صدور العدد التالى ، وحياة البرنامج الاذاعى أو التليفزيونى هو وقت اذاعته . ولاشك ان فترة اهتمام الجمهور بالوسيلة تختلف عن الاثر الذى تتركه الوسيلة اختلافا بينا . فقد تقرأ كتابا وتغير مجرى حياتك أو تشاهد مسرحية تعيش فى مخيلتك اعواما طويلة .

ثانيا — الجو الذى تخلقه وسيلة الاعلام :

والمقصود به الاثر الذهنى والنفسى الذى تخلقه الوسيلة لدى القارىء أو المستمع أو المشاهد وهذا الاثر النفسى يؤثر فى نجاح فكرة الرسالة الاعلامية أو فشلها . ونضرب مثلا لتوضيح الجو الذى تخلقه وسيلة الاعلام بالمجلات النسائية التى تبرز مادتها التحريرية الطرق الحديثة فى تربية الاطفال وتغذيتهم ، فى هذه الحالة يكون ذهن القارئة مهيأ لتلقى الموضوعات والنصائح والاعلانات الخاصة بألبان الأطفال أو ألعاب الاطفال ، وكذلك فى الحديث عن الجو الذى تخلقه وسيلة الاعلام ينبغى مراعاة الحالة النفسية التى يكون عليها المتلقى أثناء وصول الرسالة الاعلامية اليه أى اذا كان ذلك يتم فى جو من المرح والسرور والهدوء ، أو يقرأ ويسمع فى جو من الوقار أو التفكير الجدى أو الاضطراب النفسى .

ثالثا — عدد الاشخاص الذين تصل اليهم الوسيلة :

العنصر الثالث الذى ينبغى وضعه فى الاعتبار عند اختيار وسيلة الاعلام هو عدد الاشخاص الذين تصل اليهم وسيلة الاعلام وذلك توفيرا للوقت والنفقات ، والمقصود بالاشخاص الملائمين هؤلاء الذين ينتظر منهم

قراءة أو استماع أو مشاهدة الوسيلة ، فصدور جريدة يومية فى اقليم نسبة الامية فيه ٩٠٪ أو اذاعة مواد البرنامج الثانى فى برامج ريفيـــة يبين أن عدد الاشخاص الذين تصل اليهم الوسيلة قليل جدا ٠

رابعا ــ اقتصاديات الوسيلة :

ونقصد به كم تكاليفها ؟ وكيف يمكن تدبير ميزانيتها ؟ وهل تتناسب مصروفاتها مع مواردها ؟ ومع الدور الاعلامى الذى تؤديه ؟ ان ميزانية محافظة من المحافظات مثلا لا تستطيع ان تتحمل اصدار صحيفة اقليمية قوية ، ولكن اشتراك عدد من المحافظات التى تشكل اقليما واحدا يغطى مثال هذا الموضوع ٠٠

* * *

وانى أؤيد ما اتفق عليه عدد كبير من أساتذة الاتصال بأن التعرض لوسائل الاعلام فى غالب الأمر تعرض انتقائى ٠ وذلك لأن هناك علاقة ايجابية بين آراء الناس وما يختارون قراءته أو سماعه أو مشاهدته ٠٠ ومن ثم فان معظم الناس يعرضون انفسهم غالبية الوقت لوسائل الاتصال التى تتلاءم مع اتجاهاتهم ، وما يقرونه ، ويميلون اليه ٠

ويعمق أساتذة الاتصال هذه الفكرة(٣) بتقسيمها الى أربعة عناصر: أولا : التعرض الانتقائى ، وهو ميل الافراد الى تعريض أنفسهم اختياريا لرسائل عن طريق وسائل الاعلام التى يهتمون بها ، والتى تلائم اتجاهاتهم وأراءهم ٠ وانهم يتجنبون شعوريا أو لا شعوريا رسائل وسائل الاعلام التى لا تتلاءم مع اتجاهاتهم وميولهم ٠ ثانيا : الادراك الانتقائى : هـــو ميل الافراد الى تحريف معنى رسالة من رسائل وسائل الاعلام أو تشويهها اختياريا حتى تصبح أكثر ملاءمة لاتجاهاتهم الراهنة أو لخبراتهم ٠ ثالثا : التذكر الانتقائى : وهو ميل الافراد الى ان ينسوا بسرعة أكثر تلك الرسائل الاعلامية التى لا تتفق واتجاهاتهم وميـــولهم ، ويتذكرون الرسائل التى توافق اعتقاداتهم واتجاهاتهم وميولهم ٠ رابعا : القرار الانتقائى : وهو ميل الافراد الى تجنب تأثرهم برسائل وسائل الاعـــلام التى لا تتلاءم مع اتجاهاتهم وميولهم ٠

وفى ختام الحديث عن الاعلام المقارن وعن شخصية الوسيلة نجد أن باب البحث فى هذا المجال يحتاج الى العديد من البحـوث النظرية والميدانية ، ويكفى أن نشير الى شخصية راديو السيارة كرفيق فىالطريق، ومدى الاختلاف من هذه الزاوية عن شخصية الصحيفـة اليوميـة التى تخصص صفحتين من صفحاتها لاعلانات الوفيات . ان التشابه الظاهرى بين وسائل الاعلام لا يخفى عن الباحث أو حتى عن المتتبع المدقق مدى الاختلافات التى تميز كل وسيلة وتضفى عليها شخصيتها الخاصة .

الهـوامش

(١) د. جيهان رشتى ، الاسس العلمية لنظريات الاعلام ، دار الفكر العربى سنة ١٩٧٥ ص ٨٢ ، ٨٣ .

(*) يختلف هذا المفهوم عن مفهوم الاتصال من الناحية الهندسية الذى يعنى نقل المعلومات أى الرسالة من المرسل الى المستقبل بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة كتحويل الصوت أو الصورة الى طاقة كهرومغناطيسية يلتقطها جهاز الاستقبال فيحولها الى صوت وصورة .

(٢) د/ عبد اللطيف حمزة ، الاعلام له تاريخه ومذاهبه ، الطبعة الاولى دار الفكر العربى ١٩٦٥ ص ٢٣ .

(٣) محمد حسنين هيكل — بصراحة ، الحسابات الاسرائيلية ، جريدة الأهرام ، العدد ٢٩٧٤٣ بتاريخ ١٩٦٨/٥/١٧ .

(٤) د/ عبد اللطيف حمزة ، الاعلام له تاريخه ومذاهبه ، الطبعة الاولى دار الفكر العربى ١٩٦٥ ص ٢٣ .

(٥) لابد من أن نذكر أن التراث وهو جزء من التاريخ يختلف المفكرون فى تفسيره اختلافا شديدا وفقا لفلسفة كل منهم ، كما أن تقييم التراث موضع خلاف شديد أيضا .

(٦) فى مختار الصحاح ثقف الرجل من باب ظرف صار حاذقا خفيفا فهو ثقف مثل ضخم ومنه المثاقفة . وفى مختار الصحاح أيضا أن الثقاف ما تسوى به الرماح وتثقيفها تسويتها ، وفى لسان العرب ثقف الرجل صار حاذقا فطنا .

من ذلك نرى أن كلمة ثقافة فى اللغة العربية مجاز مأخوذ من تثقيف الرمح أى تسويته . ومن الشعر العربى القديم قول ابن دريد : والشيخ أن قومته من زيغة لم يقف التثقيف منه ما انحنى . والتثقيف هنا بمعنى التهذيب والتقويم الخلقى .

وفى اللغة الانجليزية نجد أن معنى الثقافة فى الكلمة Culture معنى مجازى انتقلت اليه الكلمة من المعنى الحسى الاصلى ، وهو معنى الزراعة أو التربية (المادية) ولهذا تدخل كلمة Culture فى تركيب كلمة الزراعة فى اللغة الانجليزية Agreture

(د / شكرى محمد عياد — ملاحظات نحو تعريف الثقافة — تأليف ت.س اليوت وزارة الثقافة والارشاد القومى . المؤسسة المصرية العامة التأليف والترجمة والطباعة والنشر — مطبعة مصر ص ٢٣) .

ويشرح القاموس الفرنسى « لاروس » La Rousse كلمة ثقافة culture بأنها مجموع المعارف المكتسبة من تعلم ومعرفة .

ويرى الدكتور / عبد الحميد يونس أن الثقافة هى المجال الاجتماعى لجميع الافراد فى قومية من القوميات أو فى وطن من الاوطان . (عبد الحميد يونس — فن الاذاعة — أثر الاذاعة فى المجتمع — مركز التربية الاساسية فى العالم العربى بسرس الليان — ج.ع.م. — دار المعارف ١٩٥٨ ص ١١ .

ويرى محمود أمين العالم أن الثقافة كتعبير فكرى أو أدبى أو فنى أو كطريقة خاصة للحياة ، انما هى فى الحقيقة انعكاس للعمل الاجتماعى الذى يبذله شعب من الشعوب بكافة فئاته وطوائفه ، ومظهر لما يتضمنه هـذا العمل الاجتماعى من علاقات متشابكة ، وجهود مبذولة ، واتجاهات ، فالاساس الذى تقوم عليه الثقافة اذن ليس شيئا جامدا ، أو عقيدة محددة ، وانمـا هى عملية لها عناصرها المتفاعلة واتجاهاتها المتطورة .

(محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ، الثقافة المصرية ، دار الفكر الجديد — ١٩٥٥ — ص ١٨) .

(٧) د / خليل صابات — الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم — الطبعـــة الثانية دار المعارف ص ١٨ .

(٨) د. مختـــار التهامى . الاعلام والتحـــول الاشتراكى ، الطبعة الاولى دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٩) د / مختار التهامى — الصـــحافة والســــلام العالمى — المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية — نشر الرسائل الجامعية — ١٩٦٤ ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

(١٠) د . مختـــار التهامى — الاعلام والتحول الاشتراكى — الطبعـــة الاولى — دار المعارف بالقاهرة — ١٩٦٦ ص ٦٢ ، ٦٣ .

(١١)
James E. Combs and Michael, W. Mansfield. Drama in Life. The use of Communication in Society - Hastinge House Publishers. New York, 1976 — P. 370.

(١٢) تثبت الدراسات الاحصائية أن الشباب يمثلون اغلبية مشاهدى الافلام السينمائية . ولا شك أن ملاحظة هذه الظاهرة حتى لغير المتخصصين تؤكد ذلك ، وتبلغ نسبة المراهقين من رواد السينما نسبة عالية فان ٤٠٪ فى العالم من اجمالى رواد السينما تقل أعمارهم ٢١ سنة .

(١٣) د . مختار التهامى — الاعلام والتحول الاشتراكى — الطبعة الاولى — دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٦ ص ٦٩ .

(١٤) يوسف ادريس — من مفكرة — جريدة الاهرام ١٩٧٦/٥/٢٨ .

(١٥) د. مختار التهامى — الاعلام والتحول الاشتراكى — الطبعة الاولى — دار لمعارف بالقاهرة ١٩٦٦ ص ٦٢ .

(١٦) د . مختار التهامى — الاعلام والتحول الاشتراكى — الطبعة الاولى — دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٦ ص ٧٦ ، ٧٧ .

(١٧) معرض الكتاب الدولى بالقاهرة عام ١٩٧٥ .

(١٨) د . أحمد بدر ، الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية ، دار القلم ١٩٧٤ ، ص ٢٩١ .

(١٩) وليام ل . ريفرز وآخرون — ترجمة د . ابراهيم أمام — وسائل الاعلام والمجتمع الحديث — دار المعرفة بالقاهرة مؤسسة فرانكلين) — القاهرة ١٩٧٥ — ص ٧٠ ، ٧١ .

(٢٠) د. عبد اللطيف حمزه — الاعلام له تاريخه ومذاهبه — دار الفكر العربى ١٩٦٥ ص ١٨ .

(٢١)

A. H. W. Beck, Les Telecommunications. Hechette Paris 1967, P. 10 - 11.

(٢٢) د. شاهيناز محمد طلعت — دور وسائل الاعلام فى القضية الاجتماعية فى مصر ، دراسة تطبيقية على احدى القرى المصرية ، رسالة دكتوراه . كلية الاعلام جامعة القاهرة .

الفصل الثالث

نظريات التنميـــة

لم تفت فكرة التطور والتقدم والحضارة ورقى الدول وهبوطهـا فلاسفة ومفكرى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وما قبلهما . لقـد عالجها الاقتصاديون من امثال « هربرت سبنسر » الذى رأى ان المجتمع ينمو نموا عضويا ، وان هذا النمو العضوى يزيد التعقيد من جـانب ويبرز ضرورة الاعتماد المتزايد والمتبادل بين الاجزاء المختلفة من جانب آخر . كما عالجها علماء اجتماع من امثال « أوجست كونت » الذى رأى أن على المجتمع أن يوجد الخصائص التى تحكم التطور والتقدم . وكل هذه المعانى وما شابهها هى تعبير عـن محاولة النظر فى التنميـة وان كانت الكلمة بعينها لم تكن مستخدمة فى هذا الصدد .

ومن البديهى ان ندرك ان الفكر « الماركسى » هو نظرية فى التنمية، وانه فكر أوروبى ثار على الفكر السائد قبله ونقده من أساسه . ومن البديهى أيضا ان نربط بين نظرية العالم العربى ابن خلدون فى رقى الدول وانحطاطها وبين التنمية تلك النظرية التى سبقت والتى تأثر بها كثير من علماء الاقتصاد والاجتماع الاوربيين وهم يعالجون فلسـفة التنمية فى القرن العشرين ، وكرروا ما ســبق لابن خلدون أن قاله فى القرن الرابع عشر .

لقد تحدث « ابن خلدون » فى القرن الرابع عشر الميلادى عن واقعات العمران البشرى وأحوال الاجتماع الانسانى الذى هو عمـران العالم ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومعاشهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الاحـوال .

وتعد نظرية « أرنولد توينبى » فى تفسيره تطور المجتمعات الانسانية، شاهدا فى القرن العشرين على أن التنمية وان لم تذكر بالاسم هى العنصر الاساسى فى تفسير التطور الانسانى أو هى بمعناها الشامل جوهر التطور الاجتماعى الانســانى • وتسمى نظــرية « توينبى » نظــرية « التحدى والاستجابة » ومعناها ان تطور المجتمعات الانسانية وانتقالها الى أوضاع حضارية أكثر ارتقاء انما يعتمد على القوة المحركة التى تخلقها الظروف الصعبة • وليست نظرية « توينبى » الا تفسيرا فلسفيا لمؤرخ يفسر حقائق التاريخ ويحللها • ولم يقصد بها ان تكون نظــرية من نظريات التنمية ، ولكنها بشكل ما تؤكد أن مفهوم التنمية معناه الشامل لم يفت المفكرين من « ابن خلدون » فى القرن الرابع عشر الى » توينبى « فى القــرن العشرين •

نظريات التنمية أو فلسفات التنمية اذن ليست وليدة هــذا القرن ولكنها برزت فى هذا القرن كرد فعل للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية التى يعيشها العالم •

النظرية العامة للتنمية :

يقع الخلط فى زماننا للمفاهيم لعدم انطباق الألفاظ على المعانى • ومرد ذلك الى تفريعات العلوم ، واستخدام كل علم لقاموسه ومفرداته • وفى الوقت نفســه للعلاقة المشتركة بين فروع العلوم المختلفة ، وبخاصة العلوم الانســانية • وتحظى كلمة « نظرية » بنصيب وافر من تعدد الفهم فى كل ســياق علمى حتى يختلط أمرها • فهى تتســع احيــانا لايدلوجية شــاملة وتنحصر أحيــانا فى وجهة نظر باحث • ونظريات التنمية تكــاد توازى أســاليب التنمية كما توازى نظم التنمية أو فلسفــات التنمية أو نماذج التنمية أو انمــاط التنمية أو ملامح التنمية• وأعتقد انه اذا أمكن صياغة كل ذلك فى نســق شامل ومركب وحى فان تعبير نظرية للتنمية يكون صحيحا ومعبرا عن النظرية العامة للتنمية • والباحثون فى العلوم الانســانية يستخدمون مصطلح نظرية علم كذا أو علم كذا بمعنى يقترب اقترابا شــديدا من المصطلح الذى استخدمناه فى حضــارتنا العربية وتراثنا العربى موضــوع علم كذا أو علم كذا • وكلا التعبيرين يهدف الى تحديد هوية العلم وغايته أى تحديد موضوعه وأهدافه • وقياســا على هذا المفهوم العام أصبحنا نجد الباحثين الذين يتحدثون عن نظرية التنمية بمعنى النظرية العامة للتنمية •

وفى بســاطة شديدة ووضوح أشد يقول « جون ميدلتون » : أغلب العالم من الفقراء ، وبعضــه من الأغنياء • وتلك هى المشــكلة الأساسية التى تسعى نظرية التنمية الى مواجهتها • كيف يمكن للشعوب الفقيرة ان تحقق حياة أفضل لمواطنيها ؟

وربما كان هناك اتفاق على هذه الطريقة فى عرض المشــكلة بين منظرى التنمية ذوى الآراء البالغة الاختلاف • ذلك الاختلاف الذى يتعلق باغراض التنمية وبطبيعتها وغير ذلك من التفــاصيل • ويتعلق الاختلاف بين منظرى التنمية بنبذ بعضهم للنماذج القديمة والبحث عن نماذج جديدة •

وقد ظهرت النماذج القديمة عقب الحرب العالمية الثانية ، وعرفت التنمية بعبارات اقتصــادية • واعتبر النــاتج القومى الاجمالى المؤشر الرئيسى • وعرفت الحياة الأفضل — بشكل عام — بأنها الحصول على دخل أكبر • فهذه هى الطريقة التى ينتقل بها الفرد من الفقر الى الغنى • وتأتى زيادة الدخل بالدرجة الأولى من تصنيع المجتمعات النــامية ، ويتحقق ذلك بنقل رأس المال والتكنولوجيا من البلدان الغنيــة الى البلدان الفقيرة • وكان أبرز مثال صيغ فى شــكل قضية شرطية متصلة بهذه النظرية هو : « اذا اتبعت البلدان النامية طريق التنمية الذى اتبعته المجتمعــات الغربية ، وقبلت نفس تعريف التنمية بأنها زيادة الدخل فان نوعية الحياة ستتحسن » • ونشــأ من هذه النظرية أغلب العمل الذى اتسمت به استراتيجيات التنمية فى العقد الســـادس من القرن العشرين • واستورد رأس المال والتكنولوجيا ، وأقيمت المصــانع ، ووسعت نظم التعليم لتوفير القوى العاملة اللازمة لاقتصاد صناعى ، وبرز التخطيط المركزى باعتباره ضروريا لتوجيه هذه العملية المعقــدة لتكوين رأس المال واستخدامه •

ويرى « ميدلتون » ان هذا النموذج حقق نجاحا معقولا فى البرازيل وسنغافورة وكوريا • لكنه لم يؤدى الى تقدم يذكر فى أغلب بلدان العالم الثالث • وكان فشــل هذه النظرية دافعا لنظريات عامة جديدة للتنمية • فقد برزت مؤشرات تؤكد ضرورة اشــباع الحاجات البشرية الأساسية ، وتبرز توزيع الثروة توزيعا عادلا ، والاستقلال الذاتى ومشاركة الجماهير فى التنمية • كما ظهرت طبيعة المســاعدة الدولية باعتبارها عائقا للتنمية

اذ تؤدى بالبلدان النامية الى التبعية المنتظمة للبلدان المتقدمة ، ويراعى فيها صالح البلدان المتقدمة فى المقام الأول • وبرزت صياغة نظريات عامة جديدة للتنمية تضع فى الاعتبار الأول القطاع الزراعى الريفى ، والاعتماد على النفس • وحظى النموذج الصينى للتنمية باهتمام واسع يمكن الاستفادة من بعض جوانبه • والأثر الأول للتخلى عن النظرية التقليدية هو زيادة البدائل التى يستطيع مخططو التنمية استقصاءها لتوجيه مسار بلادهم •

هذه النظرية العامة للتنمية تقودنا الى ما اصطلح على تسميته بنظريات التنمية فى علمى الاقتصاد والاجتماع • وهى تكاد تعنى استراتيجيات التنمية • هذه النظريات المتخصصة أو الفرعية أو المحددة انما هى نظريات يمكن الأخذ بها فى كافة النظريات العامة للتنمية •

ويظل السؤال المطروح هو : **ماذا نقصد بنظريات التنمية ؟**

ان ما نقصده بنظريات التنمية هى النظريات المحددة أو المتخصصة التى تعالج التنمية فى الدول المتخلفة ، ولكن ذلك لا يكتمل بغير أن ندرك نظريات التخلف ، أو اسباب التخلف ، وبغير ان نعرف النظريات التى تعالج التنمية فى الدول المتقدمة والتى نسميها نظريات النمو الاقتصادى تمييزا لها وبعدا بها عن قضايا التخلف ، ولانها تنتقل من نمو الى نمو اكثر واعظم • وسنجد فى نظريات التنمية هذه الامور متشابكة بمعنى أن النظرية التى تفسر لنا أسباب التخلف تقدم لنا منطقيا طريق القضاء عليه بازالة اسبابه • وبمعنى ان تنمية الدول المتقدمة ترتبط بظروف الدول المتخلفة ارتباطا وثيقا • وسنجد فى نظريات التنمية المثلث الذى حددنا به مفهوم التنمية الشاملة بأضلاعه الثلاثة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية •

ففى المجال الاجتماعى يقسم دكتور سعد الدين ابراهيم(١) النظريات الاجتماعية فى التنمية الى ثلاث مجموعات طبقا لنوع المتغيرات التى تستند اليها كل مجموعة طبقا لمصدر ومسار التغيير الاجتماعى المنشود فى اتجاه التنمية وهى :

١ ــ اتجاه الانماط المثالية للمؤشرات

Ideal type of Index models

ويقوم هذا النوع من التنظيم على استخلاص علماء الاجتمــاع الغربيين السمات الأساسيه لمجتمعاتهم المتقدمة ومقابلتها بنقيضها المتخلف ٠ وتصبح أيدلوجية التنمية عندهم محكومة بتلك الخطط والجهود والمشاريع التى تنطوى تحت عملية تحويل مؤشرات أى مجتمع من نمط متخلف الى نمط متقدم ٠

٢ ــ اتجاه الانتشار الثقافى الحضارى

The Acculturation - Diffusion Model.

ويذهب هذا الاتجاه الى أن التنمية باعتبارها شــكلا من أشكال التغير الاجتماعى تتم بواسطة الانتشار الثقافى أو الحضارى ، وبمرور الوقت واستمرار عملية الانتشار تتحول المجتمعات المتخلفة الى مجتمعات متقدمة بحلول القيم والعلاقات الحديثة محل القيم والعلاقات التقليدية ٠

٣ ــ اتجاه تغيير الأفراد نفسيا ٠

Individual Psychological change model.

ويركز هذا الاتجاه على ان عملية التنمية رهن بتغيير أفراد المجتمع قيما وحوافز وسلوكا ٠ فالمجتمعات التى حققت تنمية المــاضى أو التى تحققها فى الحاضر ــ وفق أصحاب هذا الاتجاه ــ وجد بها عدد كبير من الأفراد الذين يتصفون بالطموح والابتكار والرغبة العــارمة فى هذا الاتجاه والقدرة على التقمص الوجدانى ٠ وهؤلاء الافراد هم الذين يحملون على اكتافهم مهمة نقل مجتمعهم من اطاراته التقليدية المتخلفة المحدودة الى اطارات حديثة متقدمة ٠ فاذا كان المجتمع لا يضم هذا النوع من الافراد باعداد كافية فعلية ان يزيد من اعدادهم بوســائل مختلفة ٠

ويرى الدكتور سعد الدين ان أهم اوجه القصور فى هذه النظريات «انها لا تفسر تخلف العالم الثالث كنتيجة حتمية للنظام الامبريالى الحديث الذى ساد العالم ومازال بأشكال ودرجات مختلفة ٠ وان تقدم البعض وتخلف البعض الآخر اصبح منذ القرن الثامن عشر مســألة تفاضــل وتكامل ، أو بتعبير آخر أن التقدم والتخلف هما وجهان لنفس العملة »٠

ويعلل هذا القصور المنهجى فى نظريات التنمية الغربية الى التمركز الحضارى الغربى نحو الذات والى غياب النظرة التكاملية الشاملة والى تجاهل الأعمال الأصيلة لمفكرى العالم الثالث • وينتقد الفروض القاعدية لنظريات التنمية الغربية التى تزعم ان الدول المتخلفة ستحقق التقدم بمجرد انتهائها من ازاحة المعوقات الحضارية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية الموروثة من أبنية المجتمع التقليدى ، والتى تزعم انه بازاحة المعوقات فان التنمية تصبح مسألة أكيدة لا تحتاج الى اكثر من تعبئة وتنسيق وهندسة الموارد المادية والبشرية فى المجتمع •

ان النقد الأساسى لمثل هذه الفروض هو النظرة الجزئية وعدم رؤية الجزء فى اطار الكل • وبسبب الاسراف السطحى فى التخصص بين ما يطلق عليه العلوم الاجتماعية أصبح عالم الاقتصاد يتحدث من زاويته فقط وأصبح عالم الاجتماع يرى رؤيته وحسب ، وكذلك عالم النفس وعالم السياسة ولم تعد بينهم لغة مشتركة تفسر ترابط الظواهر الاجتماعية ، وتقدم لنا عملا متكاملا • ويزيد المشكلة حدة ان التخلف ظاهرة معقدة متعددة الجوانب ومتشابكة وقد صدق أحد أساتذة الاقتصاد الغربيين(١) حين وصف مشكلة المجتمعات النامية بقوله ليس فى تلك المجتمعات مشكلات معقدة يحتوى كل منها على جوانب سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية • وما لم يفهم من يتصدى لهذه المشكلات كل هذه الجوانب فان فهمه لها يظل ناقصا وبالتالى تأتى حلوله ناقصة ومبتورة •

وتنقد الدكتورة عواطف عبد الرحمن(٢) مسمى التحديث الذى يطلقه الباحثون الغربيون ويريدون من الدول النامية ان تقتفى أثره لتتقدم • وتقول ان ما يطلق عليه هؤلاء اسم التحديث هو فى الاساس عبارة عن تقديم المجتمعات الغربية الصناعية بشبكاتها المالية ونشاطاتها الاقتصادية وانماطها الاستهلاكية وبناءاتها التكنولوجية الى الدول النامية كنموذج وحيد يمكن الاحتذاء به •

وفى المجال الاقتصادى يرى الدكتور عمرو محيى الدين ان مشكلة النمو الاقتصادى كانت محور الاهتمام فى الاقتصاد « الكلاسيكى » ويتجلى هذا الاهتمام فى عنوان كتاب « آدم سميث » بحث فى طبيعة واسباب ثروة الامم سنة ١٧٧٦ • وقد وجه الاقتصاديون الكلاسيكيون اهتمامهم الى الكشف عن القوى التى لعبت دورا هاما فى التقدم

الاقتصادي • واهتم هؤلاء الاقتصاديون اهتماما خاصا بالبحث فى ازالة كافة العوائق أمام عملية التراكم الرأسمالى مثل قيود التجارة ونظام الطوائف وغير ذلك ، ومن ثم نجد ان دعوة الاقتصاديين الكلاسيكيين الى الحرية الاقتصادية لم تكن مجرد دعوة لعدم تدخل الحكومة ، وانما كانت مطلبا للقضاء على ما كان يعتقد انه عراقيل معطلة لنمو المجتمع الرأسمالى الصناعى • ولكن النظام الرأسمالى الصناعى واجه العديد من العقبات كما أوضح تطبيقه كثيرا من أوجه الخلل والاضطراب • وكان على المدرسة الاشتراكية بزعامة « كارل ماركس » ان تقدم التفسير العلمى لما يعوق حركة هذا النظام ولأوجه الخلل التى تعترض طريقه • فالنظام الرأسمالى لا يمكن فهمه الا بوصفه مرحلة معينة من مراحل تطور قوى الانتاج الاجتماعية • واذا كان صحيحا ما يدعيه الاقتصاديون الكلاسيكيون من ان عملية التراكم هى العامل الفعال فى النمو ، فان عملية التراكم التى تؤدى الى تطور قوى الانتاج لا تتم فى فراغ ، وانما تتم فى اطار معين من علاقات الانتاج • وقد اثبت نمو المجتمع الرأسمالى انه بعد مرحلة معينة تصبح علاقات الانتاج عقبة أمام تطور قوى الانتاج حيث يصبح السبيل الوحيد أمام النمو هو تغيير علاقات الانتاج السائدة•

كذلك فان التناقضات الكامنة فى طبيعة هذا النظام سوف تؤدى به الى مواجهة الازمات الدورية التى تؤدى فى النهاية الى انهياره واحلال نظام جديد بديل عنه • فالزيادة المستمرة فى عملية التراكم تؤدى دائما وأبدا الى زيادة الطاقة الانتاجية • غير ان هـذه الزيادة المستمرة فى الطاقة الانتاجية لا يصاحبها زيادة مقابلة فى القوة الشرائية (نتيجـة الفقر المزمن للقوى العاملة فى ظل النظام) تسمح باستيعاب هذه الزيادة ومن ثم تحدث أزمات دورية متلاحقة تؤدى الى انهيار هذا النظام •

لقد اهتم ماركس (٤) بدراسة الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى غرب أوربا ، وفى مناطق أخرى من العالم • ثم قـدم النموذج الذى رآه لتطور المجتمعات الانسانية • وقد استطاع ماركس من خلال دراسته لفلسفة « هيجل » التسليم بالمنطق الجدلى (الديالكتيك) والعمـل على تطويره • ويقوم هذا المنطق على دراسة الاشياء كحقائق فى حالة حركة دائمة • فكل اثبات لحقيقة معينة يتضمن فى الوقت نفسه نفيا لها • وهذا النفى يتضمن بدوره اثباتا • ومن تلاقى الاثبات والنفى ينشـأ تركيب

جديد يمثل تأليفا بين نقيضين • ومن ثم يصبح هذا التأليف بين النقيضين بمثابة خطوة تقربنا من الحقيقة • بيد أن التأليف بين النقيضين بدوره ليس ثابتا • فهو يمثل فكرة أو شيئا تحمل بدورها بذور نقيضها • ومن الفكرة « الشيء » الجديد ونقيضها يتكون اتحاد جديد بين النقيضين • وهكذا يستمر التطور ، ويقترب تاريخ الانسان من الكمال الذى ينشده• واستنادا الى ذلك أقام ماركس فلسفته ، ومن خلالها استطاع تفسير النظم السياسية ، والاقتصادية والثقافية بارجاعها الى الظروف المادية للحياة • ويذهب ماركس الى أن هناك ثلاثة قوانين تحكم حركة المادة والمجتمع والعالم أيضا — هى قانون وحدة الاضداد وصراعها ، وقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ، وقانون نفى النفى » •

وعلى ضوء هذا البناء الفلسفى الماركسى فسر ماركس البناء الاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى المجتمع ، أى مجتمع • ذلك التفسير الذى يرى ان الناس من خلال عملية الانتاج تحكمهم علاقات مستقلة عن ارادتهم الفردية • جميع هذه العلاقات الانتاجية يشكل البناء الاقتصادى فى المجتمع • هذا البناء المصطلح عليه بالبناء التحتى للمجتمع • وهو قاعدة يقوم عليها البناء الفوقى للمجتمع الذى يتمثل فى الافكار والنظريات السائدة فى المجتمع وترجمة هذه النظريات الى قوانين ونظم ومذاهب ومعتقدات وغير ذلك أى الثقافة الشاملة للمجتمع•

وعلى ضوء هذا التحليل الماركسى لعلاقات الانتاج فسر ماركس مراحل التاريخ الانسانى على النحو التالى : —

١ — مرحلة الانتاج البدائى : وفيها ملكية الانتاج جماعية حيث يعتمد الانتاج على الصيد وجمع الثمار ، وهو عمل مشترك يخلو من الطبقات •

٢ — مرحلة الرق : حيث بدأ الأغنياء يلزمون العبيد بزراعة الأرض•

٣ — مرحلة الاقطاع : حيث يمتلك الاقطاعى الأرض وسيلة الانتاج ويدفع للاقنان جعلا •

٤ — المرحلة الرأسمالية : حيث حلت البرجوازية محل الاقطاع فى امتلاك وسائل الانتاج الاساسية فى المجتمع •

٥ ـ المرحلة الاشتراكية : حيث يتدهور النظام الرأسمالى بفعل فائض القيمة ، وتراكم رأس المال ، والافقار المطلق • ومن ثم يصبح المجتمع مالكا لوسائل الانتاج ، ويخلو من الطبقات ، وبذلك تنمو وسائل الانتاج نموا حرا •

ولقد ميز ماركس بين مرحلتين أساسيتين يمر بهما المجتمع الشيوعى العالمى ، ذلك المجتمع الذى سينشأ ــ فى رأية ــ بعد ثورة «البروليتاريا» • المرحلة الاولى تختفى فيها الرأسمالية ، المتمثلة فى استغلال العمل المأجور ، ويحل محلها نظام الانتاج الذى يعمل من أجل اشباع الحاجات الاجتماعية • ونظرا للمشكلات الفنية التى تصاحب التحول الاشتراكى • ونظرا لوجود رواسب أو بقايا من العادات والاتجاهات التى تعبر عن النظام الرأسمالى ، فانه يصبح ضروريا حصر الناس طبقا لكمية العمل الذى يؤدونه • أما المرحلة العليا من الاشتراكية وهى المرحلة الثانية فان قوى الانتاج تتكفل بانتاج السلع الكافية • ويتم توزيعها طبقا للحاجات • ومن ثم يصبح الافراد الذين حققوا انسانيتهم تحقيقا كاملا يسعون الى أداء اشكال عديدة من النشاط الانتاجى ، غير خاضعين لضغط الضرورة ، بل يؤدونها بوصفها وسيلة للتعبير الذاتى التلقائى •

ولقد تعرضت الماركسية لشىء من التقدير لا حد له ، كما تعرضت لشىء من الطعن لا حد له • وقد يكون أهم نقد وجه الى الماركسية أنها تصور واحدى الخط فى كافة جوانبها •

وكان رد الفعل لهذا التحليل لحركة النظام الرأسمالى الذى قدمه كارل ماركس ، هو ظهور محاولات متعددة للرد على انتقادات المدرسة الاشتراكية • ولقد تبلورت هذه المحاولات فى بناء فكرى جديد هو **المدرسة الكلاسيكية الحديثة التى ولدت حوالى عام ١٨٧٠** • ولقد سادت هذه المدرسة فى الفكر الاقتصادى الغربى الحديث • بفضل البناء النظرى لهذه المدرسة تحول مركز الاهتمام فى الفكر الاقتصادى ومجال البحث فى علم الاقتصاد الى مجال يختلف تمام الاختلاف عن مجال بحث المدرسة الكلاسيكية أو المدرسة الاشتراكية • فالقضية الاساسية لعلم الاقتصاد فى رأى هذه المدرسة ، ليست هى البحث فى قوانين حركة النظام الرأسمالى ولا فى اسباب وعقبات نموه وتطوره • فالنظام الرأسمالى يحمل فى طياته قوى كامنة تدفعه دائما الى النمو والتطور

المستمرين ، وانما القضية الاساسية للاقتصاديين هى البحث فى محاولة الوصول بهذا النظام الى أعلى كفاءة ممكنة . أكتمل البناء ولم تعد مشكلة النمو أو التقدم هى المشكلة الاساسية بل البحث فى اصلاح وتهذيب هذا البناء هو هدفهم . وأصبحت القضية الاساسية — فى رأيهم — التى تواجه الفكر الاقتصادى هى البحث عن أوجه الاصلاح اللازمة لرفع كفاءة هذا البناء .

ثم قدم روستو Rostow فى كتابه مراحل النمو الاقتصادى بيانا غير شيوعى (١٩٦٠) تصوره فى التنمية محاولا ان يرد على الفكر الماركسى وان يشوهه . ورأى روستو ان المجتمعات تمر بخمس مراحل اساسية لتعبر التخلف الى التقدم هى :

١ — مرحلة المجتمع التقليدى : وفيها يقوم الانتاج على أساس العلوم والفنون التى كانت شائعة قبل عصر نيوتن ، لأن نيوتن — فى رأيه — فصل بين عالمين : احدهما يقوم على المصادفات ، والآخر يقوم على الضبط والتحكم . ويمثل المجتمع التقليدى فى رأى « روستو » العالم الذى سبق نيوتن ثم المجتمعات التى جاءت بعده وظلت غير قادرة على السيطرة على البيئة .

٢ — مرحلة التهيؤ للانطلاق : حيث ينتشر التعليم ولو جزئيا ، وحيث يظهر أفراد يتصفون بروح الاقدام . وحيث تظهر البنوك ويزداد الاستثمار . ويرى ان هذه الظروف توفرت فى أوربا الغربية فى أواخر القرن الثامن عشر .

٣ — مرحلة الانطلاق : وهى الفترة التى يتم فيها القضاء على معوقات النمو المطرد . ويتحقق ذلك بثورة سياسية ، تؤثر فى البناء الاقتصادى والاجتماعى .

٤ — مرحلة النضج : وهى المرحلة التى يستطيع فيها المجتمع ان يؤكد قدرته على الحركة خارج نطاق الصناعات الأصلية التى دفعته الى الانطلاق . بحيث يستطيع ان ينتج أى شىء يرغب فيه . ويرى «روستو» ان المجتمع يصل عادة الى هذه المرحلة بعد ٦٠ عاما من المرحلة السابقة لها . وفى هذه المرحلة يتمكن المجتمع من تصدير فائض انتاجه الصناعى.

٥ — مرحلة الاستهلاك الوفير : حيث يرتفع متوسط الدخل الفردى،وتزيد نسبة السكان فى المدن،ويزيد التوسع فى الاستهلاك(٥).

وما رأى « روستو » فى تفسير التقدم الا صورة من صور التفكير الغربى الرأسمالى المترف فى مشاكل العالم . وهو اقرب ما يكون الى القصة التاريخية المعروفة عن مارى انطوانيت عندما عرفت أن الثوار يطالبون بالخبز وهو غير موجود فقالت ولماذا لا يأكلون « جاتوه » ؟ اذا كان الخبز غير موجود .. !

وفى المجال الثقافى يلتقى الضلعان السابقان وهما الضلع الاقتصادى والضلع الاجتماعى . حيث يرى كثير من الباحثين ان المعرفة هى أهم العوامل الحاسمة فى التحول من التخلف الى التقدم . وانه ينبغى ان ننظر الى روح التوثب فى المجتمع والى المستوى الثقافى العام فى المجتمع ليمكننا التنبؤ بنجاح التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

لا يمكننا اذن ان نفصل بين نظريات النمو ونظريات التخلف لانهما وجهان لعملة واحدة . وسنعرض لاهم هذه النظريات فيما يلى :

أولا — نظرية التخلف بسبب البيئة الجغرافية :

تقوم هذه النظرية على أساس تفسير التخلف بسبب البيئة الجغرافية والظروف الطبيعية السائدة والتى يصعب تغييرها . ويؤكد انصار هذه النظرية تفسيرهم للتخلف بأن عددا كبيرا من الدول النامية يقع فى المناطق المدارية والاستوائية فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ، بينما تقع معظم الدول المتقدمة فى المناطق المعتدلة .

وتتلخص ملامح البيئة الجغرافية فى المناطق المدارية والاستوائية فيما يلى :

١ — ضعف الاراضى الاستوائية عند قطع الغابات وتحويلها للزراعة فتربتها الصالحة للزراعة تتمثل فى طبقة رقيقة تجرفها الامطار الغزيرة فلا تبقى الا تربة رملية منخفضة الخصوبة الى حد كبير .

٢ — مساعدة مناخ المناطق المدارية على انتشار الاوبئة الزراعية كما ان الحر والرطوبة لهما تأثير بارز فى قلة نشاط السكان .

٣ — تعوق الامطار الغزيرة التى تسقط فى مثل هذه المنـــاطق الجغرافية المتخلفة استخدام الاسمدة والمواد الكيماوية لانها تنجرف قبل ان تستفيد بها التربة .

٤ — ينبت الكثير من الحشائش الضارة وسط المحاصيل مما يقلل من الانتاج ويستهلك جهدا كبيرا فى مقاومتها ويقلل من فرص استخدام الميكنة الزراعية .

كما تبين الاحصائيات ان انتاج المحاصيل الزراعية فى أوروبا وامريكا الشمالية كبلدان متقدمة يفوق بكثير انتاج امريكا الجنوبية وافريقيـا وآسيا الواقعة فى حزام التخلف . كمـــا نجد تربية المواشى كالبقر والاغنام فى المناطق المتخلفة نحيلة وهزيلة مما يؤدى الى ضعف انتاجها من الألبان واللحوم والأصواف . وذلك على الرغم من توفر المراعى فى معظم انحـاء المناطق المدارية ، ويفسر البعض ذلك بسبب عدم ملائمة حرارة الجو لهذا النشاط ولانخفاض القيمة الغذائية للمراعى .

كذلك فان ضعف الموارد الطبيعية التى تملكها غالبية الدول النامية بالنسبة الى تلك التى تملكها الدول المتقدمة يعد عاملا مـــن عوامل التخلف . وتشمل الموارد الطبيعية الى جانب الارض ما فى باطن الارض من معادن وبترول والبحار والانهار ومساقط المياه وغير ذلك .

ويرى الدكتور على لطفى(٦) ان الظروف الطبيعيـــة والعـــوامل الجغرافية لا يمكن ان تكون وحدها سبب التخلف الاقتصادى وذلك لاسباب يراها على النحو الآتى :

١ — تقع بعض الدول النامية فى المنــــاطق المعتدلة ومن ثم فهى لا تعانى من الظروف الطبيعية والعوامل الجغرافية السابق الاشارة اليها . كما هو الحال مثلا بالنسبة للصين ودول حوض البحر الابيض المتوسط وبعض دول امريكا الجنـــوبية . فكيف يمكن اذن تفســـير التخلف الاقتصادى فى هذه الدول ؟

٢ — ان معظم المشاكل الزراعية الناتجة عن الظروف الطبيعيـــة والعوامل الجغرافية السابق الاشارة اليها يمكن التغلب عليها بالأساليب التكنولوجية الحديثة . وكذلك فان الاوبئة والامـــراض المســـتوطنة

يمكن القضاء عليها بالوسائل الصحية الحديثة دون تحمل تكـاليف باهظة .

٣ — ان المناطق المدارية تحتكر انتاج بعض السلع الزراعية الهامة كالبن والشاى ، وهذا يعتبر عاملا مساعدا على تحقيق التنمية .

٤ — ان بعض الشعوب التى عاشت فى المناطق المدارية بنفس ظروفها الطبيعية وعواملها الجغرافية قد وصلت فى الماضى الى درجة مرتفعة من المدنية كقدماء المصريين والفرس والعرب والهند والصين .

٥ — ان بعض المناطق التى تعانى من العوامل المناخيـة والظروف الجوية غير الملائمة قد استطـاعت على الرغم من ذلك ان تقضى على التخلف وتقطع شوطا كبيرا فى طريق التنمية . ولعلنا نذكر فى هـذا الصدد منطقة سيبيريا فى الاتحاد السوفيتى التى تتميز بمناخ شـديد البرودة ولكنها استطاعت بفضل التقدم الفنى والتكنولوجى ان تصبح مأهولة بالسكان وذات انتاجية مرتفعة .

٦ — لاشك أن توافر الموارد الطبيعية بكثرة فى دولة ما قد يكون عاملا مساعدا على سرعة تحقيق التنمية الاقتصادية ، كما ان العكس صحيح بمعنى أن عدم توافرها فى دولة ما قد يعوق تنميتهـا ، ولكن لا يجب ان يفهم من ذلك ان عدم توافر الموارد الطبيعية بكثرة هـو السبب الوحيد للتخلف الاقتصادى . فمن المعروف ان كمية الموارد المتاحة للمجتمع لا تعتبر ثابتة بل قابلة للتغير تبعا للتقدم العلمى والفنى والتكنولوجى الذى يحرزه المجتمع .

ثانيا — نظرية التخلف بسبب البيئة الاجتماعية :

وتقوم هذه النظرية على اساس ان النشاط الاقتصادى لا يدور فى فراغ ، وانما يدور فى مجال اجتماعى ، وهو نتيجة لتفاعل عدة عوامل مثل عناصر الانتاج والقدرات البشرية ومستوى التقدم العلمى وما شابه ذلك . كما ان هذا النشاط الاقتصادى لابد وان يعكس قيما معنوية وحضارية من عادات وتقاليد وثقافة ومثل وسلوك وما الى ذلك ، ومن الامثلة التى يسوقها أنصار هذه النظرية ما يلى :

١ — عوائق العادات والتقاليد فى الادخار :

لقد ذكرنا بأن تمويل التنمية فى البلدان الشبيهة بنا لابد ان تعتمد على تجميع المدخرات الوطنية فى المقام الأول • ولـكن ظاهرة اكتناز الذهب والاسراف فى تقديم « الشبكة » عند الزواج ، أو شراء الحلى كلما تجمع لدى الأسرة فائض من المـال ، تقف كلها عوائق أمام اثراء المدخرات الوطنية • كذلك فان جانبا يتعلق بعادات الاستهلاك يحـرم المدخرات الوطنية شريانا كان من الممكن ان يمدها بالدم والقوة ومثال ذلك الاسراف فى شراء « أكفان الموتى » حبا فى التظاهر برغم مخالفة ذلك لما فرض الشرع فى الدين الاسلامى • ولعل ما ينفق على حفلات الطهور والزواج والجنائز بدافع التظاهر والنفاق الاجتماعى يؤكد ذلك•

٢ — عوائق العلاقات الأسرية المتزمتة :

لعل المثل الذى أورده « شرام » بأسرة « بوفانى » فى علاقة الابناء بوالدهم الذى يمثل شيخ القبيلة يؤكد لنا كيف تقف العلاقات الأسرية المتزمتة عائقا أمام التنمية وسدا أمام التقدم •

ان حياة الافراد فى كثير من الدول النامية ، فى نطاق الاسرة الضيق(٢) يشبه العزلة عن المجتمع ، ذلك النطاق الذى يحول بينهم وبين التطلع الى آفاق بعيدة • وهكذا ينعدم لـدى هؤلاء الافراد الشـعور بالروح الجماعية ، وتتولد لديهم نظرة اسرية ضيقة مما يكون مبعثا للانانية ، ولاشك ان مثل هذه الاتجاهات تترك بصماتها على النشاط الاقتصادى • فعلى سبيل المثال قد يصل التكتل الاسرى الى درجة التعصب حيث يفضل اصحاب المشروع الذين ينتمون الى اسرة واحدة عدم اشـتراك أى شخص آخر فى هذا المشروع بأى صورة كانت سواء ذلك فى مجال المساهمة المالية والتوظف طالما انه لا ينتمى الى نفس الاسرة •

كذلك فان العادات والتقاليد السائدة فى كثير من الدول النـامية مازالت حتى اليوم تحول دون اشتغال المرأة • فالمرأة فى هذه الدول لاتزال عضوا عاطلا ، وبعيدة عن النشاط العـام فيتنفس المجتمع برئة واحدة ويعمل بيد واحدة ، فيتعطل الانتاج وتقل الدخول الاسرية لان الرجل وحده هو الذى يعمل ، وعليه ان يقسم جهده مع من لا يعمل

من الاسرة • حقا ان الخدمات المنزلية التى تؤديها المرأة ذات قيمة اقتصادية • ولكنها قيمة محدودة الاثر •

٣ ــ عوائق العلاقات الطبقية :

لعل أبسط مظاهر الصراع بين الطبقات فى المجتمع يتمثل فى الاضرابات وما تسببه من معوقات فى الدول النامية التى تسير على الطريق الرأسمالى للتطور • ويلاحظ ان اسواق الدول النامية غالبا ما تفتقر الى الاتساع والوحدة وتكون أقرب الى التجزؤ والتفتت ويرجع ذلك الى انقسام المجتمع الى طبقات • وانفصال الصلة تماما بين كل طبقة واخرى مما يؤدى الى تباين انماط الاستهلاك وطريقة المعيشة لكل طبقة • وقد يرجع ذلك الى العوامل الثقافية بمعنى انقسام المجتمع الى فئات منفصلة تتلقى كل منها ألوانا مختلفة من الثقافات الوطنية والاجنبية ، مما يؤدى الى خلق اذواق استهلاكية متعارضة • والامر الذى لاشك فيه ان ظاهرة تفتت السوق تضع قيدا على قيام المشروعات الكبيرة والانتاج الضخم مما يؤدى الى ارتفاع تكاليف الانتاج •

٤ ــ عوائق التعصب الأعمى :

القول العربى القديم بأن كل امر يزيد عن حده ينقلب الى ضده يصدق تماما على ظاهرة التعصب ، فان الاقتناع بأمر ما أو التحمس لقضية أو فكرة أو مبدأ ضرورة للنجاح ، ولكن التعصب سمة من سمات التخلف أو هو وسيلة للدمار فى بعض الاحيان • ولعل الوطنية عندما تنقلب الى عنصرية كما رأينا فى النازية أشهر النماذج التى تصدق القول العربى القديم • وظاهرة التعصب لا ترتبط باختلاف الاديان كما يتبادر الى الذهن لأول وهلة عندما يذكر التعصب ، وانما ترتبط بالتخلف والرجعية ارتباطا مباشرا •

ان تعبير (بحرى البلد) و (قبلى البلد) فى بعض القرى فى مصر • وتعصب الاسر التى تسكن بحرى البلد فى مواجهة تعصب الاسر التى تسكن فى قبلى البلد ، أو تعصب بعض أبناء الازهر الى (بحاروة) و (صعايدة) فى عهود مضت يؤكد ان التعصب يرتبط بالانانية والافق الضيق بغض النظر عن الاسباب التى تبدو واهية ومضحكة فى كثير من الاحيان • ولاشك ان التوتر وعدم الثقة والمشاعر العدائية التى تصاحب

التعصب تقف عائقا أمام حشد الجمهور للعمل وتفتت العديد من الطاقات وتفسد الكثير من المشروعات .

٥ — عوائق الشخصية القومية :

وعندما تعرض الدكتور ملاك جرجس (٨) لسيكولوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية القى ضوءا باهرا البلدان النامية بصفة عامة . فهو يطرح فى الفصل الاول من كتابه سؤالا جوهريا هو : ما المقصود بالشخصية القومية ؟

ويجيب بأنه القيم الاجتماعية والاتجاهات السلوكية والفكرية والثقافية والحضارية السائدة فى المجتمع . وبطبيعة الحال من المستحيل ان يتفق افراد أى مجتمع فى قيمهم واتجاهاتهم ، فكل فرد بلا شك فريد فى شخصيته ، ولكن هناك قيم واتجاهات تسود أغلبية الناس فى المجتمع الواحد ، وبالتالى يتميز أى مجتمع عن مجتمع آخر بما فيه من أنماط سلوكية . ولسنا بحاجة الى التأكيد بأن هذه الانماط ليست ثابتة، فهى عرضة للتغيير فى اتجاهات مختلفة . كذلك، فان المجتمع الواحد قد يتكون من بيئات حضارية مختلفة من حيث درجة التحضر فقد يجمع بين بيئة بدوية وبيئة صناعية .

وتتميز كل بيئة من البيئات المختلفة فى المجتمع الواحد بقيم اجتماعية واتجاهات سلوكية وانماط مختلفة ولكنها فى نفس الوقت تتفق فى بعض القيم والاتجاهات والانماط التى تميز المجتمع ككل وتجعل له صفة اجتماعية خاصة أو انماطا سلوكية وصفات نسميها بالشخصية القومية .

ما هى أهمية دراسة الشخصية القومية فى التنمية ؟ :

ان تفهم خصائصها ضرورة حتمية فى مجال التنمية فهناك مجتمعات تتصف بصفات حب العمل والتفانى فى أدائه ، كما ان بعض المجتمعات تعانى من الجمود الاجتماعى ، أو تصلب الاوضاع الاجتماعية رغم محاولات التنمية الاقتصادية ، بل ان التنمية الاقتصادية فى بعض المجتمعات لم تأت بالنتائج التى كانت منتظرة منها بسبب تخلف الاوضاع الاجتماعية ، كالتصاقها بقيم اجتماعية واتجاهات لا تساعد على التطور

الحضارى والتطور الصناعى • بل تتنافر هذه المجتمعـات المختلفة مع قيم وصفات وافكار وانماط وسلوك المجتمع الصناعى • ومن هذه القيم والاتجاهات على سبيل المثال الميل الى مقاومة السلطة ، والانفرادية وعدم حب النظام ، والشعور بالعظمة ، والحساسية الشديدة على الكرامة ، وسهولة الانفعال والعاطفية والتواكلية وتحقير العمل اليدوى ، والتفاخر والتظاهر والمباهاة والاعتقاد فى الخرافات والعادات الضارة ، الى غير ذلك من القيم والاتجاهات والانفعالات السائدة فى المجتمعات المتخلفة والتى تميز شخصيتها القومية وتصفها بالجمود الاجتماعى •

ولكن ما الذى يحدث عندما تبدأ التنمية الاقتصادية فى مجتمع شديد التخلف اجتماعيا ؟ •

هنا يعرض لنا المؤلف مشكلة فقدان التوازن فى مثل هذه المجتمعات، مبينا ان للتنمية الاقتصادية اضرارا اجتماعية فى المجتمعات التى تتسم بالجمود الاجتماعى • فالاخذ ببعض أساليب المدنية المادية ومحـــاولة تحقيق التنمية الاقتصادية من غير حدوث تطوير مناسب للثقافة اللامادية يؤدى الى حدوث خلل اجتماعى •

ثالثا — نظرية التخلف بسبب الجنس أو العقيدة :

تقوم هذه النظرية على تمجيد الرجـل الأبيض ووصفه بالابـداع والتفوق والذكاء ، وترى ان جميع سكان الدول المتقدمة فيما عدا اليابان من الجنس الابيض ، بينما سكان أغلب الدول النامية من الملونين ، ولكن هذه النظرة العرقية كاذبة من اساسها ، هى ترديد للجنس الاسمى الذى ذهب بالنازية والفاشية الى الهاوية ، ونصة من شعب الله المختار الذى يقوم عليه الفكر الصهيونى • ويفند الاقتصاديون (٩) هذه النظرية على النحو التالى :

١ — ان سكان عدد كبير من الدول التى مازالت حتى اليوم تعانى من التخلف الاقتصادى هم من الجنس الابيض كما هو الحال مثلا بالنسبة لدول الشرق الأوسط ودول حوض البحر الأبيض المتوسط وبعض دول امريكا اللاتينية •

٢ ــ ان التاريخ قد سجل لكثير من الدول المأهولة بالعناصر الملونة حضارات ومدنيات عريقة دامت العديد من القرون كما هو الحال مثلا بالنسبة لامبراطورية الصين وامبراطورية الهند • فاذا كانت الاجناس الملونة بطبيعتها تتميز بالخمول والكسل وعدم القابلية للعمل ، فكيف يمكن اذن تفسير هذه الحضارات والمدنيات العريقة ؟

٣ ــ ان العلم الحديث ــ على الرغم من التقدم الهائل الذى حققه ولا سيما فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ــ لم يقدم لنا دليلا واحدا يثبت وجود اختلاف طبيعي بين الاجناس من حيث مستوى الذكاء أو النشاط أو القابلية للعمل •

٤ ــ ان كثيرا من طلاب الدول النامية الذين يقال انهم ينتمون الى الاجناس الملونة يحققون نجاحا باهرا بل وتفوقا على زملائهم من الدول المتقدمة الذين يقال انهم ينتمون الى الجنس الابيض ، وذلك يتضح بجلاء من متابعة النتائج التى يحققها طلاب الدول النامية الذين يتم ايفادهم فى بعثات علمية الى الدو لالمتقدمة ان هذا يثبت انه اذا ما وجدت اختلافات فى النشاط بين سكان الدول المتقدمة • وسكان الدول النامية فانها ترجع فى الواقع الى اختلاف الامكانات •

٥ ــ ان اليابان تقدم لنا دليلا قاطعا على عدم صحة الرأى القائل بتفوق الجنس الابيض ، فاليابان التى لا ينتمى سكانها الى الجنس الابيض قد استطاعت ان تحقق فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية معجزة اقتصادية • واصبح الاقتصاد اليابانى ينافس الاقتصاد الامريكى كما أصبح الين اليابانى أقوى من الدولار الامريكى •

وما يرويه بطل الملاكمة محمد على كلاى الامريكى الجنسية المسلم الديانة الاسود البشرة يجسد لنا جنون الرجل الابيض فى النظرة العرقية للتقدم • يقول كلاى فى مذكراته التى نشرتها جريدة الجمهورية القاهرية من يناير ١٩٧٦ •

« وكثيرا ما تعجبت فيما بعد للقصص الخيالية المثيرة التى يكتبها بعض النقاد الافاضل عن طفولتى •• وكيف أننى نشأت فى أسرة متوسطة الحال • ثم كيف انى أنحدر من صلب قائد امريكى بارز من أنصار

ابراهام لينكولن كان اسمه هنرى كلاى • يعنى باختصار انه اذا كان لدى أى نوع من التفوق فلأن هناك دما أبيض يجرى فى عروقى • ولكن الحقيقة تختلف تماما • لقد نشأت فى أسرة فقيرة شبه معـدمة ، أبى كان يعمل نقاشا متواضعا • كان فنانا كبيرا — ولكنه كان أسودا ولذلك لم يتح له أبدا أن يتقاضى حقه كاملا • أمى عملت فترة خادمة فى بيوت بعض الاثرياء قبل أن تتزوج أبى • وكنا نشترى ملابسنا فى العـادة من محلات الملابس المستعملة •

أما عن الدم الابيض الذى يجرى فى عروقى فان هذه أكذوبة اخرى• فانا أنحدر من سلالة من العبيد ، وكان العبيد فيما مضى يحملون اسم صاحبهم • اذن فقد كان أجدادى عبيدا عند سيد أبيض محترم اسمه كلاى وعنه حملوا اسمه •

واذا كان هناك أى دم أبيض جرى فى عروق أحـدهم فانه سيكون نتيجة عملية اغتصاب دنيئة ليس فيها أى قدر من الشرف ، ولا يمكن أن يكون الدم الناتج عنها اشرف من سائر الدماء ، أنا اسود وابن اسود وأمى سوداء ، والدماء الوحيدة التى تجرى فى عروقنا جاءت من مكان ما فى افريقيا • حيث كان جدنا الاول يعيش هناك انسانا حرا قبل ان يختطفه الشرفاء البيض ويبيعوه للنخاسين •

واستكمالا لهذه النظرية العرقية يربط اصحاب نظرية التخلف بسبب الجنس عنصر الدين كعامل من عوامل التخلف • وهم لا يذهبون مذهب الماركسيين اللينينيين فى الدين (بمعنى كل الأديان) معوق للتقـدم • وانما ينصرف قولهم على الاسلام وعلى اديان آسيا كالبوذية والهندوكية ويعتبرونها ضمن أسباب التخلف •

وتطالعنا أقلام كبيرة بالطعن فى الاسلام • يقول زبيغنيو بريجنسكى مستشار الرئيس الامريكى السابق للامن القومى فى كتابه بين عصرين الذى صدر عام ١٩٧٠ وترجم الى العربية عام ١٩٨٠ بعد أن نسـب للمسيحية انها كانت أكبر منشط بين الاديان الكبرى للتطور والتقدم ، « ولقد كانت الاديان الأخرى أكثر سلبية فى الممارسـة وفى النظـرية ، فالبوذية لا تحتوى على تشريعات تأمر بالتغيير الاجتمـاعى ، وانما هى تقدم الانعتاق من الواقع • ولذا وعلى عكس المسيحية لم تؤدى «النرفانا»

البوذية دور نقطة الانطلاق الى تنشيط دنيوى ، وبالمثل الاسلام وفكرة القدرية المسيطرة فيه قد وقفت ضد وجود عنصر التوتر بين السلم الابدى والجنة ، على الارض على الاقل ، وهو ما يوجد بشكل قوى فى المسيحية وما شجع نشاطها المكبوت » . هكذا نص الفقرة .

ولقد تعودنا مهاترات بعض الكتاب الغربيين فى اتهام الديانات الشرقية بالتخلف ، وتخصيص الاتهام للاسلام وما شابه ذلك من الاتهامات والتعبيرات . ولكن ورود هذه الفقرة فى كتاب بريجنسكى جعلتنى أقف أمامها وقفة مختلفة . ان المؤلف رجل جامعى لديه وتحت تصرفه كل مصادر المعلومات ووسائل التحقيق ، وهو فى بلد يعرف دبيب النملة على أى مكان فى الكرة الارضية ببنوك معلوماته ومراكز بحوثه ومخابراته وأجهزة الرصد .

والاتهام الموجه الى الاسلام فى هذه الفقرة يفوق البلاهة ويتجاوز البديهيات ، ولو رجع المؤلف الى جمهور المستشرقين لشهد بعكس ماكتب تماما .

ومن التكرار ان نقول بأن فكرة القضاء والقدر فكرة مشتركة فى كافة الاديان السماوية ، وان فكرة القدرية فى الاسلام ذات طابع ايجابى ، هو أن تسعى بكل قوتك وانت مطمئن بأن جهدك غير ضائع أو خائب لان الله قدر الاقدار ووضع السنن . وليست القدرية فى الاسلام فكرة سلبية أو ذات طابع سلبى ، والحديث المشهور عن الرسول صلى الله عليه وسلم « أعقلها وتوكل » يبين بوضوح مفهوم القدرية فى الاسلام . والنص الاسلامى القرآنى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا بأنفسهم » لا يحتاج الى شرح .

ومن تكرار القول ان الاسلام هو الدين الوحيد الذى وازى بين الدنيا والآخرة ، والشواهد والأمثلة والآيات والاحاديث تتوالى كموج البحر .

ومن تكرار القول ان الاسلام هو القوة المحركة للتقدم ، وهو الدين الذى جعل للعمل اجرين : أجر فى الدنيا يناله الاجير قبل ان يجف عرقه ، واجر فى الآخرة عند الله .

والسؤال هو هل هي غفلة من المؤلف ؟ أو أن هـذا هو الوصف الذي يتمنى المؤلف ان يرسخه عن الاسلام ؟ أم انها مجرد صفحة من سفر الحرب النفسية ضد الاسلام ؟ ومحاولة تشويهه ؟

ان كانت واحدة من ذاك أو كل ذلك فهي في كل الاحـوال إكثر بلاهة ، من ان يقول قائل ان التأميم في الولايات المتحدة الامريكية اكثر من الاتحاد السوفيتي ، أو ان يزعم مجنون ان القطب الشمالي اشـد حرارة من خط الاستواء ، أو ان المسؤول عن الامن القومي في اكبر دولة في العالم في المعلومات لا يعلم ؟.

ولا شك ان قولهم عن الاسلام قد كشف التعصب كله فالاسلام هو الدين الذي عالج قضايا الدنيا الى جانب قضايا الآخرة وهو الذي حدد العلاقات الاقتصادية بالتفصيل ووضع للعمل قيمة مادية وروحيـة في نفس الوقت .

رابعا — نظرية التخلف بسبب الظروف الاستعمارية :

سنتناول هذه النظرية بالتفصيل عندما نتحدث عن البعد التاريخي للتنمية وهي بلاشك اقوى النظريات التي تفسر سبب التخلف .

ومادامت عناصر الحياة مترابطة لابد إذن من ان ندرك ان الاستعمار قد عمد الى خلق ظروف اجتماعية متخلفة في البلدان التي استعمرها . وانه لم يطور البيئة الجغرافية في المستعمرات الا بالقدر الذي يخـدم مصالحه المباشرة فقط وانه حاول ان يرسخ في الاذهان فكرة تفوقه كرجل أبيض .

ان النظريات التي تفسر التخلف ليست متعارضة ولا متنافرة ، ونظرية الظروف الاستعمارية هي قطب الرحى ، والمحور الذي تدور حوله هذه النظريات بنسب متفاوتة .

خامسا — نظرية الدفعة القوية :

يرى « بول روز نشتين رودان » صـاحب هذه النظرية ان القضاء على التخلف لا يمكن تحقيقه الا بدفعة قوية أو سلسلة من الدفعـات القوية ، ويؤكد ان الدفعات الصغيرة حتى وان كثرت وتوالت لا يمكنها أن تؤدى الى نتيجة الدفعة القوية أو سلسلة الدفعات القوية .

ويشبه انصار هذه النظرية قضية التنمية فى الدول النامية باقلاع الطائرة • فلكى تقلع الطائرة وتصبح محمولة على الهواء لابد ان تتجاوز حدا ادنى من السرعة الارضية • ومن الواضح ان عوامل المقاومة التى تتصل بظروف التخلف تشبه الجاذبية الارضية ، فلابد من جهد مكثف فى صورة دفعة قوية حتى يستطيع الاقتصاد المتخلف ، ويستطيع المجتمع النامى بصفة عامة ان ينطلق فى طريق التنمية •

ويفسر صاحب هذه النظرية حتمية وضرورة الدفعة القوية بسببين رئيسيين : أولهما يرتبط بالوفورات التى يدرها استثمار الدفعة القوية على الاقتصاد القومى فى مجموعه وعدم قابلية ذلك للتجزئة ، فان مشروعات القوى المحركة والرى والنقل لابد من اقامتها بدفعة قوية لان اقامتها على آجال متباعدة يحول دون امكان الاستفادة منها ويعد تبديدا لجهود الاستثمار • والسبب الثانى هو عدم قابلية الطلب للتجزئة ، فالظاهرة الجديرة بالاهتمام هى ضيق حجم السوق فى البلدان النامية بسبب ضعف القوة الشرائية نتيجة لانخفاض دخل الغالبية العظمى من الجماهير • ونظرا لذلك فان اقامة صناعة واحدة أو وحدة انتاجية كبيرة واحدة مهددة بالفشل وبخاصة أن عقبات التصدير من البلدان النامية كثيرة ويحتاج تجاوزها الى المزيد من الوقت والمجهود •

سادسا — نظرية النمو المتوازن :

يرى « واجنار نوركس » صاحب هذه النظرية ان التنمية يجب ان تهدف الى تحقيق التوازن بين الزراعة والصناعة لانه ما لم ينطلق القطاعان جنبا الى جنب فان تخلف أحدهما لابد وأن يعوق نمو الآخر •

ويضم الدكتور اسماعيل حسن (١٠) نظرية النمو المتوازن الى نظرية النمو غير المتوازن فى فقرة واحدة لأنهما — فى رأيه — يفسران بعضهما • ويؤكدما ذهب اليه « هانس سنجر » من ان مفهوم النمو المتوازن يشير الى استخدامات ثلاثة هى :

١ — ان مفهوم النمو المتوازن خال من المضمون الاجتماعى ولايعنى باستخدام تكنولوجى فى الانتاج •

٢ — ان مفهوم النمو المتوازن يقصد به التوازن بين الطموح الانسانى والموارد المتاحة ، أو بمعنى آخر التوازن بين الادخار والاستثمار لكافة

الموارد المتاحة • ثم بمعنى آخر ايضا التوازن بين ضغط الطلب وشـدة الحـاجة •

٣ — ان مفهوم النمو المتوازن يقصد به ما تعارف عليه العـرف الاقتصادى من انه التوازن بين حجم الاسـواق والموارد والطلب على رأس المال ، أو التوازن بين تقسيم العمل وزيادة قدرة الانتاج واتساع الاسواق • والتوازن بين الزراعة والصناعة •

والسؤال النقدى الذى وجهه الاقتصاديون الى هذه النظرية هو : كيف يمكن كسر التخلف فى المجتمع عند اية نقطة ؟

ويرى بعض الاقتصاديين ان نظرية النمو المتوازن هى امتداد لنظرية الدفعة القوية ، ويذهب الدكتور على لطفى [١١] الى اعتبارهما نظـرية واحدة • ويدعم نظرية النمو المتوازن بما قاله « روزنشتين » صـاحب نظرية الدفعة القوية عن عدم قابلية السوق للتجزئة • اذ يقول روزنشتين اننا اذا عمدنا الى انشـاء عدد كبير من المشروعات المتباينة فى آن واحد ففى هذه الحالة سوف نجد ان كل مشروع سوف يخلق سوقا لتصريف منتجـات المشروعات الاخرى ، وبهذه الطريقة تساند المشروعات بعضها البعض ، وتقل مخاطر ضيق حجم السوق ويزيد الحافز على الاستثمار •

سابعا — نظرية النمو غير المتوازن :

تذهب نظرية النمو غير المتوازن التى تعزى الى « فرنسوبيرو » ثم طورها « البرت هيرشمان » الى ضرورة أن تبدأ التنمية بالصناعات أو القطاعات الرائدة فى الاقتصاد القومى والتى تسمى بالقطاعات القائدة أو أقطاب النمو ثم تنتشر التنمية بعد ذلك تلقـائيا الى قطـاعات أخرى وصناعات أخرى •

ووجهة نظر « هيرشمان » فى النمو غير المتوازن أن الاقتصاد يحمل فى طياته فكرة عدم التوازن من الأساس ، وان جزئيات الاقتصاد النامى لا يمكن أن تنمو بنفس الدرجة •

وتفسر هذه النظرية فكرة النمـو غير المتوازن بأن النمو فى بعض القطاعات يحرض ويستدرج النمو فى قطاعات أخرى ، وبذلك تصبـح

التنمية متمثلة فى خطوات متتابعة بعيدا عن التوازن ، وأن كل خطوة انما هى نتيجة لاختلال سابق فى التوازن ، وتؤدى الى اختلال جديد فى التوازن ، وهذا بدوره يحض الاقتصاد القومى على خطوة أخرى تتلوها خطوة ثانية وثالثة ورابعة وهكذا . وخلاصة الفكرة أن حلقات هذه السلسلة من النمو غير المتوازن هى ذاتها جوهر عملية التنمية وحركتها نحو التقدم .

ثامنا ـ نظرية قارب النجاة :

وضع أساس هذه النظرية الدكتور « جاريت هارون » أستاذ علم الأحياء بجامعة كاليفورنيا الأمريكية تحت عنوان شعار أخلاقيات قارب النجاة (١٣) ، وهو يذهب الى القول فى تفسير نظريته بأن بلاد العالم الغنية تعيش الآن داخل قارب نجاة مزدحم ، أما بقية سكان الأرض فانهم يغرقون فى بحر من الجوع ، ولو سمح أصحاب قارب النجاة للآخرين بالتشبث بالقارب والصعود اليه فان مصير القارب هو الغرق بكل من فيه . والدكتور هارون مع عدد من أعضاء الكونجرس عن ولاية كاليفورنيا ينادون بضرورة قطع المعونة فورا عن البلاد التى تتلكأ فى تحديد النسل .

وتحظى هذه النظرية الجديدة بتأييد عدد متزايد من المتخصصين والسياسيين الأمريكيين ومنهم « ايرل باتز » وزير الزراعة الأمريكى الذى رفض أثناء المؤتمر العالمى للغذاء فى روما « نوفمبر ١٩٧٤ » أن يلتزم كممثل لبلده فى المؤتمر بتخصيص احتياطيات غذائية للدول النامية . ويرى أصحاب هذه النظرية أو الواقعيون الجدد كما تسميهم بعض الصحف أن نصف سكان العالم يعانون من الجوع . وأن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تأكل ٣٥٪ من الغذاء المتاح فى العالم ، فى حين يمثل سكانها ٦٪ من سكان العالم . ويقولون أنه ما لم تقرر الولايات المتحدة اشتراط العمل على منع النمو السكانى للحصول على المعونة ، فان النتيجة هى أن الذين تنقذ حياتهم الآن سوف يكون ثمنهم خسارة عدد أكبر من الأحياء فى الأجيال التالية . ويضيف أنصار هذه النظرية حججا أخرى منها أن هذه النظرية يجب تطبيقها بمنطق الفرز والانتقاء والاستبعاد الذى يعمل به داخل المستشفيات العسكرية فى زمن الحرب . فينبغى تصنيف الدول بنفس الطريقة التى يتم بها تصنيف الجرحى وتقسيمهم الى ثلاث مجموعات : الجرحى الذين سوف يموتون

بغض النظر عن أى علاج يقدم لهم ، الجرحى الذين اذا عولجو بطريقة مناسبة سوف يعيشون ، الجرحى الذين يستطيعون العناية بأنفسهم .

بدأ عدد المقتنعين بالنظرية الجديدة يتزايدون ، بعد أن انضم اليهم الدكتور « بواهر بلخ » الأستاذ بجامعة ستانفورد ومؤلف كتاب « قنبلة السكان » والذى تطرف فى دعوته الى درجة أنه ينصح الجميع من الآن بتخزين الطعام والمياه والملابس لأن الجائعين فى هذه الأيام يملكون أسلحة ذرية .

وأصحاب هذه النظرية الجديدة ليسوا محصورين فقط داخل دائرة العلم والسياسة . فالواقع أنهم يستمدون سندهم الأخلاقى من الدكتور جوزيف فلتشير ، عالم اللاهوت الذى عمل قسيسا فى لندن والذى ألف كتابا من أكثر الكتب انتشارا بعنوان « أخلاقيات الموقف » الذى يقرر فيه أن أى تصرف — مهما كان اجراميا — يمكن أن يكون صحيحا معتمدا فى ذلك على الموقف نفسه ويعترف بأنه يكره الفكرة . ولكنه لا يستطيع مقاومة منطق نظرية قارب النجاة ، واذا كان هذا يعنى أن مزيدا من **الناس سوف يموتون فى النهاية ، فيجب عليك أن تتخذ قرارا لمصلحة أكثر عدد ممكن .**

وليس كل الأمريكيين مؤمنين بطبيعة الحال بهذه النظرية . هناك **مثلا السناتور « هيوبرت همفرى » الذى ينتقد التفكير الذى يقدم هذه** النظرية من أساسه ويسميه تفكيرا « بذيئا » وهناك أيضا مستر « روبرت ماكنمارا » رئيس البنك الدولى الذى يقول : ان هذا التفكير خاطىء فنيا .. **بمثل ما هو كرية ومنبوذ أخلاقيا .**

تاسعا — نظرية التحرر الانسانى :

يضع الدكتور سعد الدين ابراهيم [١٣] أمامنا نظريته للتنمية مركزا **على الجانب الاجتماعى أو منطلقا من البعد الاجتماعى بصفة خاصة ،** وبرغم أنه اتخذ لبحثه عنوانا « نحو نظرية سوسيولوجية للتنمية فى العالم الثالث » الا أننى أطلقت عليها نظرية التحرر الانسانى تعبيرا عن مضمونها .

يبدأ الدكتور « سعد الدين ابراهيم » نظريته بتحديد مفهوم التنمية بأنها **انبثاق ونمو كل الامكانيات والطاقات الكامنة فى كيان معين بشكل** كامل وشامل ومتوازن — سواء كان هذا الكيان هو فرد أو جماعة أو مجتمع . ثم يضع لهذا التعريف ثلاثة عناصر أساسية ، أولها أن التنمية عملية داخليه ذاتية بمعنى أن كل بذورها ومقوماتها الأصلية موجـودة فى داخل الكيان نفسه ، وأن العوامل الخارجية مجرد عوامل مساعدة أو ثانوية ، وثانيها أن التنمية عملية ديناميكية مستمرة ، وثالثها أن التنمية ليست ذات طريق واحد أو اتجاه واحد محدد مسبقا ، وانما تتعدد طرقها واتجاهاتها باختلاف الكيانات وباختلاف وتنوع الامكانيات الكامنة فى كل كيان . ثم يضيف المؤلف شرطين لازمين لعملية التنمية . الشرط الأول هو ازاحة كل المعوقات التى تحول دون انبثاق الامكانيات الذاتية الكامنة فى كيان معين ، والشرط الثانى هو توفير الترتيبات التى تساعد على نمو هذه الامكانات الى أقصى حدودها .

ويرى المؤلف ان الاستغلال بكل صوره ومستوياته هو المعـوق الرئيسى لعملية التنمية . وان المساواة من جانب وتوسع الفرص من جانب ركيزتان أساسيتان للتنمية وأن هاتين الركيزتين المساواة ، وتوسيع فرص الحياة ، هما المضمون الاجرائى لمفهـوم التنمية فى نظر المؤلف . وأن هاتين الركيزتين هما ما ينطوى عليه مفهوم التحرر الانسانى . فالتنمية والتحرر — كما يرى المؤلف — هما مصطلحان أو مفهومان لنفس المضمون فكلاهمـا يعنى الآخر وكلاهمـا يشترط وينطوى على ازاحة الاستغلال بـكل صوره وكل مستوياته وكلاهما يشترط وينطوى على تفجير كل الامكانيات البشرية الكامنة للانتاج والخلق والابداع .

ثم يضع المؤلف مقولات عشر لنظريته هى :

١ — فى أى نسق انسانى مترابط الوحدات System اذا تفاوتت درجات أو معدلات النمو بطريقة ثابتة وكبيرة بين وحداته المتفاعلة فان ذلك يعنى أن بعض هذه الوحدات ينمو على حساب الوحدات الأخرى فى نفس النسـق .

٢ — فى أى نسق تتفاوت فيه معدلات النمو فان وحداته الأقل نموا تحاول أن تلحق بوحداته الأكثر نموا بوسائل وطرق متعددة داخل اطار هذا النسـق .

٣ — فى ظل علاقات سوية داخل النسق تتم عملية لحاق الوحدات الأقل نموا بالوحدات الأكثر نموا فى مدى زمنى قصير نسبيا ، وبلا توترات عنيفة داخل النسق ولكن فى ظل علاقات غير سوية فان عملية اللحاق هذه تنتكس .

٤ — انتكاس محاولات لحاق الوحدات الأكثر نموا لا يمكن أن يتم الا باستعمال العنف المباشر أو غير المباشر بواسطة الوحدات الأكثر نموا ضد الوحدات الأقل نموا .

٥ — باستمرار استعمال العنف المباشر وغير المباشر تتسع الفجوة فى معدلات النمو بين وحدات النسق الأكثر نموا ووحداته الأقل نموا .

٦ — باستمرار استعمال العنف المباشر ، وباستمرار اتساع الفجوة فى معدلات النمو تتكرس علاقات « السيطرة » من جانب الوحدات الأكبر و « التبعية » من جانب الوحدات الأضعف ، وينعكس ذلك أقوى ما ينعكس فى البداية على مزيد من الاستغلال الاقتصادى للوحدات الأقل نموا .

٧ — بمرور الوقت وباستمرار نمط السيطرة والاستغلال الاقتصادى المبنيين أساسا على العنف ، يتسع نمط السيطرة والاستغلال ليشمل جوانب الحياة الأخرى من سياسية وتعليمية وثقافية ونفسية ولينفذ فى كل مستويات النسق المستوى الحضارى والمستوى الاجتماعى ، والمستوى الشخصى . Culture, Social order, and Personality

٨ — مع استمرار نمط السيطرة والاستغلال المبنيين على القهر ومع اتساعهما ليشملا كل جوانب الحياة ، ومع نفاذهما لكل المستويات فى الوحدات الأقل نموا يزداد التخلف ، وتتولد قيم السلبية واللامبالاة والقدرية والاحساس بالنقص والتبعية حيال الوحدات الأقوى والأكثر نموا .

٩ — لا تتوقف هذه العملية الحلزونية (Spinal Process) الا بقوة ذاتية مضادة من داخل الوحدات الأقل نموا ، لتعكس هذه العملية

الحلزونية بحيث يتخلخل نمط السيطرة والتبعية ، ولتتحول العلاقة فى اتجاه المساواة والتكافؤ مع الوحدات الأكثر نموا .

١٠ — هذا التحول الجدلى فى اتجاه العملية الحلزونية ، من علاقات سيطرة وتبعية الى علاقات مساواة وتكافؤ يبدأ وجوديا (Existentiellage) على مستوى الوعى والحركة الرافضة ، والعنف الجماعى ، ضد أنماط الاستغلال التى تمارسها الوحدات الأقوى فى النسق ، وتنتهى بخلق هياكل مؤسسية جديدة تؤدى الى توسيع فرص تنمية الامكانات الذاتية الكامنة الى حدودها القصوى .

ويفسر المؤلف مقولات نظريته بتأكيده على أن العلاقات الوحيدة التى تؤدى الى التفاوت فى النمو لابد وأن تكون علاقات استغلالية . وأنها تست بالقهر والعنف المباشر أو غير المبـــاشر وأن الذى يفرض الاستغلال بالعنف يخلق مؤسسات وهياكل اجتماعية ويرسى قيما ومفاهيم تساعده على استمرار هذه العلاقة الاستغلالية ، وأنه بمرور الوقت تتعمق مفاهيم لدى طرفى العلاقات تؤمن بتفوق أحدهمـــا وبنقص الآخر . وبالتالى فان خلخلة هذا البنيان النفسى ، الاجتماعى ، الاقتصادى لابد وأن يبدأ من حيث انتهى آخر جزء من السلسلة . وبذلك يصل الدكتور سعد الدين ابراهيم الى القول « وحيث بدأت العملية الاستغــلالية وماترتب عليها من هياكل وقيم ومفاهيم نفسية للذات باستخدام الوحدات الأقوى للعنف فلابد أن تبدأ العملية التكافؤية من جانب الوحدات الأقل نمو باستخدام العنف الاجتماعى » ..

ثم يحدد الدكتور سعد الدين ابراهيم مستــويات تطبيق نظريته فى (أ) النسق أو النظام العالمى بين الدول (ب) النسق أو النظــــام الاجتماعى بين الطبقات وبين الحضر والريف وبين الجماعات المختلفة . (ج) نسق المؤسسات بين العائلة أو المدرسة أو المصنع أو المصــلحة الحكوميــة ويرى المؤلف ان هــذه المستويات متداخــلة ومســاندة حيث يبدأ الاستغلال والسيطرة على مستوى النسق العالمى من جانب بعض المجتمعات لبعض المجتمعات الأخرى مما يخلق التمييز بين بلاد غنية أكثر نموا ، وفى داخل المجتمعات ، وخاصة الأقل نمــوا ، نجد الطبقات العليا والمدن تســتغل وتسيطر على الطبقات الدنيا والريف ، وفى داخل كل طبقة وفى مؤسسات المدينة والقرية على السواء نجــد استغلالا وسيطرة للقلة فى قمة المؤسسة على الأغلبية فى داخل هذه

المؤسسة . واستغلالا وسيطرة للرجال على النســـاء ، أى أن نمط الاستغلال والسيطرة الذى ينطوى على تفاوت فى معدلات النمو يبدأ على المستوى العالمى وينتهى على مستوى الفرد فى داخل المجتمع المتخلف فلا يمكن تفســـير التفاوت الهائل فى فرص الدخل والمسكن والصحة والتعليم بين فردين أحدهما يعيش فى العالم الثالث والآخر يعيش فى العالم الأول ــ مع تساويهما فى الملكات والقدرات الا من خلال نظرية متكاملة شاملة تربط بين هذه المستويات الثلاثة . وهكذا تصبح صدفة المجتمع الذى يولد فيه هى المحدد الرئيسى لفرصته فى الحياة كما وكيفا . وهنا يصبح السؤال ليس مجرد رغبة أو « حاجة للانجاز » عند الفرد فى مجتمع معين وغيابها أو نقصها عند الأفراد فى مجتمع آخر . ولكنه لماذا توجد هذه الحاجة هناك ولا توجـد هنا . هنـا يصبح السؤال لماذا تتسم بعض المجتمعات « بالقدرية والخصوصية » والذاتية (وهى المجتمعات المتخلفة) ويتسم بعضها الآخر « بالعلمية » و « الحيـادية الموضوعية » (وهى المجتمعات المتقدمة) ، ولكنه : ما هى أنماط العلاقة بين هذه المجتمعات تلك التى أدت الى نمو هذه السمات . هنا لا يصبح السؤال كيف يتسلط الرجال على النســاء فى مجتمع متخلف ، ولـكن لماذا يحس الرجال بدافع السيطرة على نسائهم فى ذلك المجتمع ؟ .

ان الاجابة على هذه الأسئلة تأخذنا الى صلب مقولات النظرية وهى أن تخلف البعض (سواء كانوا مجتمعات أو طبقات أو أفراد) هـو نتيجة منطقية وعضوية لتقدم البعض الآخر (سواء كانوا مجتمعات أو طبقات أو أفراد) . وأن هذه العلاقة التفاضلية تمت من خلال الاستغلال وأن الاستغلال فرض منذ البداية بواسطة القهر والعنف . فاذا ما قبلنا هذا التسلسل المنطقى فان (التنمية تصبح ممكنة فقط من خلال عملية جدلية معـاكسة ــ وهى التحرر (وجوديا) برفض نمط الاستغـلال والسيطرة مفهوميا وسلوكيا ، ابتداء من المستوى الفردى وانتهـــاء بالمستوى العالمى .

ويضرب لنا المؤلف نماذج لاتجاهات التحول فى نسق الشخصية وفى النسق العالمى على النحو التالى :

اتجـاهات التحـول

من ←—— الى

(أ) فى نسق الشخصية

١ — الاستسلام (Submission) — الرفض والمواجهة
٢ — القدرية* (Fatalism) — النظرة العلمية
٣ — الخصوصية (Particalarism) — العمومية Universalism
٤ — عدم الايمان بالقـدرة على تغيير الواقع — الايمان بالقدرة على تغيير الواقع
٥ — عدم الطموح — الطموح والرغبة فى الانجاز
٦ — الاشباع العاجل (Immediate) — الاشباع الآجل Delayed gratification
٧ — عدم الايمان بالعمل الجماعى — الايمان بالعمل الجماعى

(ب) فى النسق الاجتماعى

١ — نظام فئوى أو طبقى جامد — نظام طبقى مفتـوح وسـيولة فى الحراك الاجتماعى
٢ — تفاوت شاسـع فى توزيع الثروة والسلطة — تقارب فى توزيع الثروة والسلطة
٣ — اقتصاد غير متنوع — اقتصاد متنوع
٤ — أسرة أبوة كبيرة ممتدة ومتسلطة — أسرة صـغيرة نووية غير متسـلطة

(*) يختلط لدى بعض الباحثين العـرب معنى التـواكل مع معنى الايمان بالقضاء والقدر . برغم ما بينهمـا من اختلاف يصـل الى حـد التنـاقض .

فالتواكل سلبى ، أما الايمان بالقضاء والقدر فهو ايجابى .

هل فكرة القضاء والقدر دفعت المسلمين الأوائل الى الـوقوف من الحياة موقفا سلبيا أم موقفا ايجابيا ؟

ان عناصر الموقف السلبى يمكن ملاحظتها باللامبالاة والتسليم بالأمر الواقع ، والعزوف عن مباهج الحياة وزينتها . كما يمكن ملاحظة عناصر الموقف الايجابى بمحاولة تغيير الواقع والأخذ من الحياة والتفاعل معها . وهذا ما يمليه التوجيه الاسلامى للانسان ، وما يبينه بوضوح وجلاء .

٥ — تفاوت شاسع بين الريف — تقارب بين الريف والحضر
والحضر

٦ — مؤسسات مركزية لاديمقراطية — مؤسسات لا مركزية ديمقراطية

٧ — تعليم ديني كلاسيكي — تعليم علماني ومتطور للأغلبية
للصفوة ❊

(جـ) فى النسق العالمى

١ — التبعية السياسية — الاستقلال السياسي

٢ — الاستغلال والسيطرة الاقتصادية — التحرر الاقتصادي وعلاقات تجارية متكافئة

٣ — التبعية الحضارية والثقافية — تأكيد الخصوصية الثقافية

٤ — شراء وتقليد الصناعة — نقل وتوليد وتوليف التكنولوجيا

٥ — الضعف العسكري — الكفاءة العسكرية

اي النظريات امثل :

أو بمعنى آخر •• هل تستطيع نظرية من هذه النظريات أن تعالج كل مشاكل التنمية فى بلدان العالم الثالث ؟

لا يمكن أن توصف نظرية من هذه النظريات بأنها مثالية ، فان لكل منها أوجه القصور والنقد • كذلك فان بلدان العالم الثالث وان اتفقت فى أنها متخلفة الا أن الكثير من ظروفها يختلف ويتفاوت • فاذا نظرنا الى أهم نقد يوجه الى نظرية الدفعة القوية هو أن أصحابها يفترضون توافر رؤوس أموال ضخمة وتوافر أعداد ضخمة من المهندسين والفنيين والاداريين سواء من أبناء البلدان النامية أو الفنيين الأجانب • وكلا الأمرين غير متوافر فى البلدان النامية • وهو نفس النقد الذى يوجه الى نظرية النمو المتوازن • وأهم نقد يوجه الى نظرية النمو غير المتوازن هو

(❊) تعد هذه النقطة بعيدة عن واقع المجتمعات المسلمة . فالتعليم فى الواقع الاجتماعى الاسلامى دينى وعام وللجميع وشامل لكل جوانب المعرفة .

افتراضها أن التنمية الاقتصادية تعتمد بصفة أساسية على الأفراد وليست على الدولة ، وأن التنمية تتم دون خطة شاملة وانما تعتمد على عفوية النشاط الخاص .

ولكن ليس معنى ذلك أن نظريات التنمية جميعها بغير جدوى للبلدان النامية . ان هذه النظريات تلقى الأضواء الكاشفة أمام المهتمين بقضايا التنمية ، ويستطيع المختصون فى البلدان النامية أن يقارنوا وأن يفاضلوا بين نظرية وأخرى ، وأن يأخذوا من كل نظرية بالقدر الذى يتلاءم مع ظروفهم وبيئتهم والمرحلة التى يجتازونها فى سلم التنمية .

ويرى عادل حسين(١٤) أن الثورة الصناعية (أو مرحلة الاقلاع بتعبير روستو) بدأت فى انجلترا وتواصلت بدون نظرية متكاملة للتنمية ، والاسهام النظرى لآدم سميث كان لاحقا للممارسة العملية ، أى لابتداع وتطبيق سياسات اقتصادية ملائمة . وهو لا يعتقد أن كتابات سميث ومن تلاه قد اسهمت كثيرا فى الهام اليابان . ثم ان التجربة السوفيتية ارتادت طريقها بالتجربة والخطأ . ثم يخلص من ذلك الى القول بأنه برغم القصور النظرى الحالى بالنسبة لنا باعتبارنا من البلدان النامية فاننا فى وضع أفضل من حيث مستوى الوضوح النظرى الذى نبدأ منه . فقد تراكمت خبرة تجارب التنمية (الناجحة والفاشلة) فى كل أنحاء الأرض ، وفى ظروف دولية ومحلية متباينة ، ونشطت الدراسات فى تحليل هذه التجارب واستخلاص النتائج .

والتجربة التاريخية لا تقدم لنا نموذجا موحدا للتنمية ، ففى انجلترا التى يمكن اعتبارها أول بلد بدأ عملية التصنيع تطورت الصناعة الخفيفة وخاصة صناعة النسيج فى بداية الأمر . وبتزايد تراكم رأس المال ونمو الطلب على المعدات بدأت تظهر صناعات أخرى من ضمنها الصناعة الثقيلة وصناعة الآلات . واستطاعت ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية أن تختصر الى حد ما عملية التصنيع أو بعض مراحلها المستقلة وأن تنتفع كل منهما بتجربة انجلترا . وقد جرت عملية التصنيع فى الاتحاد السوفيتى فى ظروف أخرى مختلفة تماما . فهناك اختلاف جذرى بين الاشتراكية والرأسمالية . وهناك ظروف تاريخية خاصة بالاتحاد السوفيتى عندما بدأ عملية التصنيع بعد الثورة والحرب الأهلية

والحرب العالمية الثانية . ولقد طرحت طبيعة الدولة (١٥) الاشتراكية الأولى وطبيعة الظروف التاريخية على الاتحاد السوفيتى مهمة قهر التخلف الاقتصادى والتكتيكى فى ظل عدم الوجود الكامل تقريبا للمساعدات الخارجية وفى ظل التهديد وفى ظل الحصار الرأسمالى المعادى . كما طرحت أن يتطور الاتحاد السوفيتى كوحدة اقتصادية مستقلة معتمدا بالدرجة الأولى على السوق الداخلية .

فاذا أرجعنا النظر الى واقع التخلف فى العالم الثالث فاننا نجد أن بلدان هذا العالم الثالث تنشط فى ظروف تاريخية واجتماعية مختلفة تماما عن تجارب المعسكرين الغربى والشرقى .

وقد يكون من المبالغة فى التبسيط القول بأن البلدان المتخلفة اقتصاديا تحظى بتفوق معين نظرا لأنها تستطيع استخدام تجربة الغير والمنجزات دون أية أبحاث أو الوقوع فى اخطاء . ان هذه الامكانات توجد فى ظل ظروف وحدود ضيقة نسبيا فاذا ما تزايدت الهوة اتساعا بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة فان الدول المتخلفة ستواجه مشكلات لا حصر لها .

النظرية الاسلامية فى التنمية :

واذا جاز لنا أن نقول (التنمية الاسلامية) فان مفهومها ينقسم الى جانبين : الجانب « الايدلوجى » (*) ، ثم الجانب الواقعى المعاصر . ويمثل الجانب « الايدلوجى » فلسفة التنمية أو النظرية الاسلامية فى التنمية . وهى فى جملتها كنز مخبوء لم يكشف الباحثون بعد أبعاده . ولا نستطيع الزعم بوجود بحوث أو حتى (أدبيات) تحدثنا عن النظرية الاسلامية فى التنمية ، كما تحدثنا « الماركسية » مثلا أو « الليبرالية » . وفى الجانب الواقعى المعاصر فان الامر أبسط بكثير ، ذلك لان العالم

---

* أورد الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى كتابه الأيدلوجية الصهيونية ـ دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة (عالم المعرفة) العدد ٦١ ـ الكويت ـ ١٩٨٣ ، تعريفات عديدة للأيدلوجية منها :

* مجموعة أو عائلة من المفاهيم .

* نسق من الأفكار عن العالم الاجتماعى تضرب بجذور عميقة فى مجموعة محدودة من القيم والمصالح .

* نسق من المعتقدات والمفاهيم واقعية معيارية يسعى الى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منطق يوجه ويبسط الاختيارات السياسة الاجتماعية الأفراد والجماعات .

الاسلامى فى جملته ينتمى الى العالم الثالث أو الدول النـامية ، برغم التفاوت الكبير بين دوله وشعوبه ، فدخل الفرد فى (بنجلاديش) فى متوسطه السنوى يبلغ ثمانين دولارا بينما يزيد فى الخليج عن ثمانيـة عشر ألف دولار • برغم ذلك فان العالم الاسلامى ينتمى الى العـالم الثالث ، لان التنمية الشاملة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لم تتحقق فى تلك البلدان البترولية بالقدر الذى يخرجها من اطار العالم الثـالث •

ما هى ملامح الايدلوجية ؟

يواجه المسلم الفرد ، ويواجه المجتمع المسلم قضية الدين وحـكم الدين فى تفاصيل حياته • وبالقدر نفسه يتمتع الفرد المسلم ، ويتمتـع المجتمع المسلم بمساحات شاسعة لحركته وحرياته واختياراته ، لاتستطيع (الايدلوجيات) الاخرى ان تبلغها • ومن هذا الاساس (الايدلوجى) تصبح التنمية الاسلامية قضية (ايدلوجية) عقائدية من وجهة نظـر الاسلام • والنظرية الاسلامية فى التنمية لم تكتب بعد ، وذلك لأسباب تاريخية وحضارية معاصرة ، تتلخص فى تخلف المجتمعات الاسلامية ، وتبعيتها للحضارة الأوربية المعاصرة بشقيها (الليبرالى — الرأسمالى) والشـيوعى •

ولكن الظاهرة الجديرة بالاهتمام هى ان اعداء الاسلام لم يقفوا منه موقفا ساكنا سلبيا — كما وقف أبناؤه — فى أيدلوجيات التنمية • فالماركسية ترى ان الدين — كل دين — هو أفيون الشعوب وان مجرد وجوده عائق للتنمية • والليبرالية الرأسمالية ترى أن الاسـلام وأديان أخرى عائق للتنمية وهم يخصون الاسلام بالهجـوم ، فهم يزعمـون أن فكرة القضاء والقدر سبب تخلف المسلمين برغم أن فكرة القضـاء والقـدر فى الاسـلام فـكرة ايجابيـة وليست سلبيـة • فهى تسلحنى بقـدر لا نهائى من الثقـة ، فيصبح على ان ألتزم بسنن الله (تلك المعبر عنها بقوانين الطبيعة) ، وأعقل بعيرى ، وأتوكل على الله •

وبعيدا عن الخوض فى موقف الحضارة الغربية ودورها الأمريكى المعاصر — الذى يمثل صورة من الصور المتجددة للحروب الصليبية • وبعيدا عن صراع الثقافات الناتج عن اختلاف معايير السلوك بين الثقافات المختلفة • بعيدا عن كل ذلك وما يشابهه لا يستطيع الباحث الموضوعى المحايد فى أيدلوجيات التنمية أن ينكر أن الاسلام هو الدين الذى عالج

قضايا الدنيا الى جانب قضايا الآخرة . وهو الذى حدد العلاقات الاقتصادية بالتفصيل ، ووضع للعمل قيمة مادية وروحية فى الوقت نفسه .

وما أيسر وأقوى الرد على أساليب الحرب النفسية والدعاية المضادة للاسلام من الناحية النظرية . ولكن القصور الذاتى لوسائل الاعلام لدى المسلمين هو الذى يبدى صوت الباطل أعلى من صوت الحق وأكثر انتشارا وذيوعا . وعلى أية حال فان هذا يندرج تحت الجانب الدفاعى عن الأيدلوجية الاسلامية فى التنمية . فماذا عن الجانب البنائى ؟

ان بناء نظرية اسلامية فى التنمية لم يكتب بعد . ولكن الحقل ليس جدبا اجدابا مطلقا . ففى تجربة البنوك الاسلامية من جانب ، وفى التجارب الاسلامية المعاصرة من جانب آخر واقع لا يمكن اغفاله ، أو التقليل من أهميته . وفى كتابات المفكرين والباحثين الاسلاميين ما يشكل نباتات متفرقة يمكن جمعها فى شكل ابداعى جديد فى بستان واحد يقدم لنا نظرية اسلامية للتنمية الشاملة .

وسأحاول من جانبى أن أضع تصورا للنظرية الاسلامية فى التنمية . والتى تقوم على عدة ركائز تمثل فى جملتها أبعاد هذه النظرية .

أولا : البعد الفلسفى :

ويرتكز هذا البعد على ركيزتين أساسيتين هما : فكرة الاستخلاف بمعنى اعمار الأرض أى أننا مكلفون شرعا من الله سبحانه وتعالى باعمار الأرض . ونصوص القرآن فى ذلك واضحة :

● « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض » (سورة النور آية ٥٥) .

● « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » (سورة البقرة آية ٣٠) .

● « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض » (سورة الأنعام آية ١٦٥) .

وشرح جمهور المفسرين معنى الاستخلاف فى الأرض بأنه الخلافة عن الله سبحانه وتعالى فى تنفيذ أوامره بين الناس . وفى اعمار الأرض . ويضيفون الآيات الدالة على وجوب كسب العيش لاعمار الأرض مثل قوله تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » (سورة الأعراف آية ١٠) . ومثل قوله تعالى : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (سورة النحل آية ١٤) . وقد فسر بعض العلماء قوله الله تعالى « استعمركم فى الأرض » بمعنى السعى وطلب العمران .

ثم فكرة أن المال فى الاسلام مال الله . والمال فى اللغة العربية كل ما تملكه من جميع الأشياء ، والمال فى عرف فقهاء المذهب الحنفى كل ما يمكن حيازته والانتفاع به على وجه معتاد . وعند فقهاء المذهب الشافعى والمذهب الحنبلى والمذهب المالكى يضاف الى ذلك المفهوم للمال المنافع .

وفكرة ان المال فى الاسلام مال الله تنبع من النواة الصلبة الشديدة البساطة ، التى يقوم عليها الاسلام وهى الوحدانية ، الوحدانية المحضة الخالصة . من فكرة الوحدانية المحضة الخالصة نفهم معنى المال فى الاسلام . وهو ان المال مال الله وأننا مستخلفون فيه . وان ملكيتنا للمال ملكية مؤقتة . وأن هذه الملكية مرتبطة بالتكليف . فالصبى ملكيته للمال ملكية ناقصة لأنه يملك ولكنه لا يستطيع التصرف . فلابد من ولى أو وصى ، وغير العاقل أو المعتوه لا يملك التصرف فى ماله ، والمثل الشعبى الذى يقول بأن الكفن ليست له جيوب انما يعبر عن حكمة بليغة بأن المالك تنتهى ملكيته تماما عندما يلفظ النفس الأخير . هذا الواقع المادى فى الحياة اليومية من طفولة ومرض وموت يجعل المعنى الفلسفى المال مال الله حقيقة مادية ملموسة ومحسوسة .

ثانيا : البعد التشريعى :

● يرتكز هذا البعد على ركيزتين هما : الزكاة ، ونقيضها الربا . والزكاة ركن من أركان الاسلام كما أن الربا من الكبائر الموبقات التى حرمها الله تحريما قاطعا . ولابد من تناول كل منهما بشىء من التفصيل لادراك ارتباطهما بالتنمية .

١ ـ الزكاة : وهى ركن من أركان الاسلام وتسمى بالصدقة كما تسمى بالزكاة . والسؤال الذى يبين لنا جوهر هذه الزكاة هو : ما هى الفروق الجوهرية بين الصدقة أو الزكاة فى الاسلام وبين الصـدقات فى الأديان السابقة؟ بل وفى الحضارات السابقة؟

● النصوص التى عثر عليها الباحثون والمنقبون عن الحضـارات القديمة قدمت لنا نماذج لاهتمام أهل الحضارات القديمة بمسـاعدة الفقير والمحتاج .

● وفى النصوص الفرعونية مثلا كان المصرى القديم يشعر بأنه يؤدى واجبا دينيا عندما يعطى الخبز للجائع ويكسى العريان وما الى ذلك .

● وفى الحضارة البابلية والآشورية نجد فى قانون « حامورابى » مثلا ما يؤكد ذلك .

● والآيات القرآنية التى تقص علينا قصص الأنبياء تدلنا على قيام هؤلاء الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بالأمر بالزكاة .

● وفى التوراة والانجيل النصوص التى تحض على الصدقة ورعاية الفقير والمسـكين .

عناية الحضارات القديمة ، وعناية الاديان السـابقة على الرسـالة الخاتمة بالفقير وبالصدقة ثابتة ومؤكدة . ولكن الفروق الجوهرية بين هذه العناية بالفقير وبالصدقة وبين الزكاة التى جعلها الاسلام ركنا من أركانه يمكن اجمالها فيما يلى :

● أنها حق معلوم قدره الشرع الاسلامى وحدد مواقيت الآداء ، وحدد المستحقين .

● انها عمل جماعى ، وعمل اجتماعى ، فالاسلام لم يتركها لضمير الفرد وحسب وانما كلف الامام بجمعها وتوزيعها .

● انها فرض عين على المسلم القادر بحيث اذا كانت الدولة لا تقوم بهذا العمل أو اذا كان المسلم يعيش فى دولة أجنبية عن الاسلام فعليه أن يقوم هو بنفسه بأداء الزكاة .

● أنها ليست مجرد صدقة لسد حاجة الفقير وانما تهدف الى تحويل الفقير الى منتج ، وبذلك تدور عجلة التنمية فى المجتمع .

هذه هى ملامح وسمات الزكاة فى الاسلام . وفى المقابل يحرم الاسلام الربا . فاذا نظرنا الى وظيفة الزكاة فى المجتمع نجد أنها توزع الثروة وتوسع دائرة المنتجين . وعلى نقيض ذلك نجد الربا يمركز الثروة ويحول المقترضين الى دائرين فى فلك المرابى ، ومن ثم تزداد فى المجتمعات الربوية ظاهرة التمركز والاحتكارات وتضخم الثروة . وشتان بين تمركز الثروة وبين توزيع الثروة فى خدمة المجتمع وخدمة التنمية . أما كيف تحصل الزكاة أو ما هو نصابها ؟ فان ذلك يعود بنا الى عصر النبوة . فقد وحد الرسول صلى الله عليه وسلم المكاييل والموازين فى الدولة الاسلامية الأولى عندما أقر صلوات الله عليه وسلم ميزان أهل مكة واقر مكيال اهل المدينة ، فيما يمكن تشبيهه فى عالمنا المعاصر بالتوحيد القياسى .

وقد تتبع المؤرخون المسلمون الدينار الشرعى والدرهم الشرعى فأثبتوا أن وزن الدينار ٧٢ حبة من الشعير الوسط . وأثبتوا أن الحد الأدنى لوجوب الزكاة فى الذهب هو ٢٠ دينارا ، وفى الفضة ٢٠٠ درهما . وتتبع الباحثون المسلمون تاريخ المسكوكات الاسلامية ، وأقوال الفقهاء ، حتى اجمعوا على أن نسبة وزن الدرهم الى وزن الدينار هى ٧ : ١٠ (الدرهم ٧ على ١٠ من الدينار) ، وجاء الباحثون المعاصرون من فقهاء المسلمين ومؤرخيها ليقولوا لنا أن الدينار الشرعى وزنه ٤٫٢٥ جراما من الذهب وأن ما يزن ٨٥ جراما هو النصاب الذى تجب فيه الزكاة . وأن الدرهم الشرعى هو ٢٫٩٧٥ جراما من الفضة وأن ما يزن ٥٩٥ جراما هو النصاب الذى تجب فيه الزكاة .

كانت النقود المتداولة فى مكة عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنانير الذهبية وكان مصـدرها بلاد الروم البيزنطية . والدراهم الفضـية وكان مصدرها بلاد الفرس . وكان أهل مكة يتعاملون معها بالوزن تحديدا لقيمتها الحقيقية بين دنانير أو دراهم كبيرة أو صغيرة ، خفيفة أو ثقيلة . وكان تحديدهم لوزن النقد سببا فى دقة تحديد الدرهم والدينـار . لذلك فان ما ورد فى تاريخ الاسلام ، وفى عصر النبـوة على وجه التحديد من تحديد المقدار الذى يجب فيه زكاة المال يعود الى تحديد النقد السائد عالميا آنذاك والى الدقة البالغة لأهل مكة فى مراجعته بالميزان . وكانوا أهل تجارة بل كانوا حلقة وصل فى التجارة العـالمية آنذاك فى رحلتى الشتاء والصيف المعروفتين بين اليمن والشام .

وفى المقـابل كان أهل المدينة أهل زراعة لذلك كانت المكاييل ذات أهمية خاصـة عندهم . ونسـبة الزكاة فى النقد ٢٫٥٪ ونسبة الزكاة فى الحبوب والثمـار ١٠٪ فيمـا سقى بدون رفع للمياه مثل المطر و ٥٪ فيما سـقى بمجهـود . والنصاب خمسة أوسق والوسق ؟ يبلغ ٦٠ صاعا ، والصاع ٤ أمداد ، والمد هو ملء كفى الانسان المعتدل اذا ملأهما ومد يده بهما .

وعندما نتحدث عن الزكاة فى الاسـلام تبرز لنا حقيقة هامة وهى أن الزكاة قسم أو جزء يقتطع سنويا من رأس المال وليس من العائدات فقط . أى انها وسيلة دائمة لاعادة توزيع الثروات على المجتمع ، ولفسح المجال لحركة اقتصادية واجتماعية معا .

هذا الجزء المقتطع سـنويا من المال يطلق عليه الفقهاء المسـلمون تسمية نصـاب الزكاة . والنصاب هو القدر أو العدد من الماشـية الذى يجب فيه الصـدقة ، وكذلك من الذهب والفضـة ، وأمـوال التجـارة ، والزروع والثمـار ، والمعادن وما شابهها مثل البترول . هذا الى جانب تحديد زكاة الفطر والكفارات المختلفة التى تعد ملحقا يلحق بالزكاة شأنها شأن النذور والأضحيات وصدقات التطوع .

ويبين الجدول التالى الجانب الاحصائى للزكاة فى الاسلام وهو ما يسمى بالنصاب الذى يوجب الزكاة :

نوع المال	الحد الادنى أى (النصاب)	شروط دفع الزكاة	المقدار الواجب
الابل	٥	ملكية لمدة عام ، ليست عاملة مثل استخدامها فى الحرث أو السقى أو حمل الاشياء	شاة واحدة
	من ٥ الى ٩		شاة واحدة
	من ١٠ الى ١٤		شاتان
	من ١٥ الى ١٩		ثلاث شياه
	من ٢٠ الى ٢٤		اربع شياه
	من ٢٥ الى ٣٥		انثى ابل دخلت فى العام الثانى من عمرها (بنت مخاض)
	من ٣٦ الى ٤٥		انثى من الابل دخلت فى العام الثالث من عمرها (بنت لبون)
	من ٤٦ الى ٦٠		انثى من الابل دخلت السنة الرابعة من عمرها (حقة)
	من ٦١ الى ٧٥		انثى من الابل دخلت عامها الخامس (جذعة)
	من ٧٦ الى ٩٠		٢ (بنت لبون)
	من ٩١ الى ١٢٠		٢ حقة
	١٢١ فأكثر		فى كل (٤٠ بنت لبون)

نوع المال	الحد الادنى اى (النصاب)	شروط دفع الزكاة	المقدار الواجب
البقر والجاموس	٣٠ عند اغلب الفقهاء	ملكية لمدة عام وليست عاملة مثل الحرث	بقرة او جاموسة فى العام الاول من عمرها (تبيع)
	من ٤٠ الى ٥٩		بقرة او جاموسة عمرها سنتان (سنة)
	من ٦٠ الى ٦٩		٢ تبيع
	من ٧٠ الى ٧٩		تبيع وسنة
	من ٨٠ الى ٨٩		سنتان
	من ٩٠ الى ٩٩		ثلاث تبائع
	من ١٠٠ الى ١٠٩		سنة وتبيعان
	من ١١٠ الى ١١٩		تبيع وسنتان
	١٢٠		اربع تبائع اوثلاث سنات فى
	١٢١ فاكثر		فى كل ثلاثين تبيع فى كل اربعين سنة
الخيل	٥	خيل للتجارة لان خيل الركوب والجهاد لازكاة فيها	٥ر٢٪ من قيمة ثمنها سنويا
الغنم	٤٠	ملكية لمدة عام وان تكون سائمة ليست معلومة	شاة واحدة عمرها لا يقل عن عام . والماعز لا يقل عمرها عن عامين
	من ١٢٠ الى٢٠٠		شاتان
	من ٢٠١ الى٣٠٠		ثلاث شياه
	٣٠١ فاكثر		فى كل مائة شاه واحدة
الذهب	٢٠ مثقالا اى ٨٥ جراما	أن يحول عليها الحول	٥ر٢٪ سنويا
الفضة	٢٠٠ درهما	أن يحول عليها الحول	٥ر٢٪ سنويا

ومن الأمور البارزة الدلالة فى الاسلام أن الزكاة المفترضة وهى الحق المعلوم من نصاب معلوم بقدر معلوم تطبيقا لقول الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » « آية ١٠٣ سورة التوبة » — وهذه الزكاة أوجبها الله (آية ١٠٣ سورة التوبة) على الغنى فى ذمته ٠ فاذا جاء يوم اخراجها ثم هلك المال فى اليوم التالى يبقى حق الفقير فى ذمة المالك ٠ لأن حق الفقير ليس مرتبطا بالمال وحسب ان هلك ضاع حقه ، وانما مرتبط بذمة المالك ٠ واذا توفى الغنى وفى ذمته زكاة كان على الورثة اخراجها قبل توزيع الميراث ٠

وللشيخ الشعراوى اضافة بارعة فى معنى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم » بأن التطهر والتزكية يشمل كافة عناصر عملية الزكاة : المزكى ، والمزكى عليه ، والمال ٠ فان الذى يعطى المال عندما يؤخذ منه يضمن فى الوقت نفسه أنه ان احتاج فلن يضيع ، لان المجتمع الذى يأخذ منه وهو غنى يعطيه اذا كان فقيرا أو أفلس أو فقد ثروته ٠

ويرتبط بالمفهوم الواسع للزكاة أو الصدقة مفهوم الانفاق فى الاسلام ٠

وحلقات الانفاق فى الاسلام تبدأ من النفس الى الدائرة العالمية ، يأمرنا الله أن ينفق المرء على نفسه ولا يحرمها من الطيبات بخلا وشحا ولا ينخرط فى دوامة الاستهلاك والشراهة حتى يخسر صحته ونفسه وعقله ٠ يقول الله تعالى : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (سورة الفرقان آية ٩٧) ٠

ثم يأمرنا بالانفاق على أهلنا الى الحد الذى يبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللقمة فى فم زوجتك تكتب لك حسنة ٠

بعد الانفاق على النفس وعلى أقرب الناس من زوجة وأولاد تتسع الدائرة لتشمل الوالدين والاقربين ، بمعنى خروج الانفاق من أضيق دائرة وهى دائرة الأنا الى دائرة الأسرة الصغيرة ثم الى دائرة الاسرة الكبيرة ٠ وذلك تطبيقا لقول الله تعالى : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم » (سورة البقرة آية ٢١٥) ٠

ثم تتسع دائرة الانفــاق فى الاسلام لتصل الى الدائرة العالمية أو الدائرة الانســانية بمعنى أدق • عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وســلم كان يأمر بالصــدقة على أهل الاســلام وحسب حتى نزل قول الله تعالى : ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشــاء • وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله • وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » (آية ٢٧٢ سورة البقرة) •

لما نزلت هذه الآيات أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المســلمين بالصدقة على كل سائل من كل دين • يقول الشــيخ سيد قطب فى ذلك: من هنا نطلع على بعض الآفاق الســمحة الوضيئة التى يرفع الاســلام قلوب المسلمين اليها ويروضهم عليها • ان الاســلام لا يقرر مبدأ الحرية الدينية وحده • ولا ينهى عن الاكراه فى الدين فحسب ، انمــا يقرر ما هو أبعد من ذلك كله • يقرر حق المحتاجين جميعا فى أن ينالوا العون والانفــاق مادامو فى غير حــالة حرب مع الجماعة المسلمة دون نظر الى عقيدتهم • ويقرر أن ثواب المعطين محفوظ عند الله مادام الانفاق ابتغاء وجه الله • ويصل الاسلام فى مسألة الانفــاق الى حد وجوب الانفــاق على من أساء اليك مادام فقيرا •

كان أبو بكر ينفق على مسطح ابن اثاثه الذى كان احد أعمــدة حديث الافك وأحد الذين طبق عليهم حد الجلد لجهرهم بحديث الافك ، فقرر الصــديق الا ينفق عليه • فلما نزل قول الله عز وجل : « ولا يأتل أولوا الفضــل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم » فقال أبو بكر والله انى لأحب أن يغفر الله لى فرجع الى مسطح الذى كان يجرى عليه من الانفاق • بل ويصــل الاسلام فى مســألة الانفاق الى وجوب الانفــاق على الأســير تطبيقا لقول الله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءا ولا شكورا » •

هذه الدوائر من الأنا الى الانســانية فى مجال الانفــاق لا تلغى ولا تتعارض مع التحديد الدقيق لمستحقى الزكاة • بل يتداخل مستحقو الزكاة فى هذه الدوائر ويظلون هم أصحاب الحــق المعلوم أولا وأخيرا • وقد حددهم القرآن فى قول الله تعالى :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم » • (سورة التوبة الآية ٦٠) •

ولقد حددت هذه الآية حقوق أصحاب الزكاة ، أو حددت مصارف الزكاة بلغة الفقهاء • ولقد جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : اعطنى من الصدقة • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقة ، حتى حكم هو فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء فان كنت من تلك الاجزاء اعطيتك حقك •

ومن دلائل التعفف فى الاسلام أن الزكاة محرمة على آل محمد حتى ولو كان منهم الفقير أو المحتاج • ولقد سبق القول بأن بعض علماء الدين الاسلامى فسروا قوله تعالى : « استعمركم فى الارض » بمعنى السعى والطلب للعمران •

هذا التقدم وهذا العمران وبمعنى أوسع التنمية الشاملة لا يمكن لها أن تتحقق الا فى محيط اجتماعى بشرى • لذلك فان زيادة فاعلية عناصر الانتاج ضرورة لهذا التقدم واستمراره واستقراره • فماذا تفعل الزكاة لزيادة فاعلية عناصر الانتاج ؟•

● تسهم فى الانفاق الاستثمارى لأن دفع الديون التى على الغارمين يحولهم من مفلسين أو معلن افلاسهم الى منتجين • كذلك فان الفقهاء أدركوا من توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم فى اعطاء الفقير أنه عطاء يمكنه من العمل ومن الانتاج ، لا مجرد سد حاجته فى أكله أو ملبسه •

● ان وجود مال الزكاة فى أيدى المعدمين من شأنه أن يوسع دائرة السوق بنزول مستهلكين جدد ، ومن ثم تقضى على ظاهرة الكساد وظاهرة البطالة •

● تسهم الزكاة فى الانفاق الحكومى المتمثل فى النفقات العسكرية وفى انشاء البنية الأساسية ، وبذلك تمهد لمشروعات جديدة بصفة دورية •

● تحرض أصحاب رؤوس الأموال وتحفزهم على ترك الاكتناز ، والدخول بأموالهم الى سوق الانتاج ، حتى لا تأكل الزكاة السنوية الكثير من أموالهم •

هذه الأمثلة تبين لنا مدى فاعلية الزكاة فى احراز التقدم فى محيط اجتماعى وبشرى ويزيد الأمر وضوحا النظر الى الصدقات فى الاسلام بأنها تشمل ما يلى :

(أ) حق معلوم وهو اجبارى •

(ب) كفارات وهى تعويض عن التقصير أو الخطأ فى العبادات والاعمال مثل • حلف اليمين أو الخطأ فى مناسك الحج أو ما شابه ذلك •

(جـ) حق اختيارى وهو الذى يسمى بصدقة التطوع •

٢ — الربا :

الربا فى اللغة هو الزيادة ، واصطلاحا وشرعا هو الفضل الخالى عن العوض المشروط فى القرض والسلف وفى بيع الأموال الربوية عند بيع بعضها بجنسه • ويطلق الربا على المقدار الزائد نفسه كما يطلق على فعل الزيادة أى مباشرة عقد الربا وعمل الربا •

ومما يلفت نظر الباحث المحايد فى تناول قضية الربا فى عالمنا المعاصر هو الصاق التهم للمفكرين المسلمين المعاصرين عندما يؤكدون تحريم الاسلام لكافة أنواع الربا • ويذهب ملصقو التهم وملفقوها الى ضرب أمثلة صلاح الربا بالتقدم فى المجتمعات الربوية وبالتخلف فى المجتمعات الاسلامية • برغم أن المجتمعات الاسلامية المعاصرة تسير فى فلك الربا الذى فرضته المجتمعات الغربية الربوية عليها • ويذهب ملصقو التهم وملفقوها الى تخريجات وقياسات باطلة فى محاولة بائسة لتحليل أنواع من الربا لمجرد ان التسميات التى وردت فى عصر النبوة تختلف عن تسمياتها المعاصرة ، وهى محاولات بائسة فكريا أكثر من بؤسها اقتصاديا •

وقد يبدو من ضوضاء الكلام حول الربا انه شيء من تنطع المسلمين، وأن تحريمه اختراع اسلامى . والتاريخ يؤكد أن التحريم قائم فى الديانات السابقة بل وفى الثقافات القديمة . وأن الاسلام أو فى الصورة جلاء وحسما ووضوحا .

يرى المؤرخون للحضارات القديمة أن الربا نشأ مع ظهور النقود . وأنه كان فى كثير من الأحيان يعطى للدائن حق استرقاق المدين اذا قعد عن آداء فوائد الدين . لذلك كانت دعوة بعض الفلاسفة الأقدمين الى محاربة الربا نابعة من رؤية بشرية للعدل حتى فى مجتمعات وثنية . وهذا ما يؤكد أن الفطرة الانسانية تبغض الربا وترى فيه جورا وظلما للانسان . ولقد عبر أفلاطون فى كتابه روح القوانين عن هذا المعنى بقوله انه لايحل لشخص أن يقرض أخا بربا . وقد عمق هذا المعنى أرسطو بقوله ان الربا أبغض الأشياء لأنه يستدر الربح من المال ذاته .

ولاشك أن الرسالات السماوية كانت تنهى عن الربا . وفيما وصل الينا من التوراة من نصوص تحرم الربا ، « فضتك لا تعط بالربا ، وطعامك لا تعط بالمرابحة » (سفر اللاويين) . المؤمن لا يعط بربا (سفر المزامير) . وفى سفر نحميا نقرأ أن النبى نحميا هاله تفشى الربا بين اليهود فجمعهم ووبخهم ، ثم أمرهم أن يردوا فى اليوم ذاته كل ما أخذوه من الربا . ونفض النبى أمامهم حجره قائلا هكذا ينفض الله بيت المرابى .

وفى الانجيل نقرأ فى انجيل لوقا دعوة المسيح عليه السلام الى الاقراض دون استرداد القرض ذاته بقوله : أحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا فيكون أجركم عظيما » .

ولقد مارس العرب قبل الاسلام الربا بطرق مختلفة ولكنها كانت تؤدى فى بعض الأحيان بالدائن الى الرق أو تؤدى به فى أحيان أخرى الى اكراه ابنته أو زوجته على ممارسة الدعارة ليسدد ما عليه من الربا ، أو تؤدى به الى الخروج على المجتمع والفرار ليصبح قاطع طريق أو متشردا . كان الربا جزء من النظام الاقتصادى فى الجاهلية وجاء الاسلام ليحرم الربا شأنه شأن الأديان السماوية السابقة . ولكن معالجة

الاسلام للربا استوقفت بعض الباحثين (١٦) المسلمين فوجدوا تدرج التشريع الاسلامى فى تحريم الربا .

كان النص الأول فى القرآن الكريم حسب ترتيب النزول هو قول الله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

ولقد رأى بعض الباحثين المسلمين(١٧) أن هذه الآية تدلنا على الخطوة الأولى من خطوات التشريع الاسلامى ، لقد لفتت الانظار الى مرض عضال ، متوطن فى المجتمع آنذاك ليترقب أولو الألباب ما سيكون بعد . ثم يأتى النص القرآنى الثانى المتعلق بالربا ليزيح الستار عن الموقف الحقيقى للربا وتحريمه عند أهل الكتاب من السابقين . هذا النص الثانى هو قول الله تعالى :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » . ثم يكون النص القرآنى الثالث المتعلق بالربا أول نص يحرم الربا تحريما صريحا . « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ثم يكون النص القرآن الرابع والأخير موضحا ومفصلا تحريم كل أنواع الربا وكل أشكاله ويحدد موقف المرابى باعتباره عدوا لله ومحاربا لله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

هكذا أوفى الاسلام صورة تحريم الربا لتصبح أمام الفكر الانسانى واضحة المعالم • وتصبح أمام المسلم اطارا ثابتا يقيس عليه •

وقبل الخوض فى أى جدل حول الربا من كافة أبعاده ، وقبل الحديث عن البعد الدينى المتعلق بالربا فى كافة الديانات السماوية ، قبل هذا وذاك نسوق الاحصاءات الدولية التى تبين معدل نمو الناتج القومى، ثم نسوق الاحصاءات الدولية حول نسب الربا ، ثم نقارن ، ثم نطرح سؤالا بسيطا هو : هل يمكن تحقيق أى تقدم على المستوى الفردى أو على المستوى العائلى أو على مستوى المؤسسة أو الشركة أو على المستوى الوطنى أو على المستوى العالمى بطريق الربا ؟

تقول الاحصاءات الدولية ما يلى :ـ

أولا : فى البلدان الراسمالية المتقدمة :

نمو الناتج القومى الاجمالى الحقيقى فى بلدان صناعية منتقاه ، ١٩٧٩ — ١٩٨٥

(النسبة المئوية للتغيير السنوى)

البلد	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥
فرنسا	٣,٥	١,١	٠,٣	١,٨	٠,٧	٠,٦	١,٠
ألمانيا	٤,٤	٢,٠	−٠,١	−١,٢	١,٣	٢,٧	٢,٣
اليابان	٥,٢	٤,٨	٤,١	٣,٣	٣,٤	٥,٨	٥,٠
المملكة المتحدة	١,٨	−٢,٦	−١,٤	١,٥	٣,٧	٢,٣	٣,٣
الولايات المتحدة	٣,٢	−٠,٢	٣,٤	−٢,١	٣,٧	٥,٢	٢,٥
المتوسط للبلدان الخمسة	٣,٦	٠,٩	٢,٢	−٠,٢	٣,٠	٤,٢	٢,٨

ملاحظة : البيانات المتعلقة بعام ١٩٨٥ هى تقديرات .

المصدر : بالنسبة للفترة ١٩٧٩ — ١٩٨٤ : بيانات البنك الدولى . وبالنسبة لعام ١٩٨٥ : منظمة التعاون والتنمية فى الميدان الاقتصادى : ١٩٨٥ ج

ثانيا : في البلدان النامية :

النمو الحقيقي للناتج المحلي الاجمالي ١٩٦٥ – ١٩٨٥

(النسبة المئوية السنوية للتغيير)

مجموعة البلدان	١٩٦٥–١٩٧٣ المتوسط	١٩٧٣–١٩٨٥ المتوسط	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥
البلدان النامية	٦،٦	٥،٤	٣،٥	٢،٠	٢،٠	٥،٤	٤،٤
البلدان المنخفضة الدخل	٥،٦	٤،٧	٥،٠	٥،٣	٧،٨	٩،٤	٧،٨
أفريقيا	٣،٩	٢،٧	١،٧	٠،٧	٠،٢	٠،٧	٢،١
آسيا	٥،٩	٥،٠	٥،٤	٥،٨	٨،٦	١٠،٢	٨،٣
الصين	٧،٨	٥،٤	٤،٩	٧،٧	٩،٦	١٤،٠	١٠،٦
الهند	٤،٠	٤،١	٥،٨	٢،٩	٧،٦	٤،٥	٤،٠
البلدان المصدرة للنفط المتوسطة الدخل	٧،١	٥،٨	٤،٤	١،٠	-١،٩	٢،٥	٢،٥
البلدان المستوردة للنفط المتوسطة الدخل	٧،٠	٥،٥	٢،١	٠،٨	٠،٨	٤،١	٣،٠
المصدرون الرئيسيون للسلع المصنوعة	٧،٦	٥،٩	١،٦	١،٢	٠،٨	٤،٤	٣،١
البرازيل	٩،٦	٦،٨	-١،٥	١،٠	-٣،٢	٤،٥	٧،٠
البلدان الأخرى المستوردة للنفط المتوسطة الدخل	٥،٤	٤،٥	٣،٤	-٠،٦	٠،٨	٣،١	٢،٨
البلدان المصدرة للنفط مرتفعة الدخل	٩،٢	٧،٧	١،٦	-١،٧	-١،٧	١،٣	-٥،٠
إقتصاديات السوق الصناعية	٤،٧	٢،٨	١،٩	-٠،٦	٢،٣	٤،٦	٢،٨

ثالثا : فى المجتمع الشيوعى المتقدم :

أذاعت وكالات الأنباء يوم ٢٤ يناير ١٩٨٨ نقلا عن الاحصاء السنوى السوفيتى ان معدل النمو خلال عام ١٩٨٧ بلغ ٢ر٥٪ وان ٤ر٢ مليون سوفيتى نقلوا الى مجالات عمل أخرى بسبب الميكنة والحملة الحكومية الرامية الى رفع انتاجية العامل ، وكان معدل النمو المستهدف ٤ر١٪ ولكن ما تحقق بلغ ٢ر٥٪ ٠

تلك الاحصاءات عن العالم الرأسمالى المتقدم وعن العالم النامى مستقاة من تقرير البنك الدولى الصادر عام ١٩٨٦ ٠ والاحصاءات عن العالم الشيوعى المتقدم مستقاة من الاحصاء السنوى السوفيتى ٠

وفى المقابل نورد احصاءات الربا كما نشرها تقرير البنك الدولى عام ١٩٨٦ ، وهى على النحو التالى :ـ

البند	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥
سعر الفائدة للدولار فيما بين بنوك لندن لفترة ستة أشهر	٩ر٥	١٢ر١	١٤ر٣	١٦ر٦	١٣ر٣	٩ر٩	١١ر٢	٨ر٧

من هذه الاحصاءات يتبين لنا أن التقدم عن طريق الربا من باب المستحيل ٠ واذا قال قائل اننى أستطيع أن أقترض بالربا من البنك ، وأحقق ربحا مؤكدا أكبر من سعر الفائدة ، نقول له ان هذا من باب الأمر الشاذ ، والشاذ لا حكم له ٠ ولأن العبرة بعموم التنمية ٠ ونسوق النموذج البرازيلى تأكيدا لاستحالة التقدم بطريق الربا ٠

أعلنت الحكومة البرازيلية عام ١٩٨٧ وقف سداد أقساط وفوائد الديون ، وطالبت الدائنين بجدولة شاملة وأقساط تراعى وضع البرازيل الاقتصادى ٠ وقد يخطر على الذهن أن البرازيل دولة فقيرة ٠ لا ٠٠ انها تملك مصادر هائلة من الثروة ، وتحظى بتقدم صناعى مرموق حتى شمل انتاجها الآلات الحاسبة الالكترونية (الكمبيوتر) وصناعة الأسلحة ٠ وبرغم ذلك فانها سقطت ضحية الديون الخارجية ٠ سقطت ضحية الربا ٠

يروى الصحفى المصرى جلال دويدار (١٨) تجربة زيارته للبرازيل فى ظل هذه الأزمة قائلا :

ولعل ما أثارنى أثنـاء عمليـة جمـع المعلومات أننى لم أكن أضع فى اعتبارى هذا الحجم الهائل لدولة البرازيل سواء من ناحية المسـاحة أو الثروة أو التعداد السكانى • انها تحتل نصف قارة أمريكا الجنوبية وان مساحتها تبلغ ٨ر٥ مليون كيلو متر مربع أى ثمانية أضعاف مساحة مصر وأكثر من مساحة أوربا كلها باستثناء الاتحاد السوفيتى •• ويبلغ تعداد سكان البرازيل ١٣٥ مليون نسمة •

ويمثـل حجم الأراضى الصالحـة للزراعة فى البرازيل ١٧٪ من مساحتها بينما تصل مساحة الغابات الى ٦١٪ من هذه المساحة • وتعتبر البرازيل الدولة الأولى فى انتاج البن والسكر والبرتقال واحتيـاطى الذهب وكثير من المعادن والأحجار الكريمة •• كما أنها تحتل المرتبـة الثانية بعد ساحل العاج فى انتاج الكاكاو وبعد أمريكا فى انتاج فـول الصويا والحديد الخام •

والبرازيل تعتبر من الدول الصناعية الهامة حيث يشمل انتاجهـا أجهزة الكمبيوتر والسفن والطائرات والسيارات والملابس وأجهـزة التليفـزيون والأسلحـة والذخائر والأدوية والورق والصنـاعات البتروكيماية والميكانيكية •

ويبلغ الناتج القومى فى هذه الدولة ٢٣٦ مليار دولارا ، متوسط نصيب الفـرد من هـذا الدخـل يصـل الى ١٩٥٦ دولارا سـنويا ، واستطاعت البرازيل أن تغزو بمنتجاتها الصناعية كل أسـواق العـالم طوال السنوات الماضية • وعلى مدى السنوات الست الأخيـرة والتى سبقت قرار وقف سداد أقساط الديون وأعبائها تطورت قيمة الصادرات البرازيلية ففى عام ١٩٨٠ بلغت الصادرات ١ر٢٠ مليار دولار بينمـا بلغت الواردات ٢٣ مليـار دولار بعجـز ٩ر٢ مليار دولار فى الميزان التجارى ، وفى عام ١٩٨١ بلغت الصادرات ٣ر٢٢ مليار دولار والواردات ١ر٢٢ مليار دولار وهو ما يعنى تحقيق حوالى ٢٠٠ مليون دولار فائضا فى الميزان التجارى لأول مرة •

وكانت البرازيل ضمن الدول التى أصابها الكساد الذى ساد العالم من نهاية سنة ١٩٨١ ، ونتيجة لذلك انخفضت صادراتهـا فى ٨٢ الى ٢٠ر٣ مليار دولار كما انخفضت أيضا الواردات لتصل الى ٤ر١٩ مليار دولار ورغم هذا تحقق فائض فى الميزان التجارى لصالح البرازيل بلغ ٨٠٠ مليون دولار • واستمرت حالة الكساد عام ٨٣ حيث لم يتجـاوز حجم الصادرات ٩ر٢١ مليار دولار •• ولكن قابله من الجانب الآخـر ظاهرة ايجابية حيث انخفضت الواردات الى ٤ر١٥ مليار دولار ولذلك ارتفع الفائض فى الميزان التجارى البرازيلى الى ٥ر٦ مليـار دولار • وفى عام ٨٤ ارتفع الفائض الى ١ر١٣ مليار دولار بعد انتعاش الصادرات ليصل حجمها الى ٢٧ مليار دولار فى مقابل ٩ر١٣ دفعتهـا البرازيل لوارداتها من الخارج •

ورغم هذا الفائض الضخم الذى حققته سياسة التصنيع والتصدير فى البرازيل •• فان أعباء خدمة هذه الديون وفوائدها قد أجهضت كل طموحات تحقيق الرخاء الاقتصادى • لقد بلغت أعباء هذه الديون التى تضخمت حتى أصبحت ١٠٨ مليارات دولار حوالى ٢٠ مليـار دولار سنويا • وعلى هذا الاساس فان فوائض الدخل البرازيلى من العمـلات الحرة نتيجة التصدير لا يمكن ان تفى بأى حال بهذه الأعباء • ترتب على تفاقم هذه المشكلة انفلات عجلة التضخم التى تمثل « الترمومتر » للأسعار وتكلفة التصنيع لتصل الى ٢٢٠٪ عام ٨٤ • ثم ارتفعت نسبة التضخم فى عام ٨٥ لتصل الى ٢٥٠٪ وهذه السنة التى بلغت فيهـا الصادرات البرازيلية ٦ر٢٥ مليار دولار بينما لم تتعد الواردات ١ر١٣ مليار دولار محققة بذلك فائضا قدره ٥ر١٢ مليار دولار •

وأمام هذا التطور الخطير فى الأوضاع الاقتصادية رغم هذا الحجم الهائل للصادرات البرازيلية والفوائض التىحققتها •• فقد اضطـرت الحكومة الى التدخل بشـكل حاسم خاصـة أنها كانت على أبواب الانتخابات • وتم وضع خطة لوقف التدهور وخفض نسبة التضخم الى الصفر • ارتكزت هذه الخطة على تجميد الأجور والأسعار • وحققت هذه الخطة نجاحا كبيرا وان كانت قد أثرت على الصادرات البرازيلية لعدم مراعاتها ازدياد أسعار المواد المستوردة من الخارج والتى تستخدمها المصانع • وقد أدى ذلك الى اغلاق العديد من هذه المصـانع • كمـا

أنهيارات العملة البرازيلية حيث انخفضت قيمتها الرسمية بمقدار الضعف . كان الدولار يساوى ٥ر١٣ من وحدة العملة البرازيلية «كروزادو» ثم أصبح يساوى ٢٤ وحدة رسميا و ٣٢ وحدة فى السوق السوداء . ونتيجة للقيود التى فرضت على الاستيراد فقد انخفضت الواردات فى عام ٨٦ الى ٨ر١٢ مليار دولار بينما بلغت الصادرات ٣ر٢٢ مليار دولار وبذلك بلغ الفائض ٥ر٩ مليار دولار .

وعندما تراجعت الحكومة البرازيلية فى أكتوبر ١٩٨٦ عن بعض هذه الاجراءات . ونتيجة لذلك تركت الأسعار ترتفع بلا قيود حتى بلغت نسبة هذا الارتفاع ٣٠٠٪ ثم بلغت ٥٠٠٪ .

وأمام هذه الظروف واجهت البرازيل مأزق أقساط وفوائد الديون الخارجية (١٠٨ مليارات دولار) .. ان فائض دخلها لا يتجاوز ٨ر٩ مليار دولار فى عام ٨٦ بينما هى مطالبة بدفع ٢٠ مليار دولار أقساطا للديون وفوائدها .. ونتيجة لذلك فلم يكن أمام الحكومة البرازيلية سوى أن تعلن وقف السداد والمطالبة بجدولة شاملة لهذه الديون وفوائدها بشروط تراعى وضعها الاقتصادى » .

ويختم جلال دويدار مقاله قائلا ان محصلة ما سمعته وشاهدته خلال الأيام التى أمضيتها فى ريودى جانيرو عاصمة البرازيل الاقتصادية جعلتنى أشعر بالاشفاق على هذه الدولة العملاقة التى تملك كل مقومات الانطلاق التى تدعمها الثروة الطبيعية والبشرية الهائلة والقاعدة الانتاجية الضخمة .. انها ليست مشكلة البرازيل وحدها ولكنها مشكلة كل العالم الذى تحكمه أنظمة اقتصادية تزيد من ثراء الدول الغنية .. ولا تتيح سوى الفقر والمعاناة لدول العالم الثالث » .

وحقيقة الأمر أن عملاق أمريكا الجنوبية سقط ضحية للربا . انه العول الذى يلتهم عرق الشعوب وخيراتها وحصاد عملها وليست البرازيل الا مثلا ، فان الجدول التالى يبين فداحة ديون العالم النامى ، وقسوة سقوطه تحت أقدام الربا . انه موقف يذكرنا « بشايلوك » المرابى فى مسرحية شكسبير المعروفة .

مؤشرات الديون بالنسبة للبلدان النامية ١٩٨٠ — ١٩٨٥

(نسبة مئوية)

المؤشر	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤	١٩٨٥
نسبة الدين إلى الناتج القومي الإجمالي	٢١,١	٢٢,٨	٢٦,٨	٣١,٨	٣٢,٧	٣٣,٠
نسبة الدين إلى الصادرات	٩٠,١	٩٧,٥	١١٦,٤	١٣٤,٣	١٣٠,٤	١٣٥,٧
نسبة خدمة الديون	١٦,١	١٧,٧	٢٠,٧	١٩,٤	١٩,٨	٢١,٩
نسبة خدمة الديون إلى الناتج القومي الإجمالي	٣,٨	٤,١	٤,٧	٤,٦	٥,٠	٥,٣
نسبة خدمة الفوائد إلى الصادرات	٧,٠	٨,٣	١٠,٤	١٠,٠	١٠,٥	١١,٠
جملة الدين القائم والمنصرف (ملايين الدولارات)	٤٣١,٦	٤٩٢,٥	٥٥٢,٤	٦٢٩,٩	٦٧٤,١	٧١١,٢
الدين الخاص كنسبة مئوية من إجمالي الديون	٦٣,٣	٦٤,٥	٦٤,٩	٦٦,١	٦٥,٧	٦٤,٥

ملاحظة : البيانات تستند إلى عينة من تسعين بلداً نامياً .

التزامات جديدة بالنسبة للمقترضين العاملين والذين تضمنهم هيئات عامة فى البلدان النامية ١٩٧٨ — ١٩٨٤ .

(ببلايين الدولارات)

البنـد	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
جميع الدول النامية :							
جملة الالتزامات	٨٣,٧	٩٥,١	٩٣,١	١٠٣,٠	٩٩,٢	٨٧,٢	٦٩,٩
مصدر خاص	٥٣,٤	٦٤,٠	٥٠,١	٦٤,٢	٦١,٤	٤٩,٦	٣٦,٣
مصدر رسمى	٣٠,٣	٣١,٠	٤٢,٩	٣٨,٨	٣٧,٧	٣٧,٦	٣٣,٦
ثنائى الأطراف	١٦,٥	١٦,٤	٢٣,٥	١٩,٥	١٧,٤	١٦,٢	١٣,٦
متعدد الأطراف	١٣,٨	١٤,٦	١٩,٤	١٩,٣	٢٠,٣	٢١,٤	٢٠,٠
أفريقيا منخفضة الدخل :							
جملة الالتزامات	٣,٨	٤,٥	٥,٢	٣,٧	٣,٦	٣,١	٣,٠
مصدر خاص	١,١	١,٦	١,٥	٠,٨	٠,٥	٠,٢	٠,٤
مصدر رسمى	٢,٨	٢,٩	٣,٨	٢,٩	٣,١	٢,٩	٢,٦
ثنائى الأطراف	١,٦	١,٤	١,٩	١,٢	١,٤	١,٤	٠,٩
متعدد الأطراف	١,٢	١,٥	١,٩	١,٧	١,٧	١,٥	١,٧
المقترضون الرئيسيون(١) :							
جملة الالتزامات	٥٠,٨	٦٢,٢	٥٤,٦	٧٩,٠	٦١,٧	٤١,٨	٢٩,٩
مصدر خاص	٤٢,٤	٥٤,٤	٤٤,٧	٦٥,٩	٤٩,٢	٢٨,٧	٢٠,١
مصدر رسمى	٨,٤	٧,٨	٩,٩	١٣,١	١٢,٥	١٣,١	٩,٧
ثنائى الأطراف	٣,٦	٢,٥	٤,٥	٥,٩	٥,٠	٤,٧	٣,٥
متعدد الأطراف	٤,٨	٥,٣	٥,٤	٧,٢	٧,٥	٨,٤	٦,٢

(١) الأرجنتين ، اكوادور ، أوروجواى ، البرازيل ، بوليفيا ، بيرو ، جامايكا ، ساحل العاج (كوت دوفوار) ، شيلى ، الفلبين ، فنزويلا ، كوستاريكا ، كولومبيا ، المغرب ، المكسيك ، نيجيريا ، ويوغوسلافيا . وهذه البلدان تمثل نصف دين البلدان النامية المدينة فى نهاية العام ١٩٨٥

وقد يتساءل بعض الناس فيقولون ان الربح الذى يحصل عليه المقترض من عمله فى المال الذى اقترضه من البنوك الربوية ، انما ينشأ ذلك الربح من التزاوج بين العمل ورأس المال المقترض • فكيف يكون للعمل حقه فى الربح ولا يكون للمال حق فى الربح مع أنه قرين العمل وشريكه فى هذا النتاج ؟

ويجيب الشيخ محمد خاطر قائلا (١٩) : « الجواب عن هذه الشبهة يتلخص فى أن الربح حقيقة ثمرة العنصرين المتزاوجين العمل والمال ذلك حق لا شبهة فيه • غير أن أصحاب الشبهة المثارة بشأن ربح المال المقترض قد فاتهم شئ جوهرى هام وهو أنه بمجرد عقد القرض أصبح العمل ورأس المال فى يد شخص واحد ولم يبق للمقترض أية علاقة بذلك المال • بل صار المقترض هو الذى يتولى تدبيره تحت مسئوليته التامة من ربح أو خسارة • حتى أن المال اذا تلف أو هلك فانما يهلك أو يتلف على ملكه لأنه قد ضمن المال ، فاذا أصررنا على اشراك المقترض فى الربح الناشئ وجب علينا أن نشركه فى الوقت نفسه فى الخسارة النازلة لأن كل حق يقابله واجب • ومن له الغنم عليه الغرم • وموقف المودع فى العملية الربوية ليس كذلك اذ قد حدد له آخذ المال بالربا الفائدة مسبقا وضمن له ماله ، ولاشأن لصاحب المال بما قد يحصل من خسارة •

وعلى هذا لا يصح أن نجعل الميزان يتحرك من جانب واحد فنعطى (المودع) العائد المحدد مسبقا ونعطيه كذلك الضمان لأمواله ثم نقول ان ما أخذه كان نتيجة لتزاوج ماله مع العمل • وذلك غير صحيح لعدم وجود الشركة الحقيقية بين المال والعمل ومخالفة ذلك لنصوص الشريعة الغراء •

أما اذا قبلنا اشراك رب المال فى الربح وعدم ضمان العامل للمال الا اذاقصر فى الحفظ أو أساء الاستعمال أو خالف ما اشترطه عليه رب المال ، والتزام المال بالخسارة ويكفى العامل خسارة عمله وجهده ، اذا كان الأمر كذلك ، فان المسألة تنتقل من موضوع القرض أو الايداع الى صورة أخرى وهى الشركة الحقيقية بين رأس المال والعمل • وهذه الشركة لم تغفلها أحكام الشريعة الاسلامية الغراء بل نظمتها تحت عنوان القراض أو المضاربة •

غير أنه لكى يقبل رب المال الخضوع لهذا النوع من التعامل يجب أن يكون لديه من الشجاعة ما يواجه به المستقبل فى كل احتمالاته ، وهذه فضيلة لا يملكها المرابون لأنهم يريدون فائدة بغير مخاطرة وفى ذلك ما يتنافى مع أسس الاقتصاد الاسلامى وقواعده الصحيحة • أما اذا سرنا وفق الاصول والمبادىء الاقتصادية الاسلامية ونصوص الشريعة بشأن المال والعمل فليس هناك سوى نظامين لا ثالث لهما •

- نظام يشترك فيه رب المال بماله فقط والعامل بعمله وخبرته فيشتركان فى الربح كما تقع الخسارة على كل منهما بمعنى أن العامل وهو المضارب يخسر جهده وعمله ، وتقع الخسارة المالية على رب المال ما لم يثبت تقصير العامل (المضارب) على نحو ما أشرنا أو مخالفته لما اشترطه عليه رب المال فيضمن المضارب حينئذ خسارة المال كذلك ، وقد يكون استثمار المال لحساب رب المال والعامل أجير فقط ليس له سوى أجره المحدد فى كل الأحوال ولا شأن له بالربح أو الخسارة بل ان ذلك لرب المال •

- وأما نظام لا يشترك فيه رب المال فى ربح ولا خسارة وذلك اذا أقرض ماله والشريعة الغراء لا تعرف الا القرض الحسن ، وحينئذ يكون الخراج بالضمان فالربح للمقترض والخسارة عليه ويضمن المال لمن اقترضه له •

ولا ثالث لهذين النظامين بشأن المال والعمل الا أن يكون تلفيقا وبعدا عن نصوص الشريعة الغراء وأحكامها ومن ذلك يتبين أنه لا وجه لما يصوره الذين يتعاملون بالربا من تصوير خاطىء » •

ماذا فعل الاسلام بالربا ؟ فى الجانب العقدى حرمه تحريما قاطعا • وفى الجانب التطبيقى أسقط القائم منه والاكتفاء برد رؤوس الأموال للدائنين •

والسؤال هو : ماهى العلاقة بين الحديث عن الزكاة فى الاسلام وبين الحديث عن الربا ؟ الواقع أن الأمرين لا يمكن فصلهما ، لأن الزكاة هى الجانب الايجابى الذى به يتم توزيع الثروة • والربا هو الجانب السلبى الذى به يتم نزع الثروة من المحتاج وتركيزها فى يد المرابى •

لذلك كان الاسلام فى تحريمه للربا واسقاط القائم منه واعـلان ذلك بوجه خاص فى حجة الوداع كان ذلك كله حماية للزكاة وتهية المناخ الصحى للانفاق فى الاسلام • ولتحقيق التنمية الصحية فى المجتمع•

أما عن دور ولى الأمر فى محاربة الربا فان بعض المفسرين رأوا فى قوله تعالى فى مخاطبة من لم يذر الربا ويأخذ رأس ماله فقط « فاذنوا بحرب من الله ورسوله » أن واجب ولى الأمر محاربة المرابى الذى لا يدع ما بقى من الربا وله رأس ماله ، فقد كان آخر ما نزل من القرآن بشأن الربا فى أواخر عصر النبوة قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلموا ولا تظلمون » (سورة البقرة ــ آية ٢٧٨ و ٢٧٩) •

شرح ابن عباس هذه الآية الكريمة بأن من كان مقيما على الربا لا ينزع عنه كان حقا على امام المسلمين أن يستتيبه فان نزع والا ضرب عنقه •

ولا يمكن فهم البعد التاريخى للانفاق فى الاسلام بغير ادراك دور الانفاق الاسلامى فى تحرير العبيد • ذلك الدور الذى بدأ من صدقات التطوع قبل فرض الزكاة الاجبارية والذى شمل أيضا الكفارات •

فتحرر العبيد كان يتم فى الاسلام من الزكاة التى هى الحق المعلوم ومن صدقات الكفارات ومن صدقات التطوع • وهذا الانفاق فى الاسلام يختلف تماما عن الضرائب والمكوس التى كان يجبيها الاباطرة والاقطاعيون لينفقوا منها على الترف والابهــة والسلطان • وهى نقيض الزكاة التى تؤخذ من الاغنياء لتنفق على الفقراء • ويكفى أن نشير الى ضريبة الليلة الأولى فى الاقطاع ، التى يدفعها الزوج للاقطاعى باعتبار أن العروس ملك للاقطاعى والى تزويج الشباب من أمــوال الزكاة فى عصر عمــر بن عبد العزيز •

ثالثا : البعد التطبيقى :

ويرتكز هذا البعد على مقولات أساسية تمثل اطارا عاما للتنمية الاسلامية ، وهو اطار متحرك وقابل للتطور • ويمكن اجمال هذه المقولات الأساسية فيما يلى :ـ

١ ـ ضرورة التنمية الاسلامية

● نستطيع أن ندرك أهمية وضرورة الصحوة الاسلامية فى واقعنا الاسلامى المعاصر بمجرد النظر الى أحوال التقدم وأحوال التخلف فى العالم • ان التفاوت الذى يزداد فى كل ساعة بين المتقدمين والمتخلفين يجعل الصحوة الاسلامية الرشيدة هى المقابل الموضوعى للتحدى الحضارى المعاصر •

لقد أصبحت موجات التقدم متلاحقة • وكان الجيل السابق يقول كتابه : علينا أن نلحق بقطار التقدم قبل أن يفوتنا القطار • هذه المقولة أصبحت اليوم أمرا تاريخيا •• لماذا ؟ لأننا مطالبون اليوم بركوب سفينة التقدم الفضائية حتى لا نصبح غرباء عن البشرية أو فى عزلة من التخلف ، أو أهل الكهف العالمى المتخلفين • وليس فى هذا القول صورة شاعرية أو حماسية ، ولكنها صورة الأرقام والاحصائيات والتقارير الدولية عن الدخول ومستويات المعيشة والغذاء والطاقة وغير ذلك •

٢ ـ الخطوة الاولى فى طريق التقدم

● الانسلاخ من قيود التبعية وتحقيق الاستقلال بخطوات حاسمة• ويتم ذلك بهزيمة التخلف فى داخل المجتمع وتطهيره من عوائق التقدم • ويتمثل ذلك فى تطبيق الشريعة الاسلامية ، وفى تحصيل الزكاة بكافة أشكالها • وتحقيق الشورى كاملة • واعتبار الناس سواسية كأسنان المشط • ان هذا التطبيق هو التجسيد الحقيقى للذاتية الاسلامية •

يقول جون تيلور John G. Taylor فى كتابه من التحديث الى أساليب الانتاج From Modernization to Modes of Production الايدلوجية لا بد لهـا من وجود مادي محسوس ، فالأيدلوجيات داخل أى مجتمع تعمل داخل أجهزة معينة ، فالفرد يتبنى

مواقف معينة ويشترك فى أعمال تحكمها طقوس مادية مثل التصويت ، والعمل فى المنزل ، وشراء السلع وما الى ذلك . هـذه الأعمال توجـد داخل مؤسسات مثل الأسرة والكنيسة والنقابة والمدرسة وما الى ذلك . وبالاشتراك فى هذه الأعمال والطقوس يصبح الفرد عرضة لتصحيح الأخطاء والتى يقـع فيهـا حتى يتوافق مع ايولوجيات مجتمعه . ان الايدلوجية تأخذ فى ممارستها شكلا ماديا له شروطه التى تحـكمها الممارسة والطقوس داخل وبين مؤسسات المجتمع المختلفة .

٣ ـ اهداف التقدم وسبيل تحقيق الأهداف :

● وينبغى تعبئة الشعب فى عملية شاملة تستهدف القضـاء على الفقر والهامشية . والاعتماد الجماعى على النفس . ووضع خطة حاسمـة لتنبية الاحتياجات الأساسية للمواطن . وذلك بالارتـكاز على عاملين رئيسيين . العامل الأول هو تفـادى الخلل بين الاحتياجات والطـاقات الانتاجية بدءا من اليد العـاملة والموارد الطبيعيـة ، ورأس المـال والتكنولوجيا المتوفرة وما شابه ذلك . والعامل الثانى هو ترتيب سلم الاحتياجات الأساسية وتوزيعها توزيعا عادلا وصارما بغير استثناء .

٤ ـ عدم الانعزال عن العالم :

● ويتم ذلك بتعزيز التعاون مع شعوب العالم بعيدا عن الوقوع فى فخاخ السيطرة أو الهيمنة أو عدم التكافىء . وذلك فى ضوء تحقيق الحد الأدنى من التبعية والحد الأقصى من الاستقلال ، والحد الأمثل من الترابط ـ على حد تعبير همرشولد عام ١٩٧٥ .

٥ ـ خصوصية العلاقات مع العالم الاسلامى :

● ضرورة صياغة استراتيجية عامة للأمة الاسلامية لأن الوحدات الكبيرة هى التى يمكن أن تحقق الاعتماد الجماعى على النفس . ولأن غالبية بلدان العالم الاسلامى تشكل وحدات صغيرة الحجم ، ومتوسطة الحجم فان الاكتفاء الذاتى يعنى الركود وقد يعنى العجز عن تلبيـة أدنى الاحتياجات الأساسية بسبب عدد من القيود لا يمكن التغلب عليها . ومادام النمط التابع للاندماج فى النظام الاقتصـادى العـالمى هو فى

الصحيفة والراديو والتليفزيون ، وبدونها تصبح منقوصة • وفى الحرب العالمية الثانية كانت الحكومة الأمريكية ترسل الى جيوشها فيما وراء البحار طبعات خاصة من أهم المجلات بدون اعلانات • ولكن الجنود طالبوا بأن تصدر الطبعات باعلاناتها • ويرى بعض علماء الاعلام أن الاعلانات هى أخبار ولكنها أخبار سعيدة • وأنها بذلك تحفظ التوازن فى الصحيفة التى تنشر أخبار الفيضانات والاغتيالات والزلازل وما شابه ذلك •

٧ — وظيفة الخدمات العامة :

وتتمثل فى النشرات الجوية بأحوال الطقس ، وفى نشر مواقيت الصلاة أو اذاعة الآذان ، وفى الاستشارات القانونية والطبية ، والتعارف ، وفى مئات الأشياء الصغيرة التى لا يمكن حصرها وتدخل فى نطاق الخدمات التى تقدم لجمهور وسائل الاعلام • حتى يمكن القول بأن وسائل الاعلام المعاصرة أصبحت جهاز علاقات عامة لكل قارىء أو مستمع أو مشاهد • فالاذاعة المحلية للقاهرة الكبرى واذاعة الشعب عندما تذيع أسماء ركاب الطائرات الذين تخلفت لهم حقائب بالمطار ، وبرامج الخدمات المفتوحة التى تقدمها محطات الاذاعة المختلفة مجانا ، ومحطة الراديو السودانية بأم درمان تذيع نشرات الوفيات وأسماء أقاربهم عقب معظم نشرات الاخبار ليتمكن المواطنون من المشاركة فى تشييع الجنازات وتقديم واجب العزاء •• كل هذه الاشياء أصبحت من الخدمات المألوفة التى تقدمها وسائل الاعلام •

ولقد أغفلت عن عمد فى تصنيف وظائف الاعلام وظيفة التثقيف • فان المفهوم المعاصر للثقافة يجعل كل وظائف الاعلام تؤدى الدور التثقيفى • لأن الثقافة تعبير عن الفكر الانسانى ، وتنمية لهذا الفكر بمختلف الوسائل المتاحة فى المجتمع • ولكننى أضيف أن وظائف الاعلام لا يمكن حصرها حصرا كاملا فان الناس فى زماننا يولدون فى الصحف ويتزوجون فى الصحف ويموتون فى الصحف • ولا ندرى ماذا يستجد من وظائف الوسائل الاعلامية المختلفة •

اعلام الاستعمار والمجتمع الجديد :

ان البعد التاريخى للتنمية يقف بنا أمام حقيقة واضحة ، وهى أن التنمية فى العالم الثالث صراع بين الاستعمار الجديد وبين الدول الحديثة

* سئل النبى صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أحب الى الله قال أدومها .
* اماطة الأذى عن الطريق صدقة .
* ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وأن نبى الله داوود كان يأكل من عمل يده .
* اذا رأيت القيامة تقوم وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها .
* من بات أكالا من عمل يده بات مغفورا له .
* ان من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصوم ولكن يكفرها السعى على المعيشة .

واذا تتبعنا صناعات الأنبياء كما وردت فى القرآن الكريم نجد الرعى مهنة معظم الأنبياء ، وكانت النجارة مهنة نوح عليه السلام ، وحياكة الملابس مهنة داوود عليه السلام . واذا نظرنا الى القوانين الاسلامية نجد الحماية الكافية للانتاج أو بمعنى أشمل للتنمية . ان حد السرقة مثلا يحمى فى جانب منه قوى الانتاج بلغتنا المعاصرة .

ولقد استوقفت ظاهرة تأكيد القرآن الكريم على انتخاب الأصلح علماءنا المسلمين (٢٠) فالقرآن يدعونا الى الأحسن والأصلح فى كل مجال ، سواء أكان المجال فكريا ، أو علميا ، أو سياسيا ، أو اقتصاديا ، **أو أخلاقيا أو ما شابه ذلك . يقول القرآن الكريم :**

* فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه (الآية ١٧ ، ١٨ سورة الزمر) .
* **ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا** (الآية ٣٣ سورة فصلت) .
* واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم (الآية ٥٥ سورة الزمر) .
* وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن (الآية ٥٣ سورة الاسراء) .
* الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها (الآية ٢٣ سورة الزمر).

واقبال العرب على التعليم ظاهرة اجتماعية بارزة فى كافة الاقاليم العربية ، ومقدرة الانسان العربى على استيعاب تكنولوجيا العصر تؤكدها مواقفه اللامعة فى الحرب والسلم — وان قلت — الا أنها نموذج يؤكد صلاحية قدراته الحضارية .

ان هذا التجمع البشرى يتحدث لغة واحدة وينتمى الى أصل واحد ، ويدين فى معظمه بدين واحد ، ويندمج مع الأقلية الدينية اندماجا عاطفيا ووطنيا وقوميا لا يقل عن اندماجه بأبناء دينه فى الاغلب الأعم .. وهذا التجمع البشرى بحكم وحدة الثقافة توحدت مشاعره بل ومعظم جوانب سلوكه .

هذا الانسان العربى قادر على احراز التنمية لو حصل على العدل الاجتماعى وأتيحت له الديمقراطية الحقيقية ، ولو تخلص من رواسب عصور الضعف وأولها غيبة المرأة عن ساحة العمل فيما يلائمها من أعمال وانتاج ، وهذا نجد أن العامل السياسى — بجانبيه ؛ الحرية الاجتماعية والحرية السياسية — يمثل معوقا للتنمية اذا قيد الانسان صانع التنمية .

المال :

نقصد بالمال بصفة خاصة الفوائض البترولية العربية المودعة فى بنوك أوربا وأمريكا ، لانها تفوق قدرة أصحابها على الانفاق وعلى الاستثمار — فى أقاليمهم .

لقد قدرت ايرادات دول الاوبك من البترول فى عام ١٩٧٥ بأكثر من ٩٤ ألف مليون دولار كانت على الوجه التالى :

السعودية : ٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠٠ر٢٤ دولار .

ايـــران : ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١٩ دولار .

العـــراق : ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٥٠ر٨ دولار .

فنـــزويلا : ٠٠٠ر٠٠٠ر٩٠٠ر٦ دولار .

الكـــويت : ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠٠ر٦٦ دولار .

نيجـــيريا : ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ر٦ دولار .

ثم يتحدث جارودى عن مفهـوم السـوق فى الاسـلام قائلا : ان الاقتصاد الاسلامى ، من حيث المبدأ على الأقل ، ليس منسجما مع المفهوم الرأسمالى للسوق ، لا مع شكله الليبرالى ولا مع شكله الاحتكارى . واذا كان وجود السوق مقبولا فليس له غاية بحد ذاته ، وان عليـه أن يلبى الحاجات الحقيقية ، وعليه أن يكون تابعا فى غاياته ووسـائله الى هدف يتجاوز السوق ، والى خدمة المجتمع الذى يعمل فيه . وعليه أن يحترم معايير الاسلام التى تنطوى على توزيع عادل للعائدات ، وترفض الاحتكارات التى تحول دون اظهار السعر الحقيقى للتكاليف .

ليس الاقتصاد الاسلامى محايدا تجاه القوى المتنافسـة ، فالأمر لا يتعلق فقط بمراقبة انتظام الصفقات : وهذا من صلاحية المحتسب كما قال ابن خلدون . وقد أخذ الأوربيون هذه الوظيفة بعد الحمـلات الصليبية تحت اسم « مراقب البيع » . فى المجتمع الاسلامى .. الأهداف هى الهامة ، وما السوق الا وسيلة لبلوغ الغايات . وتحظى الملـكية فى الاسلام بحماية واسعة . ولكن للملكية فى المجتمـع الاسـلامى وظيفة اجتماعية . يقول المفكر العالمى المسلم « روجيه جارودى » ان مفهوم الملكية لدى أمه المدينة التى أنشأها النبى محمد صلى الله عليه وسلم هـو على نقيض المفهـوم الرومانى (حق التمتع كما هو حـق اسـاءة الاستخدام) اذ يتمتع المالك بسلطة على ما يملك لا يحق لأحد التدخل فيها ، ويشكل هذا المبدأ الرئيسى أساس قوانين نابليون وأساسى النظام الاقتصادى الحالى كله . انه يمنح المالك حقا الهيا مؤكدا فبامكانه أن يخرب ما يملكه دون أن يناله العقاب ، حتى لو أدى بتصرفه هـذا الى حرمان المجتمع من الخيرات الضرورية لحياته ، ويمكنه أن يكرس الخيرات دون حدود .

هذه الملامح الخاصة بالتنمية الاسلاميـة ليست ملامح عاطفيـة أو حماسية ، وانما هى ملامح مادية ومثالية فى آن واحد . وهى قواعد تطبيقية وتجريبية ، وان كان واقع المسلمين المعاصرين يبعد عنها فذلك بسبب فقدان الوعى أو فقدان القدرة أو بأن النضج الثورى لم يصل الى مرحلة تطبيق شرع الله فى كثير من بلدان المسلمين .

ـ وهناك آثار سلبية للعلاقات السياسية على العلاقات الاقتصادية بحيث تستعمل القروض حاليا ـ شبيها بامبريالية القرن التاسع عشر ـ فى فرض شروط سياسية أو تدخل فى السياسات الداخلية .

ـ عدم توافر المشروعات المدروسة التى يمكن أن تجتذب التمويل الانمائى .

ـ عدم نشوء سوق مالية عربية .

ـ محدودية موارد كل من الصندوق العربى للانماء الاقتصادى والاجتماعى ، والمؤسسة العربية لضمان الاستثمار .

ـ ومع ذلك فقد أمكن قيام عدد من الشركات العربية المشتركة برءووس أموال قد تصل الى ٦ بلايين دولار لا يتهدد رؤوس أموالها شيء ، وتشير كل الدراسات المسبقة لقيامها واللاحقة لمباشرة البعض منها نشاطه أنها سوف تلاقى نجاحا طيبا سواء فى مجالات نشاطها أو فى تدعيم الرابطة الانتاجية العربية .

وبعد استعراض هذه الحقائق يطرح خبراء التخطيط بمجلس الوحدة الاقتصادية امكانات الحل فى اتجاهين رئيسيين هما :

● قيادة وتوجيه وتنسيق الدراسات حول المشروعات الانمائية العربية التى تساعد على تحقيق التنمية والتكامل الاقتصادى .

● انشاء هيئة أو جهاز أو مستوى يقوم بالتنسيق بين جهود المؤسسات المالية والاستثمارية العربية .

وبذلك يمكن تحقق الآتى :

١ ـ اجتذاب أكثر لرءووس الاموال .

٢ ـ تحقيق معدلات ربح أعلى من مواقع الاستثمار المعتمدة حتى الآن .

٣ ـ تحقيق ضمان لرءووس الاموال ضد الاخطار المختلفة .

٤ ـ نفى انتشار التبعية الاقتصادية الذى يتهددنا حاليا .

٥ ـ دفع النشاط العربى المشترك فى اتجاهات تخدم دفع النشاط المحلى فى الاقطار المختلفة .

ويقول « جارودى » ان الاسلام لم يكن يـكتفى بجمع الثقافات العالمية ، بل عمل على اخصابها ونشرها من بحر الصين الى المحيط الأطلسى . وانه يستطيع أن يؤدى الدور نفسه مرة ثانية .

هل التنمية الاسلامية هى تحديث جديد أو عصرية أخرى ؟

الواقع أن التنمية الاسلامية تغيير جذرى لواقع التخلف الذى يعيشه العالم الاسلامى الى واقع جديد والى ذاتية اسلامية . وهذه المصطلحات تحديث وحداثة وعصرى وعصرية وغيرها صناعة أوربية . تقول صافى ناز كاظم (٢١) .

« على مدى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين وأوربا تحرز انتصاراتها وتأخذ المجتمع العالمى فى قبضتها بحيث أصبحت كلمة « العالمية » مرادفة لكلمة « أوربى » . وتدخلت أمريكا لتصبح طرفا فى الصورة فاتسعت الكلمة لتعبير « غربى » وتولد مصطلح « العصرية » ومدلول « الحداثة » من مجمل « العالمى » و « الأوروبى » : «الغربى» .

وصار كل نموذج تطرحه أوروبا يأخذ بالضرورة لقب « العالمى » ويكون معيار العصرية والنهضة و « الحداثة » . وبنفس المنطق أصبح كل شىء ترفضه أوروبا « ملغيا » اذا سحبت منه رخصة تصورها .

ثم تقول : « فى مقابل أوروبا وقف العالم الملغى بحضاراته ومعتقداته وقد أضحت انجازاته تتمحور حول استكماله أدوات محاكاة أوروبا وأهمها التغريب » و « العلمانية » وذلك لكى يتقدم هذا العالم « الملغى » بأوراقه لاعتماده داخل « العصر » . وتقوم فى العالم « الملغى » الثورات لتنتهى بأنظمة علمانية دكتاتورية تجبر شعوبها على الاستخفاف بالدين وتنحيته من دنياها ، ان لم تجبرها فى بعض التجارب على الالحاد ، ذلك وهى تجلدها لتنتظم تلك الشعوب وتتحول الى « قردة » ملتزمة بمحاكاة كاريكاتيرية للوثن المعبود « أوروبا » .

تجبر الشعوب على المحاكاة « القردية » لأوروبا ، محاكاة لا تبلغ بها موقعا فى « العصر » أو موقفا أو هوية اذ هى معدومة الحرية ، مسلوبة الارادة والاختيار ، مجمدة العقل ، منزوعة منها آلية الدفاع الفطرية التى تلهم الجفن برد فعل سريع لاغلاق العين قبل الخزق » .

فى تلك البلاد العربية المصدرة للبترول وبالتالى فانه بعد سنوات قليلة سنجد أن حجم رؤوس الاموال الامريكية المستثمرة فى تلك المنطقة العربية لن يمثل الا نسبة ضئيلة من حجم رؤوس الأموال العربية المستثمرة فى الولايات المتحدة .. نتيجة عدم التوازن هذا ، فان التهديدات التى ستوجه ضد رؤوس الاموال العربية فى أمريكا أخطر بكثير من التهديدات التى يمكن ان توجه ضد رؤوس الاموال الامريكية المستثمرة فى البلاد العربية المنتجة للبترول .

ولا شك ان دعوة زراعة المال العربى فى أرض عربية هى الطريق الوحيد والصحيح للمحافظة عليه ، ودوام بقائه بعيدا عن أزمات النقد العالمية وأزمات الاقتصاد الرأسمالى بصفة عامة .

« ولقد مرت بدول « الاوبك » ، وبالدول العربية النفطية ، لحظة تاريخية كان ممكنا ان تؤثر تأثيرا عميقا على طبيعة العلاقات والتوازنات الدولية ، وكان ممكنا أن تقفز بالنضال العربى الى مستوى جديد ، ولكن كل هذا فى أواخر ١٩٧٣ وأوائل ١٩٧٤ . ثم تبددت الامكانية ، بل انتكس النضال العربى ، وتبدد قسم كبير من مكاسبه المحققة خلال سنوات طويلة من التضحية والمعاناة .

كانت هناك امكانية للحديث أو للبدء فى استراتيجية مالية مستقلة . ولكن هذا التصور أصبح لا معنى له بعد ان رتبت الولايات المتحدة أوضاع المنطقة على نحو يدعم سيطرتها .

ان سيطرة الولايات المتحدة ، والغرب بشكل عام ، على الاموال النفطية كانت هدفا دائما ومعلنا ، وتضاعفت الهمة لتحقيق الهدف منذ أواخر ١٩٧٣ ، فلجنة العشرين التى أنشأها صندوق النقد الدولى للبحث عن الحلول اللازمة لاصلاح نظام النقد الدولى تضمنت اقتراحاتها ان تستثمر الاموال العربية فى سندات وأذونات لا يجوز لاصحابها استخدامها أو السحب عليها الا بشروط معينة وفى ظروف محددة . ولما تبين للجنة العشرين فشل محاولتهم بفرض الوصاية على الأموال النفطية العربية ، تراجعت لجنة العشرين ، ولكن لتظهر مقترحات أخرى قدمتها بعض الهيئات الدولية للاحتفاظ بهذه الاموال لديها ، وهى مقترحات تؤدى الى الهدف نفسه ، وهو السيطرة على الأموال العربية ، بدعوى حسن استخدامها ، وبدعوى المحافظة عليها .

وحين يتحول « المسخ » الى انسان ويبدأ فى احياء آدميته ويرفض المواصلة مع العصر « الاوروامر يصهيونى » فعليه أن ينتقل جذريا منـــه الى عصر « الاسلام » ، مع تقطيع كل أواصره وروابطـــه مع العصر « الاوروامر يصهيونى » المحكوم عليه بالهلاك ويكون هذا التحول هو التحول الحر الحاسم الذى يفك السحر عن البجع والقردة والخنازير ويعيدهم الى بشريتهم وانسانيتهم » .

ان الفكرة التى طرحها بعض الكتاب العرب فى العقـــد التاسع من القرن العشرين بأن العالمية الاسلامية الآن لا يمكن أن تتحقق الا باحتواء ايجابيات الحضارة المعاصرة وهضمها ، هذ الطرح لايتناقض — فى رأيى — مع الوعى بالذات الاسلامية وتفجير طاقات الذاتية الاسلامية . بل اننى أذهب الى ما هو أكثر من ذلك فأرى أن السبيل لامتصاص ايجابيـــات الحضارة المعاصرة وتمثلها لا يمكن أن يتم بغير الوعى بالذات الاسلامية وبغير تفجير الطاقات الذاتية الاسلامية .

ولقد استوقفت عبارات جمال الدين الافغانى فى هذا الصدد عادل حسين فى كتابه الاقتصاد المصرى من الاستقلال الى التبعية فقال : « رحم الله مفكرنا الاسلامى العظيم جمال الدين الأفغانى ، الذى نفذ بعبقريته الى مكمن الخطر الحقيقى وكشفه أمامنا . ولكننا لم نقرأ أو لم نفهم . ثم نفرح الآن اذ نعيد اكتشاف نفس الشىء . ولكن لعلنا نتحرك هـــذه المرة فى الاتجاه الصحيح . منذ حوالى مائة سنة كتب الأفغـــانى عن الذين قلبوا أوضاع المبانى والمســـاكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفراش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجـــود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم . فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم . وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم . وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ويحط بشأنها . لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الأعـــداء اليها ، وطلائع الجيوش الغالبة وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم » .

ويعلق عادل حسين على كلام الأفغانى بأن ترسيخ نمط الاستهلاك الغربى هو اذن الاداة الاقتصادية الأولى لفرض التبعية ، ومن خلالهـــا

على الوجه التالى محسوبة على أساس متوسط الانتاج فى اليوم الواحد بالبرميل :

١ ـ السعودية : ٤٠٠ر٠٥٤ر٧ •

٢ ـ ايـران : ١٠٠ر٣٥٠ر٥ •

٣ ـ فنزويـلا : ٢٠٠ر٣٤٦ر٢ •

٤ ـ العـراق : ٧٠٠ر٢٦١ر٢ •

٥ ـ الكـويت : ٢٠٠ر٠٨٤ر٢ •

٦ ـ نيجيريا : ٢٠٠ر٧٨٣ر١ •

٧ ـ الامـارات : ٣٠٠ر٦٣٦ر١ •

٨ ـ ليبيـا : ٨٠٠ر٤٧٩ر١ •

٩ ـ اندونيسيا : ٥٠٠ر٣٠٦ر١ •

١٠ ـ الجزائر : ٣٠٠ر٠٢٠ر١ •

١١ ـ قطـر : ٦٠٠ر٤٣٧ •

١٢ ـ جـابون : ٠٠٠ر٢٢٣ •

١٣ ـ أكوادور : ٩٠٠ر١٦٠ •

فاذا أضفنا الى هذه الاحصائية تقديرات احتياطى البترول العربى التى تؤكد أن احتياطى البترول العربى أكثر من نصف احتياطى العـالم لتبين لنا قيمة هذا المورد •

ولا يمكننا ان نتخيل أن البترول آهم ثروات العـرب ، وهو ثروة قصيرة الأجل ، ان السماء العربية الغنيـة بالأمطـار فى كثير من المواقع ، والأنهار العربية التى تضم النيل والفرات ودجلة •• بل والمناخ والآثار التى تعد كنوزا سياحية يمكن أن يجنى منها العرب آلاف الملايين مـن الجنيهات •• والصحراوات التى لم يتم اكتشاف ما فيها من معـادن وكنوز ، وشواطىء العرب ومواقع موانيهم التى تؤهلهم لأن يصبحوا بحارة العالم وصيادى أسماكه •• كل هذه الثروة تحتاج الى المال وهو

الهوامش

(١) د. سعد الدين ابراهيم — نحو نظرية سوسيولوجية للتنمية فى العالم الثالث — بحث مقدم الى المؤتمر العلمى السنوى الثانى للاقتصاديين المصريين — القاهرة فيما بين ٢٤ الى ٢٦ مارس سنة ١٩٧٧ . الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء التشريعى .

(٢) Gunner Nyrdal

(٣) د. عواطف عبد الرحمن — قضايا التبعية الاعلامية والثقافة فى العالم الثالث — عالم المعرفة — الكويت — ١٩٨٤ .

(٤) د. السيد محمد الحسينى — اتجاهات علم الاجتماع فى دراسة مشكلات الدول النامية — الفصل الاول من دراسات فى التنمية الاجتماعية بالاشتراك مع مؤلفين اخرين — الطبعة الرابعة — دار المعارف — ١٩٧٩ — ص ٣٠ ، ٣٧ .

(٥) د. السيد محمد الحسينى — دراسات فى التنمية الاجتماعية — مرجع سابق — ص ٦٧ الى ص ٧٠ .

(٦) د. على لطفى — التنمية الاقتصادية دراسة تحليلية — دار القرآن للطباعة والنشر — ١٩٧٥ — صفحة ٧٢ .

(٧) د. على لطفى — التنمية الاقتصادية — دراسة تحليلية — دار القرآن للطباعة والنشر — ١٩٧٥ — صفحة ٧٨ .

(٨) د. ملاك جرجس — سيكلوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية — كتاب روز اليوسف — ١٩٧٤ .

(٩) د. على لطفى — التنمية الاقتصادية دراسة تحليلية — دار القرآن للطباعة والنشر — ١٧٥ — صفحة ٩٢ .

(١٠) د. اسماعيل حسن عبد البارى — أبعاد التنمية — الطبعة الثانية — دار المعارف — ١٩٨٢ — ص ١١ .

(١١) د. على لطفى — التنمية الاقتصادية دراسة تحليلية — دار القرآن للطباعة والنشر ١٩٧٥ — صفحة ١٨٥ .

(١٢) سيد مرعى — لكى نربح المستقبل — دار المعارف بمصر ١٩٧٥ صفحة ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

المادة الخامسة عشر : تتعاون الدول العربية فيما بينها على احياء التراث العربى ــ الفكرى والفنى ــ والمحافظة عليه ونشره وتيسيره المطالبين بمختلف الوسائل وعلى ترجمة روائعه الى اللغات الحية ، وعلى التعريف بالثقافة العربية الاسلامية ، وبشئون الفكر العربى المعاصر وبالقضايا العرية الحاضرة ، كما تتعاون على نشر اللغة العربية والخط العربى وتيسير تعلمها فى البلاد الأجنبية وفى البلاد الاسلامية خاصة •

المادة السادسة عشر : تعمل الدول الأعضاء على تنشيط الجهود التى تبذل لترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة وتنظيم تلك الجهود، كما تعمل على تنشيط الانتاج الفكرى فى البلاد العربية بمختلف الوسائل كانشاء معاهد للبحث العلمى والأدبى وتنظيم مسابقات فى تأليف ووقف جوائز على المتفوقين من أهل العلم والأدب والفن •

المادة السابعة عشر : توافق الدول العربية على أن تسعى الى توحيد المصطلحات العلمية والحضارية ، وعلى أن تساعد حركة التعريب بما يحقق اغناء اللغة العربية مع المحافظة على مقوماتها ، وذلك بالتعاون مع المكتب الدائم للتعريب بالرباط التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ليقوم برسالته على خير وجه ممكن ، وكذلك بالتعاون مع ما قد ينشأ من هيئات مماثلة •

المادة الثامنة عشرة : تعمل الدول الأعضاء على انشاء مجلس للمجامع اللغوية تمثل فيه المجامع العربية والمكتب الدائم للتعريب والعلماء المتخصصون ، ويعنى هذا المجلس على وجه الخصوص بتوحيد المصطلحات العلمية وتنسيقها ونشرها •

المادة التاسعة عشرة : توافق الدول الأعضاء على أن تعمل على توثيق الصلات بين دور الكتب فيها ومتاحفها العلمية والتاريخية والفنية بشتى الوسائل ، كتبادل المؤلفات والفهارس والقطع الأثرية ذات النسخ المتعددة وتبادل الفنيين وبعثات التنقيب عن الآثار كما تتعاون فى مجال الكشف عن الآثار وصيانتها والتعريف بها والاعلام عنها وحسن استثمارها للأغراض التربوية والثقافية والعلمية •

المادة العشرون : تتعاون الدول العربية على تبادل الخبرات الثقافية الخاصة بالموسيقى والمسرح والسينما والفنون الشعبية والصحافة ووسائل

الفصل الرابع

نظريات الاعــلام

يميل العقل البشرى الى التعميم ، وهذا فى حد ذاته ميزة وقصور فى نفس الوقت فبالتعميم يكثف العقل البشرى فيضا من المتشابهـات وفيضا من الخصائص والظروف فى قنوات محددة وتقسيمات قليلة ، وبالتعميم يمسك العقل البشرى بخيط مربوط بأوتاد شداد يهـديه سواء السبيل • ولكن على الطرف الثانى من الفائدة يقف القصـور نقصا واضحا فى التعميم حيث يغفل العقل بطبيعـة الحال الفـروق والتفاصيل والاختلافات الصغيرة التى يراها غير جوهرية وقد تـكون هذه الأشياء الصغيرة خطيرة الأثر والأهمية • وقد يجمع العقل تحت سلطان التعميم بين أشياء ليست لها أنماط متساوية • وتختلف الآراء حول امكان تجانسها أو تضادها •

ومن هنا يصبح التعميم سلاحا ذا حدين يحتاج استخـدامه الى روية ومهارة ونظر ثاقب • وسنجد أن الحديث عن نظريات الأعـلام لابد وأن يتعرض للتعميم كما سنجد التعميم فى الحديث عن نظريات الحكم التى تعد نظريات الأعلام انعكاسا لها بصورة ما •

برغم الفروق الجوهرية بين فلسفـة الأعلام ، ونظـريات الأعلام ، وسياسات الأعلام من الناحية النظرية فان العرف الاعلامى يستخـدم لفظ نظرية للدلالة على هذه المسميات تقريبا • وقبولنا بالأمر الواقع فى المصطلحات لا غبار عليه • ولكن النظرية الاعلامية بصفة عامة تعنى الفلسفة الاعلامية ، والنظرية الاعلامية تعنى محـاولة النظر فى جوهر الاعلام وتحليله واستقصاء أبعاده المختلفـة • والنظر الى المشـكلة الاعلامية نظرة تحدد طبيعة المشكلة وتفسرها وتربط ما بين جوانبها من علاقات •

المادة الخامسة والعشرون : تتعاون الدول الاعضاء على تلبية الرحلات الثقافية فى البلاد العربية التى تكون فى حاجة اليها ، وتتبادل المساعدات الفنية بعضها مع بعض .

المادة السادسة والعشرون : تعمل الدول الاعضاء على تشجيع الرحلات الثقافية والكشفية والرياضية بين البلاد العربية وذلك فى المناطق التى تسمح حكومات البلاد بارتيادها وفقا لامكاناتها مع العمل على تيسير اسباب ذلك .

المادة السابعة والعشرون : تتخذ الدول الأعضاء الوسائل اللازمة للتقريب بين اتجاهاتها التشريعية التربوية والثقافية وتوحيد ما يمكن توحيده منها . وادخال الدراسات القانونية المقارنة للبلاد العربية فى مناهج جامعاتها ومعاهدها.

المادة الثامنة والعشرون : تتعاون الدول الأعضاء على تنسيق جهودها فى سبيل التعاون الثقافى الدولى وخاصة مع منظمة اليونسكو ، على تبادل الخبرات وتنظيم الاتصالات وانشاء المؤسسات الثقافية فى البلاد الصديقة .

المادة التاسعة والعشرون : يصدق على هذا الميثاق من الدول الموقعة بالتطبيق لنظمها الدستورية فى أقرب وقت ممكن وتودع وثائق التصديق بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية التى تعد محضرا بايداع وثيقة تصديق كل دولة وتبلغه الى الدول المتعاقدة .

المادة الثلاثون : يجوز للبلاد العربية التى ليست أعضاء فى جامعة الدول العربية أن تنضم الى هذا الميثاق باعلان يرسل منها الى الأمين العام لجامعة الدول العربية الذى يبلغ انضمامها الى الدول المتعاقدة الأخرى .

المادة الحادية والثلاثون : يعمل بهذا الميثاق بعد شهر من ايداع وثائق التصديق عليه من ثلاث دول من الدول الأعضاء .

المادة الثانية والثلاثون : يجوز لأية دولة ملتزمة بهذا الميثاق أن تنسحب منه وذلك بمقتضى اعلان يرسل الى الأمين العام لجامعة الدول العربية وينتج الاعلان أثره بعد سنة من تاريخ ارساله .

(بغداد فى ١٦ شوال ١٣٨٣ — ٢٩ فبراير شباط ١٩٦٤) .

أين يقف الاعلام فى كل هذه التجارب ؟ ان القول بأن الاعلام لابد وأن يعكس الظروف التى يعيشها المجتمع وبأنه مرآة للمجتمع قــول يحتاج الى تحفظات وايضاح • ان الصدق لا يبدو فى المجتمع واضحـا فى بعض الأحيان ، وقد تلبس المجتمعات فى فترات سيئة من تاريخهـا أثوابا مزيفة ، وتحمل قلوبا كاذبة • كذلك فان صورة الاعلام لا تبــدى المجتمع مسطحا ، أو صورة فوتوغرافية ولكنها صورة تبرز الفعل ورد الفعل • لذلك ينبغى أن نقول بشىء من التعميم أن الاعلام المعاصر يتمثل فى ثلاثة نماذج رئيسية تمثل النظم السياسية الثلاثة التى ذكرناها بشىء من التعميم أيضا••وهذه النماذج الثلاثة للاعلام سنسميها نظريات الاعلام من باب قبول الآمر الواقع فى كتابات الباحثين الاعلاميين • لقد استخدم أساتذة الاعلام اصطلاح نظريات الاعلام تعبيرا عن مذاهب الاعلام من واقع الممارسة والبحث • وأساس استخدامهم لاصطلاح نظريات الاعلام هو وضع مجموعة من القواعد للأشكال والأنســاط التى تتشــابه فى الخواص والسمات والملامح • وان كانت فكرة التقسيم فى حــد ذاتها تختلف بين الباحثين حسب طريقة ربطهم بين العناصر المستخدمة فى تكوين الشكل • كما أن ديناميكية الاعلام ، ثم التطور الخطير فى أســاس الأيدلوجيات التى حسبت عليها تقسيمات نظم الحكم ، ثم حركة الاعلام فى العالم الثالث ، ومحاولته خلق شكل جديد متميز •• كل هذه الأمور تجعل نظريات الاعلام مستجيبة لتأثير العصر وليست قوالب جامدة •

اننى أرى أن نظريات الأعلام المعاصرة تنحصر فيما يمكن تسميته بالآتى :

١ـ النظرية الليبرالية •

٢ ـ النظرية الشمولية •

٣ ـ النظرية المختلطة •

وأبادر فأقول أن هذه التسميات أو هذا التصنيف ليس ابتــكارا منى ولكنه رواية معاصرة لنظريات الاعلام • ولاشك أن باحثا بعدى سيطلق تسميات جديدة لنظريات الاعلام ويكون فيها رواية لعصره • ان دورى فى هذه التسميات أشبه بدور الراوية للقصص الشعبى يضعها فى قالب عصره ، وليس مؤلفا ولا مبتكرا • ونحن نقول دائما أن الجديد

(٦) مجلس الوحدة الاقتصادية العربية – اللجنة الفرعية للتخطيط– استراتيجية التنمية العربية – دراسة موسعة أكتوبر سنة ١٩٧٧ .

(٨) عادل حسين – الاقتصاد المصرى من الاستقلال الى التبعية – الطبعة الثانية – دار المستقبل العربى – القاهرة) ١٩٨٢ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٧) د . ابراهيم محمد عويس – استاذ الاقتصاد بجامعة جورج تاون الأمريكية – مخاطر تدفق رأس المال على الدول الصناعية – جريدة الاهرام بتاريخ ١٩٧٥/١/١٠ .

كيف مارس الحكام خطتهم الاعلامية فى ظل نظرية السلطة ؟ أو بمعنى مستمر كيف يمارسون ؟ لقد رأى الدكتور عبد اللطيف حمزة (٢) أن جوهر نظرية السلطة قائم على فكرة أن الملك أو السلطان يتسم بسمة الألوهية وأن الشعب يعتبر نفسه عبدا للحاكم ٠ وأن الحاكم يعتبر نفسه صاحب الحق الأول فى نوع الحقائق أو المعلومات التى تصل الى اذهان الشعب ٠ وأنه مما لاشك فيه أن القائلين بنظرية السلطة المطلقة للحاكم ينظرون الى الاعلام على أنه أمر من الأمور التى لاينبغى أن يتصرف فيها فرد آخر غيره ٠ والقائلون بهذه النظرية يرون أن الفرد بلا حكومة وبلا مجتمع لا حول له ولا قوة ٠ وبرغم ذلك يؤمن أنصار هذه النظرية بالفروق بين الأفراد من حيث قدراتهم الجسمية أو العقلية ، ولكنهم يبنون على هذه الفروق حكما يتلخص فى أن ذوى المعرفة من العلماء والحكماء وذوى التجربة أو الاطلاع هم وحدهم أصحاب الحق فى السيطرة الحقيقية على غيرهم من أفراد المجتمع فى ظل الحاكم ووفق مشيئته ورضاه ٠

ويحصر الدكتور عبد اللطيف حمزه (٣) القيود التى فرضتها السلطة على وسائل الأعلام فى نطاق الاعلام الحديث فى خمسة قيود ٠

١ - قيد التراخيص :

وهو أبسط القيود وذلك بمنح الرخصة لمن تطمئن السلطة المطلقة الى ولائه ومنعها ممن تشك فى ولائهم ، هذا الى جانب تشكيل هيئة توقع العقوبة على الطابعين والناشرين الذين يبدون من تصرفاتهم أنهم غير مخلصين للحكومة أو غير أهل لثقتها ٠

٢ - قيد الرقابة :

ظهرت الرقابة الى جانب التراخيص فى القرن السادس عشر فى انجلترا حيث عينت الحكومة الرقيب الذى يراجع ما تكتبه الصحف فى أمور السياسة والدين مراجعة دقيقة ٠ وفى القرن السابع عشر ازداد عدد الصحف زيادة جعلت الرقابة شبه مستحيلة ٠ ثم جدت عوامل أخرى أدت الى فشل نظام الرقابة فى ذلك الوقت وأهمها ظهور الأحزاب السياسية فى ذلك القرن ، وممارسة هذه الأحزاب السياسية للعمل الاعلامى المتمثل فى الصحف والنشرات ، وكان الحزب الغالب هو الذى

والمشكلة التى تواجه رجل الاعلام العربى فى واقعه القومى المتناقض ، بين التشاؤم والتفاؤل ، تعكس واقعه الاجتماعى المعاصر للتخلف ، برغم ما يحمله من نبضات والتماعات تبشر بتقدم مزدهر .

وهناك نكتة قاسية علينا كعرب ، ولكنها ذات دلالة وثيقة بقضية التنمية العربية . تقول النكتة ان جدنا العظيم آدم عليه السلام خرج فى القرن العشرين يمر على الأرض فى طائرة ، وعندما حلقت الطائرة فوق « برج ايفيل » فى باريس لم يعرف المكان وعجب للتطور الهائل الذى حدث. ثم عندما توقفت فوق أبراج الكرملين فى موسكو ثم فى لندن ونيوريورك حدث نفس الشيء . ولكن الطائرة عندما مرت فوق بعض الاقاليم العربية عرفها جدنا عليه السلام من أول نظرة لأنه وجدها كما تركها منذ آلاف السنين .

ان هذه النكتة تدخل فى باب القول بأن شر البلية ما يضحك . ولكنها ينبغى ان تكون حافزا لنا كعرب ، لتغيير الواقع المشين الذى فرضته علينا ظروف عديدة .

وينبغى أن نفرق بين الواقع العربى المعاصر ، وبين القدرات المكبلة للانسان العربى . ان الانسان العربى ، وعلى وجه الخصوص الجماهير العاملة العريضة من العرب ، لديها من القدرات والملكات ما يذهل العالم لو اتيحت لها الفرصة المناسبة . خلافا للصورة المشوهة للانسان العربى ، التى ترسمها وسائل الاعلام الغربية له ، والتى ترجع فى أساسها الى الصراعات الدينية القديمة ، كالحروب الصليبية والصراعات الحضارية القديمة والحديثة ، والصرعات العنصرية كالحروب الصهيونية ، ثم اسهام الانسان العربى بأكبر نصيب فى الصراع بين حركات التحرر وقوى الاستعمار العالمى فى هذا القرن . الى جانب التصرفات المشينة لبعض الأثرياء العرب التى تقدم للعدو ـ رغم فرديتها ـ مادة للتشنيع والتشويه والتعميم .

من هذه البداية ، وهى الواقع العربى بما يحمله من تشاؤم وتفاؤل وبما يحمله من يأس وأمل ، وبكل ما فيه من ايجابيات وسلبيات ، علينا كاعلاميين عرب ان نتلمس دورنا فى التنمية العربية الشاملة .

ان ما يقوله بعض علماء الاتصال ، بأن ضغط وسائل الاعلام هو الذى أدى الى سقوط المجتمعات التقليدية ، يبين لنا أهمية الوسائل التى نعمل فيها ، والدور الذى يمكن أن تؤديه لو أحسن استخدامها .

التى كانت تسد طريق التطور الصناعى والتبادل التجارى • وكان مفهوم الحرية آنذاك منصبا على تأكيد قيمة الفرد من حيث هو فرد وحقه فى ممارسة نشاطه الاقتصادى بأقل قدر ممكن من تدخل الدولة • والتأكيد على فكرة الحقوق الطبيعية للانسان • وهى الحقوق التى منها حرية العبادة ، وحرية التعبير أو حرية الصحافة بمعناها الشامل للاعلام • وهذه الحرية تقوم على تصورات منها (٥) أن الانسان من حقه أن يتعرف على الحقيقة وأن يسعى الى معرفتها والاهتمام بهذه المعرفة • ومنها أن الوسيلة الوحيدة لمعرفة الحقيقة هى النقاش الحر وكلما تضاربت الآراء وكلما تعدد الخلاف حولها وأتيح لكل ذى رأى أن يعرض رأيه•• كلما أمكن للرأى الصائب أن يبرز ويتغلب ومن هذا المعنى للحرية ضعف سلطان الدولة على الصحافة وفتح الباب لظهور نظرية الحرية فى الاعلام • ثم شابها ما شاب النظام الاقتصادى والاجتماعى الليبرالى من سطوة الاحتكارات وخطرها •

٣ — نظرية المسئولية الاجتماعية :

فى مواجهة جنوح الصحف فى ظل نظرية الحرية الى الاثارة والخوض فى أخبار الجنس والجريمة ، واساءة استخدامها للحرية بدأ البحث عن تقييد الحرية فى ظل النظم القائمة على الاقتصاد الحر • وظهر معنى الحرية القائمة على المسئولية • وظهرت القواعد والقوانين التى تجعل الرأى العام رقيبا على آداب المهنة وسلوكها • ويرى أصحاب هذه النظرية أن الحرية حق وواجب ومسئولية فى نفس الوقت • وأن على وسائل الاعلام فى ظل هذه النظرية (٦) أن تخدم النظام السياسى القائم عن طريق الاعلام وعن طريق المناقشة الحرة المفتوحة فى كافة المسائل التى تهم المجتمع • وأن على وسائل الاعلام تقع مسئولية تنوير الجماهير بالحقائق والأرقام حتى تستطيع الجماهير اصدار أحكام متزنة وصحيحة على الأحداث العامة • كذلك على وسائل الاعلام أن تراقب أعمال الحكومة والشركات والهيئات العامة صيانة لمصالح الأفراد والجماعات• هذه هى المسئوليات التى تقع على وسائل الاعلام فى ظل هذه النظرية الى جانب الاعلان والترفيه •

واذا كانت هذه العناصر تمثل ما يمكن أن نسميه الجانب البنائى فى دور رجل الاعلام العربى فى التنمية فهناك جانب دفاعى يتمثل فى مقاومة كل ما هى سلبى وما من شأنه أن يعوق التنمية العربية ، ونضرب لها أمثلة بما يلى :

* مقاومة ظاهرة الخصام الاعلامى العربى التى تبدى أعلام بعض الدول العربية فى بعض المواقف وكأنها الجارة الجاهلة عندما تخاصم جارتها فتتجاهل بعصبية كل ما يجرى من أمور الجارة ، لا تذكره على لسانها . أضرب لكم مثلا بمؤتمرات الأدباء العرب . لقد عقد الأدباء العرب على المستوى القومى أحد عشر مؤتمرا حتى عام (١٩٧٧) . واذا اتيح لباحث أن يتتبع ما نشر عن هذه المؤتمرات فى الصحف العربية وما اذيع عنها فى الاذاعات العربية ، يجد عجبا ، فكثيرا ما يتجاهل اعلام دولة ما مؤتمرا لأنه عقد فى عاصمة ليست العلاقات السياسية معها على ما يرام . علما بأن النشر حول هذه المؤتمرات القومية ضرورى للتنمية الثقافية القومية .

* مقاومة ظاهرة التعتيم الاعلامى للمواقف العربية الناصعة أضرب لكم مثلا بالقرارات العراقية الخاصة بتشجيع عودة العقول العربية المهاجرة اليها . والقوانين التى تتسم بالوعى القومى والروح القومية كحق الصحفى العربى فى الانضمام الى نقابة الصحفيين العراقيين ، وحصوله على كافة الحقوق التى يحصل عليها المواطن العراقى . واضرب لكم مثلا آخر بخطوات التكامل بين مصر والسودان . لو تتبعنا هذين الموضوعين فى الصحف والاذاعات العربية ماذا نجد ؟ نلمس بوضوح التعتيم الاعلامى برغم أن معالجة مثل هذه الموضوعات تمس القارىء العربى مباشرة .

* مقاومة ظاهرة النفخ فى الدخان ، قد يختلف الحكام لبعض الوقت فهل من الضرورى أن يتطوع عدد من رجال الاعلام الى نافخى دخان لتظل النار مشتعلة . أم من الأفضل والاصلح قوميا أن يضيقوا دائرة الخلاف الى أضيق حد ممكن . . !

* مقاومة ظاهرة ترسيخ العداوة والبغضاء بين الشعوب العربية ، والمتمثلة فى تكبير الأخطاء الفردية الصغيرة ، وطمس الجوانب الايجابية الباهرة لعلاقات الأفراد والاسر والصداقات الكثيرة بين أبناء الشعوب العربية بعضها والبعض الآخر .

— وفى الجانب المهنى يمكن لرجل الاعلام العربى أن يؤدى دورا فيما يلى على سبيل المثال :

جدول نظريات سيبرت الأربعة لوسائل الاتصال بالجماهير

النظرية	نظرية المسئولية الاجتماعية	نظرية الحرية	النظرية السوفيتية الشمولية	النظرية التسلطية
عناصر المقارنة : متى نشأت ؟	فى الولايات المتحدة الامريكية فى القرن العشرين .	تبنتها انجلترا بعد عام ١٦٨٨ ، وفى الولايات المتحدة الامريكية ، كما توجد فى بلاد أخرى .	فى الاتحاد السوفيتى ولو أن بعض جوانب هذه النظرية قد مارستها المانيا النازية وايطاليا الفاشستية .	فى انجلترا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وكان لها انتشار كبير ولا تزال تمارس فى بلاد كثيرة .
مصدرها	كتابات هوكنج Hocking ولجنة حرية الصحافة فى بريطانيا والمارسون وقوانين النشر .	كتابات ملتون ولوك وميل والفلسفة العامة لمذهب العقلانية والحقوق الطبيعية .	الفكر الماركسى واللينينى والستالينى مخلوطا بأفكار هيجل والفكر الروسى فى القرن التاسع عشر .	فلسفة السلطة المطلقة للملك أو حكومته أو كلاهما (نظريات أفلاطون أرسطو ، ماكيافيللى ، هوبز ، هيجل) .

النظرية	نظرية المسئولية الاجتماعية	نظرية الحرية	النظرية السوفيتية الشمولية	النظرية التسلطية
المحظور نشره	التدخل فى الحقوق الحيوية . والمصالح الاجتماعية الفردية الخاصة	التشهير ، الادب المكشوف والمواد الضارة بالاخلاق ، التحريض على العصيان والتمرد اثناء الحرب .	نقد أهداف الحزب الشيوعى وان كان من المباح نقد الخطط اليومية Tactics	نقد الجهاز السياسى والموظفين الرسميين المالكين للسلطة .
الملكية	خاصة اذا لم تسيطر عليها الحكومة .	خاصة على وجه الخصوص .	عامة	خاصة أو عامة
الفروق الجوهرية بينها وبين النظريات الاخرى .	يجب أن تفترض هذه الوسائل أن عليها مسئولية اجتماعية واذا لم تفعل فيجب أن تتبع وسائل الزامها بالمسئولية الاجتماعية (*) .	وسيلة للرقابة على أعمال الحكومة ومواجهة الاحتياجات الاخرى للمجتمع .	مملوكة للدولة وعليها رقابة صارمة ، وهى فقط موجودة كسلاح من أسلحة الدولة .	هى أداة لجعل سياسة الحكومة فعالة ولو أنه ليس من الضرورى ان تمتلكها الدولة .

(*) د. أحمد بدر الدين - الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية - دار القلم (الكويت) الطبعة الأولى - ١٩٧٤ ص ٣٣٨ .

* د. اسماعيل صبرى عبد الله — فى التنمية العربية — دار المستقبل العربى — القاهرة — ١٩٨٣ .

* د. أنور عبد الملك — تغيير العالم — عالم المعرفة ، الكويت — نوفمبر ١٩٨٥ .

* اوسكارلانجه وآخرون — مسائل الاقتصاد السياسى للاشتراكية — دار الحقيقة — بيروت — ١٩٧٢ .

* براجينا وآخرون — مشكلات التصنيع فى البلدان النامية — دار التقدم موسكو — ١٩٧٤ .

* بتروورسلى — ترجمة — حسام الخطيب — العالم الثالث — الناشر وزارة الثقافة والسياحة والارشار القومى — دمشق — ١٩٦٨ .

* بول باران — وايف لاكوسه — الاقتصاد السياسى للتخلف وأسباب التخلف الأساسية — دار الطليعة — بيروت — ١٩٧٠ .

* بول بوريل — ترجمة — أديب العاقل — ثورات النمو الثلاث — مطبعة وزارة الثقافة — دمشق — ١٩٧٠ .

* ت — س. اليوت — ترجمة — د. شكرى عياد — نحو تعريف الثقافة — وزارة الثقافة والارشاد القومى — المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر — مطبعة مصر .

* تشيلسو فورتادرو — ترجمة — د. أنور الصباغ — د. سهام الشريف — النمو والتخلف — الناشر — وزارة الثقافة والارشاد القومى دمشق ١٩٧٢ .

* تقارير عن التنمية فى العالم الثالث ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ — البنك الدولى للانشاء والتعمير — ترجمة وتوزيع الأهرام — القاهرة — ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ .

* جاك لوب — العالم الثالث وتحديات البقاء (ترجمة أحمد فؤاد بلبع) عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٦ .

* د. جيهان رشتى — الأسس العلمية لنظريات الاعلام — دار الفكر العربى ١٩٧٥ .

* د. جيهان رشتى — نظم الاتصال — الاعلام فى الدول النامية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٢ .

* ج هالكرو نرجسون — ترجمة — عبد الرؤوف عز الدين — ثورات أمريكا اللاتينية — الدار المصرية للتأليف والترجمة .

* حربى محمد — النفط العربى وأزمة الطاقة فى العالم — مطابع دار الثورة بغداد — ١٩٧٤ .

أما المتغيرات فتشمل :

- ظاهرة نمو الاحتكارات .
- ظاهرة نضج الرأى العام .
- ظاهرة النمو الذاتى للمؤسسات الاعلامية .

واذا تناولنا دعائم النظرية الليبرالية بشىء قليل من التفصيل ، فاننا نجد أن الدعامة الفلسفية لها تقوم على رصيد هائل من كتابات الفلاسفة والمفكرين الذين شغلتهم قضية الحرية والذين كان لكتاباتهم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أثر على فكر الثورة الفرنسية . ولأن الفكر الفلسفى لا يقف عقيما فى حياة جارية ، فقد تطورت أفكار الحرية عند فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين بما يواكب تطور المجتمعات القائمة على فلسفة الحرية الرأسمالية وبروز الاحتكارات العالمية .

كانت فلسفة « جون لوك » فى القرن السابع عشر فى الحرية ترتكز على أن الشعب هو مصدر السلطات ، وأن الحكومة ليست الا هيئة اختارها الشعب وفوضها فى أمره ، ومن حق الشعب دائما أن يسحب منها هذا التفويض متى أحس بأنها لا تعمل لصالحه ، وفى نفس القرن كانت فلسفة « جون ميلتون «John Milton» » فى الحرية تقرر أن الانسان لا يستطيع أن يصل الى الصواب فى مسألة من المسائل حتى يستمع الى آراء مخالفيه فى هذه المسألة ، وان الحقيقة لا يكتب لها البقاء الا اذا أتيحت لها الفرصة بأن تتقابل وجها لوجه مع غيرها من الحقائق فى صراحة كاملة وحرية تامة .

وفى القرن الثامن عشر كان « جون ارسكين » «Erskine» يقول بأن كل انسان يسعى لتنوير الآخرين لا لتضليلهم من حقة أن ينشر كل ما يدور بعقله ، وما يختلج فى ضميره ، سواء كان ذلك من الموضوعات الحكومية أو الموضوعات الخاصة . وفى القرن التاسع عشر كانت فلسفة جون ستيوارت مل تحوى منطلقات باهرة للحرية مثل قوله : « اذا أسكت رأيا فقد أخفيت حقيقة » . أو قوله : « الرأى الخطأ قد يحوى بذورا للحقيقة ، ومن الجائز أن يؤدى الى الحقيقة برمتها » أو قوله « الآراء الصائبة ما لم تتعارض مع الآخرين بين حين وحين فقدت

* د. عاطف العبد — المرأة الريفية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف — العدد ٤٨٤ سلسلة اقرأ .

* د. عبد اللطيف حمزة — الاعلام له تاريخه ومذاهبه — الطبعة الأولى — دار الفكر العربي — ١٩٦٥ .

* د. عبد اللطيف حمزة — أزمة الضمير الصحفى — دار الفكر العربى — الطبعة الأولى — ١٩٦٠ .

* د. عبد الهادى الجوهرى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، مدخل اسلامى — مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

* د. على لطفى — التنمية الاقتصادية دراسة تحليلية — دار القرآن للطباعة والنشر — ١٩٧٥ .

* د. عمرو محيى الدين — التخلف والتنمية — دار النهضة العربية ١٩٧٦ .

* عادل حسين — الاقتصاد المصرى من الاستقلال الى التبعية — دار المستقبل العربى — القاهرة — ١٩٨٢ .

* د. عبد الوهاب محمد المسيرى — الايدلوجية الصهيونية — عالم المعرفة — الكويت — ١٩٨٣ .

* د. عواطف عبد الرحمن — قضايا التبعية الاعلامية والثقافية فى العالم الثالث — عالم المعرفة — الكويت — ١٩٨٤ .

* د. عليه حسن حسين — التنمية نظريا وتطبيقا — الهيئة المصرية العامة للكتاب — الاسكندرية — ١٩٧٧ .

غى دى بوشير — ترجمة — فؤاد دراجى المراد — مفاتيح لأجل العالم الثالث — مكتبة العالم الثالث ، دار الحقيقة — بيروت — ١٩٧٤ .

* د. فتح الباب عبد الحليم سيد — د. ابراهيم ميخائيل حفظ الله — وسائل التعليم والاعلام — عالم الكتب — القاهرة ١٩٧٦ .

* د. فؤاد مرسى — المشاركة كأسلوب من أساليب الاستعمار الجديد — دار الثقافة الجديدة ، قضايا اقتصادية — مارس ١٩٧٥ .

* د. فرج الكامل — تأثير وسائل الاتصال (الأسس النفسية والاجتماعية) — دار الفكر العربى — القاهرة — ١٩٨٥ .

* كوامى نكروما — (تعريب خيرى حماد) — الاستعمار الجديد — دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .

* لستر بيرسون — اعداد — ابراهيم نافع — ماذا يجرى فى العالم الغنى والعالم الفقير ؟ شركاء فى التنمية — دار المعارف بمصر — ١٩٧١ .

وفى القــرن التــاسع عشر أيضــا نرى « توماس جيفرســون » Thomes Jeffrson يقــول انه لما كان أساس الحــكومات هو رأى الناس ينبغى أن يكون الهدف الأول هو المحافظة على ذلك الحق ذاته وأنه اذا خير بين حكومة بلا صحافة أو صحافة بلا حكومة لما تردد لحظة فى اختيار الصحافة •

وفى القرن العشرين أصبح المفهوم الفلسفى للحــرية فى المجتمــع الليبرالى يتضمن مسئولية وسائل الاعلام تجاه المجتمع ، وأصبح المفكرون يوجهون النقد المبــاشر والعنيف لصحف الاثارة التى تسعى فى نشر الفضائح والجنس والجريمة ، كما يوجهون الهجوم العنيف لسيطــرة بعض شركات الأسلحة على بعض الصحف • فنرى الكاتب البريطــانى الشهير هارولد لاسكى يذكر فى كتابه محنة الديمقراطية أن احــدى شركات الأسلحة الفرنسية اشترت جريدتين فى فرنسا لتحقيق مصالحهــا الخاصة وعلق لاسكى على ذلك بقوله :

« ان القدرة على توجيه الأخبار وجهة معينة هى نفسها القــدرة على منع الجمهور من أن تصله المادة التى يمكنه على أساسها أن يبنى أحكاما متزنة • وأن كل من يقارن الطريقة التى عالجت بها الصحافة البريطانية موضوع نزع السلاح خلال فترة انعقاد مؤتمر جنيف عام ١٩٣٢ بالأهمية الكبرى التى أضفتها تلك الصحافة على تتبع أخبار السلوك الجنسى لأحد رجال الدين الانجليز فى الفترة نفسها لن يجد أقل صعــوبة فى اكتشاف الطريقة التى يتــكون بها الرأى العــام فى احــدى الدول الديمقراطية الرأسمالية » •

الدعامة القانونية :

تستمد النظرية الليبرالية ـــ شأنها شــأن النظريتين : الشموليــة والمختلطة ـــ دعامتها القانونية من الدساتير الى لوائح المؤسسات الاعلامية مرورا بقوانين النشر والتشريعات الاعلامية ومواثيق الشرف المهنى ، بل ان المادة التاسعة عشر من الاعلان العالمى لحقوق الانسان الصادر فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ تنص على حق الانسان فى التعبير عن نفسه ومعرفة ما يعبر عنه الآخرون • ويقسم بعض أساتذة الصحافة قوانين الاعلام الى أربعة فروع • الفرع الأول هو قانون المضمون وهو يعالج الحدود والاشتراطات اللازمة لنشر الرسائل الاعلامية لضمان المصالح الأساسية

* ن ب ـ سيليوف ـ ترجمة ـ د. مطانيوس حبيب ـ شوكت يوسف ـ التنمية الاقتصادية فى العالم الثالث ـ دار التقدم العربى ـ دمشق ـ ١٩٧٤ .

* ه آرنواد ـ ترجمة د. حسين عمر ـ معونة الدول النامية دراسة مقارنة ـ مكتبة القاهرة الحديثة .

* وليام ل. ويفرز وآخرون ـ ترجمة ـ د. ابراهيم امام ـ وسائل الاعلام والمجتمع الحديث ـ دار المعرفة ـ مؤسسة فرانكلين ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ .

* ولبورشرام ـ ترجمة ـ محمد فتحى ـ أجهزة الاعلام والتنمية الوطنية ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ ١٩٧٠ .

تشجيع التبادل الحر للمعلومات والأفكار أما تقديم الحكومة معونات الى الصحف فانه يهدد استقلالها تهديدا كاملا • ويؤكدون حججهم بأن دخول الحكومة الى الساحة الاعلامية عن طريق الملكية المباشرة أو عن طريق المعونات للصحف من شأنه أن يخل بالأوضاع الاقتصادية ، ومن شأنه أن يضع وسائل الاعلام المنافسة فى وضع غير متكافىء ، لأن وسائل الاعلام الحكومية لا تهتم بالربح كأساس لبقائها واستمرارها ، بل ويذهبون الى ما هو أكثر من ذلك بقولهم ان دخول الحكومة الى الساحة الاعلامية يعوق عملية التصحيح الذاتى الملازمة لسوق الأفكار والآراء المتنافسة •

ويجد أصحاب النظرية الليبرالية تبريرا لقيام الاحتكارات الاعلامية بأن السلاسل الضخمة التى تضم عددا كبيرا من المؤسسات الاعلامية أكثر قدرة على مقاومة الضغوط من المؤسسات الصغيرة • هذا الى جانب فلسفتهم الاقتصادية بأن السلاسل تجنب الهزات الاقتصادية ، لأن الحلقة الضعيفة فى السلسلة تعوضها حلقة قوية •

وقد أعرب جورج سوكولسكى (٨) ذات مرة عن المفهوم الليبرالى لملكية الصحف بقوله : « ان معركة التوزيع تصبح معركة من أجل الحقيقة » • وتفسير هذه العبارة فى ضوء التقاليد الليبرالية هو أن بعض الصحف وبعض الصحفيين يمكن أن يخدموا أهدافا وضيعة ولكن فى النظام التنافسى تنتصر الحقيقة فى النهاية فما يسعى البعض لحذفه يسعى آخرون لنشره • والخطأ الذى يرتكبه صحفى يصححه صحفى آخر • والأكذوبة التى يسوقها محرر يصوبها محرر آخر • ومحاولة خدمة قضية خاصة تكشفها صحيفة أو وكالة أنباء منافسة ، وحين يخدم الناشر مصلحته الشخصية لتحقيق الربح ، فانه يعطى للمجتمع كما لو كان عن قصد وتدبير ، نوع الصحيفة التى يريدها ويحتاج اليها » •

ظاهرة نمو الاحتكارات :

شهدت بلدان العالم الرأسمالى الغنية المتقدمة فى القرن التاسع عشر ظاهرة اقتصادية ، تتمثل فى تكتل رؤوس الأموال الخاصة فى وحدات كبيرة تهدف الى التوسع الضخم فى الانتاج ، وخفض تكلفته ، وتجنب الخسائر الناجمة عن التنافس بالسيطرة على الأسواق • وبهذا المنطق وهو القضاء على التنافس تناقضت التكتلات مع منطق الفكر الليبرالى المستند الى التنافس كوسيلة لتحقيق الانسجام المستمر فى المجتمع •

* د. سعد الدين ابراهيم — نحو نظرية سوسيولوجية للتنمية فى العالم الثالث — بحث مقدم الى المؤتمر العلمى السنوى الثانى للاقتصاديين المصريين — القاهرة فيما بين ٢٤ الى ٢٦ مارس سنة ١٩٧٧ الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع .

* د. عبد العظيم رمضان — محاضرات فى تاريخ أفريقيا .

* د. على المرشدى — التخطيط — مجلة الطليعة — يونيو ١٩٦٥ .

* د. على عجوة — دور الاعلام فى تنظيم الاسرة بالريف المصرى — رسالة دكتوراه من قسم الصحافة بكلية الآداب — جامعة القاهرة — ١٩٧٤ .

* فيصل حسنى — دور الاعلام فى الدول النامية — رسالة ماجستير بكلية الاقتصاد — بجامعة القاهرة .

* قرار رئيس الجمهورية بالقاهرة ٢٣٢ لسنة ١٩٦٠ — فى شأن التخطيط القومى والمتابعة .

* د. لويس عوض — ترتيب العالم — جريدة الأهرام بتاريخ ١٦ — ١٢ — ١٩٧٥ .

* د. منى الحديدى — دراسة تحليلية لصورة المرأة المصرية فى الفيلم المصرى والاثار الاعلامية والاجتماعية المترتبة على ذلك رسالة دكتوراه كلية الاعلام جامعة القاهرة ١٩٧٧ .

* محمد رضا — محاضرة فى دورة بغداد الاعلامية — ١٩٧٤ .

* محمد حسنين هيكل — بصراحة — الحسابات الاسرائيلية — جريدة الاهرام — العدد ٢٩٧٤٣ — بتاريخ ١٧ — ٥ — ١٩٦٨ .

* يوسف أدريس — من مفكرة — جريدة الاهرام — بتاريخ ٢٨—٥— ١٩٧٦ .

* يوسف ادريس — هل أصبح كله يوك ؟ جريدة الاهرام — بتاريخ ٣١ — ١٠ — ١٩٧٥ .

* يوسف السباعى — العبور الثقافى — مجلة الثقافة — اكتوبر ١٩٧٥ .

ولم تثمر الأفكار الخاصة بتحرير الصحافة من سيطرة الاحتكارات فى البلدان الرأسمالية الا قليلا ، لأن مشروعات القوانين التى كانت تعرض على البرلمان بغية تحرير الاعلام من سيطرة رأس المال كانت غالبا ما تواجه بالرفض .

ونلاحظ أن مشروعات القوانين والاقتراحات والأفكار الخاصة بتحرير الاعلام من سيطرة الاحتكارات كانت تدور حول ما يلى :

● ضرورة اعلان الشركات التى تصدر الصحف عن أسماء مديريها وأسماء الذين يملكون ١٠٪ أو أكثر من رأسمالها .

● نشر حساباتها سنويا على أن تحتوى المستندات المالية نشر أسماء وعناوين أى شركاء أجانب يمدون المؤسسة بالمال سواء بالمساعدة أو المشاركة .

● ضرورة التفتيش المالى الحكومى على هذه الشركات .

● عدم اعطاء الحق للشركة الواحدة فى اصدار أكثر من صحيفة يومية واحدة .

ظاهرة نضج الرأى العام :

ان نضج الرأى العام فى المجتمعات الأوربية العريقة فى الليبرالية ظاهرة جديرة بالاهتمام كعنصر فعال ومؤثر فى اعلام هذه المجتمعات . لا يستطيع الاعلام فى هذه البلدان أن يواجه الرأى العام بسيل من « الهيافات » و « التفاهات » القريبة الى قصص الأطفال منها الى عقول الراشدين . ولا يستطيع الاعلام هناك أن ينقلب من موقف الى نقيضه بغير سبب أو فى كل يوم وليلة كما يلعب الصبيان لعبة « العساكر والحرامية » حيث يتبادلون المواقع والمواقف عقب كل شوط . ولاشك أن الاحتكارات تسعى الى السيطرة على الرأى العام ، ولا شك أنها تلح فى ذلك بوسائل عديدة ومتقدمة وذكية وخبيثة ، ولكن نضج الرأى العام يكلفها على الأقل كل هذه المشقات ، ويبقى الجدل والحوار مستمرا .

❋ J. Samuel Bois — The Art of Awareness — Third Edition — w.m.c. Broun Company Publishers U.S.A. — 1978.

❋ J.M. Albert — Les Mecanismes du Sous-developpement — Les Editions Ouvrières — Paris — 1976.

❋ Lerner, Daniel and Wilbur Schramm Communication and change in the Developing countries. Honolulu. The University Press of Hawai, 1972.

❋ Melvin L. Defleur — Sandra Ball — Rokeach — Theories of Masscommnication — Third Edition — David Mckay Company,

❋ Michael Gurevitch — Culture, Society and the Media — Methves — London — 1982.

❋ Michael Gurevith — Culture, Society and the Media — Methven — London and New Yourk, 1981.

❋ Peter Golding — The mass media — Longman — London — 1974.

❋ Schramm, Wilbur and Donald Roberts. The Process and Effects of Mass Communication, Urbana University of Illibois Press, 1971.

❋ Scharmm, Wilbur — Men, Messages, and Media a look at human Communication — Harrer and Raw, Publishers — New York 1973.

❋ Scharmm, Wilbur, Mass Communication urabana, University of Illinois Press, 1959.

❋ Scharmm, Wilbur Men, Messages and Media, New York : Harper and Row Publishers, 1973.

❋ Shanon, Claude and warren weaver. The Mathematical Theory of Communication, Urbana University of Illinois Press, 1949.

❋ Stuart Hood — The Mass Media — Macmillan — 1972.

❋ Walter Elkan — Developement Economics, Penguin — London 1973.

❋ Yves Prats — Decentralisation et developpement — Editions Cujas — 1973.

❋ Yves Eudes — La conquête des espris. L'appareil d'exportation culturelle du gouvernement Americain vers le tiers monde — François Maspero — Paris — 1982.

ولكن النظم الشمولية لا يذكر سندها الفلسفى الا ويذكر هيجل (١٧٧٠ ــ ١٨٣١) ذلك الفيلسوف الذى رأى أن الدولة أكمل وأعلى صورة تجسيم للروح يمكن الوصول اليها وهو لا ينكر الفرد أو يغمطه حقه بل يراه كذلك تجسيما للروح وان لم يكن بطبيعة الحال تجسيما كاملا كما هو الحال فى الدولة ، والفرد عند هيجل يحمل قدرا كافيا من الروح ، يجعله يرغب فى أن يتحد بالدولة اتحادا كليا ، واتحاد الفرد بالدولة نوع من الجهاد الواعى وليس أمرا آليا وعفويا • فقد يقدم الفرد على عمل منساقا وراء غرائزه دون التفكير فى الآخرين ، عندئذ تنقطع الصلة بينه وبين نظام الأشياء ، وتغفو الروح فى داخله فلا يصبح حرا ، وانما يبقى عبدا للخطأ والرغبة • ولا تكمل حرية الفرد الا بعمله وفقا لارادته الحقيقية بعيدا عن الرغبة الطارئة ، وبذلك يصبح تمسكه بأهداف الروح وارادته لهذه الأهداف ــ كما لو كانت أهدافه الخاصة ــ هو مقياس حريته • ومن ثم تكون ارادته الحقيقية هى طاعة ما تمليه عليه الدولة فما تمليه عليه الدولة هو ارادته الحقيقية • وعلى ذلك فان أوامر الدولة تمنح الانسان فرصته ليكون حرا حقيقيا ، فان اطاعها خوفا من العقاب فقد حريته •

وبعد هيجل يقف « كارل ماركس » كعلامة للنظام الشمولى المعروف بالاشتراكية العلمية أو الشيوعية ، فهو فيلسوف النظام وعالمه الاقتصادى وداعيته وراسم طريقه وباسمه سمى الفكر الماركسى • والى جانبه يقف « انجلز » زميله وصديقه ثم يتتابع حواريو الماركسية من « لينين » الى المعاصرين •

ويصنف هيجل فى تاريخ الفلسفة فيلسوفا مثاليا ، كما صنف من قبله أفلاطون • فى حين يتفرد ماركس بوضع خاص فى تاريخ الفلسفة المادية لأنه أضاف اليها الديالكتيك ، ذلك الديالكتيك الذى يجمع بين الفيلسوفين هيجل وماركس • وان كان هيجل قد فهمه على أساس مثالى وفهمه ماركس على أساس مادى • وعلى أية حال فان هيجل فى تاريخ الفلسفة هو صاحب أول صياغة لقوانين الديالكتيك الأساسية كقانون تحول الكم الى كيف والتناقض وصراع الاضداد كمصدر للتطور • ولكن ذلك من فم فيلسوف مثالى موضوعى • ولذلك قال عنه ماركس لقد كان هيجل مقلوبا على رأسه فعدلته • وهو بذلك يعبر عن جوهر الخلاف بين الفلسفة المادية والفلسفة المثالية •

كتب للمؤلف

فى الدراسات الاعلامية :

* الاعلام والتنمية ـ الطبعة الرابعة ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٨٨ .
* صناعة الكتاب ونشره ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف ـ ١٩٨٨ .
* المؤسسة الصحفية ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الخانجى ـ ١٩٨٤ .
* المسئولية الاعلامية فى الاسلام ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة الخانجى ودار الرفاعى بالرياض ـ ١٩٨٣ .

فى الدراسات الأدبية :

* الزيات والرسالة ـ دار الرفاعى بالرياض ـ ١٩٨٢ .
* هيكل والسياسة الأسبوعية ـ دار الرفاعى بالرياض ـ ١٩٨٢ .
* الصحافة بين التاريخ والأدب ـ دار الفكر العربين ـ القاهرة ١٩٨٥

فى الشعر :

* موعد فى النجوم (ديوان شعر) ـ دار « تى » ـ ١٩٦٧ .
* سجين الربذة (مسرحية شعرية) دار المأمون للطباعة والنشر ١٩٧٩
* ما ينفع الناس (ديوان شعر) دار المأمون للطباعة والنشر ١٩٨٣ .

فى الترجمة :

* ليوناردو دافينشى .
* أغنية المسير (مسرحية) .

الاحزاب وخطب القادة السياسيين وتصريحاتهم حول الاعلام تمثل دعامة قانونية للنظرية الشمولية فى الاعلام . ويتركز النقد الموجه الى النظرية الشمولية فى بنائها القانونى حيث يحظر على الأفراد اصدار الصحف ، كما يحظر على الجماعات والهيئات ذلك الا من خلال خطة شاملة وعامة للنشر ضمن الاطار العام للتنظيم السياسى والاقتصادى القائم على حكم الحزب الواحد . وقد دلت التجارب فى النظم الشمولية على غياب المعارضة الحقيقية فى نطاق الحزب الواحد وان استمرار عمليات التصفية والعقاب للمعارضين جعلت ممارسة حرية الاعلام قائمة على الولاء الكامل والدائم لنظام الحكم ، وعلى تسجيل الواقع بالصورة التى ترضى السلطة . بل قد تنحرف وسائل الاعلام فى هذه النظم الى عبادة الفرد وترسيخ القهر .

دعامة الملكية :

ترتكز دعامة الملكية فى هذه النظرية على اساس ان وسائل الاعلام لابد وان تكون فى نطاق الملكية العامة حتى تكون تعبيرا عن مصلحة المجتمع وأهدافه وبعيدا عن نزوات الافراد وأنانيتهم ، وان الملكية العامة لهذه الوسائل تؤدى الى اتاحة حرية التعبير على نطاق شعبى عريض ، والى تأمين وسائل الاعلام وبخاصة الصحافة من اخطار الاعلان ، والى رفع مستوى المادة الاعلامية بعدم الجرى وراء القراء والمستمعين والمشاهدين بالفضائح والاخبار التافهة المثيرة وافلام العنف والجريمة . وان تحرير ضمير رجل الاعلام من سيطرة الاتجاهات الانانية المصاحبة لاستثمار رأس المال الخاص فى هذا المجال ومن سيطرة عامل الربح على عمله الاعلامى . والى ابعاد العناصر الدخيلة ذات المصالح الخاصة عن حقل الاستثمار فى الاعلام .

وبعد ان فرغنا من دعائم النظرية الشمولية للاعلام يمكننا أن نوجز المتغيرات التى أوجدها التطور والتى تتفاعل داخل اطار النظرية فى متغيرين رئيسيين هما : التطور العالمى للاعلام واختراقه الحدود والحواجز الجغرافية وظهور شىء من النقد والنقد الذاتى فى النظم الشمولية ، وبخاصة من الشباب ، ولقد فرض هذان المتغيران نفسهما على هذه النظرية بحكم التطور وحركة التاريخ وان كانا لم يغيرا شيئا من شكلها أو كثيرا من مضمونها .

واذا تعقبنا الدعامة الفلسفية لنظرية الاعلام المختلطة فاننا نقف أمام حقيقتين اساسيتين : أولاهما ان الفكر الماركسى يرى فى تجارب العالم الثالث الاشتراكية تحريفا ، وان الفكر الليبرالى يرى فى تجـارب العالم الثالث الليبرالية المقيدة زيفا ، أما الحقيقة الثانية فان بعض تجارب العالم الثالث قدمت نظريا اطارا متكاملا لفكر سياسى جديد يقف على قدميـه كقرين وند للفكر الماركسى وللفكر الليبرالى . وفى تجربة الميثـاق الذى صدر فى مصر سنة ١٩٦٢ أكبر دليـل لمن أراد أن يبحث ويقارن بحياد ووعى . وسنلم بذلك الماما وجيزا عندما نتحدث عن البعـد التاريخى للتنمية .

وينبغى ألا يتبادر الى الذهن ان تجـارب العالم الثالث من التنافر والتضاد والتشتت حيث لا يمكن ان يجمعها اطار أو فلسفة أو نسق ، بل ان هذا العالم الثالث يشترك فى فلسفة الحكم وسند الحكم بغض النظر عن الميل شرقا أو الميل غربا . ان سند الحكم فى هذه البلدان يرتكز على ثلاثة ركائز اساسية . الركيزة الاولى قوة عسكرية من الجيش والشرطة والاعتماد عليها فى قمع من يتصدى للنيل من نظام الحكم أو يحاول تغييره.

الركيزة الثانية ايدلوجية مقبولة جماهيريا ولو على الأقل من حيث الشكل . الركيزة الثالثة هى الاعتماد الكبير على الاعلام ومحاولة تقويته فى اطار مساندته للسلطة ، وهذا الاعتماد على الاعلام يفسر لنا توجـه الدبابة الاولى فى معظم الانقلابات الى الاذاعة لاحتلالها والسيطرة عليها ، ويفسر لنا أيضا كيف ان الملك أو رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء يصبح تقريبا هو رئيس التحرير الفعلى فى عديد مـن صحف العـالم الثـالث .

وقوانين الاعلام فى العالم الثالث تتذبذب بين الحرية وبين تقييد هذه الحرية . وبين الملكية الخاصة والملكية العامة ، وهى بصفة عامة تحتاج الى التقنين الدقيق ووضع الحدود الفاصلة ، حتى يستطيع الاعـلام فى هذه المجتمعات تأدية دوره فى التنمية .

ان حدود الملكية وشكل وطبيعة الملكية هى حجر الزاوية فى أى نظام اجتماعى ، وعلى ضوء الملكية يتحدد شكل النظام السياسى للمجتمع ، وهو أيضا ما ينطبق على ملكية وسائل الاعلام فى النظرية المختلطة ، وما يعكس الاشكال العديدة للملكية فى بلدان العالم الثالث .

وهل هذا النموذج يبتعد كثيرا عن الأسئلة الرئيسية التى ينبغى أن يجيب الخبر عنها والتى عرفها التفكير الاعلامى مبكرا وقننها علماء الصحافة فى القرن التاسع عشر ؟! .

ثم يخلط المولعون بالدراسات الاعلامية الغربية بين نظريات الاعلام أو نظم الاعلام وبين نظريات الاعلان أو تجارب الحملات الاعلانية . وسموا النتائج التى توصل اليها عالم الاجتماع الامريكى « بول لازراسفيلد » وفريق من الباحثين معه عام ١٩٤٠ نظرية سريان الاعلام على مرحلتين من المرسل الى قادة الرأى ومن قادة الرأى الى الجمهور . وكان ذلك جزءا من نتائج بحث حول انتخابات الرياسة الأمريكية عام ١٩٤٠ .

وعندما أعلن عالم الاعلام الكندى « ما كلوهان » قولته المشهورة الرسالة هى الوسيلة، رددها الباحثون العرب دون أن يربطوها بالظاهرة الثقافية الغربية المتمثلة فى الاهتمام الزائد بالشكلية أو الشكلانية التى ازدهرت فى العقد الثانى من القرن العشرين الميلادى . وكان المحور الذى تدور حوله النزعة الشكلية هو القول بأن الشكل هو نفسه المضمون . وان القالب الفنى والأسلوب والبناء لا يمكن فصلها ، ولا فصل أى منها عن الرسالة أو المحتوى أو المضمون الذى يسعى العملُ الفنى الى توصيله أو نقله أو التعبير عنه .

وفى الربع الأخير من القرن العشرين نفسه حدث رد فعل متطرف وعنيف للنزعة الشكلية أو الشكلانية وبخاصة فى الفن الغربى . وبرز فى المقابل مصطلح الفن المضمونى Conceptual Art أو المفهومية التى أكدت أن المضمون هو العنصر الخالد والباقى والرئيسى للفن . وأن وسيلة التوصيل أى الألوان والكتل فى التشكيل ، أو اللغة فى الأدب ، أو الايقاع فى الغناء كلها عناصر ثانوية وهامشية . وظهر فى الشعر والقصة والرواية والمسرحية الاستخدام المباشر لأقوال الحكماء ، ومقتطفات من الكتب المقدسة ، أو الأقوال المأثورة ، ومن المقالات ، وأخبار الصحف وخطب الزعماء ، والخرائط (١١) .

ومن الباحثين الغربيين (١٢) « تونى بنت » الذى يرى عدم امكان الفصل بين نظريات وسائل الاعلام Theories of the media بين نظريات المجتمع Theories of Society فعلاقة الدولة بالصحف تختلف عن علاقتها بالراديو وعن علاقتها فى السينما • والروابط بين وسائل الاعلام وبين العملية الاجتماعية — فى نظر « تونى بنت » — هى روابط بين الصفوة ، التى تنتج الاعلام ، وبين الجماهير ، أى بين القلة وبين الكثرة • والباحثان « تيودور ادرنو » و « ماركس هوركهيمر » قد وضعا عبارة صناعة الثقافة للتعبير عن العمليات المتراكمة والمتعددة لوسائل الاعلام ، على حين نجد الباحث « الثوسر » جمع وسائل الاعلام مع العائلة ومع الكنيسة ، ومع نظام التعليم تحت عنوان واحد هو الأجهزة الأيدلوجية للدولة •

والسؤال الجدير بالاهتمام فى مجال محاولات تنظير الاعلام هو : هل وقف الفكر الاعلامى العربى متفرجا أو مترجما دون اسهام فى هذا الحقل ؟

لقد بدأت المحاولات عام ١٩٥٨ بنظرية الدكتور مختار التهامى « المسئولية العالمية والدولية للصحافة » وتستهدف هذه النظرية ربط أجهزة الاعلام أو العاملين فيها بمسئوليات محددة مستقاة من واقع المجتمع الدولى الحديث ، ومن دراسة الأوضاع السياسية والاقتصادية والنفسية التى تعتمل فيه •

وأهم ما كشف عنه الدكتور مختار التهامى فى سياق نظريته « المسئولية العالمية والدولية للصحافة » هو غيبة النصين الفاعلين فى عهد الشرف الدولى للصحفيين الذى أقره المجلس الاقتصادى والاجتماعى فى عام ١٩٥٢ • وكان عهد الشرف الدولى للصحفيين قد وضعته لجنة الاعلام التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى بالأمم المتحدة على أساس تقديمه لمؤتمر صحفى عالمى لبحثه • وقد خلص الدكتور مختار التهامى الى القول بأن هذا العهد تدخلت الأهواء السياسية لبعض الدول الكبرى لمسخه ، واخراجه على الصورة الهزيلة وبمراجعة المشروع الأصلى الذى اعده الدكتور محمود عزمى وتقدم به هو وزميلاه كريم عزكول والأستاذ شانج الى اللجنة الفرعية لحرية الأبناء والصحافة التابعة للمجلس الاقتصادى

والاجتماعى ، نجد نص المادتين اللتين استبعدتهما اللجنة باغلبية خمسة أصوات ضد ثلاثة وامتناع عضو واحد عن التصويت . وأهم ما ورد فى نص المادة المستبعدة التى كانت تحمل رقم (٤) ما يلى : يقع على عاتق كل العاملين فى جمع أو نقل أو اذاعة الأنباء ، خلال قيامهم بواجباتهم المهنية أن يعملوا فى سبيل الحل السلمى لجميع المنازعات والمشكلات سواء منها الدولية أو القومية ، وسواء كانت سياسية أو اقتصادية أو عنصرية . كذلك أهم ما ورد فى نص المادة المستبعدة التى كانت تحمل رقم (٥) ما يلى : يعمل جميع المشتغلين بجمع أو نقل الأنباء أو اذاعتها على نشر التفاهم والتعاون بين الشعوب والمعاونة فى المحافظة على السلام والأمن الدولى ، ويتعهدون بألا يشجعوا الرأى القائل بأنه قد تقوم هناك منازعات بين الدول لا يمكن ان تحل الا باستخدام القوة . ويتعهدون كذلك بألا يذيعوا أنباء يحتمل ان تثير التحيز ، أو فقدان الثقة أو الكراهية أو الاحتقار لشعوب أو دول أخرى أو تنقل صورة غير صحيحة عن مدنيتهم أو حضارتهم (١٣) .

وبرغم النقد الذى فنده الدكتور مختار التهامى لعهد الشرف الدولى للصحفيين فان الصورة التى وافق عليها المجلس الاقتصادى والاجتماعى فى دورته الرابعة عشر عام ١٩٥٢ تبدو صورة قوية . فقد شمل ديباجة وخمس مواد . تنص الديباجة على ان حرية الاعلام والصحافة حق أساسى من حقوق الانسان ومجال لجميع الحريات التى ينوه بها ميثاق الأمم المتحدة وينص عليها التصريح العالمى لحقوق الانسان . وتقول الديباجة أيضا أن عهد الشرف الدولى للصحفيين قد وضع ليكون قانونا للسلوك المهنى لكل فرد مكلف بتحرى ونقل واذاعة الأنباء والمعلومات والتعقيب عليها ، أو معهود اليه فى أن يصف بالقلم أو الكلام أو بأية طريقة أخرى من طرق التعبير الحوادث الجارية .

وتقول المادة الأولى من هذا العهد : يجب على رجال الصحافة والاعلام أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لتزويد الجمهور بالأنباء الصحيحة المطابقة للحوادث الواقعية ، وأن يتحققوا من صحة المعلومات التى يحصلون عليها ، وألا يغفلوا أى حادث مهم أو يشوهوا الوقائع عمدا . وتقول المادة الثانية من هذا العهد : تتطلب المزاولة الشريفة للمهنة

الصحفية الاخلاص للمصلحة العامة ، ولذلك يجب على الصحفيين أن يتجنبوا السعى وراء منفعتهم الشخصية أو تأييد المصالح الخاصة المتعارضة مع المصلحة العامة أيا كانت الأسباب والدوافع . فالافتراء والتشهير المتعمد والتهم التى لا تستند الى دليل وانتحال أقوال الغير كل ذلك يعد من الأخطاء المهنية الخطيرة . وكل نبأ يتضح كذبه وضرره بعد اذاعته يجب تصحيحه على الفور طواعية ، كما يجب صياغة الشائعات والأنباء التى تفتقر الى الاثبات فى قالب يتسم بطابعها الحقيقى . وتنص **المادة الثالثة** على ضرورة عدم قيام كافة المشتغلين بمهنة الاعلام بأعمال لا تتفق مع امانة المهنة وكرامتها . ومن واجبات الصحفى الاحتفاظ بسرية المصادر . وتقول **المادة الرابعة** : يجب على الصحفيين الذين يريدون الكتابة والتعقيب على الحوادث التى تقع فى بلاد غير بلادهم ان يحصلوا على معلومات تتيح لهم الكتابة والتعقيب على هذه الحوادث بانصاف وصدق . وتأتى المادة الخامسة قائلة : تقع المسئولية فى كفالة احترام المهنة وشرفها على رجال الصحافة والاعلام لا على الحكومات . ومن ثم لا يجوز تفسير أية مادة من مواد هذا العهد على نحو يسوغ تدخل الحكومات أيا كان هذا التدخل لتنفيذ الالتزامات الأدبية الواردة فى وثيقة هذا العهد .

واذا عدنا الى المحور الأساسى الذى وضع عليه الدكتور مختار التهامى دعائم نظريته نجدها فى رسالته للدكتوراه عام ١٩٥٨ والتى كان عنوانها مشروع دستور دولى للصحافة مستقى من تحديد مهمة الصحافة فى المجتمع الدولى الحديث . وقد أقام دعائم نظريته على دراسة وظائف الاعلام فى المجتمع الدولى المعاصر من الحرب العالمية الثانية حتى حرب السويس فى عام ١٩٥٦ ، وعلى صياغة مشروع دستور دولى للصحافة فى اطار رؤيته للمسئولية العالمية والدولية للصحافة . وفى اطار رؤيته أو نظريته وضع حدود المسئولية العالمية للصحافة ، ثم الاتجاهات العالمية المتعلقة بحق اصدار الصحف وملكية مؤسسات الاعلام . ثم تطرق الى أثر ثقافة الصحفى على رسالة الصحافة ، وبين المسئولية الدولية للحكومات فى ميدان الاعلام الصحفى . وختم رؤيته أو نظريته بمشروع دستور دولى للصحافة مستقى من نظرية المسئولية العالمية والدولية للصحافة .

لقد كان هذا الاسهام العربى فى التنظير الاعلامى دوليا فى أوائل عام ١٩٥٨ . وهذا فى حد ذاته برهان على عدم تخلف الفكر الاعلامى العربى فى النظر الى الاعلام نظرة فلسفية ونظرة تنظيرية .

وفى عام ١٩٨٣ حاولت الدكتورة عواطف عبد الرحمن (١٤) أن تنظر الى الصحافة العربية نظرة فلسفية وتنظيرية فأوردت سياقا تاريخيا موجزا ومركزا عن نشأة الصحافة العربية ، ثم تتبعت السمات التى رأت انها اساسية للصحافة العربية أثناء الحكم العثمانى ، ثم أثناء السيطرة الاستعمارية الاوربية ، ثم الاستقلال ، لتصل الى السؤال الجوهرى الذى يعالجه البحث وهو :

هل توجد نظرية اعلامية للعالم العربى ؟

وقد بدأت الاجابة عن هذا السؤال بأن النظريات الاعلامية التى استقرت عليها المدرسة الغربية فى الاعلام ، أو بمعنى أدق التى فسر بها أساتذة الاعلام الليبراليون نظريات الاعلام هى : نظرية السلطة ، والنظرية السوفياتية ، ونظرية الحرية ، ونظرية المسئولية الاجتماعية ونقدت تصنيفى لنظريات الاعلام بقولها :

« وقد أسفرت تلك المحاولات (التصنيفات الجديدة لنظريات الاعلام) عن تصنيف ثلاثى يتضمن النظريات الثلاث التالية : الليبرالية ، والشمولية ، والمختلطة . وهذا التصنيف قام بدمج كل من نظريتى الحرية والمسئولية الاجتماعية فى اطار واحد هو النظرية الليبرالية ، على أساس أنهما يمثلان مرحلتين تاريخيتين متتابعتين فى تطور الصحافة الغربية ، وأنهما ينبعان من أساس نظرى وفلسفى واحد ، كما ينتميان الى واقع اقتصادى واجتماعى واحد هو المجتمعات الغربية . أما النظرية السوفياتية فقد أدرجها تحت اسم النظرية الشمولية دون مراعاة للاختلاف التاريخى والايديولوجى للتجربة الاشتراكية فى الاعلام عن التجارب الاخرى التى تندرج تحت نفس التصنيف (مثل التجربة النازية التى تعد احدى تطبيقات الرأسمالية الاوربية) . أما النظرية الثالثة (المختلطة) فهى محاولة ترقيعية تفتقر الى الاساس النظرى أو الاقتصادى ، بل تعتمد على الامتيازات السياسية البراغماتية ، وتعجز عن تفسير كثير من الظواهر الاعلامية فى العالم الثالث بالذات » .

هذا نص ما أوردته الدكتوره عواطف فى مقالها نقدا لرؤيتى التى كتبتها عن نظريات الاعلام المعاصرة فى كتابى الاعلام والتنمية .

ثم رأت أنه من الصعوبة تطبيق نظرية السلطة التى برزت فى القرن السادس عشر ، أو النظرية الاشتراكية (تقصد النظرية السوفياتية) على الاعلام العربى . ثم قدمت محاولتها التى أطلقت عليها (الاعلام العربى فى ظل نظرية التبعية) . قائلة بأن مدرسة تفسير التخلف فى العالم العربى بسبب التبعية التى يقدمها الكاتب العربى سمير أمين هى الاساس التى ترتكز عليه محاولتها فى الاعلام . وترى مدرسة التبعية - كما تقول الدكتورة عواطف عبد الرحمن - أن تخلف العالم الثالث أو تبعيته بمعنى أدق للعالم الرأسمالى المتقدم يرجع الى خضوعه للسيطرة الاستعمارية لعدة قرون . وقد تشكلت الانظمة السياسية والاوضاع الاجتماعية الثقافية فى دول العالم الثالث من خلال وضعها كمجتمعات تابعة داخل النسق العالمى . ثم تحلل الدكتورة عواطف مظاهر التبعية الاعلامية فى العالم العربى بوجود محورين : المحور الأول هو سيطرة السلطة السياسية على ملكية الصحف ، واصدار قوانين الاعلام ، ورسم السياسات الاعلامية ، والاشراف على نشر المادة الاعلامية . والمحور الثانى يتعلق بالبعد الدولى الذى يتضمن التبعية التكنولوجية للدول الغربية ، والتبعية (السوسيو ثقافية) للشركات المتعددة الجنسية من خلال الاعلانات ، والتبعية الاعلامية لوكالات الانباء الغربية ، ثم التبعية الاكاديمية لمعاهد وكليات الاعلام الغربية . وتتناول نقاط هذين المحورين بالامثلة والشرح والتحليل . وتعقيبى على ذلك اسهاما فى الحوار حول القضية وهى النظرية الاعلامية العربية يتخلص فيما يلى :

أولا : أن التصنيف الذى أوردته لنظريات الاعلام المعاصرة فى كتاب هذا « الاعلام والتنمية » قلت عنه بالنص .

« ان هذه التسميات أو هذا التصنيف ليس ابتكارا منى ، ولكنه رواية معاصرة لنظريات الاعلام . وأن دورى فى هذه التسميات أشبه بدور الراوية للقصص الشعبى يضعها فى قالب عصره » . وقد بنيت رؤيتى لنظريات الاعلام المعاصرة على ما وصلت اليه تجارب الديمقراطية فى الربع الاخير من القرن العشرين . وعلى التمييز الواضح بين نظامين بارزين ،

ثم وجود نظام ثالث فيه ضبابية وتأرجح ، وان كان يختلف عن النظامين البارزين • أما النظام الأول فهو الديمقراطية الليبرالية أو الديمقراطية الرأسمالية التى تكشفها بطريقة حية أوروبا الغربية ، وتبديها الولايات المتحدة الامريكية ممتزجة بالضغط والسيطرة • أما النظام الثانى وهو الديمقراطية الاجتماعية وهذا النظام القائم فى كافة البلدان الشيوعية بطرق متفاوتة ودرجات مختلفة • يبقى النظام الثالث وهو خليط بين النظامين السابقين ، ولكن المخلوط يختلف فى بعض الاحيان اختلاف التناقض • وهذا النظام هو ثمرة التجارب المريرة لبلدان العالم الثالث فى البحث عن طريق ديمقراطى جديد بين ظروف دولية ومحلية بالغة التعقيد • وقد نجد فى بلدان العالم الثالث من جعل مخلوط تجربته تسعة أعشارها من اليمين وعشرها من اليسار ، وآخر استقى الاعشار التسعة من اليسار وأخذ من اليمين عشر مخلوطه • ويوم تتوفر عناصر النجاح فى تجربة ديمقراطية جديدة فى العالم الثالث تصبح أملا حقيقيا لمعظم البشرية عندما تطل على القرن الحادى والعشرين •

وقلت — ما يزال ذلك رأيى — أننى أرى ان نظريات الاعلام المعاصرة تنحصر فيما يمكن تسميته بالنظرية الليبرالية • والنظرية الشمولية • والنظرية المختلطة ، وأن التسميات السابقة والتى كانت تشمل : نظرية السلطة ، ونظرية الحرية • ونظرية المسئولية الاجتماعية ، والنظرية السوفيتية ، لم تعد تعبر عن واقع العصر •

وأقمت تصنيفى لنظريات الاعلام المعاصرة على شرح الدعائم الاساسية لكل نظرية وهى : الدعامة الفلسفية ، والدعامة القانونية ، ودعامة الملكية • تلك الدعائم التى تشترك فيها النظريات : الليبرالية ، والشمولية ، والمختلطة • وفى مقابل دعائم كل نظرية تقف المتغيرات التى تعد جزءا من النظرية ، والتى توضح لنا العلاقات الجدلية فى كل نظرية • فعلى سبيل المثال نرى المتغيرات التالية فى النظرية الليبرالية : ظاهرة نمو الاحتكارات وظاهرة نضج الرأى العام • وظاهرة النمو الذاتى للمؤسسات الاعلامية •

ونرى فى النظرية الشمولية متغيرين رئيسين هما : التطور العالمى للاعلام واختراقه الحدود والحواجز الجغرافية • ظهور شىء من النقد والنقد الذاتى فى النظم الشمولية ، وبخاصة من الشباب •

أما عن النظرية المختلطة وهى التى تعكس ظروف العالم الثالث، • فاننا نجد مجتمعات فى العالم الثالث لا تسمح لاى وكالة انباء غير الوكالة المحلية بتوزيع الاخبار ، والصحف فيها مملوكة للحزب الواحد أو للحكومة وهما وجها السلطة الحاكمة • وهناك مجتمعات تصدر فيها الصحف مملوكة للاجانب كامتداد للاستعمار الذى رحل اسما وبقى واقعا ، ويتعثر صدور الصحف فى هذه المجتمعات • وهناك مجتمعات نامية يصدر كبار التجار فيها الصحف • وقد قطعت بعض المجتمعات النامية شوطا فى الطـريق الليبرالى فأصبحت فيها الصحف المستقلة • كما قطعت مجتمعات أخـرى نامية شوطا فى الطريق الاشتراكى فأصبحت فيها صحف الجبهة تعبر عن ثلاثة أو أربعة أحزاب يمول كل حزب صحيفته كما يمول الحزب الحاكم صحفه التى لها الغلبة والتعدد • وهذا التنوع فى الملكية يعكس ظروف العالم الثالث الاقتصادية والثقافة والسياسية والاجتماعية •

هذه النظرية المختلطة هى النظرية المعاصرة للاعلام العربى — فى رأيى — لاننا جزء من العالم الثالث ، لم نتميز بعد عن ظروف العالم الثالث • واذا كان التعميم فى حد ذاته ميزة وقصور فى نفس الوقت — كما سبق القول — فان ذلك لا يقلل من محاولات تنظير الاعلام •

ثانيا : أعتقد أن التبعية ليست هى النظرية الاعلامية للوطن العربى لعدة أسباب • أولها أن الاساس النظرى للنظرية هو الاساس النظـرى لتفسير التخلف العربى وهذا التفسير ليس تفسيرا جامعا مانعا لاسـباب التخلف فى العالم وانما هو عامل واحد من بين عوامل عديدة تفسر لنا التخلف العربى • بل اننى اذهب الى القول بأنه لا يمثل الواقع المعاصر فى العقـد التاسع من القرن العشرين ، وانما هو عامل يبين لنا البعد التاريخى لاسباب التخلف وأزيد على ذلك بأنه ليس البعد التاريخى الوحيد لتفسير التخلف المعاصر فى العالم الثالث ، وانما الاصل هو الاستبداد عند تفسيرنا للبعد التاريخى للتخلف • بمعنى أن الاستعمار باعتباره صـورة من صـور الاستبداد واستنزاف موارد الشعوب لم يزد خطره ولا ضرره عن الاستبداد المحلى فى البلدان التى لم يحتلها الاستعمار ، خلال موجات الاستعمار ،

وحتى تصفيته نهائيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية . وفى العالم العربى شواهد على ذلك فالبلدان العربية التى لم يدخلها الاستعمار ، كانت حالتها أسوأ بسبب الاستبداد .واذا كان استنزاف الاستعمار للموارد كان معوقا للتنمية فى القرن التاسع عشر وفى النصف الأول من القرن العشرين ، فان معوقات التنمية المعاصرة فى العالم الثالث تختلف الى حد كبير . انهـا مشكلة الديمقراطية ، والفساد ، وعدم وجود أيدلوجية واضحة وما شابه ذلك .

واذا كانت عناصر الانتاج هى : الطاقة البشرية ، والثروة الطبيعية ، والمال فهل هذه ليست متوفرة عند العرب ؟ بل ان العرب يصدرون بصفة عامة المواد الخام للبلدان المتقدمة الغنية ، ويودعون أموالهم فى بنوكها ، وتهاجر العقول والايدى العاملة العربية الى هذه البلدان المتقدمة الغنية . ثم يستورد العرب من هذه البلدان التى صدروا اليها المواد الخام والمال والبشر .. المواد المصنعة .. بل والمواد الغذائية . وهذه الزوايا تزداد انفراجا مع الوقت .

لذلك فاننى أرى أن تفسير التخلف المعاصر ، وبخاصة بالنسبة للوطن العربى لا تصلح ولا تكفى لتفسيره ظرية التبعية .

ثالثا : فى حديث الدكتورة عن المحور الاول لمظاهر التبعية الاعلامية فى الوطن العربى ، أنه يتمثل فى سيطرة السلطة السياسية على الاعلام . ان ذلك فى رأيى ليس مظهرا للتبعية ، بل ليس مظهرا خارجيا لنظم الحكم فى العالم الثالث . لقد سبق لى القول فى كتابى المشار اليه بأن سـند الحكم فى العالم الثالث بصفة عامة أ ـ قوة عسكرية من الجيش والشرطة . ب ـ أيدلوجية مقبولة جماهيريا ولو من حيث الشـكل . ج ـ اعلام قوى وقادر .

وقلت ان رئيس التحرير الفعلى فى معظم بلدان العالم الثالث هو الملك أو رئيس الجمهورية أو رئيس الحكومة . وخطر الاعلام فى العالم الثالث بالنسبة لنظم الحكم هو الذى يفسر لنا توجـه الدبابة الأولى فى معظم الانقلابات الى الاذاعة . سيطرة السلطة على الاعلام فى العالم الثالث اذن ليست مرتبطة بتبعية شرقية أو غربية ، وانما مرتبطة بذاتية الحكم باعتبار الاعلام ركيزة اساسية من ركائز الحكم .

رابعا : المحور الثانى لمظاهر التبعية الذى رأت الدكتورة أنه يتضمن الآتى :

١ ــ التبعية التكنولوجية للدول الغربية .

٢ ــ التبعية السوسيو ثقافية للشركات المتعددة الجنسية من خلال الاعلانات .

٣ ــ التبعية الاعلامية لوكالات الانباء الغربية .

٤ ــ التبعية الاكاديمية فى معاهد الاعلام .

فاننى أرى أن النقطة الاولى لايمكن ان تمثل نوعا من التبعية لان جهاز (التلكس) أو (آلة الطبع) (أو الاذاعة) أو (القمر الصناعى) لا يمثل أيديولوجية معينة فاذا صنع فى موسكو أو لندن سيان .

أما النقطة الثانية فان الاعلانات مظهر للسلع والاسواق ، فطالما كانت أوطان عربية سوقا لانتاج معين تبع ذلك الاعلان عنها . ولكن الاعلانات التى تؤثر على حرية الصحف أو حرية الاعلام هى الاعلانات التى يملى أصحابها سياسة معينة ، أو تكون فى صورة رشوة مقنعة . وذلك مستبعد فى معظم أقاليم الوطن العربى لان الصحف مملوكة للحكومة بصورة أو بأخرى . وفى البلدان البترولية التى تسير على الطريق الرأسمالى فى الوطن العربى تمنح الصحف معونات رسمية وعلنية حتى تستمر فى الصدور . والصحف التى تعيش على معونات الدول الخارجية قليلة جدا ولا تمثل تيارا ومحصورة فى قطر أو أكثر .

أما النقطة الثالثة فهى حقيقة معاصرة ، ولكننى لا أرى سببا للقول بأن وكالات الانباء العالمية ليس بينها وكالة تاس السوفياتية .

أما النقطة الرابعة فاننى أخالف فيها الدكتورة عواطف عبد الرحمن مخالفة تامة ، وهى التبعية الاكاديمية . لقد أتيح لى العمل ثلاث سنوات بجامعة الجزائر ، وعامين بجامعة الرياض ، وعامين بجامعة أم درمان الاسلامية ، الى جانب عملى بجامعة القاهرة . وكان عملى هو تدريس الاعلام . وأستطيع أن أقول بايجاز شديد أن هيئات التدريس تنقسم من حيث التبعية التى أشارت اليها الدكتورة ، أو ما أسميه بتحليل القوى العقائدية الى ما يلى :

١ — تبعية شرقية (شيوعية) أو تبعية غربية (سكسونية أو لاتينية أو تأمرك) .

٢ — مستقلة أو مهنية .

٣ — اتجاه قومى عربى .

٤ — اتجاه اسلامى مستنير .

٥ — اتجاه اسلامى متحجر .

٦ — اتجاه حكومى (أى حكومة ، أى مرتزق) .

وانعكاسا لهذه الاتجاهات نجد المؤلفات والبحوث وغير ذلك . أما الطلبة فيمكن حصر اتجاهاتهم فيما يلى :

١ — (سلبيون أو معتدلون أو مستقلون) . وهؤلاد يطلق عليهم « لا لهم ولا عليهم » .

٢ — جماعات اسلامية .

٣ — قوى ماركسية — وقوى يسار عربى .

٤ — قوى مباحثية تعمل مع الحكومة .

٥ — قوى عميلة .

بهذه التقسيمات هل يمكن القول بالتبعية الاكاديمية للغرب فى الوطن العربى . أم انها صورة للعالم الثالث فى العقد التاسع من القرن العشرين .

وفيما يتعلق بالتدريس فى كليات وأقسام الاعلام بالوطن العربى الذى تزيد الآن عن ثلاثين قسما وكلية ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن هناك فروقا بين قواعد علمية للاعلام ، وبين ما هو فكر محدد مرتبط بالمجتمع الغربى الرأسمالى المتقدم . ان ما يكون علما أو فنا فى مجال الاعلام لا غبار عليه ، فاذا قلنا مثلا ان كتابة القصة الخبرية تكون على شكل هرم مقلوب فلا يضيرنا أن يكون مصدر المقولة غربيا أو شرقيا . اما اذا

قلنا ان الملكية الخاصة للصحف أو الاحتكارات الصحفية هى الصورة المثلى لحرية الصحافة فهذا تحيز لمدرسة معينة يترتب عليها تحقيق السيطرة على عقولنا وسلوكنا • واذا كان الهدف الرئيسى فى تعليم الاعلام هو تزويد الطالب بقدرات فنية ، وتسليحه بمعلومات مهنية ، ثم تدريبه على التفكير العلمى والمنطقى ، فان معاهد الاعلام العربية فى موقع طيب عالميا • اذا كانت المقارنة بالبلدان الشيوعية أو بالبلدان الرأسمالية الاحتكارية التى لم تغب المكارثية عن سمائها الجامعية •

وفى عام ١٩٨٣ حاولت من جانبى وضع الاطار العام للنظرية الاسلامية فى الاعلام فى كتابى المسئولية الاعلامية فى الاسلام • وسقت الملامح الرئيسية لفلسفة الاعلام فى الاسلام على النحو الموجز التالى :

حق الاعلام فى الاسلام لكل مسلم ومسلمة :

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ومن هنا ندرك ان الاعلام فى الاسلام حق لكل مسلم ومسلمة وهو حق ايجابى •• كيف ؟ ان الاعلام بالمعنى الشامل للاعلام حق ايجابى لكل مسلم ومسلمه • والحق الايجابى يتمثل فى أن يقوم المجتمع باعلام الفرد ، تماما كما يوفر له الامن والطعام والدواء • والحق الايجابى يختلف عن الحق الوارد فى نصوص الدساتير والمواثيق غير الاسلامية والتى تنص على ان هذا الحق لمن أراد • بمعنى أنك اذا رغبت فى التزود بالاعلام فلا مانع • وعلى الهيئات والمنظمات الاجتماعية والدولية ان تكفل لك حق التزود بالاعلام وحق النشر •

وهذا الحق الوارد فى نصوص الدساتير والمواثيق غير الاسلامية يمكن ان نسميه الحق السلبى ، أو الحق المصرح به ، وهو جزء من الحق الاعلامى الاسلامى الذى لا يقف عند حد السماح وانما يكلف المجتمع أو الحكومة أو هيئة منه للقيام بالاعلام الى جانب كافة الحقوق الممنوحة للافراد فى الاعلام •

فرض كفاية :

نقرأ فى القرآن الكريم قول الله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » من ذلك ندرك ان الاعلام بالاسلام

بالاسلام فرض كفاية • ولكن بعض الباحثين يرى انه فرض عين على كل مسلم بقدر طاقته • ويذهب الدكتور ابراهيم امام الى القول بأن الاعلام الاسلامى تكليف وفريضة على كل مسلم ، ويسوق قول ابن كثير فى تفسير الآية ، المشار اليها بأن المقصود من فرقة من هذه الامة متصدية لهذا الشأن • ثم يسوق تفسير الرازى بأن « منهم » فى الآية ليست للتبعيض لدليلين : الأول ، أن الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل الأمة فى قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » والثانى هو أنه لا مكلف الا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر • وأما كلمة (من) فى الآية الكريمة فهى للتبيين لا للتبعيض •

ويرى الدكتور ابراهيم امام أن الاعلام فى الاسلام فرض عين وفرض كفاية معا • ويقول ان التكليف عام للمسلمين بحيث يقوم كل مسلم بكفايته وما اتاه الله من علم وموهبة فلا يخلى انسان نفسه من تبعة الدعوة والقيام بالاعلام عن الدين • فكل مسلم يدعو الى الله بالقدر الذى يعلمه ، بيد ان على الامة واجبين ، أولهما : أن يقوم كل واحد بعينه بما يستطيع من دعوة الى الحق وهداية الى الدين ، وثانيهما : أن يتخصص فريق من رجال الاعلام المتخصصين فى شئون الدين والدعوة والاتصال بالناس للقيام بواجبات الارشاد والتبليغ والحث والاقناع ، وبشرط أن يتم كل ذلك على علم وبصيرة بكتاب الله الكريم وسنة نبيه المطهرة • ومن ذلك يتبين أن كل واحد من الأمة الاسلامية مطالب بالقيام بالدعوة بقدر طاقته من العلم والكفاية والبيان ، وهو مطالب ثانيا بالمعاونة على تخصيص طائفة من المؤمنين تكون أقدر بيانا ، وأعلم بالأحكام الشرعية وأقوى على الصمود فى مجال الحق والدعوة الى الله • وعلى ذلك يعتبر كل أفراد المجتمع الاسلامى قائمين بالاتصال ومسئولين عن تبليغ الدعوة كل حسب قدرته وعلمه ، ومراقبة أى خروج أو انحراف عن القيم الاسلامية • وفى نفس الوقت لابد من وجود المتخصصين القائمين على أمر الدعوة على بينه وعلم وبصيرة وتمكن بأحوال الدعوة وملابساتها (١٥) •

وبرغم هذه الآراء فان الاعلام باعتباره مهنة لابد وأن يكون فرض كفاية فى الاسلام •

اعـلام عـام علنى :

من أبرز سمات الاعلام الاسلامى أنه عام للبشر جميعا . فليس فى الاسلام اعلام سرى أو نصف سرى ، والاعلام نصف السرى هو الذى ينشر داخـل دائرة محـدودة ضـيقة مثل اللجـان المركزية لبعض الاحـزاب ، أو ما شـابه ذلك ، ولا ينشـر لبقيـة النـاس ، أى اعـلام يقصـد حجبـه عـن القـواعد العريضـة مـن النـاس . وبطبيعة الحال الاعلام نصف السرى يختلف عن الاعلام المتخصص الذى يتوجه الى أصحاب مهنة معينة مثل مجلات الأطباء أو المحامين أو المهندسين، فهذا الاعلام المتخصص عام أيضا للكافة ومتاح لكل من يقرأ . وهـذه العمومية انعكاس لروح العقيدة الاسلامية المتوجهة للناس جميعا . ولغيبة الواسطة بين العبد وخالقه أو « الكهنوتية » ولتساوى الناس فى الاسلام كاسنان المشط .

ويوازى العمومية فى الاعلام الاسلامى العلانية . فالاعلام فى الاسلام يتصف بالعلن خلافا لبعض الاديان أو العقائد التى تحرص على الكتمان والسرية . وتأخذ عهودا قاسية على أعضائها ــ بعدم افشاء أفكارهم أو مبادئهم ــ تصل الى القتل لمن يفشى الأفكار أو المبادىء . وآيات القرآن فى ذلك شديدة الوضوح : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا مـن البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

وشروط العلانية فى تنفيذ بعض الحدود مثل شرط النشر فى الجريدة الرسمية فى ايامنا هذه للقوانين حتى تصبح سارية المفعول . كذلك فان الاعلام بالعقاب جزء من العقاب « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . حتى يعتبر عامة الناس ، وحتى يطمئن المواطن العادى أن الحكومة أو الدولة الاسلامية قائمة على تطبيق الشريعة وتطهير المجتمع والمحافظة على سلامته الاجتماعية .

يقول أبو الأعلى المودودى (١٦) فى تفسيره سورة النور « ان أغراض الحدود فى القانون الاسلامى ثلاثة : أولها : أن ينتقم من الجانى لاعتدائه ويذوق وبال السيئة التى قد ألحقها بغيره من أفراد المجتمع والمجتمع نفسه . وثانيها : أن يردع عن اعادة الجريمة ، وثالثها : أن تجعل من عقوبته عبرة حتى تجرى مجرى عملية الجراحة الذهنية على أناس فى المجتمع قد

تكون فى قلوبهم غرائز سيئة فلا يجترئون على ارتكاب مثل هذه الجريمة فى المستقبل ، ومن فوائد اقامة الحد علنا — علاوة على ما تقدم — أن الحكام قلما يجترئون على التخفيف من العقوبة أو الزيادة منها على وجه غير مشروع » .

وهكذا نرى أن العلن والعمومية متلازمان فى الاعلام الاسلامى . وأنهما انعكاس للعقيدة التى توصف بانها المحجة البيضاء ، والتى ترى أنه ليست هناك واسطة بينك وبين الله وأن الناس فى ظل العقيدة الاسلامية كأسنان المشط .

الاعلام بلا اكراه :

هذه القضية (وهى أن الاعلام الاسلامى والدعوة الى الله ليست بالاكراه) موضع خلاف ، واستخدمت الحروب الاسلامية دليلا على انتشار الاسلام بالقوة . وهذا غير صحيح ، لابد أولا أن نرجع الى النصوص القرآنية لندرك أن الاعلام بالدعوة بلا اكراه . والنصوص قاطعة حاسمة . « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » و « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

أما الذين يزعمون أن دعوة الاسلام انتشرت بالسيف فيقعون فى خطأ فادح . ان الدعوة أو الاعلام بالدعوة لجأ الى العقل والقلب ، ولم يلجأ الى السيف . والسؤال هو متى بدأ القتال أى متى بدأ قتال المسلمين للكفار ؟ لقد بدأ بعد تكوين الدولة النواة فى المدينة .

— اذن هل هى حروب لنشر الدعوة والاعلام بها . أم حروب للدفاع عن حق الحياة ؟

ان أول معركة هى « بدر » هل كانت « بدر » من أجل الاعلام بالدعوة أو نشر الاسلام بالقوة ؟ واذا كانت بدر أول معركة فى الاسلام تؤكد أنها كانت لدرء خطر الابادة والزوال فان « الحديبية » وصلحها المشهور قبيل الفتح ، وشروط هذا الصلح يؤكد أن حروب عصر النبوة كلها كانت للدفاع عن حق البقاء . وبعد عصر النبوة بدأت حروب تحرير البشر نظرا لعالمية الدعوة ، لماذا كانت هذه الحروب ؟ لكى تمكن الانسان العادى فى هذه البلدان من اعتناق الدين الذى يراه . والا لما كان فى مصر

يهود ولا مسيحيون ولا فى الشام أو فلسطين أو غـيرها من البلدان ، لو كانت حروب نشر للدعوة بالسيف لكان من المنطقى ابادة كل من لم يدخل فى الاسلام .

اذن هذه الحروب كانت من أجل اتاحة الفرصة واتاحة المناخ الذى يجعل الانسان حرا فى تقرير عقيدته وأن يصبح من حقه أن يصبح مسلما أو لا يصبح مسلما . ولقد أثبت التاريخ صدق ذلك فى اخراج المسلمين من الأندلس . اذ لم يبق فيها مسلم واحد . اما انهم هاجروا أو قتلوا أو ارتدوا . وعلى النقيض تماما ما نراه فى مصر والشـام والعـراق والسودان حتى اليوم . ثم ظاهرة وجود أسر ، فرع منها مسلم والآخر ظل على دينه الذى اعتنقه قبل الاسلام .

لقد خرج المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال سـبعا وعشرين مرة فى عشر سنين . وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة فى الفترة نفسها . ولقد قال عمرو بن العاص : اعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوق قلوبهم اليكم والى داركم . يذكر العالم الهندى الندوى فى كتابة ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ارقاما لها دلالتها عن الجهاد فى عصر النبوة منذ السنة الثانية للهجرة الى السنة التاسعة من الهجرة . تقول الأرقام التى استقاها من مؤلف السيرة القاضى محمد سليمان المنصور ما يلى :

— عدد القتلى من الكفار ، والشهداء من المسلمين فى جميع الغزوات والسرايا والمناوشات ١٠١٨ .

— الشهداء من المسلمين ٢٥٩ شهيدا .

— قتلى الكفار ٧٥١ قتيلا .

ويقارن هذه الاعداد بقتلى الحرب العالمية الأولى التى بلغت ٢٨ مليونا من البشر والحرب العالمية الثانية التى بلغت ٥٠ مليونا من البشر .

بل ان القرآن شديد الوضوح فى معاملة الذين لم يعتنقوا الاسلام ولكنهم لم يشهروا سيوفهم فى وجه المسلمين . ولنتأمل الآيتين الآتيتين :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون » (سورة الممتحنة الآية ٨ والآية ٩) .

هل بعد ذلك يمكن القول بأن الاسلام انتشر بالسيف ؟ أو أن الاعلام بالاسلام يتم قسرا ؟ ان الاسلام انتشر بالموعظة الحسنة . والاعلام بالاسلام اعلام بلا اكراه . وهو حق لكل مسلم ومسلمة .

الهــوامش

(١) د. أحمد بدر ــ الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٧٤ ــ دار القلم (الكويت) ــ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٢) د. عبد اللطيف حمزه ــ الاعلام له تاريخه ومذاهبه ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٦٥ ــ دار الفكر العربى ــ ص ٩٣ ، ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) المرجع السابق ــ ص ١٠٠ الى ص ١٠٤ .

(٤) د. مختار التهامى ــ الاعلام والتحول الاشتراكى ــ الطبعــة الأولى ــ ١٩٦٦ دار المعارف ــ ص و خ ز .

(٥) د. عبد اللطيف حمزه ــ الاعلام له تاريخه ومذاهبه ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٦٥ ــ دار الفكر العربى ــ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٦) المرجع السابق ــ ص ١٣٨ .

(٧) وليام ل ــ ريفرز وآخرون ــ ترجمــة ابراهيم امام ــ وسائل الاعلام والمجتمع الحديث ــ دار المعرفة ــ ١٩٧٥ ص ٩٣ .

(٨) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٩) أنظر ص ٥١ ، ص ٥٢ من هذا الكتاب .

(١٠) أحمــد بهــاء الدين ــ أيام بلا تاريخ ــ جريدة الأهــرام ــ ١١/١٠/١٩٧٤ .

(١١) مصطلحات فكرية ــ جريدة الأهرام ــ بتاريخ ٤ــ٣ــ١٩٨٨ .

(١٢)

Tony Bennett-Culture, Society and the Media-Methuen-London and New York 1983 Page 30.

(١٣) د. مختار التهامى ــ الصحافة والسلام العالمى ــ دار المعارف (الطبعة الثانية) ــ ١٩٦٨ ص ٢٥٤ الى ص ٢٥٨ .

(١٤) أنظر العدد ٢٤ مــن مجلة شئون عربيــة مقــال د. عواطف عبد الرحمن بعنوان الصحافة العربية من الاستقلال الى التبعيــة ــ ثم كتابها قضايا التبعية الاعلامية والثقافية فى العالم الثالث سلسلة عالم المعرفة ــ الكويت ــ ١٩٨٤ ثم العدد ٣٨ من مجلة شؤون عربية مقــال د. محمد سيد محمد بعنوان ليست التبعية هى النظرية الاعلامية للوطن العربى ، يونيه ١٩٨٤ .

(١٥) د. ابراهيم امام ــ الاعلام الاســلامى ــ المرحلة الشفهية ــ مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٨٠ ص ١٩ ، ص ٢١ ، ص ٢٢ .

د. منير حجاب ــ نظريات الاعلام الاسلامى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٣٨٠ .

(١٦) أبو الاعلى المودودى ، تفسير سورة النور ، تعريب محمــد عاصم الحداد (بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٧) ص ٨٤ .

الفصل الخامس

أبعاد التنمية

البعد التاريخى للتنمية :

يفسر لنا التاريخ أسباب التخلف بعاملين رئيسيين هما : الاستبداد بمعنى حكم الفرد وتسلطه ، والاستعمار باعتباره أقسى أنواع الاستبداد والقهر • وتبين لنا التنمية ان زحزحة الاستعمار عن كاهل الوطن لابد ان يتبعها القدر الكافى من الحرية ، ومن ممارسة الديمقراطية حتى يمكن للتنمية ان تستمر وتزدهر • فاذا أعقب جلاء المستعمر وصول فرد أو وصول حفنة الى السلطة لفرض الديكتاتورية فشلت جهود التنمية، وأصبحت محصلة التنمية هياكل شبه خربة كأنها أعجاز نخل خاوية •

ويقدم لنا التاريخ صور التخلف نتيجة للاستبداد أقسى من صور التخلف نتيجة للاستعمار • فما فرضه الاستبداد على اليمن قبل الثورة من تخلف أقسى وأمر من التخلف الذى فرضه الاستعمار فى البلدان المجاورة لليمن •

وعندما تبدأ الدول الجديدة ــ عقب استرداد حريتها من براثن الاستعمار أو براثن الاستبداد ــ فى التنمية ، ويصبح همها الأول هو التنمية تواجه بمشكلات لا حصر لها • انها تتسلم خرائب اقتصادية ، وجيف بشرية ، وثقافة وطنية أحرقها الكبت فأصبحت رمادا يغشى العيون كلما هبت عليه ريح •

هذا ما يبرزه البعد التاريخى للتنمية • ان الشعوب التى ناضلت حتى حصلت على استقلالها ، وقفت فى صباح الاستقلال أمام عوائق متراكمة خلفها الاستعمار تجعل عملية التنمية محفوفة بالمكاره • فالى جانب الادارة الضعيفة وندرة الاطارات والكوادر الفنية ، تجد هذه الشعوب النامية ان عليها ان تستورد الآلات والخبرات الفنية والسلع الاستهلاكية حتى رغيف

الخبز وزجاجة اللبن . وان السيطرة الاستعمارية خرجت من الباب لتدخل من النافذة .

بالقرب من الساحل الشرقى لأفريقيا تقع جزر القمر التى يزيد سكانها عن ثلث مليون نسمة قليلا . أعلن هذا الشعب الصغير استقلاله عن فرنسا فى عام ١٩٧٥ . وطلبت فرنسا ان تبقى فى احدى الجزر مع اعلان الاستقلال ، ولكن الشعب الصغير رفض ذلك ، فردت فرنسا عليه بقطع كل مساعداتها المالية والفنية . ماذا حدث لجزر القمر ؟

طافت لجنة من أبناء هذه الدولة المسلمة بالبلاد العربية والاسلامية تستنجد فى أحلك ظروف تواجهها دولة فى العالم (١) ، ولتعلن للعالم انه ليس عندها طبيب واحد ولا ممرضة ، ولا أدوية . حتى الكحول ليس فى البلاد قطرة منه ، المستشفيات خالية ، وكل المدارس الثانوية مغلقة لان البلاد لم يعد فيها مدرسون ، الخزانة خاوية ، الحياة متوقفة ، ليس فى البلاد مطبعة ولا صحيفة ، ولم تعد الطائرات تستطيع الهبوط بسهولة فى المطار لانه لم يعد لديهم فنيون وموظفون لتوجيه الطائرات . لقد أرادت فرنسا ان تلقن هذه الدولة الصغيرة درسا صعبا فسحبت كل المدرسين وخبراء البريد والبرق والمواصلات والطيران والاطباء والمهندسين والزراعيين وكانوا كلهم من الفرنسيين . وقد بلغ الأمر بالمزارعين فى الجبال أنهم لم يجدوا وسيلة لنقل منتجاتهم ففسدت فى مزارعها .

ان هذه الجزر فرض عليها الاستعمار زراعة الزهور لينتج منها عطوره ، وأبقاها فى قاع التخلف فلم تعرف الكهرباء — مثلا — غير العاصمة ، وتضىء الكهرباء ١٠٪ من البيوت الكبرى فقط فى العاصمة ..!

وفى ماليزيا جثم الاستعمار البريطانى طيلة قرن من الزمان . قبل ان تحصل على استقلالها فى العقد السادس من القرن العشرين . «والاستعمار لم يتركها الا بعد ما احدث فيها تشوهات عميقة غيرت من بنيتها وشكلها . يكفى انه دخلها ولا سلطان فيها ، ولا كيان ، الا لشعب الملايو المسلم ، وعندما خرج منها فى سنة ١٩٥٧ ترك فيها شعوبا ثلاثة : الملاويون والصينيون والهنود ، وأصبح سلطان الاسلام يزاحم بالكونفو شيوسية والهندوكية ، وفضلا عن ذلك فقد سلخ منها سنغافورة . التى استقلت لحساب العنصر الصينى .

وبينما تغيرت التركيبة السكانية والجغرافية لبلاد الملايو ، فان الذين قبضوا على مقادير البلاد احدثوا فيها تشوها آخر اعمق وأخطر ، انصب على المجال الاقتصادي ، فقد سيطر الصينيون على كافة المؤسسات المالية والمشروعات الكبرى فى ماليزيا ، بينما غدت قوة العمل بأيدى الهنود ، اما أهل البلاد الملاويون .. فلم يكونوا يملكون فى سنة ٥٧ سوى ٤٪ فقط من ثروة البلاد (طبقا لاحصاء رسمى) بينما النسبة المتبقية « ٩٦٪ » فقد أصبحت فى ايدى الآخرين » (٢) هذا التشويه الاقتصادى والاجتماعى صاحبه سرقة للمواد الخام فماليزيا هى الدولة الأولى فى العالم فى انتاج المطاط . الى جانب انتاجها للأخشاب وزيت النخيل .

كيف استطاع الاستعمار ان يكرس التخلف وان يجعل استقلال الشعوب مغامرة قاسية ؟! .

لقد صور « نكروما » (٣) هذا الموقف بطريقة بلاغية أليمة بقوله : « وحقيقة الوضع ان معظم دولنا الافريقية الجديدة ، تجد نفسها وقد ولدت من رحم الاستعمار مذعورة من عالم الفقر والجهل والمرض ، والافتقار الى الموارد المالية والتقنية التى خلفها الاستعمار ، تتردد فى قطع الشعرة الباقية التى تشدها الى الام الامبريالية التى ولدتها . ويتعزز هذا التردد بما تلقاه من معسول المساعدة التى تمثل الترياق الوقتى الذى يقيها من خطر المجاعة الآنى ، ويبعدها فى الوقت نفسه عن التغذية الكاملة والعظيمة التى تطمح فيها » .

ان المعنى الانسانى لهذه الحقيقة التى أوردها نكروما نلمسه بنظرة الى عمال النظافة فى شوارع باريس أو عمال البناء وما شابه ذلك من الاعمال الشاقة واليدوية فى المدن الفرنسية . انك ستجد هؤلاء العمال فى معظمهم من بلدان المستعمرات الفرنسية . انهم اشقاء المجاهدين الذين قاتلوا الاستعمار الفرنسى حتى أجلوه عن أراضيهم ، وبعد ذلك ذهبوا اليه فى عقر داره يخدمونه وكأنهم لم يطيقوا فراقه ! . اننا نستطيع ان نتصور أسرة جزائرية فى النصف الثانى من القرن العشرين استشهد ثلاثة من ابنائها فى حرب التحرير ، وبقى الرابع لانه كان صغيرا لم يستطيع حمل السلاح ، وبعد عشر سنوات من الاستقلال نجد هذا الرابع قد

حصل على تصريح العمل كمهاجر وكأنه حصل على فرصة عمره • ويسافر الى فرنسا ليعمل بمساعدة بعض أقاربه من العمال هناك حمالا في مصنع للسكر أو منظفا لردهات المترو أو غير ذلك •

ان هذا المثل تجده في لندن مع استبدال الوجه العربي أو الافريقي الذي تطالعه في باريس بوجه هندي أو باكستاني • وليس في ذلك غرابة أو شذوذ • ان الدول النامية التي سلبها الاستعمار خيراتها وحرمهـا التقدم لسنوات طويلة لا تجد لابنائها عملا لكل طالب عمل ، ومن الطبيعي ألا تسد أبواب الرزق أمام ابنائها • وقد يفسر لنا ذلك الموقف الفرحة الوطنية بعودة بعض العمـال الفنيين المغتربين الى أوطانهم مـع بداية المشروعات الصناعية الجديدة واستيعابهم كعمال مهرة •

ان قضية التخلف قضية تاريخية ، وقضية التقدم قضية تاريخيـة أيضا • وكلاهما يرتبط بالاستعمار بشكلية القديم والجديد • ذلك ان الدول الأوربية استطاعت خلال عشرات السنين ان تحدث تنميتها وتقدمها على نار هادئة بسرقة المواد الاولية من البلدان التي استعمرتها ، وبسيطرتها على التجارة الخارجية للمستعمرات ، وجعلها سوقا لمنتجاتها • وبحرمان شعوب المستعمرات من فرص التقدم في الوقت نفسه •

افريقيـا :

ففي أفريقيا مثلا مكنت المشروعات الامبريالية المسـتعمرين مـن استخراج ثروات هائلة من القارة الافريقية في خمسينيات القرن العشرين• فكان نصيبها في اجمالي انتاج العالم الرأسمالي :

٦٠٪ من الماس • ٦٧٪ من الكوبالت • ٦٤٪ من الذهب •

٤٢٪ من المنجنيز • ٢٥٪ من النحاس • ٢٤٪ من اليورانيوم •

بينما كان تطور الصناعة المحلية في غاية الفقر والحرمان •

ولقد كان القصد من انشاء المستعمرات في جملته هو الاستيلاء على ما في هذه المستعمرات من المواد الخام ، ففي سبيل ذلك استخدمت الدول الأوربية الاستعمارية السياسات التالية (٤) •

١ — الحيلولة بين ابناء المستعمرات وبين اكتساب المعرفة الفنية الحديثة التى تعينهم على تنمية صناعاتهم المحلية .

٢ — جعل أبناء المستعمرات منتجين صغارا للمواد الخام فى بلادهم بأرخص الاجور .

٣ — منع المستعمرات من التجارة مع الدول الأخرى الا عن طريق الدولة الاستعمارية .

ولقد كانت دول الاستعمار لا تجيز لمستعمراتها ان تصدر منتجات أو تستورد منتجات من غير الدولة الام ، كما كان محرما على المستعمرات ان تعقد اتفاقيات تجارية أو اقتصادية مع غيرها من الدول دون موافقة الدولة الام ، وليس من حقها انشاء صناعات فى وطنها الا بعد موافقة الدولة الام . وكانت الدولة الام لا تقبل لمستعمراتها ان تنمو صناعيا .

وكانت الاسواق والجرى وراء الاسواق هى هم الاستعمار منذ كانت التجارة الخارجية هى محور النشاط الاقتصادى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر حتى القرن العشرين عندما أصبح الانتاج الكبير قائما على الآلية وعلى البحث المستمر عن منافذ جديدة لتصريف هذا الانتاج ، فنرى « شمبرلن » رئيس وزراء بريطانيا فى أوائل القرن العشرين يقول : ان الامبراطورية هى التجارة ، ولهذا السبب يعلن تمسكه بمستعمراتهم فى الهند واستمرارهم احتلال مصر ، بل ويلح على الحكومة البريطانية ألا تترك فرصة للتوسع فى القارة الافريقية الا واغتنمتها ووسعت مستعمراتها .

ولم يكن الاستعمار عملا عسكريا وحسب ، أو عملا تجاريا وحسب ، وانما كان الاستيلاء الفعلى على الاراضى ، والتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه .. هو عمل الاستعمار .

لقد كان الاتجاه الاساسى فى ملكية الأرض هو ايلولتها الى الأوربيين ، فقد استصدرت بريطانيا تشريعات تخول لها بطريق مباشر أو غير مباشر امتلاك أراضى المستعمرات والمحميات واقتنائها وادارتها . أما الطريقة الفرنسية لمصادرة الأراضى فتختلف من حيث ان الفرنسيين لا يدعون اغتصاب الارض بطريقة قانونية وانما يغتصبونها برمتها اغتصابا

صريحا علنيا • وأدى ذلك الى ظهور طبقة من الملاك الاجانب الذين يعيشون بعيدا عن الأرض وهؤلاء هم المستوطنون الاوربيون وأصحاب الامتيازات • وأقاموا مزارع على النمط الرأسمالى يعمل فيها الاجراء من أبناء العالم الثالث وفق تخصص معين • ذلك التخصص الذى فرض على انتاج الاراضى بحيث يصبح هناك محصول واحد أو محصولان رئيسيان لكل بلد بهدف التصدير ، واجبر الفلاح الافريقى على عدم زراعة المحاصيل الغذائية التقليدية اللازمة للسكان المحليين ، مما ضيق حجم السوق المحلى وجعل الفلاح الافريقى فى النهاية مستوردا لرغيف الخبز • وخضع الانتاج الصغير للفلاحين والحرفيين خضوعا كليا للارادة التعسفية للاحتكارات الأجنبية •

والى جانب هذا النظام الاقتصادى الذى سلب فيه الاستعمار الأرض، وفرض عليها التخصص لمصلحته ، عمد الى سرقة القوة البشرية وسرقة عملها وعرقها • لقد سخرت الاحتكارات مئات الالوف من أبناء العالم الثالث فى تشييد السكك الحديدية والمناجم والموانى بأبخس الاجور ، كما نهبت السكان المحليين عن طريق فرض الضرائب ، وقد كانت هذه الضرائب والسخرة من المصادر الهامة لرأس المال • وبتجريد البلاد فى العالم الثالث من شروط التطور الاقتصادى المستقر تحولت هذه البلاد الى مجرد مورد للمواد الخام ، أما التنمية فقد تركزت فى فروع قليلة من الاقتصاد وهى المناجم والسكك الحديدية وبناء الموانى والمشروعات التحويلية أساسا •

آسيا :

وفى آسيا مثل مشابه فقد وضع « كوين » القائد الهولندى الذى غزا جاكرتا المبدأ الذى أقيمت على أساسه سياسة الاستعمار الهولندى لأندونيسيا بقوله :

« الا يستطيع أى رجل فى أوربا ان يفعل بماشيته ما يشاء ، هكذا يفعل السيد هنا برجاله الذين يعتبرون بكل ما يملكون ملكا خاصا للسيد شأنهم فى ذلك شأن البهائم فى الأراضى المنخفضة » •

ولقد كان الاستعمار الهولندى يعرف هدفه وهو الاستغلال ويحدده بدقة . ويغير أساليبه طبقا للمراحل الاستعمارية المختلفة . لقد كان ــ مثلا ــ مرسوم الشركة الهولندية المسماة بشركة الهند الشرقية المتحدة والتى تأسست سنة ١٦٥٢ يمنح الشركة ليس فقط احتكار التجارة بل يخولها سلطات السيادة العليا لعقد المعاهدات وفتح ما تشاء من الأراضى وبناء الحصون . وبرغم ان الشركة حصلت على النفوذ الاعلى فى شئون التجارة الا انها لم تمارس شئون الحكم والسيادة بادىء الامر ، ولذلك عارض مجلس مديرى الشركة ممثلها فى جزيرة سيلان اقتراحه بتولى الشركة السيادة على جزيرة سيلان وقالوا له ، بصراحة ، ان هذا العمل قد يقدم عليه ملك عظيم طموح ، ولكنه ليس عمل تجار لا يبحثون الا عن الارباح . ومع ذلك فان تغييرا اساسيا قد طرأ فيما بعد هذه السياسة عندما وجد الهولنديون ان الاستغلال الامثل ممثلا فى الاحتلال وتملك الأراضى بصورة مباشرة اربح من التجارة ، فقد اتبعت الشركة نظام دفع الاموال مقدما عن المحاصيل فتهيأ لها بذلك أن تنتزع الأراضى من أيدى ملاكها فى جزر « باندا » و « أمبوينا » الاندونيسية ، واحتكرت بيع الحبوب لهم بأسعار فاحشة مما حطم اقتصاد هذه البلاد .

هذا التحول من الاستعمار التجارى الى الاستعمار الاستثمارى ، ومن التجارة الى نظام الضياع الكبرى أتاح للهولنديين الاستغلال الفاحش للعمال ، والتحكم الشديد فى اقتصاد هذه المستعمرات . حتى ان حساب الشركة الهولندية للهند الشرقية (٥) فى القرن السابع عشر من ١٦٤٨ الى ١٦٥٠ يبين أن ما كان يساوى ٦٫٢٥٧٫٠٠٠ فلورين شراء فى آسيا ، كان يساوى ١٧٫٧٦٠٫٠٠٠ بيعا فى امستردام .

« ومن أغرب ماروى فى تاريخ البشر من القسوة والظلم ، أن الانجليز أوقعوا فى بنغال (الهند) مجاعة مزورة غير طبيعية ، لأنهم منعوا استعمال القوارب التى يحصد الناس عليها مزارع الأرز ــ وهو غذاء بنغال ــ واحتكروا الحبوب فى مقدار عظيم للجند ، ولم يمكنوا الناس منها حتى فسدت وضاعت ، ومات مئات من الناس جوعا ، والحبوب وفيرة فى البلاد ، والمواصلات ميسورة ، والقطر غادية رائحة ، والهند بلاد مخصبة تستطيع أن تغذى بلادا أخرى . وذلك كله لما توقعوا من اقبال الناس

على التجند ، وليبرهنوا على فشل الحكم الذاتى فى ادارة البلاد (٦) » .

أمريكا اللاتينية :

وتواجهنا الظروف نفسها فى أمريكا اللاتينية . لقد فاقت « هاييتى » « جاوه » و « سيلان » فى تأثرها بشرور الاستعمار . فقد استولى عليها الفرنسيون بعد ان اكتشفها كولمبس . ولم يكن هؤلاء الفرنسيون يتلقون أية تعليمات من باريس ، ولكنهم كانوا من القراصنة والمغامرين . وكان هؤلاء المغتصبون يقنعون أنفسهم بأن العناية الالهية بعثت بهم لكى يحتلوا مركزا متميزا فى الأرض الغربية التى استوطنوا فيها .

وكانت السلطات البرتغالية تحذو فى مستعمراتها فى أمريكا اللاتينية حذو بريطانيا فى استراليا . وذلك باعتبار هذه المستعمرات مستودعا للاشخاص غير المرغوب فيهم من بلدانهم الاصلية ، وعلى وجه الخصوص المجرمين واليهود (٧) الذين ازداد عددهم نتيجة لتدفق وصولهم الجبرى فى هيئة بحارة تحطمت سفينتهم .. !

وقام الاسبان فى امريكا اللاتينية بما قام به الفرنسيون فى شمال أفريقيا . لقد أهملت الطرق التى شيدها الوطنيون عن عمد ، لان اسبانيا كانت تريد تقسيم المستعمرات وحكمها على اساس المبدأ الاستعمارى المعروف فرق تسد . ولهذا جعلت المواصلات والطرق تمتد من الداخل الى الساحل ، ومن الساحل الى الوطن الام . انه نفس الاسلوب الفرنسى فى شمال أفريقيا . لقد كان المسافر من القاهرة الى الجزائر يطير الى باريس أولا ، وكان قصد الاستعمار فى الحالتين هو تفتيت الوحدة القومية ، وخلق منازعات على الحدود عندما يرحل عن هذه البلدان .

ومع بروز وتعاظم تدخل الولايات المتحدة الأمريكية فى أمريكا اللاتينية مع بداية القرن العشرين حل الاستغلال الامريكى محل الشكل الأوربى التقليدى للاستعمار ، وساعدت ظروف الحرب العالمية الأولى وما أصاب أوربا فيها على ازدياد نفوذ الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية ، وأصبح الوجه الامريكى للاستقلال بديلا عن الوجه الأوربى ، فقد تزايدت التجارة مع الولايات المتحدة وارتفعت نسبتها فى بعض الدول — مثل كولومبيا وجواتيما لا — الى ٨٠٪ أو أكثر ، سواء بالنسبة

للواردات ، أو الصادرات ، وكان من المعتاد رؤية سفن الولايات المتحدة التى تحمل اعلاما تتلاءم مع الظروف — مثل علم بنما مثلا — وهى تجوب موانى أمريكا اللاتينية • وكان الطيران بين الدول الأمريكية فى أيدى شركتى « بان أمريكان » و « باناجرا » وهما شركتان أمريكتيان • وقد سيطرت الشركات الامريكية مثل استاندارد أويل • وشركة الفواكه المتحدة ، وشركة براون للنحاس على مناطق شاسعة وأقطار بأجمعها • وعبر الطرق المشيدة حديثا كان من المعتاد رؤية العربات والقاطرات والاوتوبيسات الفورد والشيفروليه أكثر من غيرها ، وكانت القطارات وعربات الترام القديمة فقط لاتزال بريطانية (٨) •

ان نماذج الاستعمار فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية •• ونماذج التطور من الاستنزاف التجارى الى الاستعمار الاستيطانى ، والنماذج الأوربية ثم الأمريكية تثبت ان الاستعمار ملة واحدة ، وان تعددت أشكاله ومظاهره •

وقبل أن تغادر قوات الاستعمار أراضى المستعمرات مقهورة أمام حركات التحرر الوطنى كان الاستعمار قد فتح نافذة أو نوافذ يدخل منها بعد خروجه من الباب • وقد استند الاستعمار الجديد الى مبدئه القديم المعروف فرق تسد ، وطبقه عمليا بتفتيت المناطق المستعمرة التى كانت موحدة من قبل الى عدد من الدول الصغيرة الفاقدة لمقومات الحياة ، والعاجزة عن التطور بصورة مستقلة مما يرغمها على الاعتماد على الدولة الاستعمارية السابقة ، وبخاصة فى نظامها الاقتصادى • فأفريقيا الغربية تضم تسع عشرة دولة مستقلة منفصلة عن غيرها • وباستثناء نيجيريا فان كل دولة من هذه الدول يتراوح تعداد سكانها بين مليونين وثلاثة ملايين من السكان •

وعندما يذكر البعد التاريخى للتنمية يرى بعض الباحثين المحايدين ان الاستعمار اسهم فى انشاء المدن الكبيرة فى المستعمرات ، وفى نشر المسيحية وفى نشر الثقافة الاوربية ، وفى اقامة طرق وسكك حديدية وموانىء • كما ساهم فى نقل أنواع من المحاصيل الى المستعمرات لم تكن تعرفها من قبل • وحيوانات وآلات لم تشاهدها المستعمرات الا على أيدى المستعمرين •

واذا أخـذنا هذا الرأى بحياد وموضوعية فاننا ينبغى ان نعترف بذلك •• ولكنه لم يكن لمصلحة السكان الاصليين ، بل انه لم يحقق لهم فائدة مباشرة أو غير مباشرة •

كان انشاء المدن الكبيرة يتم بصورة عنصرية تستفز مشاعر الوطنيين وتهدم انسانيتهم • فقد كانت المدينة يقسمها شارع يفصل بين سـكنى المستعمرين النظيف الصحى وسكنى الوطنيين المحرومين من مقومات المرافق والخدمات ، وكان محظورا على ابناء البلد السكن فى الحى الافرنجى ؛ بل كان الحظر عليهم يصل الى حد حرمانهم من دخول هذه الاحيـاء الا كخدم وعمال نظافة •

وكان نشر المسيحية ليس خالصا لوجه الدين فكثيرا ما كانت شهوة الحصول على الذهب من المستعمرات تتملك نفوس المبشرين ، كما كان صرف بعض أبناء المستعمرات عن دينهم هدفا لتدمير مقومات المقاومة ، وكان بث الفرقة الدينية والفتن الطائفية سلاحا للاستعمار ، وبابا للتدخل ومد بقائه بحجة حماية الاقليات •

وكان نشر الثقافة الاوربية ستارا للقضاء على مقومات الشـخصية الوطنية وتراث شعوب المستعمرات ولغاتها • ولم يكن انتشار الاسبانية فى أمريكا اللاتينية والفرنسية فى أفريقيا والانجليزية فى الهند الا بمحاولة الاستعمار القضاء على اللغات القوميـة فى تلك البلدان • ومحـاولة الاستعمار اعدام التراث القومى والحضارى لهذه البلدان •

وكان انشاء الموانى والسكك الحديدية والطرق قاصرا على خـدمة مصالح المستعمر لنقل المواد الخام الى الوطن الام ، ونقل المواد الصناعية الى أسواق المستعمرات •

أما نقل المحاصيل والنباتات والحيوانات من مكان الى آخر نتيجة لحركة الاستعمار فتلك حركة متعادلة ، لقد نقل الاوربيون مثلا الى أمريكا اللاتينية الحيوانات المستأنسة والحبوب الاوربية • وأعطى المكسيكيون أوربا الذرة والطماطم وغيرها • والآلات التى شهدتها المستعمرات لم تكن للاستخدام الشعبى وانما كانت لخدمة مصالح السيد الابيض ورفاهيته •

ان الاستعمار يطور أساليبه وأشكاله بصفة دائمة لان الاستعمار فى جوهره عملية استغلال ، ومن ثم فهو يغير من اساليبه أمام المتغيرات التى تحدثها حركات التحرر والاستغلال • ولعل مبدأ المشاركة الذى تعرضه شركات البترول الاحتكارية الان على العرب صورة من هذا القبيل ، ولكن هذه المشاركة ، أسلوب من أساليب الاستعمار الجديد فى الاستغلال قد طرحها من قبل فى تاريخ الاقتصاد المصرى الاستعمار القديم أمام جهود المصريين فى انشاء بنك وطنى • والاستعمار عندما يحبذ طرح المشاركة كعمل وطنى يريد ان يستمر عرق الاستغلال نابضا وحيا بالنسبة لـه •

ان أول العوائق أمام التنمية فى الدول النامية • هو موقف الدول الغنية ورغبتها الدائمة فى ان تبقى الدول المتخلفة تحت وطأة التخلف ، لأن التناقض أساسى بين رفاهيتها على قاعدة الاستغلال المستمر وبين خروج الدول النامية من طوق الاستغلال •

ان كل الامثلة التاريخية تؤكد ذلك • ونسوق مثلا أفريقيا يبين جبروت الدول الغنية فى احكام طوق الاستغلال حول رقبة الدول النامية ، ونبدأ بأفريقيا لأنه لا يكاد يذكر الاستعمار الا وتذكر معه أفريقيا ،لأن هذه القارة لقيت النصيب الاكبر من نهب الاستعمار ، لقد كانت مخزنا لصيد العبيد(٩) واجبارهم على العمـل فى القـارة الامريكية لزراعة المزارع الواسعة ، ثم صارت على يد الاستعمار أيضا مخزنا للمواد الأولية يمكن سرقته ، كما صارت فى الوقت نفسه سوقا لمنتجات الاحتكارات العالمية • وهذا المثل الذى يجسد تطوير الاستعمار الجديد لاساليبه فى الاستغلال ضربه لنا نكروما فى كتابه الاستعمار الجديد • وقد ضرب لنا نكروما (١٠) المثل بغانا ونيجيريا ، عندما تمكنت كل منهما بعد الاستقلال من زيادة انتاجها من الكاكاو زيادة هائلة وعادت من هذا كله بخفى حنين ، كما يقول المثل العربى •• ! « لقد بذلت كل من هاتين الدولتين جهودا مضنية فى سبيل زيادة انتاجها من الكاكاو ، ولم تتحقق بطبيعة الحال هذه الزيادة بمحض الصدفة ، وانما كانت ثمرة اتفاق داخلى ضخم على مكافحـة الآفات واوبئة الزراعة ، وعلى تمويل حصول الزراعيين على العقاقير التى تستخدم فى استئصال الحشرات وأدوات الرش ، وعلى اسـتيراد

أنواع جديدة من بذور الكاكاو التى تقاوم الاوبئة المستوطنة التى تأصلت فى أشجار الكاكاو القديمة •

ولكن ما هى الفائدة التى حققتها نيجيريا أو غانا من هذه الزيادة الهائلة فى طاقاتها الانتاجية الزراعية ؟ كانت مكاسب غانا من محصول الكاكاو فى عام ١٩٤٥ ، أى عندما كانت تنتج ما يقرب من ٢١٠ آلاف طن ، خمسة وثمانين مليونا ونصف المليون من الجنيهات • وارتفع الانتاج فى عام ١٩٦٤ — ١٩٦٥ الى ٥٩٠ ألف طن • بينما هبطت المكاسب فى ذلك العام الى سبعة وسبعين مليونا • وعانت نيجيريا من تجربة مماثلة ، فقد أنتجت فى عام ١٩٥٤ — ١٩٥٥ نحوا من ٨٩ ألف طن كسبت منها نحوا من تسعة وثلاثين مليونا وربع المليون من الجنيهات • وبعد مضى خمس سنوات قدر الانتاج بنحو ٣١٠ آلاف طن ، بيع بأربعين مليونا من الجنيهات • وتعنى هذه الأرقام بصورة أخرى أن انتاج غانا ونيجيريا بلغ ثلاثة أضعاف ما كان عليه من هذا المحصول الزراعى ، بينما هبط مجموع الدخل من ١٢٥ مليون جنيه الى ١١٧ مليونا •

وفى تاريخ الاقتصاد المصرى نرى نفس الصورة مع الاستعمار • كانت مساحة الأرض المنزرعة قطنا فى مصر عام ١٨٧١ نصف مليون فدان ، أنتجت من القطن ثلاثة ملايين وربع مليون قنطار ، بيعت بثمانية ملايين وربع مليون جنيه • وفى عام ١٨٩٨ بعد الاحتلال زادت مساحة الأرض المنزرعة بالقطن ، وبلغ انتاجها ٦ ملايين قنطار ، بيعت بثمانية ملايين ونصف مليون جنيه • أى ضعف القطن بنفس الثمن تقريبا ، لأن الانجليز عمدوا الى الاستيلاء على القطن بأرخص الأسعار •

وفى تاريخ الاستعمار الهولندى لأندونيسيا نجد مثلا آخر ، يبين لنا كيف يغير الاستعمار أساليبه وحيله ، لاستنزاف الشعوب المستعمرة •

لقد اتسم رجال الاستعمار الهولندى فى أندونيسيا بالتدمير والجرائم ، فقد حولوا الفلاحين الأحرار الى عمال أرقاء فى المزارع ، وعندما وجدوا أن انتاج القرنفل فى « أمبوينا » و « باندا » و « مولوكا » يزيد على ما يحتاجه العالم فرضوا تحويل بساتين القرنفل الى حقول أرز والى مزارع لزراعة أشجار « الساجو » وهو غذاء أضعف قيمة من الأرز • ثم صدر الأرز وأجبر الناس على الاقتصار على «الساجو» فمات الكثيرون من اعتمادهم على هذا الطعام بدلا من الأرز •

وعندما أصبح مشروب البن شائعا فى أوربا وصار سعره غاليا فى أسواق العالم فرضوا الاستغلال على المزارعين ، فكان المنتجون يسلمون من ٢٤٠ الى ٢٢٠ رطلا للشركة مقابل ثمن ١٢٥ رطلا ، وبعد اجـراء تخفيضات لأسباب وذرائع مختلفة لا يصل الى جيب المزارع الاندونيسى الا ثمن ١٤ رطلا .

يثبت التاريخ أن الأوربيين فى فترة الفجور الاستعمارى كانوا اقواما متوحشة .

ان مثل هذه الصور القاسـية تبرزها التجربة التاريخية ولـكن الملح فى صبيحة الاستقلال أمام الشعوب وقادتها هو أى اسـلوب للتنمية ينبغى أن نختار ؟ .

ان هذا السؤال هو الاختيار الأساسى للمستقبل ، فعلى ضـوء الاجابة عليه يتحتم تقرير هيكل الاقتصاد ، ومصير العلاقات الاجتماعية ، ونمط الحياة الثقافية للمجتمع .

ولسنا بصدد الوصاية على الشعوب لنحدد لها مستقبلها ، ونختـار لها تنمية رأسمالية أو تنمية اشتراكية أو تنمية مختلطة ، ولسنا بصدد التعصب لمذهب اقتصادى معين ، ولكن علينا ان نؤكد أن الظـروف الموضوعية لكل شعب لابد وأن تؤدى الى شكل محـدد من أشـكال التنمية . وأن هذا الشكل لم يتكون من فراغ وانما فرضه الواقع . وكلما كان الاختيار متوافقا مع حركة التاريخ ، وظروف المجتمع ، كلما أمكن تحقيق التقدم . وان كان مخالفا لحركة التاريخ ومغفلا ظـروف المجتمع أصبح التقدم مستحيلا .

واذا كنا قد أفلتنا من اقحام أنفسنا فى الاختيار للشعوب طريقها ، ومن الدعوة لنظام اقتصادى معين ، فاننا لا نستطيع أن نفلت من مناقشة التجربة المصرية فى هذا المجال والنظر فيها بشىء من التفصيل .

اذا عدنا الى الميثاق كدليل عمل للتنمية فى مصر . ثم ورقة أكتوبر باعتبارها محاولة لتصحيح سلبيات ما قبلها ، لوجدنا صورة لتجـربة التنمية المصرية كتجربة رائدة فى العالم الثالث . ولنبدأ بالجانب الفلسفى فى اختيار الطريق الاشتراكى أساسا للتنمية ، كما أورده الميثاق :

« ان الحل الاشتراكى لمشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى مصر ، وصولا ثوريا الى التقدم ، لم يكن افتراضا قائما على الانتقاء الاختيارى ، وانما كان الحل الاشتراكى حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير ، كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين •

ان التجارب الرأسمالية فى التقدم تلازمت تلازما كاملا مع الاستعمار فلقد وصلت بلدان العالم الرأسمالى الى مرحلة الانطلاق الاقتصادى على أساس الاستثمارات التى حصلت عليها من مستعمراتها وكانت ثروة الهند التى نزح الاستعمار البريطانى النصيب الأكبر منها هى بداية تكوين المدخرات البريطانية التى استعملت فى تطوير الزراعة والصناعة فى بريطانيا • واذا كانت بريطانيا قد وصلت الى مرحلة الانطلاق اعتمادا على صناعة النسيج فى لانكشير فان تحويل مصر الى حقل كبير لزراعة القطن كان شريانا متصلا ينقل الدم الى قلب الاقتصاد البريطانى على حساب جوع الفلاح المصرى •

ان عصور القرصنة الاستعمارية التى جرى فيها نهب ثروات الشعوب لصالح غيرها بلا وازع من القانون أو الأخلاق قد مضى عهدها ، وينبغى القضاء على ما تبقى من ذكريات لها ما زالت فيها بقية من الحياة خصوصا فى أفريقيا .

كذلك فان هناك تجارب أخرى للتقدم حققت أهدافها على حساب زيادة شقاء الشعب العامل واستغلاله ، اما لصالح رأس المال ، أو تحت ضغط تطبيقات مذهبية ، مضت الى حد التضحية الكاملة بأجيال حية ، فى سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة .

ان طبيعة العصر لم تعد تسمح بشىء من ذلك • ان التقدم عن طريق النهب أو التقدم عن طريق السخرة لم يعد أمرا محتملا فى ظل القيم الانسانية الجديدة • ان هذه القيم الانسانية أسقطت الاستعمار • كما أن هذه القيم أسقطت السخرة • ولم تكتف هذه القيم الانسانية باسقاط هذين المنهجين وانما كانت ايجابية فى تعبيرها عن روح العصر ومثله العليا حين فتحت بالعلم مناهج أخرى للعمل من أجل التقدم •

ان الاشتراكية العلمية هي الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم • ان أي منهاج آخر لا يستطيع بالقطع أن يحقق التقدم المنشود ، والذين ينادون بترك الحرية لرأس المال ويتصورون أن ذلك طريقا الى التقدم يقعون في خطأ فادح . ان رأس المال في تطوره الطبيعي في البلاد التي أرغمت على التخلف لم يعد قادرا على أن يقود الانطلاق الاقتصادي في زمن نمت فيه الاحتكارات الرأسمالية الكبرى في البلدان المتقدمة اعتمادا على استغلال موارد الثروة في المستعمرات .

ان نمو الاحتكارات العالمية الضخم لم يترك الا سبيلين للرأسمالية المحلية في البلاد المتطلعة الى التقدم : أولهما • أنها لم تعد تقدر على المنافسة الا من وراء أسوار الحمايات الجمركية العالية التي تدفعها الجماهير • وثانيهما — أن الأمل الوحيد لها في النمو هو أن تربط نفسها بحركة الاحتكارات العالمية ، وتقتفي أثرها ، وتتحول الى ذيل لها ، وتجر أوطانها وراءها الى هذه الهاوية الخطيرة •

ومن ناحية أخرى فان اتساع مسافة التخلف في العالم بين السابقين والذين يحاولون اللحاق بهم لم تعد تسمح بأن يترك منهاج التقدم للجهود الفردية العفوية التي لا يحركها غير دافع الربح الأناني •

ان هذه الجهود بالتأكيد لم تعد قادرة على مواجهة التحدي ، ان مواجهة التحدي لا يمكن أن تتم الا بثلاثة شروط :

١ — تجميع المدخرات الوطنية • ٢ — وضع كل خبرات العلم الحديث في خدمة استثمار هذه المدخرات • ٣ — وضع تخطيط شامل لعملية الانتاج •

ومن الناحية الأخرى المقابلة لجانب زيادة الانتاج ، وهي ناحية عدالة التوزيع ، فان الأمر يقتضي وضع برامج شاملة للعمل الاجتماعي تعود بخيرات العمل الاقتصادي ونتائجه على الجموع الشعبية العاملة . وتصنع لها مجتمع الرفاهية الذي تتطلع اليه وتكافح لكي يقترب يومه » •

بعد أن أوضح الميثاق الجانب الفلسفي أو الجانب النظري لاختيار سبيل معين للتنمية دخل مباشرة في تصوره للجانب التطبيقي • واذا أمعنا النظر في الجانب التطبيقي وجدنا تحديدا أكثر للجانب النظري واطارا واضحا لمفهوم الطريق الاشتراكي المصري للتنمية • انك بعد أن تقرأ

تصور الجانب التطبيقى تدرك على الفور أن حوارا عقائديا يمكن أن ينشب بين الاشتراكيين العلميين أقصد « الماركسيين » وبين الميثاقيين المصريين • ان الاختلاف واضح فى عدة أمور جوهرية وهى اعتماد التنمية المصرية على كافة القوى الاجتماعية لا على الطبقة العاملة وحدها • وان البدء بالصناعات الثقيلة وربط الحزام لسنوات طويلة غير وارد • وان توزيع الفائض يقتضى وضع برامج شاملة للعمل الاجتماعى ، يعود بخيرات العمل الاقتصادى ونتائجه على الجموع الشعبية العاملة وليس احتكارا لطبقة واحدة . ثم بقاء حق الارث وكذلك العمل على تذويب الفوارق بين الطبقات وغير ذلك من أوجه الاختلاف .

والأمر مع « الليبراليين » وهم دعاة الحرية الفردية أو محبذى الرأسمالية أيسر فى وضوح الخلاف بينهم وبين الميثاقيين المصريين • ولعل ذلك بسبب اللهجة أو النبرة العالية التى اتخذها الميثاق فى الهجوم عليهم برغم أنه يأخذ ببعض ما عندهم فى التنمية •

ولقد بدأ تصور الميثاق للجانب التطبيقى برفض ترك التنمية لعفوية رأس المال الخاص ، ورفضه ترك توزيع فائض العمل الوطنى توزيعا عادلا للتطوع القائم على حسن النية • وخلص من ذلك الى نتيجة رآها محققة هى ضرورة سيطرة الشعب على كل أدوات الانتاج ، وتوجيه فائضها طبقا لخطة محددة •

ولكن الميثاق أراد أن يكون أكثر تحديدا فذهب الى القول « بأن سيطرة الشعب على كل أدوات الانتاج لا تستلزم تأميم كل وسائل الانتاج، ولا تلغى الملكية الخاصة ، ولا تمس حق الارث الشرعى المترتب عليها ، وانما يمكن الوصول اليها بطريقتين :

أولهما — خلق قطاع عام قادر يقود التقدم فى جميع المجالات ويتحمل المسئولية الرئيسية فى خطة التنمية •

وثانيهما — وجود قطاع خاص يشارك فى التنمية فى اطار الخطة الشاملة لها من غير استغلال •

على أن تكون رقابة الشعب شاملة للقطاعين ، مسيطرة عليهما معا ».

ومن هنا تبرز بوضوح شديد فكرة الاقتصاد المختلط القـائم على دعامتين . ولكن الميثاق لا يريد أن تتوه الأدوار بين الدعامتين المتمثلتين فى القطاعين : العام ، والخاص ، فيشير الى التخطيط الاشتراكى كوسيلة لتحديد دور كل قطاع ، بل ان التخطيط فى نظر الميثاق ينبغى أن يكون عملية خلق علمى منظم يجيب على جميع التحديات التى تواجه مجتمعنا ، فهو ليس مجرد عملية حساب الممكن ، لكنه عملية تحقيق الأمل .

ويطالب الميثاق التخطيط فى مجتمعنا بأن يجد حلا للمعادلة الصعبة التى يكمن فى حلها نجاح العمل الوطنى ماديا وانسانيا . هـذه المعادلة هى : كيف يمكن أن نزيد الانتاج ؟ وفى نفس الوقت نزيد الاستهلاك فى السلع والخدمات ؟ هذا مع اسـتمرار التزايد فى المدخرات من أجـل الاستثمارات الجديدة ؟ .

يجيب الميثاق بأن هذه المعادلة الصعبة ذات الشعب الثلاث الحيوية تتطلب ايجاد تنظيم له كفاية وقدرة تستطيع تعبئة القوى المنتجـة ورفع كفايتها ماديا وفكريا وربطها بعملية الانتاج .

ان هذا التنظيم مطالب بأن يدرك أن غاية الانتاج هى توسيع نطاق الخدمات ، وأن الخدمات بدورها قوة دافعة لعجلات الانتاج . وأن الصلة بين الانتاج والخدمات وسرعتها وسهولة جريانها ، تصنع دورة دموية صحية لحياة الشعب ولحياة كل انسان فرد فيه . « ان هذا التنظيم لابد له أن يعتمد على مركزية فى التخطيط ، وعلى لا مركزية فى التنفيذ . تكفل وضع برنامج الخطة فى يد كل جموع الشعب وأفراده » . ويرى الميثاق نتيجة لذلك أنه يجب أن يقع النصيب الأكبر من خطة التنمية على كاهل القطاع العام . ثم يجمل الخطوط والحدود التى يتصورها للقطاعين العام والخاص فى خمس مجالات هى :

اولا — فى مجال الانتاج عموما : يجب أن تكون الهياكل الرئيسية لعملية الانتاج ، كالسكك الحديدية والطرق والموانىء والمطارات وطاقات القوى المحركة والسدود ووسائل النقل البحرى والبرى والجوى وغيرها من المرافق العامة ، فى نطاق الملكية العامة للشعب .

ثانيا — فى مجال الصناعة : يجب أن تكون الصناعات الثقيلة والمتوسطة والصناعات التعدينية فى غالبيتها داخلة فى اطار الملكية العامة للشعب . واذا كان من الممكن أن يسمح بالملكية الخاصة فى هذا المجال ، فان هذه الملكية الخاصة يجب أن تكون تحت سيطرة القطاع العام المملوك للشعب وفى ظله . ويجب أن تظل الصناعات الخفيفة بمنأى دائما عن الاحتكار . واذا كانت الملكية الخاصة مفتوحة فى مجالها فان القطاع العام يجب أن يحتفظ بدور فيها ، يمكنه من التوجيه لصالح الشعب .

ثالثا — فى مجال التجارة : يجب أن تكون التجارة الخارجية تحت الاشراف الكامل للشعب ، وفى هذا المجال فان تجارة الاستيراد يجب أن تكون كلها فى اطار القطاع العام ، وان كان من واجب رأس المال الخاص أن يشارك فى تجارة الصادرات وفى هذا المجال فان القطاع العام لابد أن تكون له الغالبية فى تجارة هذه الصادرات ، منعا لاحتمالات التلاعب . واذا جاز تحديد نسب فى هذا النطاق فان القطاع العام لابد له أن يتحمل عبء ثلاثة أرباع الصادرات ، مشجعا للقطاع الخاص على تحمل مسئولية الجزء الباقى منها .

يجب أن يكون للقطاع العام دور فى التجارة الداخلية ، ولابد للقطاع العام على مدى السنوات الثمانى القادمة ، وهى المدة المتبقية من الخطة الأولى للتنمية الشاملة من أجل مضاعفة الدخل فى عشر سنوات ، أن يتحمل مسئولية ربع التجارة الداخلية على الأقل منعا للاحتكار ليفسح مجالا واسعا فى ميدان التجارة الداخلية للنشاط الخاص والتعاونى ، على أن يكون مفهوما بالطبع أن التجارة الداخلية خدمة وتوزيع ، مقابل ربح معقول ، لا يصل الى حد الاستغلال تحت أى ظرف من الظروف .

رابعا — فى مجال المال : يجب أن تكون المصارف فى اطار الملكية العامة ، فان المال وظيفة وطنية لا تترك للمضاربة أو المغامرة . كذلك فان شركات التأمين لابد أن تكون فى نفس اطار الملكية العامة ، صيانة لجزء كبير من المدخرات الوطنية ، وضمانا لحسن توجيهها والحفاظ عليها .

خامسا — فى المجال العقارى : يجب أن تكون هناك تفرقة واضحة بين نوعين من الملكية الخاصة : ملكية مستغلة ، أو تفتح الباب للاستغلال ، وملكية غير مستغلة ، تؤدى دورها فى خدمة الاقتصاد الوطنى كما تؤديه فى خدمة أصحابها » .

ويعود الميثاق الى تأكيد عدم الغاء دور القطاع الخاص بل ويذهب الى الاعتراف بحقه فى حماية الدولة له بقوله : « ان القطاع الخاص له دوره الفعال فى خطة التنمية من أجل التقدم ، ولابد من الحماية التى تكفل له أداء دوره • والقطاع الخاص الآن مطالب بأن يجدد نفسه ، وبأن يشق لعمله طريقا من الجهد الخلاق لا يعتمد كما كان فى الماضى على الاستغلال الطفيلى » •

ويخلص الميثاق فى نهاية الأمر الى نقطة جوهرية هى أن الطريق الاشتراكى — كما رسمه الميثاق — يتيح فرص حل الصراع الطبقى سلميا ، بما يتيح من تذويب الفوارق بين الطبقات ، وبتوزيع عائد العمل على كل الشعب طبقا لمبدأ تكافؤ الفرص •

وعندما نضع كل ما تصوره الميثاق وذكره عن الطريق الاشتراكى المصرى للتنمية على مائدة الاقتصاد نجد أنه تعبير عن الاقتصاد المختلط • ومن ثم نحكم على التنمية المصرية بأنها تنمية مختلطة •

يبقى بعد ذلك سؤال لابد وأن يطرح نفسه • ومن هذا السؤال ، وهو ما مدى التناقض بين الميثاق وبين ما حدث فعلا وأسبابه ؟ تأتى العلة وراء عديد من الأسئلة والانتقادات التى توجه الى تجربة التنمية المصرية ، فى المرحلة الناصرية •

ان اجابة هذا السؤال هى أخطاء التطبيق التى وصلت فى بعض الأحيان الى درجة الخطايا المركبة • ويوم تفتح ملفات هذه الخطايا وتعرض وتناقش ستستفيد التنمية والاعلام قدر ما تستفيد الديمقراطية من التجارب المريرة •

ان الممارسة الديمقراطية ضرورية لنجاح التنمية ، وقد اخفقت التنمية المصرية بقدر ما كبتت الحرية وتبوأ الاستبداد • ونجحت بقدر ما أتيح للديمقراطية أن تترعرع •

ولقد عبرت ورقة أكتوبر التى قدمها الرئيس السادات كوثيقة سياسية للشعب المصرى فى أبريل عام ١٩٧٤ عن تغيير الواقع المصرى بعد انتصار أكتوبر ١٩٧٣ ، وهى وثيقة هامة لأنها مراجعة للتجربة برمتها فى جانبيها الفلسفى والتطبيقى وعندما نعرض للجانب الفلسفى ، فان أول ما أكدته

هذه الوثيقة هو أهمية الاستفادة من حركة المد التاريخى الذى صاحب انتصار أكتوبر فى التنمية بقولها : « علينا أن نستخدم التعبئة الشاملة لكل القوى الوطنية على اختلاف منابعها الفكرية ومواقعها الاجتماعية ، لنخوض حربا فاصلة ضد بقايا التخلف ، ونبدأ فى أسرع وقت مرحلة الانطلاق » •

وعندما تناولت هذه الوثيقة من مواثيق ثورة ٢٣ يوليو تحليل الواقع المصرى تحت عنوان معالم على الطريق ، أكدت أن مصر عاشت قرونا طويلة يحكمها نظامان ثابتان وان اختلفت الوجوه والمظاهر : نظام اقطاعى ، ونظام استعمارى ، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية • وبرغم الثورات والانتفاضات الوطنية المتوالية ، الا أن هذين النظامين بقيا بشكل أو بآخر يحددان نوع العلاقات الاجتماعية فى مصر ، ونمط النشاط الاقتصادى فيها • وأى أيدى يتركز فيها الثراء الناتج من عرق الشعب بأكمله ، وحظ أبنائها المحدود فى توجيه سياسة بلادهم • وقد كان هناك على الدوام نضال وطنى حاد لم ينقطع • ولكن مصر مع ذلك دخلت النصف الثانى من القرن العشرين وقد بدا أن الطرق أمامها والحريات السياسية شكلية ، والمشاكل الاجتماعية تتفاقم ازاء تزايد السكان وتعاظم التطلعات وعدم وجود أى تفكير فى التنمية ، والأحزاب التقليدية عاجزة عن استيعاب الأفكار الجديدة • وتشكيل أى حكومة مصرية أو سقوطها رهن برغبة السفير البريطانى • وكان لابد أن تهب النزعات المتطرفة فى كل اتجاه ، وأن تقع انقسامات خطيرة فى صفوف الشعب ، تهدد بتمزق حاد فى نسيجه الوطنى •

وقامت ثورة ٢٣ يوليو تكسر الحلقة المفرغة • وتوالت الاجراءات التاريخية ، من قانون الاصلاح الزراعى ، الى تأميم قناة السويس ، الى انشاء القطاع العام ، ووضع برامج التنمية ، واقامة المصانع بالمئات ، واقامة الدولة الاشتراكية التى تتلاءم مع تراثنا وظروفنا وواقعنا • تلك الدولة التى تعتبر نفسها مسئولة عن كل أبنائها ، الضعيف منهم قبل القوى ، مسئولة عن منحه فرصة متكافئة وتأمين حقه فى العمل ، وتوفير الخدمات اللازمة له ، وتحصينه بمظلة من التأمينات العلاجية والضمانات الاجتماعية ، لن تتوقف عن الاتساع حتى تشمل كل المواطنين » •

وعندما تتعرض ورقة أكتوبر الى مستقبل التنمية يرد الرئيس السادات على السؤال : الى أين نسير ؟ قائلا : أنه يجب علينا أن نتحرك فى اتجاهين: الأول — تخليص تجربتنا الوطنية من كل السلبيات التى شابتها أو عاقت حركتها . والثانى — أن نوائم بين حركة العمل الوطنى وبين الظروف الجديدة التى نعيشها ويعيشها العالم من حولنا .

ويخلص الرئيس السادات فى تحليله للسلبيات التى لحقت بالتجربة **بأن من حق شبابنا بالذات أن يدرك التقييم الموضوعى للتجربة ليعرف** بالدقة ماذا حقق الجيل الذى قاد الثورة وعاصرها ؟ وماذا كان مقدار جهده ؟ وما تعرض له العمل الوطنى من نواقص ، ليتخذ عن اقتناع مكانه الطبيعى فى حركة العمل الوطنى ، بدل أن تمزقه التيارات التى تحاول أن تنكر التجربة جملة وتفصيلا .

وعن الاتجاه الثانى وهو أن نوائم بين حركة العمل الوطنى وبين الظروف الجديدة التى نعيشها ويعيشها العالم من حولنا ، يرى الرئيس السادات أنه علينا أن ننفض كل عقد الخوف ، وأن نتعامل مع العالم أجمع فى ثقة بالنفس واطمئنان الى قدرتنا على الحفاظ على استقلالنا السياسى والاقتصادى ، وما ارتضيناه لأنفسنا من نظام اجتماعى ، من خلال أوسع اشكال التعاون مع كل من يبدى الرغبة فى التعاون معنا .

وتوضح ورقة أكتوبر أبعاد التنمية الاقتصادية بشىء كثير من التفصيل فتقول : « وقضية التنمية تكتسب اليوم وضعا أكثر أهمية بسبب المعركة ضد العدوان ، فقد تحمل الاقتصاد المصرى منذ ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ما يزيد عن خمسة آلاف مليون جنيه انفاقا عسكريا مباشرا ، وتحمل من الخسائر ومن فقد فرص الربح التى ضاعت بسبب العدوان ما يقارب هذا المبلغ . أى أن الشعب المصرى قد تحمل فى سبيل ردع العدوان أكثر من عشرة آلاف مليون جنيه ، فضلا عن أرواح شهدائه التى لا تقدر بثمن .

ان عبء الانفاق العسكرى قد هبط بمعدل التنمية فى مصر من ٦ر٧٪ وهى النسبة التى سادت الفترة من ١٩٥٦ — ١٩٦٥ الى أقل من ٥٪ سنويا . وكان أفدح ما أصاب الاقتصاد المصرى فى هذه الفترة هو التخلف فى عمليات الاحلال والتجديد فى المرافق الأساسية والوحدات الانتاجية والخدمات ، وما يلقى على اقتصادنا فى المرحلة المقبلة عبئا ضخما فى هذا المجال وحده » .

وأهم ما تضيفه ورقة أكتوبر فى المجالات الجديدة التى تطرقها سعيا وراء دفع عجلة التنمية هو تحديد دور كل قطاع اقتصادى فى المجتمع فتقول : « ان لدينا قطاعات الاقتصاد القومى الثلاثة ، القطاع العام ، والقطاع الخاص ، والقطاع التعاونى ، وبسياسة الانفتاح الاقتصادى يتسع المجال أمام الاستثمارات العربية والأجنبية وهذا كله فى اطار من التخطيط الذى يرسم أهدافا استراتيجية لتغيير صورة البلاد تغييرا جذريا ، ويضع الخطط التفصيلية التى تكفل تحقيق هذه الأهداف » .

أما عن القطاع العام ، فقد سبق القول بأنه « بما توافر له من وضع قيادى فى اقتصادنا القومى وكان الأداة الفعالة فى التنمية . وبفضله تحققت الزيادة الضخمة فى الانتاج ، وقامت المشروعات الكبرى . ومن عائده استمر تمويل التنمية . وهو الذى حقق الصمود الاقتصادى بعد العدوان » .

ويتطرق الرئيس السادات الى تصحيح تجربة القطاع العام قائلا :

« ولا شك أن تجربة القطاع العام قد شابتها بعض الشوائب . فقد تسللت البيروقراطية الادارية الى الكثير من مواقعه وتحمل القطاع العام عبء ضم مرافق ما كان لها أن تدخل فيه ، ولا طاقة لأجهزته على ادارتها ، سواء لتبعثرها ، أو صغر حجمها أو لأنها مما يحسن تركه للقطاع الخاص ، لأنه لا يمثل أهمية اقتصادية تتفق مع جوهر مهمة القطاع العام . كذلك فان بعض قرارات الضم الى القطاع العام قد دفعت اليها نزعة عقابية شوهت فكرة القطاع العام التى لا تمت الى العقاب بصلة ثم أنه كان عليه أن يستوعب ويتحمل الكثير مما يمت بصلة الى مشاكل قومية أخرى ، فهو الذى دفع ثمن أخذنا بسياسة العمالة الكاملة ، وتثبيت الكثير من أسعار السلع لتكون فى متناول يد الجماهير . على أننى أود أن أؤكد أن تجربة القطاع العام فى التحليل الأخير ايجابية تماما . وما يحدث أحيانا من انحرافات أو قصور فى الأداء لا يجوز أن يطمس فى أذهاننا الصورة الحقيقية لمنجزات القطاع العام ولكفاءة رجاله الذين شكلتهم تجربته بمئات آلاف من مديرين وخبراء وفنيين وعمال ، يعدون الآن ثروة قومية تعتد بها البلاد ، ورصيدا ضخما فى بناء مستقبلها » .

هل يتعارض الدور القيادى للقطاع العام مع سياسة الانفتاح ومع تشجيع الاستثمار الاجنبى ؟ يجيب الرئيس السادات فى ورقة أكتوبر بقوله :« ودور القطاع العام فى المرحلة المقبلة بالغ الأهمية • ففى ظل سياسة الانفتاح ، وتشجيع القطاع الخاص والاستثمار العربى والأجنبى ، يظل القطاع العام هو الاداة الاساسية لتنفيذ أى خطة للتنمية ، وهو الذى يتولى المشروعات الاساسية التى لا يقدم عليها غيره • ذلك أن القطاع العام هو وحده الذى يمكن أن تلزمه الخطة الزاما مباشرا ، فى حين أن التخطيط للقطاعات الأخرى له معنى مختلف ، ويتم بأساليب غير مباشرة كالضرائب والائتمان والأسعار ، والحوافز والاعفاءات • كما أن القطاع العام يظل الأداة الأساسية للتعبير عن الارادة الوطنية فى تشكيل اقتصادنا القومى • انه الضمان الرئيسى لأن تظل القرارات الاقتصادية الهامة قرارات مصرية ، تعبر بالفعل عن استقلال مصر الاقتصادى ، فى اطار القوانين الثابتة التى تكفل الاستقرار لسائر القطاعات ، ودون اللجوء الى سياسة الاجراءات الاستثنائية التى تم العدول عنها •

ثم ان القطاع العام ، خصوصا فى البلاد النامية ، هو الذى يقدم للقطاع الخاص وللاستثمارات الأجنبية خدمات لا يمكن الاستغناء عنها ، فالاستثمارات لا تتجه الى البلاد التى تفتقد مقومات البيئة الاستثمارية اللازمة ، انما تتجه الى البلاد التى تتوافر فيها هذه المقومات من هياكل انتاجية كافية ، ومرافق حيوية ، ودرجة كافية من التصنيع وخبرات فنية محلية ، عاملة ماهرة • وكلها عناصر لعب القطاع العام الدور الاساسى فى تشييدها وايجادها فى مصر على نطاق غير متوفر فى كثير من البلاد الأخرى النامية • ان القطاع العام ظاهرة معروفة فى كل البلاد ، وهو عندنا السند القوى الذى نستند اليه لننفتح اقتصاديا بغير عقد ، وفى حرية حركة كاملة » •

وبعد تمهيد عن أهمية القطاع الخاص فى التنمية ، وعن أهمية الاستفادة من كل الموارد الطبيعية والبشرية المصرية ، وبالاستفادة من كل مبادرة فردية خلاقة ، وتشغيل كل طاقة قادرة على العطاء ، وترشيد الاستهلاك عن طريق ايجاد مجالات انتاجية تتجه اليها المدخرات وتشجيع على المزيد من الادخار ، فى هذه المجالات المختلفة يستطيع القطاع الخاص أن يؤدى دورا كبيرا •• بعد هذا التمهيد الذى يشد اهتمامات المستثمرين ويبصرهم برحابة المجالات التى يمكنهم الاستثمار فيها يزيدهم

الرئيس تشجيعا بقوله عن القطاع الخاص : « ولابد من أن نقر بأننا لم نف دائما باحتياجاته ، ولم نوفر له كل الظروف التى تشجعه على مضاعفة نشاطه الانتاجى ، ثم أن تعاقب القرارات والتصرفات المتناقضة بشأنه قد عطل فاعليته كطاقة انتاجية ، فصرفه الى استثمارات طفيلية ، أوجد لدى أصحابه أنماطا استهلاكية مسرفة ، حين كانوا لا يجدون سبيلا الى استثمار ما لديهم فى انتاج مستقر . وقد آن الآوان أن تختفى هذه الظروف نهائيا ، وأن يجد القطاع الخاص من الاستقرار الفعلى والتشجيع ، ما يشجعه على الاندفاع بأقصى ما لديه فى مجال الانتاج وسد حاجات المجتمع » .

وتكشف ورقة أكتوبر القضايا الجديدة المطروحة على التنمية المصرية وأهمها : المال العربى والاستثمار الأجنبى والانفتاح فتقول : « اننا نريد للتعاون الاقتصادى العربى أن يدخل مرحلة نشيطة وقوية ، تحقق معدلات تنمية عالية فى كل الاقطار العربية ، وتجعل من العرب قوة متعاظمة الشأن فى الاقتصاد العالمى ، تكون الأساس المادى لقوتهم السياسية ، ولذلك فاننا نوفر للمستثمر العربى كل الضمانات التشريعية ، ونوفر له ما هو أهم من ذلك القدرة الاستيعابية للاقتصاد المصرى فى ظل استقرار سياسى واجتماعى وتنمية اقتصادية مطردة .

أما عن رأس المال الأجنبى ، فليس عندى من رد على المتشككين خير مما جاء فى الميثاق من أن سيادة الشعب على أرضه ، واستعادته لمقدرات أموره ، يمكنه من أن يضع الحدود التى يستطيع من خلالها أن يسمح لرأس المال الأجنبى بالعمل فى بلاده . كذلك فان الانفتاح الذى أعلناه هو انفتاح على العالم كله شرقه وغربه ، لأننا ندرك تماما أن تنوع علاقاتنا الاقتصادية الدولية هو الاساس المادى لحرية حركتنا السياسية» .

ثم تتناول ورقة اكتوبر التصنيع والزراعة والسياحة فتحدد الأمل فى انطلاق جديد نحو التصنيع السريع والمكثف . اعتمادا على سياسة الانفتاح الاقتصادى التى ترى أنها سوف تزودنا بأحدث وسائل التكنولوجيا الحديثة وتمكننا من زيادة الصادرات عن طريق رفع مستواها واعتمادا على سياسة اقامة المناطق الحرة التى ترى أنها ستجلب لنا صناعة حديثة ، وتساهم فى تشغيل الأيدى العاملة ، وتجعل لدينا مراكز

تخزين وتوزيع عالمية بحكم موقعنا الجغرافى الفذ ، وهى أيضا سوف تساهم بهذا كلة فى الاسراع بسياسة التصنيع وتطوير صناعتنا المحلية وتحديثها .

وفى مجال الزراعة تحدد ورقة أكتوبر تصورها لدفع عجلة التنمية فيها بما تقدمه الصناعة ، من آلات وأسمدة حتى يمكن أن نطور الزراعة المصرية تطويرا جذريا يزيد من انتاجها ، بمعدل يواكب معدل التنمية الصناعية ، حتى لا يختل بنيان الاقتصاد المصرى ، وحتى نحد من اعتمادنا على الاستيراد فى المنتجات الزراعية .

وفى مجال السياحة تشير ورقة أكتوبر الى أنه لابد من دفعة ثورية لتطوير نشاط السياحة فى مصر . فنحن فى وضع ممتاز من حيث امكانيات السياحة على مدار السنة ، وبمختلف أنواعها من تاريخية ودينية وطبية وترفيهية . ونحن بموقعنا الجغرافى فى قلب العالم وملتقى طرقه وعلينا أن نوفر للسائح التسهيلات والاتصالات التى تربطه بالعالم . وأن نطور البيئة الحضارية التى يحتك بها السائح .

هكذا كان الجانب الفلسفى لورقة أكتوبر . فماذا كان وكيف كان الجانب التطبيقى ؟

لقد بدأ التحول الرسمى فى الاقتصاد المصرى بصدور قانون الاستثمار الذى يحمل رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ . وهو فى « حقيقته — التى لم تعلن (١١) رجوع عن المسار الاشتراكى . واقرار لقواعد الاقتصاد الرأسمالى الحر بخصائصه الاجتماعية المعروفة . وان جرى العمل على وصفه باسم عنصر واحد من عناصره هو الانفتاح الاقتصادى .

يقول عادل حسين فى دراسته عن الاقتصاد المصرى من الاستقلال الى التبعية . « ان الهيئات الدولية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تسيطر على الادارة الاقتصادية فى الدول التابعة (النامية) ولكنها تمارس هذا الدور فى سرية بالغة . الوثائق المثبتة لطبيعة هذا الدور ومداه لاتصل الى يد الباحثين والسياسيين الوطنيين أبدا . الكل يشعر بهذا الدور ويلمس نتائجه العامة ، ولكن دون اطلاع فعلى على الاتفاقيات والآليات المنظمة لعملية التبعية ، أو عملية الادارة من الخارج . وفى الحالة المصرية ، خططت الولايات المتحدة مباشرة ، ومن خلال الهيئات الدولية

(صندوق النقد الدولى والبنك الدولى للانشاء والتعمير) ، لكى تعيد ، الدولة المصرية و (سياستها الاقتصادية) الى وضع التبعية » •

ان أول سؤال يطرحه عادل حسين فى بحثه هو : كم تبلغ الديون الخارجية المستحقة على مصر ؟ الاجابة ظلت لغزا أو سرا لفترة طويلة • وللتدقيق ، كانت الارقـام سرا على المصريين ، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لمن يعنيهم الأمر فى الخارج •

ماذا عن ديون مصر ؟ يرى د. رمزى زكى (١٢) أنه يمكن الاعتماد فى تقدير هذه المديونية على التقرير الذى أصدره البنك الدولى فى أكتوبر ١٩٨٣ عن الاقتصاد المصرى ، والذى أورد فيه بيانا عن هذه الديون حتى آخر يونية ١٩٨٢ على النحو التالى :

ديون طويلة ومتوسطة الاجل (مستخدمة وغير مستخدمة)	= ٢ر٢١ بليون دولار
ارتباطات الديون الجديدة فى عام ١٩٨٣/٨٢	= ٦ر ٢ بليون دولار
الديون الخارجية القصيرة الاجل	= ٤ر ٣ بليون دولار
ديون القطاع الخاص غير المضمونة	= ٦ر ٠ بليون دولار
الديون العسكرية للدول الاشتراكية	= ٠ر ٣ بلايين دولار
الاجمــالى	= ٨ر٣٠ بليون دولار

وبناء عليه ، تكون نسبة ديون مصر الخارجية الى النـاتج المحلى الاجمالى بأسعار السوق ١٣٠٪ ، على أساس ان الناتج المحلى الاجمالى قد قدر فى عام ١٩٨٢/٨١ بحوالى ٢٣٥٥٩ مليون دولار ، وبأسـعار الدولار فى عام ١٩٧٨ • كما ان متوسط نصيب المواطن المصرى من هذه الديون يعادل ٦٨٤ دولارا • وهو ما يزيد كثيرا عن متوسط دخل الفرد •

ومن المعروف أن ديون مصر عام ١٩٧٠ كانت مليارا و ٦٣٩ مليون دولار (١٣) • ان هذا الحجم من الديون هو المقياس الرئيسى فى تقدير نجاح أو فشل سياسة الانفتاح الاقتصادى •

ويورد محمد حسنين هيكل (١٤) أمثلة لما أصاب الاقتصاد المصرى من تدهور وفوضى خلال العقد الثامن من القرن العشرين منها :

● ٥٣٪ من الدخل المصرى عام ١٩٧٩ صرف فى تمويل واردات من الخارج .

● كانت مصر قبل ١٩٧٠ تصدر ٤٠٪ من انتاجها من السكر ، أصبحت فى عام ١٩٨٠ تستورد ٣٥٪ من احتياجات استهلاكها من السكر وهذا يعادل صافى دخل قناة السويس . وفيما بين عامى ١٩٧٤ و ١٩٨٠ تضاعفت واردات مصر من المنسوجات . وزادت ثلاث مرات وارداتها من مستحضرات التجميل . وزادت وارداتها من السجاير والساعات والأثاث عشر مرات . وزادت وارداتها من أصناف الأطعمة الفاخرة ثمانية عشر مرة .

● طبقا لأرقام البنك الدولى عام ١٩٨٠ فان ٢١٫٥٪ من الدخل القومى كان يذهب الى ٥٪ من السكان . وعلى الناحية الأخرى من السلم الاجتماعى فان ٢٠٪ من السكان كان عليهم أن يعيشوا بـ ٥٪ من الدخل القومى . وطبقا للاحصائيات فان ٨٠٪ من موظفى الحكومة يحصلون على متوسط دخل مقداره ٦٠٠ جنيه فى العام .

واذا كانت هذه هى صورة السلبيات فى التجربة فلا شك ان جوانب ايجابية ولو قليلة تبرزها احصائيات أخرى . وعلى سبيل المثال نجد أن

● المراكز المالية للبنوك فى مصر حققت تطورا ملحوظا حيث ارتفعت القيمة الاجمالية الى حوالى ٢٨ مليار جنيه مصرى عام ١٩٨٣ مقابل حوالى ٤ مليارات عام ١٩٧٥ .

● الودائع فى البنوك فى مصر ارتفعت الى أكثر من ١٥ مليار عام ١٩٨٣ مقابل أقل من مليارين عام ١٩٧٥ ولكن فى الجانب السلبى مرة أخرى نجد أن مؤشرات الفترة من ١٩٧٥ الى ١٩٨٣ أوضحت نموا مبالغا فيه فى النشاط التجارى (٤٥٪ من اجمالى القروض المقدمة من البنوك العاملة فى مصر) سواء فى التجارة الداخلية أو التجارة الخارجية .

يطرح المفكرون الاشتراكيون فى التنمية سؤالا هاما : لماذا لا يعاد بناء الاقتصاد الوطنى فى البلدان النامية باتجاه تلبية احتياجات البلد بدلا من الاتجاه الى تلبية احتياجات الاحتكارات الغربية .

وهم يركزون فى اجابتهم عن هـذا السؤال على دور المتواطئين فى الداخل ، وهم المجموعات الصغيرة ذات المصلحة فى الابقاء على استغلال الجماهير ، باعتبار أن دورهم يمثل العائق الرئيسى أمام التنمية المستقلة . وهؤلاء المتواطئون لا يشاركون الغرب فى المصالح وحسب وانما يشاركونه فى الأذواق وفى نمط العيش . وهم يقدمون لمجتمعهم رؤية للعالم مشوهة وينشرون نظريات وأفكارا مصطنعة .

ولقد حدد الدكتور رفعت المحجوب خمس نقاط رئيسية لتصـحيح مسار الاقتصاد المصرى ، عند حديثه عن دور الجامعة فى الحياة الاقتصادية فى مصر والعالم العربى . وهى فى جملتها صالحة لمرحلة التخطيط التى بدأت فى يولية ١٩٨٢ .

١ ـــ ان الاقتصاديين المصريين افلتوا بوعيهم من نماذج النمــو الغربية ، وبشروا بمبدأ التدخل فى الحياة الاقتصادية من خــلال اقامة قطاع عام يقود التقدم فى جميع المجالات ، ويتحمل المسئولية الرئيسية فى خطة التنمية .

٢ ـــ ان التخطيط القومى ليس مذهبا فلسفيا ولكنه أســلوب علمى محايد لا يحمل لنا فلسفة الذين أدخلوه ، وانما يحمل لنا علمهم وأسلوبهم وتجاربهم .

٣ ـــ يجب تخصيص القروض الأجنبية للاستثمار .

٤ ـــ الانفتاح الاقتصادى لابد ان يوضع فى موضوعه الصحيح وهو ان يكون انفتاحا انتاجيا .

٥ ـــ أهمية التكامل العربى لأن التكامل الاقليمى هو البديل الطبيعى عن التبعية الاقتصادية للعالم الخارجى . اما عن العقبات التى تقف أمام التكامل العربى دفعة واحدة فيمكن ان يكون التكامل اقليميا ـــ مصر والسودان ـــ الخليج ـــ المغرب العربى . انه يعد تمهيدا للتكامل الشامل.

فى ٢٥ يناير ١٩٨٤ القى الرئيس حسنى مبارك خطابا نستطيع أن نحدد من فقراته ملامح التنمية المصرية فى عصره فقال :

« ان العمل الوطنى بطبيعته هو حركة دائبة لا تنقطع ، ولا تتوقف ، ولا تدور فى فراغ ، بل تتواكب مع حركة التاريخ ، وتنطلق من واقع اجتماعى محدد • **ويبدو ان البعض يتصور انه يستطيع ان يوقف حركة** الزمن ، أو يعيد عقارب الساعة الى الوراء ، تحت ستار الحنين الى الماضى ، وتجميد الأوضاع التى كانت سائدة قبل عام ١٩٥٢ • وخطورة هذا الاتجاه لا تتمثل فقط فى انكار المنجزات الضخمة التى حققها الشعب المصرى منذ ذلك التاريخ ، بل انها تمتد الى التشكيك فى وعى هذا الشعب وقدرته على توجيه الأمور فى المسار الذى يحقق مصلحة الأغلبية الساحقة من ابنائه • **ونحن لا نجادل ان هناك انجازات تحققت قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، بل اننى** حرصت على ان اقرر منذ تحملت المسئولية ان تاريخ مصر الحديثة لم يبدأ بقيام الثورة ، ولكن هذا لا يعنى ان مسيرة الشعب المصرى قد توقفت منذ بزوغ فجر الثالث والعشرين من يوليو ، أو ان المكاسب التى حققها هى **اوهام لا وجود لها فى دنيا الحقيقة •**

ان أحدا لا يستطيع أن ينكر أن الثورة قد خلصت البلاد من السيطرة الأجنبية والاستغلال • وفتحت المجال أمام شعوب أمتنا العربية ، والعالم الثالث على امتداده ، للتحرر والخلاص من النفوذ الاستعمارى • وقضت على الاقطاع ، وأقامت قاعدة صناعية كبرى فى قلب الوطن العربى • وصانت حقوق العمال والفلاحين • وحمت مصر من الصراعات الطبقية **الدموية التى كان يمكن أن تتولد عن الأوضاع الجائرة التى كانت قائمة** فى مجتمع ما قبل الثورة • ومهدت الطريق للحاق بالثورة التكنولوجية فى عصر الفضاء •

تلك انجازات ملموسة شهد بها الاعداء قبل الأصدقاء ، ولا سبيل الى التنكر لها والافتراء عليها ، لأن هذه الحقبة تشكل جزءا من تاريخ **مصر لا مجرد صفحة فى سيرة فرد أو جماعة • وليس بمقدور أحد أن يزيف** تاريخ الشعوب أو يشوه صورة نضالها أو كفاحها •

نعم كانت هناك أخطاء وتجاوزات • وكان هناك احباط لبعض الأمال التى علقناها على الثورة ، ولكن هذا من طبيعة النشاط الانسانى • ولسنا

نزعم أننا أصبحنا اليوم معصومين من الخطأ منزهين عن الزلل وكل ما نقوله هو أننا نسعى قدر طاقتنا ونحرص على الخضوع للمصلحة العامة ، ونستلهم الله فى حركتنا فى شتى الميادين ، مؤمنين بأن الحق سوف ينتصر ولو بعد حين .

لقد توصلنا الى تحديد دقيق لأولويات العمل الوطنى وحجم التحديات التى تواجهنا وآلينا على أنفسنا أن يكون رائدنا هو العمل المفنى لوجه الله والشعب ، وأن يكون المجال مفتوحا أمام كل مصرى يريد أن يسهم فى انطلاق نهضة مصر الجديدة ، فلا احتكار للعمل ، ولا حجز على فكر ، ولا قيد على رأى ، ولا تعصب ، ولا تحزب ، بل تنافس بناء من أجل مصر ، وتعاون شامل فى سبيل مصالحها وأمانيها .

ومن أهم المقومات التى حرصنا على توفيرها لمسيرة العمل الوطنى فى هذه المرحلة أن يكون مبنيا على التخطيط العلمى والدراسة المتعمقة التى تشارك فيها قاعدة عريضة من المواطنين .

وهكذا تم وضع خطة متكاملة للتنمية فى خمس سنوات تراضينا على الالتزام بها فى جميع المجالات وتحت مختلف الظروف . ويكفى أن نعرف أن جملة استثمارات القطاع العام والحكومة التى صرفت بالفعل خلال المدة من يوليو ١٩٨٢ الى يناير ١٩٨٤ أى خلال ١٨ شهرا ، بلغت ٦٩٠٠ مليون جنيه ، وهو ما يوازى ٥٠٪ مما انفق فى هذا المجال فى السنوات الخمس السابقة على الخطة . وأضفنا الى الطاقة الكهربائية خلال تلك الفترة ٧٦٥ ميجاوات وهو ما يمثل ٥٠٪ من الطاقة التى يولدها السد العالى . وتلك معدلات لا تختلف كثيرا عن معدلات التوسع فى الطاقة الانتاجية فى الزراعة والصناعة وفى مشروعات الخدمات والمرافق والبنية الأساسية » .

ثم قال الرئيس حسنى مبارك :

« ان رؤيتى للنظام الاقتصادى الذى يلائم بيئتنا تستند الى تصورى لهدفين رئيسيين : هما زيادة الانتاج وتحقيق العدالة الاجتماعية . وأعتقد أن النظريات الأجنبية المطروحة لتحقيق هذين الهدفين ومنها النظريات المنبثقة عن الفكر الماركسى ، لاتشكل أساسا صالحا كمنهج واقعى متكامل . بل يجب أن يتجه تفكيرنا فى المقام الأول الى الروافد الاصلية للحركة

الوطنية المصرية فى المراحـل التاريخية المتعاقبة فى محـاولة جادة للتوصل الى صيغة متطورة لكيفية تحقيق الأهداف القومية •

ان ملكية الدولة لوسائل الانتاج لا يجوز أن تقف حائلا أمام قدرة الانسان المصرى على الخلق والابداع أو تقتل لديه الحافز على التقدم والابتكار لذلك فان دور القطاع الخاص يعتبر عنصرا مشروعا ولازما للتنمية الاقتصادية والاجتماعية بمعناها الشـامل طالما كان بعيـدا عن الممارسات الاستغلالية ملتزما بمصلحة المجموع كما يحددها القـانون ويرسمها الوعى الجماعى للشعب •

ان العدالة الاجتماعية لا تتحقق فى نظرى باذكاء الصراع الطبقى وزيادة حدة التناقض داخل المجتمع • وانما تتحقق عـن طريق اذابة الفوارق بين الطبقات وتسخير امكانيات الدولة لحـل مشاكل القطاعات العريضة ووضع النظم الضريبية الكفيلة بتوزيع الأعباء العـامة على أفراد الشعب حسب طاقاتهم وقدرتهم على الاسهام فى تحمل التكاليف • بحيث يكون المجتمع قائما على أسـاس التضـامن والتكافل بدلا من التناقض والتناحر • ولابد أن يكون مفهوم الوطنية المصرية واضحا لا لبس فيه ولا غموض • لأنه أساس الولاء والانتماء وهو صمام الأمن فى الحركة الجماعية للشعب • ونحن شعب يتميز بعمق الشعور بالوطنية على امتداد تأريخه الطويل ، ولذلك فان كل عملنا يجب أن يتجه الى الحفاظ على استقلال الارادة الوطنية والحفاظ على الهوية المصرية بعناصرها الحضارية المختلفة » •

هذه هى الملامح والمبادئى العامة للتنمية المصرية فى عهـد الرئيس حسنى مبارك •

وفى بيان الحكومة أمام مجلس الشعب فى ١٦ نوفمبر ١٩٨٧ اعلن رئيس الوزراء أن استراتيجية الحكومة لتحقيق التنمية الاقتصادية تقوم على عدة مبادىء أهمها ان هذه التنمية جزء من التنمية الشاملة المتوازنة وهى بذلك ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظم الاجتماعية وبالاطار الحضـارى والثقافى للمجتمع ، وتحقيق معدلات للنمو تفوق معـدلات الزيادة فى الاستهلاك والسكان ، ودعم القدرة الذاتية لانتاج أكبر قدر ممكن من السلع والخدمات لاشباع الاحتياجات المحلية وللتصدير •

وتدرك الحكومة ان الطريق الوحيد لتحقيق هذه المبادىء هو زيادة الانتاج وجودته ، لذلك فان هذه القضية كانت — ولا تزال — اساسا يتصدر أولويات العمل الوطنى ، وتعد الحكومة لعقد مؤتمر قومى فى شهر فبراير القادم لبحث وسائل زيادة الانتاج وتطوير انظمة التسويق تنفيذا لتكليفات السيد الرئيس • وفى تصـور الحكومة أن الزيادة فى الانتاج لابد أن تستند الى عدة اعتبارات هى : الارتفاع بالانتاجية فى جميع المجالات ، والتعبئة الكاملة للموارد الداخلية والخارجية للمجتمع ، والاستمرار فى دعم البنية الاساسية ، وانتهاج أسلوب التخطيط العلمى من أجل التنمية •

ومن أجل ذلك تعمل الحكومة على رفع انتاجية العامل المصرى باعتباره العنصر الفعال فى زيادة الانتاج من خلال الارتقاء بالتعليم وربطه باحتياجات التنمية ، والاهتمام ببرامج التدريب وتطويع الفنون الانتاجية لظروف المجتمع المصرى ، والاستفادة من لطاقات الهائلة للشباب عن طريق توفير فرص العمل المنتجة وتعميق القيم الدينية والثقافية فى نفوسهم لتثبيت قيم العمل واحساسهم بأهمية تفاعلهم مع العمل الوطنى لخيرهم وخير المجتمع فى ذات الوقت •

ومن ناحية أخرى فان زيادة الانتاجية لعوامل الانتاج المختلفة تتطلب القضاء على الفاقد فى العملية الانتاجية سواء فى مراحل الانتاج أو قنوات التسويق ، وهو أمر بالغ الأهمية خاصة وقد بلغ الفاقد فى بعض الحاصلات الزراعية قدرا كبيرا •

كما تحدث رئيس الوزراء فذكر بأن التنمية تعتمـد على تخطيط علمى ، فقد نفذت خطة خمسية خلال السنوات ٨٢ — ١٩٨٧ ، وبدىء فى تنفيذ خطة خمسية ثانية اعتبارا من منتصف عام ١٩٨٧ ، وذلك فى اطار عام لتخطيط طويل الأجل حتى عام ٢٠٠٢ وترتكز خطة ٨٧ — ١٩٩٢ على ثلاثة محاور أساسية :

● تأصيل مبدأ الاعتماد على الذات من خلال دعم قطاعات الانتاج السلعى ونموها بمعدلات متوازنة مع معدلات نمو القطاعات الخدمية ، والارتفاع بالانتاجية واستخدام التكنولوجيا المتطورة للقضاء على الفاقد فى العملية الانتاجية ، وتحسين أوضاع ميزان المدفوعات ، وخفض المكون

الأجنبى فى تمويل الخطة وتوفير الاحتياجات الاستثمارية من الانتاج المحلى ، وتدعيم الدور الانتاجى للقطاعين الخاص والتعاونى •

● دعم واصلاح البنية الأساسية المادية والاجتماعية لرفع الطاقة الاستيعابية وكفاءة الاداء وترشيد استخدام الموارد وما يعنيه ذلك من الارتفاع بمستوى المعيشة بما ينعكس على سلوك الانسان المصرى فى مجال التنمية •

● اعتبار البعد السكانى / المكانى خطا ثابتا لاستراتيجية التنمية مما يتطلب دعم المجتمعات الجديدة بعيدا عن مجتمع الوادى القائم بحيث تستوعب الزيادة المضطردة فى السكان • ويتطلب تحقيق ذلك تدعيم أجهزة الحكم المحلى للقيام بدور فعال فى التنمية الاقليمية وتطوير المجتمعات المحلية اقتصاديا واجتماعيا •

وذكر رئيس الوزراء أنه قد اكتمل تنفيذ الخطة الخمسية ٨٢/١٩٨٧ وبداية عام ٨٧/١٩٨٨ بدىء فى تنفيذ خطة خمسية ثانية بعد اقرارها من السلطة التشريعية • وهى تعتبر مرحلة ثانية فى خطة طويلة الاجل بدأت عام ٨٢/١٩٨٣ ، وحتى عام ٢٠٠٢ ، وتستهدف الخطة الثانية زيادة الانتاج المحلى بمعدل سنوى ٥ر٥٪ فى المتوسط وزيادة الدخل المحلى بمعدل ٨ر٥٪ سنويا بالاسعار الثابتة • كما تستهدف الخطة خلق فرص عمل جديدة خلال سنوات الخطة بما يسمح بتشغيل ١ر٢ مليون مشتغل • وتستهدف هذه الخطة أيضا تنفيذ استثمارات تبلغ قيمتها نحو ٥ر٤٦ مليار جنيه ، يخص القطاع العام نحو ٥ر٢٨ مليار جنيه بنسبة ٣ر٦١٪ من اجمالى الاستثمارات مقابل ٥ر٧٤٪ فى الخطة الخمسة الأولى• ويخص القطاع الخاص نحو ١٨ مليار جنيه بنسبة ٧ر٣٨٪ من اجمالى الاستثمارات ، مقابل ٥ر٢٥٪ فى الخطة الخمسية الأولى » •

ويبقى التطبيق دائما هو التعبير عن سلامة الأفكار • فقد تصبح النتائج فى بعض الأحيان عكس ما كان مرجوا من أهداف • فمثلا

يستشهد الدكتور محمود عبد الفضيل (١٠) بأقوال كينز وبخاصة الفصل الثانى عشر من كتابه النظرية العامة للتوظف وسعر الفائدة والنقود للدلالة على أهمية التفرقة بين روح المشروع الرأسمالى وبين روح النهب قائلا :

« ويكتسب ما جاء فى هذا الفصل أهمية خاصة فى الظروف الراهنة للاقتصاد المصرى ، حيث اختلطت الأوراق والرؤى ، ولم يعد يستبين للكثيرين الفرق بين « روح المشروع الرأسمالى » بالمعنى الذى اصطلح عليه فى الغرب ، وبين روح المضاربة والسلب والنهب التى تسود جنبات الاقتصاد المصرى اليوم تحت ستار تحسين اجواء « المناخ الاستثمارى » دون ضابط أو رابط . ففى هذا الفصل نجد اللورد كينز — ذلك الاقتصادى الرأسمالى البارز — يقول لنا أن الكثير من هؤلاء الذين يدخلون عالم الاعمال والمال والاستثمار لا يحملون معهم « روح المشروع الرأسمالى » القائم على التنظيم والتجميع لعوامل الانتاج وتحمل المخاطر طويلة الاجل والمشاركة فى دفع عملية التراكم الرأسمالى المنتج . اذ ان العديد من هؤلاء تحركهم « روح المضاربة » والكسب السريع واستغلال الاختناقات فى الاسواق والثغرات فى القوانين والتشريعات لتحقيق أكبر قدر من المال فى أقصر مدة ممكنه .

ويرى كينز ان كل مجتمع على وجه البسيطة يحوى بالضرورة عدد من المضاربين والمحتالين فى عالم المال والتجارة والاعمال .. ولكن امثال هؤلاء يكونون مثل (فقاعات الصابون) على سطح التدفق المنتظم لموجة الاستثمارات الخاصة المنتجة التى تصب فى مجرى الحياة . ولكن النكبة الكبرى لاقتصاد ما تكون عندما تصبح المشروعات المنتجة الحقيقية هى الظاهرة النادرة ، أى تكون مجرد مبادرات منعزلة ومحدودة فى وسط موجه عارمة وعاتية من الاستثمارات ذات الطابع المغامر والطفيلى التى تقوم على المضاربة ، ولا تستند الى (روح المشروع) .

عندما يحدث هذا ، يصبح التطور الاقتصادى فى مثل هذا المجتمع رهن ما يحدث فى عالم المضاربات والمغامرات المالية ، ويصبح مجمل الاقتصاد القومى خاضع لمنطق (اقتصاد الكازينو) على حد تعبير كينز .

اذ ان الاقتصاد القومى يصعب ادارته كبورصة « للاوراق المالية » حيث ينشط المضاربون والمغامرون والمحتالون للعبث بمقدرات البلاد الاقتصادية . فالاقتصاد الوطنى ليس صالة للقمار يلجها هؤلاء الذين يلعبون بأموال الغير — المقترضة من البنوك — فان نجحت المغامرة (بل المقامرة) يجنون الارباح الطائلة ويسددون ديونهم ، وان خابت مغامراتهم ومقامراتهم يهربون أموالهم للخارج ويغادرون البلاد .

واذا كان التطبيق مؤشرا واقعيا للتعبير عن سلامة الأفكار ، فان التنظير فى مجال التنمية ضرورة لتحديد أنسب الوسائل لبلوغ الأهداف . والحوار النظرى فى مجال التنمية ليس ترفا علميا ، بل هو ضرورة لتحقيق الهوية الوطنية واجلائها . ومثال على أهمية التنظير فى مجال التنمية نسوق التصور الذى يراه الدكتور ابراهيم شحاته (نائب الرئيس والمستشار العام للبنك الدولى) عام ١٩٨٧ لحل أزمة التنمية فى مصر قدمه فى صورة محاضرة طبعها فى كتاب بعنوان برنامج للغد ، تحديات وتطلعات الاقتصاد المصرى فى عالم متغير . ومن بداية التقديم يقول الدكتور ابراهيم : « ولا أريد أحدا أن يعتبر هذه التصورات تعبيرا عن وجهة نظر البنك الدولى أو أية مؤسسة دولية أخرى » وهو يود ان تنظر اليه بصفته مصريا أتيحت له خبرة العمل فى مؤسسات للتنمية الدولية .

ويقول لنا الخبير الدولى المصرى : لقد قيل « ان الأمم تنشأ وتبقى بقدر ما يكون لها برنامج للغد » . وهو يرى ان من حق مصر أن يكون لها برنامج أساس تبنى به نفسها من جديد وتستعيد عن طريقه دورها الحضارى فى مواجهة التحديات العديدة التى تحيط بها . ويخلص الى لب المشكلة — كما يراها — فى أن المجتمع المصرى بل والعربى فى مجمله يستعد لمواجهة القرن الحادى والعشرين الميلادى بعقلية لازالت تنتمى الى القرون الماضية . ويحدث ذلك فى وقت تتعاقب فيه التغيرات فى العالم بسرعة لم تعرف من قبل وتتزايد العلاقات بين الدول عبرها بدرجة عالية من التعقيد .

ويقول انه لازالت الاطارات الفكرية المطروحة بحماس فى العالم العربى هى فى جوهرها اما ترديد لمؤلفات كارل ماركس وأتباعه ، أو اصرار على ما سمى بالاقتصاد الاسلامى دون عناء لتعريف المدلولات الحقيقية لهذا المصطلح فى عالمنا المعاصر ، أو وهو الأسوأ ، محاولات لشرح أحد هذين الاتجاهين بأسلوب الآخر ومصطلحاته .

وبعد ان يحذرنا المؤلف من أن نجعل معتقداتنا الموروثة قيدا فى سبيل تحررنا ورخائنا ، ومن ان نجعل نظامنا السياسى والتعليمى تلقينا لشعارات الماضى ، بعد هذا التحذير يقول لنا انه نتيجة للتقدم المستمر فى الأبحاث

العلمية والاختراعات « التكنية » فى الدول المتقدمة ، تفقد الدول النامية تدريجيا مالها من مزايا نسبية فى الاقتصاد العالمى : الاعتماد المتزايد على الآلة والانسان الصناعى(الاوتوماتيكية)سيخفض من أهمية الأيدى العاملة فى الصناعة ، وبالتالى من قيمة العمل الأرخص فى الدول النامية ، والانتاج المتزايد للمواد الكيماوية المقاربة فى خصائصها للمواد الأولية سيخفض من الحاجة الى المواد الأولية التى تنتجها الدول النامية ، وتطور الهندسة العضوية وخاصة هندسة السلالات فى مجال الزراعة سيغير بالضرورة من أوضاع وأسواق الانتاج الزراعى بما فى ذلك الانتاج الذى كان مقصورا لأسباب مناخية على المناطق الحارة فى الدول النامية • ويلخص التطورات المثيرة فى الاقتصاد العالمى وفقا لما أورده أستاذ الاقتصاد « بيتردركر » عام ١٩٨٦ فيما يلى :

١ — تحرر الانتاج الصناعى من الاعتماد الكبير على المواد الأولية •

٢ — تحرر الانتاج الصناعى من الاعتماد الكبير على العمالة •

وفى هذه النقطة ينصحنا الدكتور ابراهيم قائلا :

ومؤدى ذلك ان الدول النامية يجب أن تعى هذه التغيرات ، وان تعى بصورة خاصة أنها لم تعد فى وضع يسمح لها بالاعتماد فقط على قدرتها على تصدير المواد الأولية أو على توافر العمالة الرخيصة فيها ، كما أن عليها أن تعى أن عناصر « الديناميكية » فى الاقتصاد قد انتقلت حتى فى أكثر الدول تقدما من الاقتصاد الوطنى الى الاقتصاد العالمى • وأن المنافسة على المستوى العالمى هى السبيل الوحيد الآن للنجاح •

٣ — ظهور ونمو « الاقتصاد الرمزى » كمحرك للاقتصاد العالمى بما يفوق حجم الاقتصاد الحقيقى ، أو بتعبير آخر انكماش أهمية التجارة الدولية فى السلع والخدمات بالمقارنة بحركة انتقال رؤوس الأموال وتبادل العملات ويشير الى ما يلى :

(ا) الانخفاض الكبير فى حصيلة صادرات الدول النامية نتيجة انهيار أسعار المواد الأولية •

(ب) الزيادة الهائلة فى المديونية الخارجية للدول النامية ، وقد وصلت الديون الى حد الأزمة البالغة بحيث أصبح الدائنون لا يأملون الا بسداد

فوائد الديون ويقبلون مضطرين اعادة تمويل القروض القائمة حتى أصبحت الديون القائمة توصف بأنها « ديون دائمة » ، وبدأ العمل فى دول كثيرة على تحويل جزء منها الى مساهمة فى رؤوس أموال المشاريع المقترضة .

(جـ) الانخفاض المستمر فى تدفقات الاستثمارات الأجنبية المباشرة الى هذه الدول .

ويصل بنا الدكتور ابراهيم الى العناصر التى يراها ضرورية لتصحيح وترشيد السياسات الاقتصادية والمالية فى كثير من الدول النامية وهى :

١ — وضع نظام للأسعار يدفع المزارعين لزيادة انتاجهم الزراعى ويؤدى الى بيع السلع والخدمات بما يجاوز نفقة انتاجها .

٢ — ان يكون سعر صرف العملية المحلية واقعيا .

٣ — ان يكون معدل سعر الفائدة مشجعا على الادخار .

٤ — ان يكون نظام التشغيل والأجور متناسبا مع حاجة العمل وانتاجية العمل ومستوى آداء العامل .

٥ — ان يكون النظام الضريبى مشجعا على الادخار والاستثمار وان يضمن فاعلية الجباية على أسس معقولة ورشيدة مع مراعاة التبسيط وابتغاء العدالة .

٦ — الحد من الانفاق الحكومى بما يخفض عجز الميزانية ويضمن كفاءة الآداء .

٧ — أن يعمل القطاع العام على أسس اقتصادية سليمة من حيث سياسة التشغيل وأعداد العاملين وأسعار المنتجات .

ولكى تنجح هذه الاجراءات فى تغيير وجه الاقتصاد مع الحد من التضخم لابد أن تتخذ جميعا فى الوقت نفسه ، على أن تسير معا بتدرج معقول مع قبول التضحيات الوقتية كثمن لابد من دفعه لوقف التدهور المستمر ذى الكلفة الأفدح . وهو يستشهد بقول الرئيس

السابق لصندوق النقد الدولى « دى لاروسرى » «J. de Larasiere» عام ١٩٨٦ : « ليس من مصلحة التجارة الدولية أو النظـام الدولى أو السلام عامة أن ترى الدول النامية نفسها نتيجة انغلاق الأسواق وغيبة المساعدات الخارجية ، مضطرة الى الانغلاق على ذاتها وتقييد وارادتها وبالتالى نموها بل وآمالها » •

ثم يستعرض الدكتور ابراهيم شـحاته أعراض أزمة الاقتصـاد المصرى ، وهى ــ فى رأيه ــ العجز المزمن فى الميزان التجـارى وميزان المدفوعات ، وزيادة المديونية ، وخللل نظام الاسعار ، وسعر الصرف المعقد ، وبطء معدل نمو العمالة المنتجة ، واستمرار الارتفاع فى معدلات التضخم • ثم يستعرض أوجه الخلل فى قطاعات الزراعة ، والصـناعة والطاقة ، والخدمات ، وسوق العمل • ويخلص الى أسباب أزمة الاقتصاد المصرى المعاصر فى رأيه على النحو التالى :

١ ــ عدم اتباع سياسة جادة للحد من الزيادة السكانية •

٢ ــ الخلل فى النظام التعليمى بعدم اتباع النظـام التعليمى الذى يستهدف تخريج أعداد كبيرة من الفنيين ، مما جعل النظام التعليمى ــ كما يرى الدكتور ابراهيم ــ مضاد للتنمية •

٣ ــ اتباع سياسات اقتصادية اعتمدت على مصادر خارجية للنقد الاجنبى رغم علمنا بأنها مصادر غير مستقرة ، وان الاعتماد عليها لا يمكن ان يكون بديلا عن التنمية الذاتية •

٤ ــ عدم الاهتمام بالكفاءة فى ادارة الاقتصاد •

٥ ــ ووراء ذلك كله فان أحدا لم يعن بتغيير الثقافة العامة للشعب وتعليمه أن التقدم هدف صعب يكتسب بالعمل الجاد والنظام الصارم ، وأن تنمية مجتمع فقير تفترض تقشفا فى الاستهلاك لفترة طويلة • بل علمنا أنفسنا بدلا من ذلك أن الحقوق تكتسب بالميلاد دون واجبات تقابلها ، وأن الأمور تسيرها قوى مجهولة تتكل عليها ، ثم أضعنا الجزء الأكبر من وقتنا وجهدنا فى قضايا لا تخدم التنمية بل تعرقلها كثيرا ، وتبارينا فى اتباع القيم الاستهلاكية ثم عودنا أنفسنا على أن يكون الهم والشكوى بدلا عن العمل من أجل التغيير •

وهذا البرنامج شأنه شأن كل برنامج يؤخذ منه ويرد عليه . وأول ما يرد عليه هو أن مقدمه ينفي عن برنامجه أنه تصور البنك الدولى . وحقيقة الأمر أنه جوهر تصور البنك الدولى والفكر الغربى معا للبرنامج الذى ينبغى علينا أن نتبناه ، وهم — فى رأيى — يقدمون حلا لأزمتهم هم التى عبر عنها « دى لا رو سرى » بقوله ليس من مصلحة التجارة الدولية، أو النظام الدولى ، أو السلام عامة ان ترى الدول النامية نفسها نتيجة انغلاق الأسواق وغيبة المساعدات الخارجية ، مضطرة الى الانغلاق على ذاتهـا » .

ان حل مشكلة البلدان النامية — فى رأيى — ليس فى الانغماس فى السوق الدولية حيث الوحوش الكاسرة ، وانما فى الاعتماد على الذات ، وايجاد البدائل المحلية للاستيراد .

ولكن الأخطر فيما أورده الدكتور ابراهيم شحاته هو قوله بأنه ما زالت الاطارات الفكرية ، المطروحة بحماس فى العالم العربى اما ترديد لمؤلفات كارل ماركس وأتباعه،أو اصرار على ما سمى بالاقتصاد الاسلامى دون عناء لتعريف المدلولات الحقيقية لهذا المصطلح فى عالمنا المعاصر .

ولست بصدر الرد على النقطة الماركسية فهذه لها أهلها وتاريخها الذى بدأ بالتطبيق عام ١٩١٧ وحقق تقدما جعل الاتحاد السوفيتى احـدى القوتين الأعظم فى الواقع الدولى المعاصر ، ولها أيضا عدد من الآخذين بهذه الأيدلوجية يفوق عدد الدول الرأسمالية مجتمعة سكانا . هـذه النقطة الماركسية لها التراث الثقافى الرد والتفنيد ما يزيد عن الحاجة . ولكنى أود أن أتناول القول بأن الاقتصاد الاسلامى ليست له التعريفات الحقيقية للمدلولات المعاصرة . لا شك أن المقصـود هى التعـريف « الأيدلوجى » وليس المحاسبى مثلا ، فالرقم ١ ، ٢ ، ٣ .. الخ . فى الاسلام هو عينه لدى البنك الدولى . ولكن الربا فى الاسلام من الكبائر الموبقات ، ولدى البنك الدولى اسمه سعر الفائدة . ولا شك أن المفهوم « الأيدلوجى » للمال فى الاسلام ووظيفته الاجتماعية يحظى بتراث ثقافى قديم ومعاصر . وما يعنينا هو التراث المعاصر . لقد تناول ذلك المفكر والفيلسوف المسلم الفرنسى « روجيه جارودى » . كما تناوله الباحث والفقية المسلم المصرى « يوسف القرضاوى » كما تناوله آية الله طلقانى المسلم الايرانى ، ومحمد باقر الصدر المسلم العراقى .

وخلاصة القول فى تقييم التجربة المصرية فى التنمية ان عبقرية التقدم تكمن فى قدرة الرجال .. رجال كل عصر وكل جيل على اكتشاف الحلول الصائبة للتحديات الجديدة . وهذا هو المقياس الذى يمكننا ان نقيم به التجربة المصرية الراهنة فى التنمية .

البعد البشرى للتنمية :

الانسان هو صانع التنمية ، وهو فى الوقت نفسه هدف التنمية . بمعنى أن الجهد البشرى هو العنصر الحاسم فى عملية التنمية ، وأن هدف خطط التنمية هو اسعاد الانسان ، وتلبية حاجاته المتزايدة على الدوام . فان ما كان من الكماليات أمس أصبح اليوم من الضروريات ، ولا شك أن الكثير من كماليات اليوم ستصبح غدا فى قائمة الضروريات .

وتتكيف أحوال الانسان بتطور الاختراعات وتقدم العلم بصورة مستمرة ، ويحدث الاختراع الجديد تأثيرا مباشرا على حياة الانسان باستعماله ، لأنه يحقق رغبته ، ويعتاد الانسان على الاختراع الجديد ، ويكيف أحواله على أساسه ، ثم يصبح الانسان عنصرا ضاغطا لتطوير الاختراع والبحث عن اختراع جديد يفوقه قدرة وكفاءة .

ولا شك أن الطيران يضرب لنا أوضح مثل على ذلك . ان الانسان يرى الآن فى السفر بالطائرة نصف النفاثة فى المسافات الطويلة عذابا وعناء ، وهو يفضل الطائرة الأسرع من الصوت فى السفر الطويل . واذا قارنا أبطأ طائرة ركاب بسرعة السيارة ، لا سرعة الخيل لرأينا كم أصبح الانسان طامحا فى المزيد .

وكما وضعنا حدودا فاصلة للاعلام تفصله عن الدعاية أو التعليم أو الثقافة ، لابد أن نضع شيئا من التحديد حول البعد البشرى للتنمية ، ونفصله عن مفهوم الحضارة ، أو مفهوم التحديث ، أو مفهوم التمدين . ذلك لأن الانسان هو صانع كل ذلك . الا أن مفهوم التنمية يختلف عن مفهوم الحضارة وعن مفهوم التحديث أو التمدين . تتفق هذه التسميات فى اعتمادها على العنصر البشرى ، وتتفق أيضا فى أنها تصب فى بحيرة الحضارة الواسعة . ولكن الاختلاف هو أن لكل منها محتوى لا يتعداه .

فالتحديث مثلا يعنى أن يأخذ المجتمع بأساليب الحياة الحديثة ، والتمدين مثلا هو أن تنتقل أساليب حياة المدينة العصرية الى الريف • وكلا الأمرين يتم فى التنمية وفق الظروف الموضوعية الرشيدة لكل مجتمع يقطع خطوات متوثبة فى التنمية • أما الحضارة فهى أشمل من ذلك وأوسع دائرة • انها بحيرة صبت فيها كل هذه الروافد سنوات طويلة واختمرت فيها هذه المفاهيم وغيرها ونبتت وتأصلت حتى أصبحت تراثا متميزا ومتكاملا • فلنقف اذن قليلا أمام معنى الحضارة • ما مفهوم الحضارة ؟

« انها (١٦) جملة الانجازات الملموسة التى يقدمها مجتمع من المجتمعات خلال عهد معين ، فى شتى مظاهر الحياة من سياسية واجتماعية وعمرانية ودينية ، نتيجة لتفاعل أبناء هذا المجتمع مع البيئة التى يعيشون فيهـا بشكل جيد • أى أن عناصر الحضارة الرئيسية هى : البيئة الملائمة ، والانسان ، والحياة الاجتماعية » •

وكلمة « حضارة » مشتقة فى اللغة العربية من « الحضر » — وهم سكان المدن • ونجد الكلمة فى اللغة اللاتينية مشتقة من المفهوم نفســه تقريبا ، حيث أن كلمة civilization الفرنسية وكلمة civilization الانجليزية مشتقتان من كلمة civitas اللاتينية ومعناها « مدينة »

ولكن مدلول الحضارة فى لغتنا المعاصرة أكثر تعقيدا وتركيبا مــن مدلول اللفظ فى لغتنا العربية ، أو فى الأصل اللاتينى الذى اشتقت منــه اللغات الأوربية لفظ الحضارة • ويرى بعض مؤرخى الحضارة وفلاسفة التاريخ أن هناك فارقا بين كلمة « حضارة » وكلمة « مدنية » حيث أن المدنية — فى رأيهم — هى الحضارة بعد أن تجف وتتحجر وتتوقف عــن العطاء والابداع •

ان الانسان هو صانع الحضارة ، وحالة الحضارة ، كما يحــددها بول بوريل (١٧) هى مضادة لحالة الطبيعة وليست لحالة البربرية التى هى فقط تسمية تحقيرية تنعت بها حضارة ما حضارة أخرى • وبول بوريل يرى أن شرط الحضارة يتمثل فى السيطرة على الطبيعة وفى وجود جانب ثقافى وفى وجود جانب أخلاقى ، وعلى ذلك فالحضارة فى رأيه مصنوعة من مستوى ما من العلاقة مع الطبيعة والسيطرة عليها ، ومن تطلع ذى قيمة انسانية ، ومن نماذج عمل وتفكير • لابد اذن من الأقطاب الثلاثة : الطبيعة ، والأخلاق ، والثقافة حتى يستطيع الانسان انجاز الحضارة •

وسأضرب لكم مثلا مصريا يشرح بطريقة ملموسة التصور الذى تصوره الكاتب الفرنسى لمفهوم الحضارة ، لقد زرع فتحى كامل الأمين العام الأسبق لاتحاد العمال العرب وجماعة من صحبه ، فى العقد السابع من هذا القرن شجرة أمام المقهى الذى تعودوا الجلوس عليه ، فى أحد شوارع وسط القاهرة ، وكان ذلك فى وقت أبعدت فيه بعض مراكز القوى هذا المناضل المصرى عن مواقع الخدمة . ولكن الشجرة التى أضرب لكم بها مثلا واقعة حضارية . لماذا ؟ لأن نقل هذه الشجرة من المشتل الى مكان غرسها نوع من السيطرة على الطبيعة أستخدم فيه علم الزراعة . وزراعة هذه الشجرة قيمة أخلاقية تعبر عن استمرار الخدمة الوطنية بأبسط نموذج ممكن . ولعل ذلك يذكرنا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم بأن اماطة الأذى عن الطريق صدقة . ثم فى زراعة هذه الشجرة قيمة ثقافية كأسلوب عن التعبير يصبح مثلا للأجيال القادمة .

ان جوهر البعد البشرى للتنمية يتلخص فى وعى الناس بضرورة التنمية وبأهدافها وبدورهم فيها ، ويستتبع ذلك تغيير الظروف المعوقة للتنمية سواء فى داخل الناس من أفكار وقيم ومعتقدات وسلوك ، أو فى خارج الناس ، فى واقعهم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وما شابه ذلك . ويستتبع ذلك بذل جهد بشرى سريع ومكثف لتدور عجلة التنمية الشاملة بأقصى سرعة ممكنة .

وسنجد أن الوعى ، والتغيير ، والجهد السريع ، — وهى جوهر البعد البشرى للتنمية أو هى محتوى هذا البعد — تتدافع فى عملية التنمية معا كما تتدافع القدمان واليدان عندما يجرى الانسان . ولأن التنمية ديناميكية وفعالة ، لأن عناصر الوعى ، والتغير والجهد السريع المكثف ليست منفصلة بعضها عن بعض ، لذلك نجد أن أطراف البعد البشرى للتنمية يمسك بعضها ببعض ، ويسبب بعضها البعض ، ويؤدى بعضها الى البعض ، ويكمل بعضها بعضا .

ان الانتقال من حالة التخلف الى حالة التقدم يتطلب جهدا فكريا عقليا قبل كل شيء . والنمط الاجتماعى أو السيكولوجى الذى يصحب انتقال الفرد من المجتمع التقليدى فى القرية الى مجتمع المدينة ، وما يصاحب ذلك من تفاعل وتطور يرتكز على الانسان . ان الانسان الذى يتغير فى

المجتمع عادة يتميز بشخصية متحركة لها قدرة كبيرة على التخيل وتصور نفسها فى ظروف الآخرين ، هذه القدرة على التخيل هى الوسيلة التى تمكن العناصر الجديدة المتحركة على العمل بكفاءة فى العالم المتغير •

وهذه مهارة لا غنى عنها للشعب الذى يتخلص من الاطار التقليدى ، فالقدرة على التخيل هى أسلوب الحياة السائدة الذى يميز الأفراد فى المجتمع الحديث • المجتمع الذى يتميز بصناعة متطورة ، ونسبة كبيرة من سكانه تعيش فى المدن ، ونسبة التعليم مرتفعة ، كما أن نسبة الذين يساهمون فى النشاط السياسى عالية •

ان ما نسميه بالجهد العقلى أو بالشخصية المتحركة أو بالقدرة على التخيل ليس حكرا على شعب من الشعب • وليس قدرة خاصة بجنس أو لون • وكل ما يروجه دعاة التفرقة العنصرية والفاشيون من أن التخلف خصيصة عرقية فى بعض الشعوب ، وأن أجناسا من الناس لا تستطيع الفكاك من التخلف • كل ذلك مجرد كذب وتزوير • لماذا ؟

اذا كان التخلف لدى بعض الأجناس من البشر خصيصة عرقية فهو مسبب ، بمعنى : هل الزنوج فى الولايات المتحدة مثلا قد حولوها الى دولة متخلفة ؟! وهذا غير صحيح • التخلف عند أقوام اذن هو نتيجة وليس بسبب خصيصة عرقية • ما دام التخلف نتيجة ، فالأمر يختلف ، انه نتيجة لظروف اجتماعية وتاريخية وجغرافية واقتصادية وثقافية وغير ذلك • وكلها ظروف فرضها السيد الأبيض وفرضها فى مواقع عديدة •

ولقد وصف بعض الخبراء التنمية بأنها (استيقاظ الوعى) وأن مجتمعا ما يتطور ، اذا نمى غالبية أفراده قدراتهم الحقيقية ، وكانوا مستعدين لأن يمنحوا أنفسهم للجهد الاجتماعى والجماعى الذى يشعرون أنهم معنيون به شخصيا وبشكل مباشر ، والذى يجدون فيه ارتباطا بمصائرهم ، آنئذ يندمج الاعلام بمفهوم الادراك ويغدو عندئذ واضحا أن الاعلام سيكون عاملا حاسما فى جميع الطرق التى تجعل مساهمة الفرد أساسا فى التنمية •

وفى مجال الشخصية المتسقة مع التقدم والتى يمكن أن تشد أزر التنمية فى المجتمع يرجع الدكتور السيد عليوه قائمة الكس انكيليس (عام ١٩٦٦) التى رأى فيها الخصائص السلوكية للشخصية العصرية . وهى على النحو التالى :

- تقبل التجديد والتغيير .
- الميل الديمقراطى والقدرة على تقدير مشاعر الغير .
- الاتجاه الى الحاضر والمستقبل أكثر من الماضى .
- الاتجاه الى التخطيط .
- الاعتقاد فى مقدرة الانسان على السيطرة على بيئته .
- الثقة فى الآخرين واحترام كرامتهم .
- الثقة فى العلم والتكنولوجيا .
- الميل نحو الانجاز والعمل الفذ .

والدكتور عليوه يرى أن هذه الخصائص مؤشرات هادية للمشتغلين بتشكيل الرأى العام فى مجال الاعلام والثقافة والفنون والآداب وغيرها . وأن المحظور الرئيس فى هذا الخصوص هو أن تناى أجهزة الاعلام عن الثقافة الرخيصة ثقافة الاثارة والمسلسلات الفكاهية ، والسلع الاستهلاكية التى أصبحت الأفيون الجديد للجماهير . لأن مثل هذه الثقافة الجماهيرية الرخيصة لها طبيعة هروبية تمنع الناس من تطوير أذواقهم وذكائهم . وتهيؤهم لقبول مجتمع لا قيمة له ، وتحول بينهم وبين أدراك واقعهم وتشل ارادتهم ، وتصبح وسائل الاعلام مجرد سلع يشتريها الفرد لتساعده على الهروب ، وليملأ بها ساعات الفراغ بين العمل والنوم (١٨) .

والتنمية تعتمد أساسا على الجهد الذاتى للمجتمع ولقد أبرز الرئيس المصرى الراحل أنور السادات فكرة اعتماد التنمية على الجهد الذاتى للمجتمع بقوله : « ان التنمية الحقيقية للشعوب فى كافة المجالات الاجتماعية والاقتصادية يرتبط نجاحها بشروط أساسية : فمن ناحية ينبغى أن تنبع التنمية من الارادة الوطنية الحرة (١٩) ، وأن تنطلق من واقع كل مجتمع

وظروفه ، وأن يشارك فيها كل أبناء الوطن ، ومن ناحية أخرى فان التنمية تعتمد أيضا على التعاون الدولى ، والتضامن الحقيقى بين الشعوب وتبادل الخبرات والخدمات » .

فالتنمية أولا وقبل كل شيء قضية وطنية تعتمد على جهد الشعب نفسه ، وكل مساعدة خارجية يجب أن تضاف الى هذا الجهد لا أن تكون بديلا عنه . وبهذا المفهوم يمكن أن تتم التنمية فى اطار الحضارة القومية ، وليس بالتنكر لها ومحاكاة غيرها ، وبه أيضا يكون تنشيط الطاقات الخلاقة للمنتجين ، وتطوير وخلق التكنولوجيا المحلية ، وتطويع التكنولوجيا المستوردة . وفكرة الاعتماد على النفس لا تقتصر على مستوى الشعب فى مجموعة ، بل يجب أن تستقر فى كل تجمع بشرى داخله فى القرية والمصنع والمدرسة والمستشفى وما شابه ذلك . والوجه المكمل لأسلوب الاعتماد على النفس هو التعبئة من أجل التنمية . ولا تأتى هذه التعبئة بمجرد الوعظ ولا بمجرد التثقيف السياسى ، ولكن من خلال الممارسة الديمقراطية فى أرقى صورها وهى مشاركة المواطنين فى كل تجمع فى تسيير أمورهم ، ومشاركتهم على مستوى الدولة فى تصريف شئون البلاد السياسية والاقتصادية (٢٠) .

وعندما نتحدث عن البعد البشرى للتنمية تبرز أمامنا عدة قضايا رئيسية أهمها :

أولا : المشكلة السكانية .

ثانيا : مشكلة الادارة المتخلفة والقوانين القديمة .

ثالثا : مشكلة العمالة وهجرة العقول والأيدى العاملة .

اولا — المشكلة السكانية :

السكان كظاهرة اجتماعية تتكون من ثلاثة أوجه رئيسية (٢١) .

١ — أرقام واحصاءات سكانية ذات طابع اجتماعى .

٢ — سلوك انسانى معين تنتج كرد فعل للمشكلة السكانية ذات الطابع الاجتماعى .

٣ ــ سياسة سكانية معينة يضعها الأفراد والحكومات علاجا لما تقدم من مشاكل سكانية اجتماعية • ويدخل ضمن ذلك تنظيم النسل والسياسات السكانية وغير ذلك •

أما السكان كظاهرة اقتصادية فانها تدور حول أسئلة وموضوعات أهمها ما يلى :

● العدد الأمثل للسكان فى دولة ما وفى وقت ما •

● الى أى مدى تؤثر زيادة السكان على الاقتصاد القومى ؟

● ما هى العلاقة بين تزايد السكان وتوافر الطعام ، والاستهلاك والادخار والأجور ؟

وفى الواقع أن المدخل الى المشكلة السكانية كظاهرة اقتصادية يؤدى بنا مباشرة فى هذا العصر الى النظر اليها نظرة أيدلوجية • فقد وضع المفكر الانجليزى توماس روبرت مالتس فى سنة ١٧٩٨ نظريته المعروفة فى السكان ، والتى كان مؤداها أن السكان فى حالة عدم وجود العوائق يزيدون طبقا لمتواليه هندسية كل خمسة وعشرين سنة • ومعنى هذا أن نسبة الزيادة فى عدد السكان الى نسبة زيادة الانتاج الغذائى خلال قرنين من الزمان ستكون كنسبة ٢٥٦ : ٩ وبعد ثلاثة قرون تصبح ٤٠٩٦ : ١٣ • لأن النسب التى كانت فى ذهن مالتس هى :

● السكان : ١ــ٢ــ٤ــ٨ــ١٦ــ٣٢ــ٦٤ •

● وسائل العيش : ١ــ٢ــ٣ــ٤ــ٥ــ٦ــ٧ــ •

وكانت الوحدات الزمنية التى يمكن أن يتضاعف خلالها السكان فى وجهة نظره هى ٢٥ عاما ، ورأى مالتس أن حدوث ذلك سيؤدى الى الحروب والمجاعات والأوبئة والأمراض والخراب • وبطبيعة الحال أثبتت التجربة التاريخية خطأ مالتس وتقديراته • فقد أثبتت التنمية فى معظم بلدان العالم أن معدلات الزيادة فى الدخل أعلى من معدلات الزيادة فى السكان •

وتطورت نظريات السكان فى المجتمعات الرأسمالية بعد مالتس • وفى القرن التاسع عشر على وجه الخصوص انتشرت النظريات السكانية ذات الطابع الاقتصادى ، كدراسة جانبية للنظرية الكلاسيكية فى الاقتصاد السياسى • وكان لا بد للفكر الماركسى من أن يكون له رأى مخالف فى المشكلة السكانية • فالفكر الماركسى ينكر أصلا وجود مشكلة سكانية، وانما يرى أن المشكلة هى مشكلة توزيع عائد الانتاج على السكان فى المجتمع الرأسمالى • حيث تستأثر قلة من الرأسماليين بغالبية الدخل القومى • وترى الماركسية أنه لو تم توزيع الدخل القومى بطريقة عادلة لما وجدت مشكلة فى زيادة السكان •

ويرى الماركسيون أن تجربة تطبيق الاشتراكية أكدت وجهة نظرهم ، فبالقضاء على الرأسمالية زالت مشكلة البطالة والأفواه الزائدة ، وأصبحت كل زيادة فى عدد الأيدى العاملة تجد لنفسها مجالا للعمل فى الاقتصاد الوطنى الاشتراكى •

والنظريات المالتوسية وما بعدها ، ثم الماركسية لا تفسر مشكلة السكان فى البلدان النامية • لأن أيدلوجيات البلدان النامية ، وظروفها التاريخية والموضوعية تختلف فى مشكلتها السكانية • ولكنها برغم ذلك جزء من المشكلة السكانية العالمية •

ان جوهر المشكلة السكانية بالنسبة للتنمية هو أنه لابد من التوازن بين المواليد وخطط التنمية • أين تقع البلدان النامية على خريطة العالم السكانية ؟ • تنقسم دول العالم من حيث الدخل والكثافة الى أربع مجموعات :

(أ) الدول ذات الدخل المنخفض والكثافة المنخفضة • ومن أبرز دول هذه المجموعة الكنغوليوبولدفيل ، وأكوادور ، وكينيا ، وبيرو •

(ب) الدول ذات الدخل المنخفض والكثافة المرتفعة • ويمثل هذه المجموعة الهند ،وأندونيسيا ، والفلبين ، والصين ، واليونان ، ومصر •

(جـ) الدول ذات الدخل المرتفع والكثافة المرتفعة • وتمثلها : بلجيكا ، وسويسرا ، والمملكة المتحدة •

(د) الدول ذات الدخل المرتفع والكثافة المنخفضة . وتمثلها استراليا، ونيوزيلندا ، وكندا ، والنرويج ، والولايات المتحدة .

وتنتمى الدول النامية الى المجموعتين الأولى والثانية .

وقد تشكلت فى عام ١٩٦٨ ، لجنة رأسها ليستربيرسون رئيس وزراء كندا السابق ، تضم مجموعة من كبار المفكرين الاقتصاديين الغربيين ، الى جانب هيئة من أربعة عشر خبيرا فى مختلف ميادين التنمية ، وبعد عدة اجتماعات ، واجراء عدة دراسات وضعت اللجنة توصياتها والنتائج التى توصلت اليها وضمنتها تقريرا وافيا فى التنمية الدولية . وخصت ابطاء النمو السكانى فى الدول الكثيفة السكان بتوصية خاصة ، أكدت فيها أن المعرفة المرتبطة بتنظيم الأسرة ووسائلها يجب أن تتاح للجميع ، وأنه لا يجب أن يولد طفل غير مرغوب فيه . فالنمو السكانى السريع لا يؤثر فقط فى الوالدين والأسرة ، بل يؤدى الى الابطاء فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى فى كثير من الدول النامية ، ويتعين على الدول التى لم تدرك بعد أبعاد مشكلاتها السكانية أن تعرف أثرها على مجهودات التنمية فيها ، وأن تقوم بالعمل الملائم ، ويجب أن تمنح الدول التى بدأت فى تطبيق سياسات طموحة للاقلال من معدلات المواليد التأييد الفعال . فلا يمكن للدول التى تقدم المساعدات ان تكون غير عابئة ما اذا كانت المشكلات السكانية تلقى الاهتمام اللازم ، ويجب على الوكالات الثنائية والدولية أن تسرع فى اجراء تحليل ملائم لتلك المشكلات وأثرها على برامج التنمية . وعلى المنظمات الدولية أن تلعب دورا كبيرا وخاصة فى تدريب خبراء السكان وتنظيم الأسرة ، ورأت اللجنة أن معالجة وكالات الأمم المتحدة للمشكلات السكانية تحتاج الى توجيه وتنسيق حازمين .

وفى مصر تشير التقديرات بأن تعداد المصريين سيصل الى ٦٠ مليون عام ألفين ، وما زال الحد من الزيادة السكانية فى مصر يمثل خطوات بطيئة . والمشروع القومى لتنظيم الأسرة حديث العهد فى مصر . فقد صدر به قرار جمهورى فى ١٣ نوفمبر عام ١٩٦٥ ، ويقيم الدكتور على عجوة (٣٣) هذا المشروع فيرى أنه اعتبارا من عام ١٩٦٧ بدأ معدل المواليد فى الانخفاض بانتظام حتى وصل الى ٣٤٫٦ فى الألف عام ١٩٧١ مما أدى الى منع انجاب ما يقرب من مليون طفل خلال هذه الفترة .

وحقيقة أن هذا الانخفاض لا يمكن أن يعزى الى المشروع القومى لتنظيم الأسرة وحده ، فهناك عوامل أخرى ساعدت عليه فى مقدمتها :

(أ) حرب ١٩٦٧ والظروف اللاحقة عليها .

(ب) اجتذاب الخدمة العسكرية لعدد كبير من الشباب المقبل على الزواج .

(جـ) ارتفاع نسبة الزوجات المتعلمات .

(د) اضطرار كثير من الشباب الى تأجيل الزواج بسبب صعوبة العثور على مسكن ، بالاضافة الى ضخامة نفقات تأثيث البيت بالنسبة لامكانات الشباب .

(هـ) تقدم الخدمات الصحية وأثره فى خفض نسبة وفيات الأطفال مما أدى الى اطمئنان الزوجة الريفية على حياة طفلها .

وبالاضافة الى كل هذه العوامل ، فقد كان للمشروع القومى لتنظيم الاسرة دور ملموس بينها ، يؤكد ذلك ارتفاع عدد المترددات على مراكز تنظيم الأسرة .

ويفصل أحمد عبد الفتاح (٢٣) الخبير المصرى فى السكان تطور برامج تنظيم الأسرة فى مصر فى ثلاثة مراحل على النحو التالى :

١ — المرحلة من عام ١٩٦٥ الى عام ١٩٧٢ .

وحمل البرنامج اسم البرنامج القومى لتنظيم الأسرة . وهو برنامج تقليدى ، كان يهدف الى خفض معدل المواليد بمقدار واحد فى الألف سنويا . وما تحقق فى هذه المرحلة تجاوز الهدف ، وذلك لثلاثة أسباب هى : أ — ظروف الحرب فى عام ١٩٦٧ وما تلاها . ب — عائد التنمية الشاملة وأثر ذلك . جـ — اتاحة خدمات طبية ساعدت الأزواج فى تنظيم نسلهم .

٢ — المرحلة الثانية من عام ١٩٧٣ الى عام ١٩٨٢ .

حمل البرامج فى الفترة الثانية اسم تنظيم الأسرة والسكان ، وذلك بتحويل المجلس الأعلى لتنظيم الأسرة وجهازه التنفيذى ، الى المجلس الأعلى لتنظيم الأسرة والسكان وجهاز تنظيم الأسرة والسكان .

وقد أضيف عنصر السكان لأنه تبين أن السكان تشمل : النمو السكانى ، والتوزيع السكانى ، والخصائص السكانية • وبرغم ذلك ظل الهدف قاصرا على خفض معدل المواليد ، باستخدام عوامل اقتصادية واجتماعية : بالاضافة الى خدمات تنظيم الأسرة • وذلك برفع المستوى الاقتصادى والأجتماعى للأسرة ، وبالتعليم ، وباتاحة فرص لتشغيل المرأة ، وتصنيع الريف ، والميكنة الزراعية ، والضمان الاجتماعى، وما الى ذلك من العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى تساعد فى خفض معدل المواليد • ولم يحقق هذا البرنامج أهدافه وبدأ معدل المواليد فى الزيادة ، وذلك بسبب حالة الاسترخاء بعد الحرب ، وما صاحبها من طفرة فى الزواج بعد تسريح الجنود ، وبسبب تعثر التنمية الشاملة •

٣ ــ المرحلة الثالثة من عام ١٩٨٥ وحتى الآن •

وتبدأ هذه المرحلة بصدور القرار الجمهورى رقم ١٩ لسنة ١٩٨٥ بانشاء المجلس القومى للسكان وأمانته الفنية ، ليحل محل المجلس الأعلى لتنظيم الأسرة وجهازه • وأهداف هذه المرحلة هى : أ ــ خفض معدل النمو السكانى • ب ــ اعادة توزيع السكان • ج ــ الارتقاء بالخصائص السكانية •

وقد اعتمدت هذه السياسة الجديدة فى مايو ١٩٨٦ • كما اعتمدت الأهداف الكمية للسياسة القومية للسكان • أى أصبح لكل هدف سياسة كمية • وأعدت وثيقة لاستراتيجية السكان حتى عام ٢٠٠١ • كذلك أعد المكون السكانى فى خطة التنمية (١٩٨٧/١٩٨٨) الى (١٩٩١/١٩٩٢) متضمنا تسعة برامج لتدمج فى الخطة ، وتطبق بواسطة مؤسسات الدولة المختلفة •

ثانيا ــ مشكلة الادارة المتخلفة والقوانين القديمة :

الادارة لازمة لكل جهد جماعى سواء كان خاصا أو عاما كبيرا أو صغيرا • ولكن تبرز أهمية الادارة بصفة خاصة فى البلدان النامية التى تجاهد وتقاوم كل ظروف التخلف لتطوير اقتصادها وتنميته • وتزداد هذه الأهمية بالنسبة للبلدان التى تتخذ الطريق الاشتراكى سبيلا الى تقدمها الاقتصادى والاجتماعى • ذلك لأن هذه البلدان تبدأ فى تشييد

أجهزة ادارية لتنفيذ مشروعات جديدة ومتطورة ، ومن ثم تحتاج الى خبرات ادارية ممتازة لادارة هذه المشروعات . وتستعين الحكومات والمؤسسات بخبراء الادارة الوطنيين والأجانب لدراسة وسائل اصلاح وتطوير أجهزتها الادارية ، واقتراح ما يجدونه مناسبا من لوائح وقوانين، تيسر سبل الانتاج والخدمات . وكثيرا ما أعان أمثال هؤلاء الخبراء الحكومات فى تطوير أجهزتها الادارية ، كما أعانوا مؤسسات وشركات تجارية كانت على وشك الافلاس بسبب ضعف الانتاج أو سوء الخدمة الذى يرجع الى سوء الأساليب الادارية .

وعندما نتحدث عن أهمية الادارية بالنسبة للبلدان النامية فان ذلك لا ينفى أهميتها لسائر بلدان العالم ، بل على العكس من ذلك فان البلدان المتقدمة لديها من الأساليب الادارية ومن الاطارات المتخصصة — فى علم وفن الادارة — ما يفوق كثيرا تلك البلدان التى تسعى الى تجاوز التخلف. ولكن الادارة فى البلدان النامية تبدو مشكلة اجتماعية وسياسية، لأن بعض المشروعات الحيوية والهامة تدار بطريقة ارتجالية . وقد يرتفع شعار التجربة والخطأ ، أو يرتفع شعار مدير من أهل الثقة خير من مدير من أهل الخبرة . وفى مثل هذين الشعارين البعد كل البعد عن الادارة العلمية وأساليبها .. بل ان استخدام مثل هذه الشعارات يعد تغطية لجهل بعض المديرين بأسس الادارة وأساليبها العلمية ، والتماسا لمبرر يضع الرجل فى غير ما يستحق من مناصب ، وعندما تملأ الوظائف الرئيسية فى الادارة بالمحاسيب والأصدقاء والمعارف ، وتلقى الكفاءات والقدرات الادارية فى سلة المهملات تصبح القاعدة هى عدم الكفاءة ، وتنتقل هذه الظاهرة أو العدوى الى الهرم الادارى حتى قاعدته فى مستويات التنفيذ الصغيرة . ويصبح الفشل أمرا مؤكدا . ان الأصول العلمية لا ترسم طريق النجاح للاداريين وحسب بل وتبرز الضوء الأحمر الذى يجنبهم انهيار وفشل المشروعات . وهكذا نرى أنه لا يمكننا فصل الادارة عن الظروف التى يعيشها أى مجتمع بأبعاده الاقتصادية والثقافية بل والتاريخية أيضا .

ان مشكلة الادارة فى البلدان النامية تبدأ بأن الاستعمار دائما يترك هذه البلدان وهى فى الحضيض اقتصاديا واجتماعيا ، والتخلف يؤدى الى مزيد من التخلف كما أن التقدم يؤدى الى مزيد من التقدم ، فالعجلة الاقتصادية الدائرة تزيد سرعتها بالدوران ، أما العجلة الراكدة فانها تحتاج الى جهد هائل لتدور وتنطلق .

ويؤثر مستوى الثروة الوطنية من البنية الأساسية على امكانية الادارة (٣٤) فى استخدام التسهيلات مثل المبانى والطرق والكبارى والسدود والموانى ، وفى استخدام الثروات الطبيعية مثل الغابات والأنهار والمزارع ، والموارد الاقتصادية من فحم وحديد وخشب وغير ذلك • كما أن مستوى الثروة العقلية (رأس المال البشرى) له تأثير فى القدرة على الابتكار والانطلاق •

وتؤثر القدرة أو الوفرة تأثيرا كبيرا على حرية الاداريين فى التصرف • ففى المجتمعات الغنية يستطيع الادارى استخدام التليفون فى دقيقة ليجرى محادثة تليفونية للموردين للحصول على المواد الخام • ويمكن للادارى الالتجاء الى سوق العمل والمكاتب المتخصصة ليحصل على عمال مهرة فى كل صناعة • أما فى البلاد المتخلفة فقد لا يكون هناك موردون متخصصون • فاذا وجدوا فقد لا يكون لديهم تليفون • وان وجد التليفون فقد يكون معطلا • واذا وجد التليفون فقد لا توجد وسائل النقل السريعة • ويجب أن ندرك تماما أن الادارة وهى تواجه هذه المشاكل فى البلدان النامية مسئوليتها الأولى هى حل هذه المشاكل وايجاد الوسائل البديلة والحاسمة •

وكما تسبب الندرة مشاكل فان الوفرة فى المجتمعات الغنية تسبب مشاكل ادارية من نوع مختلف • فان وفرة الموارد والانتاج الزائد قد يؤدى الى افلاس بعض المؤسسات فى النظم الرأسمالية • أو على الأقل التأثير على هذه المؤسسات تأثيرا بالغا • والتغييرات الفنية مثلا قد تؤدى الى بطالة جزئية وانتاج زائد عن الحد • وهذه المشاكل الادارية فى البلدان الرأسمالية والغنية تجد من يحاول ايجاد الحلول لها •

ويهمنا أن نؤكد مسئولية الادارى فى المجتمعات النامية من زاويتين رئيسيتين الأولى هى ضرورة تغليب المصلحة العامة على المصلحة الشخصية ، لأن مصلحة المجتمع لابد أن تقود فى النهاية الى مصلحة الجميع ، ولأن الفساد يدب فى المنشآت عندما يصبح تنفيذ المشروعات على أساس مدى مساهمتها فى تحقيق مصالح بعض الأفراد ويجاد المناصب لهم ، وبذلك يتم تحوير المصالح العامة لخدمة المصالح الشخصية • والزاوية الثانية فى مسئولية الادارى هى الرغبة فى التغيير والعمل على

تغيير الواقع المتخلف الى واقع متقدم • والبعد عن قبول الأمور كما هى والتواكل المتنافى مع القيم الدينية فى العمل والاتقان •

هذه هى مسئولية الادارة بصفة عامة فى المجتمع ككل ، ولكن ما هى المسئولية الاجتماعية لادارة ما بشىء من التحديد ؟ ان الادارة (ادارة أى منشأة) تجد نفسها أمام عدة مصالح غالبا ما تكون متعارضة ، وهى مصالح العاملين فى المنشأة ، ومصالح المستهلكين ، ومصالح المستثمرين • ان العاملين يرغبون فى أن تدفع لهم الادارة أجرا أعلى ، وتوجد لهم ظروف عمل أحسن ، وتقدم لهم خدمات أكثر • والمستهلكون يرغبون فى أن تقدم لهم الادارة بضائع أو خدمة أجود ، وبأسعار أرخص • والمستثمرون يرغبون فى ان تحقق لهم الادارة الربح • والاقتصاديون يعتبرون أن مسئولية الادارة هى (٢٥) فى الاستخدام الأمثل للموارد الطبيعية • وتعتبر الحكومة أن المسئولية الاجتماعية للادارة — فى ظل النظام الحر للأعمال — هى المساهمة فى ايجاد جو ملائم للاعمال ، والمساهمة فى التقدم الاقتصادى ، وفى عدم احداث تضخم • بينما تعتبر المسئولية الاجتماعية للادارة — فى ظل نظام الأعمال الجماعية — هى فى الوصول الى الأهداف الموضوعية من قبل الهيئة المركزية للتخطيط •

ان المسئولية الاجتماعية للادارة تتحقق بمدى التوازن بين مختلف عناصر المجتمع من عاملين ومستثمرين ومستهلكين • وهو ما تشير اليه المعادلة المشهورة فى التنمية والتى تقول بأن الانفاق الاستهلاكى + الانفاق الاستثمارى + الانفاق الحكومى = كمية الوحدات المنتجة × أسعارها ، حيث الانفاق الاستهلاكى هو مجموع ما ينفقه المستهلكون ، والانفاق الاستثمارى هو مجموع الاستثمارات الجديدة ، والانفاق الحكومى هو مجموع ما تنفقه الحكومة • وترتيبا على ذلك فان زيادة الأجور للعاملين لابد وأن تؤدى الى زيادة الانفاق الاستهلاكى • فاذا لم تكن هناك زيادة فى الانتاج فان النتيجة هى ارتفاع الأسعار ، وهو ما يعرف بالتضخم النقدى ، حيث تقل القيمة الشرائية للنقود •

ومن هنا يبرز دور الادارة ومسئولياتها الاجتماعية فى وقف التضخم النقدى بزيادة الكفاية الانتاجية • وذلك بزيادة الانتاج بنفس العناصر المستخدمة • وفى نفس الوقت فان الادارة مسئولة عن المساهمة فى زيادة الرخاء وتقليل أو تخفيف حدة أوقات الكساد فى المجتمعات الرأسمالية

ـ وذلك بالاستمرار فى الاستثمارات الجديدة ، من أجل تحقيق التوظف الكامل ، حيث توجد وظيفة لكل قادر على العمل يرغب فيه • والادارة تحقق كل ذلك فى اطار حركة المجتمع ، وبتحقيق التوازن والانسجام بين مصالح الناس •

وتقف البيروقراطية والقوانين العتيقة حجر عثرة أمام التنمية • لذلك لابد من أن تصاحب التنمية ثورة ادارية • وأن يكون تحقيق الأهداف هو جوهر العمل الادارى بغض النظر عن الاهتمام بالشكل الذى يقود غالبا الى المظهرية • ففى عام ١٩٨٣ مثلا عندما بحث البنك الدولى أسباب انصراف الفلاح فى « غانا » عن زراعة الكاكاو ، تبين أنه يحصل على ثلث الثمن الحقيقى للمحصول ، لأن مجلس تسويق الكاكاو يوظف فى ادارته ٩٠ ألف موظفا ، فهبط محصول غانا فى الكاكاو من ٥٠٠ ألف طن الى ١٥٠ ألف طن •

وحل المشكلات الادارية فى البلدان النامية لابد أن ينبع من واقعها ومن ظروفها الادارية • نضرب مثلا بمشكلة المركزية ومشكلة اللامركزية ولكل ايجابياتها وسلبياتها • فكيف تواجه الادارة فى البلدان النامية هذه المشكلة ؟

ان التوازن بين المركزية واللامركزية فى اطار المشاركة الجماهيرية فى التنمية (٣٦) ضرورة واقعية • « ان جهاز التخطيط الاقتصادى والادارى فى معظم الدول النامية ، يعتمد على جهاز مركزى موحد مسئول عن وضع الخطط ـ وفى أغلب الأحيان ـ تنفيذها أيضا • هذه الأجهزة لها فى بعض الأحيان دور استشارى (مجلس تخطيط) أو دور ادارى وتنفيذى (وزارة تخطيط) ولكن الجدير بالاهتمام هو أن المركزية الشديدة مضرة ، لأنها تضع خطة واحدة لقطر كامل واسع مختلف الاقاليم ، فى حين أن اللامركزية تراعى الظروف الاقليمية لكل اقليم داخل القطر ، والمشكلة هى أن خلق أجهزة لامركزية عديدة يترتب عليه أعباء مالية ، كما أن كثرة الأجهزة اللامركزية لا يحل مشكلة البيروقراطية ، بل فى أحيان كثيرة يعطل التنمية ويقلل من نشاط الأجهزة » •

ولأن العمل الادارى يحوى عنصرا ماديا يتمثل فى المواد الخام والآلات وما شابه ذلك ، وعنصرا بشريا يتمثل فى العمال والمهندسين والمفكرين والاداريين ، لذلك لابد من أن يكون العنصر البشرى فى

الادارة على أعلى قدر من الكفاية والتطوع الاختيارى والحماس لاحراز التقدم •

ثالثا ــ مشكلة العمالة وهجرة العقول والايدى العاملة :

ان الدول النامية لا تصدر الى البلدان الغنية المواد الخام وحسب ، وانما تهاجر العقول والأيدى العاملة من مناطق التخلف الى مناطق التقدم ، بحثا وراء فرص أوسع ، أو انسياقا لاغراءات ، أو هروبا من عقد ومضايقات الادارة المتخلفة •

وتحاول بعض الدول النامية عندما تأخذ بأسباب التقدم أن تشجع عودة علمائها المغتربين ، كما تفعل العراق من خلال القوانين التى أصدرتها عام ١٩٧٤ وشملت العلماء العرب جميعا • أو تحاول الدول النامية الاستفادة بخبرات علمائها المغتربين من خلال مؤتمرات يحضرها العلماء المغتربون فى أوطانهم ، وتناقش فيها قضايا التنمية ويسهمون بأفكارهم وآرائهم فى القضايا المطروحة للنقاش ، كما فعلت مصر عام ١٩٧٤ أيضا•

وبرغم البطالة المقنعة التى يعانى منها المجتمع النامى ، وبخاصة فى الريف ، نجد أن ندرة العمال الفنيين المدربين تشكل عقبة فى سبيل التنمية • فكم تسوء الأحوال عندما يهاجر عدد من هذه القلة المدربة !! ومن الحلول لهذه المشكلة التى تصاحب التنمية أن الدولة فى خطتها تزيد العمالة فى بعض المصانع الجديدة عن العدد اللازم ، وذلك الاستفادة من العمالة المدربة فى التوسعات وفى اقامة مصانع أخرى • ومن هنا نرى أهمية القطاع العام فى التنمية ، والمعنى التطبيقى للقول بأن القطاع العام ينبغى أن يقود عملية التنمية •

المشكلة اذن ذات شقين : أولهما هجرة العقول ، وثانيهما هجرة الأيدى العاملة • وهجرة العقول تتخذ مظهرا عالميا ، فى حين تتخذ هجرة الأيدى العاملة مظهرا جغرافيا ، أو مظهر العلاقة الاستعمارية بين الدولة الأم ومستعمراتها •

وعلى مدى التاريخ تهاجر العقول فرارا من ظروف القهر المحلى • أو تهاجر الى مراكز الاشعاع يشدها نور المعرفة • أما فى عصرنا هذا فان الدولار الامريكى يمثل أكبر جذب للعقول المهاجرة • فبريطانيا مثلا تأتى

فى أول القائمة التى تخرج منها الكفايات الفنية العاليـة الى الولايات المتحدة تليها المانيا الغربية . هكذا الحـال بالنسبة لبريطانيا والمانيـا الغربية ، فكيف حال هجرة العقول من البلدان النامية ؟ ان الاحصائيات التى تنشر بين الحين والآخر ، والتى تزداد يوما بعد يوم ، تقدم صورة خطيرة لاستنزاف القوى البشرية فى العالم الثالث واحتوائها فى العـالم المتقدم . ان ٨٠٪ مثلا من الطلبة الآسيويين ممن ترسلهم بلدانهم فى بعثات الى الولايات المتحدة يبقون فيها بعد حصولهم على الدرجات العلمية والتخصص الدقيق . ويقرب عدد الأطبـاء الأجانب من أبنـاء العالم الثالث فى بريطانيا من النصف .

وتنحصر أسباب هجرة العقول والكفاءات الفنية من العالم الثالث الى العالم المتقدم الرأسمالى فيما يلى :

١ ـ سوء الأوضاع السياسة والعلمية والادارية فى بلدانهم ممـا يجعل الباب أمامهم مسدودا فى التقدم أو البحوث العلمية وربما كانت الأبواب المفتوحة دائما فى بعض بلدانهم هى أبواب المعتقلات بسبب ما يحملونه من آراء وما يعتقدونه من أفكار .

٣ ـ البطالة المقنعة فى الأوساط العلمية فى البلدان الناميـة بسبب عجز الادارة والحكومة عن خلق أوجه النشاط العلمى أو اسـتكمال وتجهيز المراكز العلمية .

٣ ـ المرتبات المغرية التى يتقاضاها هؤلاء الخبراء بالنسبة لمرتباتهم فى أوطانهم والتى تبلغ ٢٠ ضعفا فى بعض الأحيان ، هذا الى جانب ما توفره البلدان الغنية فى مراكزها العلمية والاكاديمية من فرص تحقيق الذات للعلماء .

ولقد أصبحت هجرة العقول والكفاءات من البلدان الناميـة الى البلدان المتقدمة مرضا مزمنا يحس به المواطن العادى فى البلد النامى . ولا شك أن مواجهة هذا الاستنزاف يقتضى وضع الحـلول المناسـبة والمقنعة لهذه الثروة البشرية فى عدم استمرار الاستنزاف من جانب ، وفى محاولة الاستفادة ممن استوطنوا البلدان المتقدمة من جانب آخر . ومهما اغترب الانسان وتحت أية ظروف فان وتر الوطنية يظل باقيا ويحتاج الى من يجعله مشدودا ومفيدا .

ووفق البيانات الاحصائية لمنظمة الصحة العالمية يتبين ارتفاع نسبة الأطباء العاملين فى الولايات المتحدة الأمريكية والقادمين من دول العالم النامى ، وبخاصة البلدان الاسلامية (٣٧) ، ويبين الجـدول التالى النسب المئوية للزيادة فيما بين عامى ١٩٧٠ و ١٩٧٤ :

أسم البلد	العدد فى عام			النسبة المئوية
	١٩٧٠	١٩٧٢	١٩٧٤	١٩٧٠—١٩٧٤
ايران	١٦٣١	٢٨٠٢	٢٣٦٢	+٤٤,٨٪
باكستان وبنجلاديش	٧٨٤	١١٥٢	١٣٩١	+٧٧,٤٪
مصر	٧٣٢	١٠٠٦	١١٩٨	+٦٣,٧٪
تركيا	٨٦٦	٩٨٥	١٠١٤	+١٧,١٪

أما هجرة العمال فالصورة الاساسية فيها هى هجرة أبناء البلدان النامية من المغرب العربى الى فرنسا ، وهجرة الباكستانيين والهنود الى بريطانيا والاتراك الى المانيا الغربية ، الى جانب أبناء المستعمرت الافريقية الموزعين على البلدان الأوربية الثلاثة وعدد من أبناء المغرب العربى يعملون فى المانيا الغربية • هذه بصفة عامة الملامح الرئيسية للعمال المهاجرين من أبناء العالم الثالث ، وبخاصة المغرب العربى ، الى أوربا الغربية • ويقدر عدد العمال المهاجرين من البلدان النامية الى أوربا الغربية رسميا بما يقرب من ٢ مليون ولكنهم فعليا أكثر من ذلك •

وبقاء هؤلاء العمال فى بلدان المستعمرات هو امتـداد للاستنزاف الاستعمارى لهذه البلدان فى مختلف الوجوه ، وهم يعملون ــ فى غالبيتهم العظمى ــ أعمالا يرفض الأوربى عادة أن يقوم بها ، مثل النظافة وأعمال البناء وبقية الاعمال الشاقة التى يأنف الأوربى بصفة عامة أن يؤديها • وبقاء هؤلاء العمال فى بلدان المستعمرات مرتبط أيضا بالظروف السيئة التى تعانيها أوطان هؤلاء العمال ، والتى لاتتيح لكل طالب عمل فرصة للعمل •

والقضية التى ينبغى أن تطرح على قيادات البلدان النامية التى تكثر هجرة عمالها الى البلدان المتقدمة هى كيفية الاستفادة من هـذه الطـاقة البشرية فى المهجر ؟ كيف ترعى هذه القوى البشرية وكيف تقيم جسورا بينها وبين الوطن وتربطهم بالمستقبل الحضارى لأوطانهم ، وتضمن لهم اقامة معقولة فى المهجر وعودة كريمة عند العودة ، وتجعل من بقائهم فى المهجر عنصرا ايجابيا وليس عبئا ونقطة ضعف مزمنة ؟ .

البعد الدولى للتنميـــة :

يبدو البعد الدولى للتنمية أمام الباحث وكأنه مشكلة ملتهبة ، أشد التهابا من موضوع نزع السلاح ، أو الحرب الباردة . فنحن نســمع التهديد من بعض الدول الغنية باحتلال منابع البترول فى البلدان النامية سافرا بغير حياء ، ونحن نشهد الحوار بين الدول الغنية والبلدان النامية أشبه بمنطق قارب النجاة الذى تحدثنا عنه فى نظريات التنميـــة . لماذا يبدو البعد الدولى للتنمية مشكلة ملتهبة ؟

لأنها مشكلة متشابكة شديدة التشابك ، ولأنها صورة من صــور الصراع بين استغلال الأغنياء للفقراء ، وبين حق الفقراء فى نظام اقتصادى أكثر عدلا . وهى ملتهبة لأن الأغنياء لا يريدون الاعتراف بحق الفقراء ، ولأنهم لا يصدقون أو يعترفون باليوم الذى أصبح فيه أبناء مستعمرات الأمس شركاء فى التنمية اليوم .

لقد تعود الغربيون لفترة طويلة [٢٨] — ولا سيما منذ أواخر القرن التاسع عشر — أن يعتبروا أن حدود العالم هى حدود أوروبا وامتدادها فى أمريكا الشمالية . وكانت دولهم هى وحدها التى تشكل مجتمع الأمم. أما العالم الثالث فلم يكن الا مستعمرات ، لذلك فان أكبر العوائق أمام الجهود الرامية لاقامة نظام اقتصادى عالمى جديد هو عدم اعتراف الأوربيين والأمريكيين بحقائق التاريخ وواقع العصر . فشعوب العالم الثـالث لا تقنع باستقلال شكلى ، وانما هى تحس أنها أغلبيــة البشرية ، وأن أرضها وبحارها تضم كثيرا من الموارد التى لا غنى عنها للصناعة الحديثة. انها ترحب بالتعاون وترفض الاستغلال ، ولم تعد القوة تخيفها . فقـد تزعمت دول الأوبك لأول مرة فى التاريخ الحديث المبادرة بقرارات تؤثر فى الاقتصاد العالمى كله . وحاول منتجو كثير من المواد الأولية الأخرى

أن يسلكوا نفس السبيل • وبرغم سطوة الدول الغنية وسيطرتها على الأسواق ، ونجاح خطتها فى خفض سعر البترول ، برغم ذلك كله فان محاولات الدول النامية فى التجمع ظاهرة ايجابية •

ولقد أصبح الكثير من خبراء السياسة والاقتصاد لا يكتفون بتسمية الدول النامية بالعالم الثالث ، على أساس أن العالم الأول يمثل البلدان الغنية الرأسمالية ، والعالم الثانى يمثل الكتلة الشيوعية المتقدمة ، وأصبح اصطلاح العالم الرابع على السنتهم تعبيرا عن الدول الأكثر فقرا والتى يقل دخل لفرد فيها منسوبا الى الدخل القومى عن مائة دولار فى السنة •

والبعد الدولى للتنمية الذى أبرزته وقائع التاريخ المعاصر كمشكلة ملتهبة نتيجة لبروز دول العالم الثالث الى الساحة الدولية ، أبرزته أيضا وسائل الاتصال الحديثة التى جعلت العالم بأسرة أشبه بقرية واحدة •

ومشاكل التنمية على المستوى الدولى تشغل الدول الغنية أكثر مما تشغل الدول الفقيرة ، لأن الدول الغنية تسعى الى تصريف منتجاتها فى أسواق العالم الثالث • فماذا يحدث لو وصل الفقر ببلدان هـذا العالم الثالث الى الحد الذى لا يستطيعون فيه شراء ما تنتجه مصانع الدول الغنية ؟!• وتريد الدول الغنية أن تحمى مستقبلها بأن تطور حياة الدول الفقيرة بالقدر الذى لا يسمح بانهيار النظام الاقتصادى العالمى الذى يخول للاغنياء استمرار وازدهار ثرائهم وتفوقهم •

و فى مقدمة تقرير البنك الدولى عن التنمية فى العالم عام ١٩٨٦ (٢٩) يذكر التقرير ان انتاج أكبر خمسة اقتصاديات صناعية قد نما بنسبة ٣٪ فى عام ١٩٨٣ ثم بنسبة ٢ر٤٪ فى عام ١٩٨٤ ، وفى البلدان النامية زاد النمو فى الناتج من ٢٪ عام ١٩٨٣ الى ٤ر٥٪ فى عام ١٩٨٤ • غير أن النمو — كما يقول التقرير — وان استمر فقد تباطأ مؤخرا • وقد انخفضت فى أكبر خمسة اقتصاديات صناعية معدلات النمو الى ٨ر٢٪ فى عام ١٩٨٥ • وظلت معدلات البطالة وأسعار الفائدة الحقيقة مرتفعة •

وفى البلدان النامية تباطأ النمو فى عـام ١٩٨٥ الى ٤ر٤٪ . وبرغـم الانخفاض الأخير فى أسعار النفط وأسعار الفائدة الحقيقة والتضخم فان عددا كبيرا من البلدان النامية مستمر فى مواجهة مشكلات خطيرة ستؤدى الى الحد من النمو فى المدى المتوسط » .

وقد عرض تقرير البنك الدولى المؤشرات الاحصائية التالية بما يقترب من صورة المرصد العالمى للتنمية :

	السكان (بالمليون) منتصف ١٩٨٤	المساحة (بالألف كيلو متر مربع)	نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى دولارات ١٩٨٤	نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى متوسط النمو السنوى (نسبة مئوية) ٦٥–١٩٨٤ب	متوسط المعدل السنوى للتضخم (نسبة مئوية) ٦٥–١٩٧٣	متوسط المعدل السنوى للتضخم (نسبة مئوية) ٧٣–١٩٨٤ج	العمر المتوقع عند المولد (سنوات) ١٩٨٤
الاقتصاديات منخفضة الدخل							
١ – أثيوبيا	٤٢,٢	١٢٢٢	١١٠	,٤	١,٨	٤,٤	٤٤
٢ – بنغلاديش	٩٨,١	١٤٤	١٣٠	,٦	٧,٣	٩,٩	٥٠
٣ – مالى	٧,٣	١٢٤٠	١٤٠	١,١	٧,٦	١٠,٤	٤٦
٤ – زائير	٢٩,٧	٢٣٤٥	١٤٠	-١,٦	١٨,٧	٤٨,٢	٥١
٥ – بوركينا فاسو	٦,٦	٢٧٤	١٦٠	١,٢	٢,٦	١٠,٦	٤٥
٦ – نيبال	١٦,١	١٤١	١٦٠	,٢	٥,٨	٨,١	٤٧
٧ – بورما	٣٦,١	٦٧٧	١٨٠	٢,٣	٢,٨	٦,٠	٥٨
٨ – ملاوى	٦,٨	١١٨	١٨٠	١,٧	٤,٥	٩,٤	٤٥
٩ – النيجر	٦,٢	١٢٦٧	١٩٠	-١,٣	٤,٠	١١,٥	٤٣
١٠ – تنزانيا	٢١,٥	٩٤٥	٢١٠	,٦	٣,٢	١١,٥	٥٢
١١ – بوروندى	٤,٦	٢٨	٢٢٠	١,٩	٢,٩	١٢,٢	٤٨
١٢ – أوغندا	١٥,٠	٢٣٦	٢٣٠	٢,٩	٥,٦	٦٤,٥	٥١
١٣ – توغو	٢,٩	٥٧	٢٥٠	,٥	٣,١	٨,٢	٥١
١٤ – جمهورية أفريقيا الوسطى	٢,٥	٦٢٣	٢٦٠	-٠,١	٣,٠	١٣,٨	٤٩
١٥ – الهند	٧٤٩,٢	٣٢٨٨	٢٦٠	١,٦	٦,٣	٧,٨	٥٦
١٦ – مدغشقر	٩,٩	٥٨٧	٢٦٠	-١,٦	٤,١	١٤,٤	٥٢
١٧ – الصومال	٥,٢	٦٣٨	٢٦٠	—	٣,٨	٢٠,٢	٤٦
١٨ – بنن	٣,٩	١١٣	٢٧٠	١,٠	٣,٦	١٠,٨	٤٩
١٩ – رواندا	٥,٨	٢٦	٢٨٠	٢,٣	٧,٧	١٠,٥	٤٧
٢٠ – الصين	١٠٢٩,٢	٩٥٦١	٣١٠	٤,٥	-٠,٩	١,٨	٦٩

	السكان (بالمليون) منتصف ١٩٨٤	المساحة (بالألف كيلو متر مربع)	نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي دولارات ١٩٨٤	متوسط النمو السنوي (نسبة مئوية) ٦٥–١٩٨٤ب	متوسط المعدل السنوي للتضخم (نسبة مئوية) ٦٥–١٩٧٣	متوسط المعدل السنوي للتضخم (نسبة مئوية) ٧٣–١٩٨٤	العمر المتوقع عند المولد ١٩٨٤
٢١ — كينيا	١٩,٥	٥٨٣	٣١٠	٢,١	٢,٣	١٠,٨	٥٤
٢٢ — سيراليون	٣,٧	٧٢	٣١٠	٠,٦	١,٩	١٥,٤	٣٨
٢٣ — هايتي	٥,٤	٢٨	٣٢٠	١,٠	٤,٠	٧,٩	٥٥
٢٤ — غينيا	٥,٩	٢٤٦	٣٣٠	١,١	٣,٠	٤,٥	٣٨
٢٥ — غانا	١٢,٣	٢٣٩	٣٥٠	١,٩—	٨,١	٥٢,٢	٥٣
٢٦ — سري لانكا	١٥,٩	٦٦	٣٦٠	٢,٩	٥,١	١٤,٩	٧٠
٢٧ — السودان	٢١,٣	٢٥,٦	٣٦٠	١,٢	٧,٢	١٩,٣	٤٨
٢٨ — باكستان	٩٢,٤	٨٠٤	٣٨٠	٢,٥	٤,٨	١٠,٨	٥١
٢٩ — السنغال	٦,٤	١٩٦	٣٨٠	٠,٥—	٣,٠	٩,٠	٤٦
٣٠ — أفغانستان	٠٠	٦٤٨	٠٠	٠٠	٣,٨	٠٠	٠٠
٣١ — بوتان	١,٢	٤٧	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٤٤
٣٢ — تشاد	٤,٩	١٢٨٤	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٤٤
٢٣ — كمبوتشيا الديمقراطية	٠٠	١٨١	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
٢٤ — جمهورية لاو الديمقراطية الشعبية	٣,٥	٢٣٧	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٤٥
٣٥ — موزامبيق	١٣,٤	٨٠٢	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٤٦
٢٦ — فيتنام	٦٠,١	٣٣٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٦٥
ذات الدخل المتوسط المنخفض							
٣٧ — موريتانيا	١,٧	١٠٣١	٤٥٠	٠,٣	٣,٩	٧,٧	٤٦
٣٨ — ليبريا	٢,١	١١١	٤٧٠	٠,٥	١,٥	٦,٧	٥٠
٣٩ — زامبيا	٦,٤	٧٥٣	٤٧٠	١,٣—	٥,٨	١٠,٤	٥٢

٤٠ – ليسوتو	١,٥	٣٠	٥٢٠	٥,٩	٤,٤	١١,٩	٥٤
٤١ – بوليفيا	٦,٢	١٠٩٩	٥٤٠	٠,٢	٧,٥	٥٤,٥	٥٣
٤٢ – أندونيسيا	١٥٨,٩	١٩١٩	٥٤٠	٤,٩	٦٣,٠	١٧,٤	٥٥
٤٣ – الجمهورية العربية اليمنية	٧,٨	١٩٥	٥٥٠	٥,٩	..	١٢,٦	٤٥
٤٤ – جمهورية اليمن الديمقراطية	٢,٠	٣٣٣	٥٥٠	..	..	..	٤٧
٤٥ – ساحل العاج (كوت دوفوار)	٩,٩	٣٢٢	٦١٠	٠,٢	٤,١	١١,٧	٥٢
٤٦ – الفلبين	٥٣,٤	٣٠٠	٦٦٠	٢,٦	٨,٨	١٢,٩	٦٢
٤٧ – المغرب	٢١,٤	٤٤٧	٦٧٠	٢,٨	٢,٠	٨,٣	٥٩
٤٨ – هندوراس	٤,٢	١١٢	٧٠٠	٠,٥	٢,٩	٨,٦	٦١
٤٩ – السلفادور	٥,٤	٢١	٧١٠	٠,٦–	١,٦	٨,٦	٦١
٥٠ – بابوا غينيا الجديدة	٣,٤	٤٦٢	٧١٠	٠,٦	٦,٦	٦,٨	٥٢
٥١ – جمهورية مصر العربية	٤٥,٩	١٠٠١	٧٢٠	٤,٣	٢,٦	١٣,١	٦٠
٥٢ – نيجيريا	٩٦,٥	٩٢٤	٧٣٠	٢,٨	١٠,٣	١٣,٠	٥٠
٥٣ – زمبابوى	٨,١	٣٩١	٧٦٠	١,٥	١,١	١١,٤	٥٧
٥٤ – الكاميرون	٩,٩	٤٧٥	٨٠٠	٢,٩	٥,٨	١٢,٨	٥٤
٥٥ – نيكاراغوا	٣,٢	١٣٠	٨٦٠	١,٥–	٣,٤	١٧,٢	٦٠
٥٦ – تايلند	٥٠,٠	٥١٤	٨٦٠	٤,٢	٢,٥	٨,٢	٦٤
٥٧ – بتسوانا	١,٠	٦٠٠	٩٦٠	٨,٤	٤,٤	٩,٨	٥٨
٥٨ – جمهورية الدومينكان	٦,١	٤٩	٩٧٠	٣,٢	٢,٧	٩,٠	٦٤
٥٩ – بيرو	١٨,٢	١٢٨٥	١٠٠٠	٠,١–	١٠,١	٥٦,٧	٥٩
٦٠ – موريشيوس	١,٠	٢	١٠٩٠	٢,٧	٥,٦	١٢,٧	٦٦
٦١ – جمهورية الكونغو الشعبية	١,٨	٣٤٢	١١٤٠	٣,٧	٤,٦	١٢,٣	٥٧
٦٢ – اكوادور	٩,١	٢٨٤	١١٥٠	٣,٨	٦,٢	١٧,٨	٦٥
٦٣ – جامايكا	٢,٢	١١	١١٥٠	٠,٤–	٥,٩	١٦,٦	٧٣
٦٤ – غواتيمالا	٧,٧	١٠٩	١١٦٠	٢,٠	١,٩	٩,٤	٦٠
٦٥ – تركيا	٤٨,٤	٧٨١	١١٦٠	٢,٩	١٠,٥	٤٢,٤	٦٤

	السكان (بالمليون) منتصف ١٩٨٤	المساحة (بالألف كيلو متر مربع)	نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي: دولارات ١٩٨٤	نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي: متوسط النمو السنوي (نسبة مئوية) ١٩٦٥–١٩٨٤	متوسط المعدل السنوي للتضخم (نسبة مئوية) ١٩٦٥–١٩٧٣	متوسط المعدل السنوي للتضخم (نسبة مئوية) ١٩٧٣–١٩٨٤	العمر المتوقع عند المولد (سنوات) ١٩٨٤
١١٢ – فنلندا	٤٫٩	٣٣٧	١٠٧٧٠	٣٫٣	٧٫٢	١٠٫٧	٧٥
١١٣ – ألمانيا الاتحادية	٦١٫٢	٢٤٩	١١١٣٠	٢٫٧	٤٫٧	٤٫١	٧٥
١١٤ – الدانمرك	٥٫١	٤٣	١١١٧٠	١٫٧	٧٫٦	٩٫٤	٧٥
١١٥ – أستراليا	١٥٫٥	٧٦٨٧	١١٧٤٠	١٫٧	٥٫٧	١٠٫٤	٧٦
١١٦ – السويد	٨٫٣	٤٥٠	١١٨٦٠	١٫٨	٥٫٣	١٠٫٢	٧٧
١١٧ – كندا	٢٥٫١	٩٩٧٦	١٣٢٨٠	٢٫٤	٤٫٤	٩٫٢	٧٦
١١٨ – النرويج	٤٫١	٣٢٤	١٢٩٤٠	٣٫٣	٦٫٣	٩٫٤	٧٧
١١٩ – الولايات المتحدة	٢٣٧٫٠	٩٣٦٢	١٥٣٩٠	١٫٧	٤٫٧	٧٫٤	٧٦
١٢٠ – سويسرا	٦٫٤	٤١	١٦٣٣٠	١٫٤	٥٫٥	٣٫٩	٧٧
إقتصاديات أوروبا الشرقية كالتي تأخذ بنظام السوق							
١٢١ – هنغاريا	١٠٫٧	٩٣	٢١٠٠	٦٫٢	٢٫٦	٤٫٣	٧٠
١٢٢ – بولندا	٢٦٫٩	٣١٢	٢١٠٠	١٫٥	..	١٩٫٤	٧١
١٢٣ – ألبانيا	٢٫٩	٢٩	..	..	..	..	٧٠
١٢٤ – بلغاريا	٩٫٠	١١١	..	..	..	..	٧١
١ ٥ – تشيكوسلوفاكيا	١٥٫٥	١٢٨	..	..	..	..	٧٠
١٢٦ – ألمانيا الديمقراطية	١٦٫٧	١٠٨	..	..	..	..	٧١
١٢٧ – رومانيا	٢٢٫٧	٢٣٨	..	..	..	..	٧١
١٢٨ – الاتحاد السوفيتي	٢٧٥٫٠	٢٢٤٠٢	..	..	..	..	٦٧

٨٧ – جنوب أفريقيا	٣١,٦	١٢٢١	٢٣٤٠	١,٤	٦,٠	١٢,٢	٥٤
٨٨ – الجزائـــر	٢١,١	٢٣٨٢	٢٤١٠	٣,٦	٣,٨	١٢,٢	٦٠
٨٩ – فنزويـــلا	١٦,٨	٩١٢	٢٤١٠	٠,٩	٣,٣	١١,٧	٦٩
٩٠ – اليونـــان	٩,٩	١٣٢	٣٧٧٠	٣,٨	٤,٤	١٧,٣	٧٥
٩١ – إسرائيـــل	٤,٢	٢١	٥٠٦٠	٢,٧	٨,٢	٨٤,٤	٧٥
٩٢ – هونج كونج	٥,٤	١	٦٣٢٠	٦,٢	٦,٤	٩,٨	٧٦
٩٣ – ترينيداد وتوباغو	١,٢	٥	٧١٥٠	٢,٦	٥,٧	١٥,٦	٦٩
٩٤ – سنغافـــورة	٢,٥	١	٧٢٦٠	٧,٨	٢,١	٤,٤	٧٢
٩٥ – إيـــران	٤٣,٨	١٦٤٨	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٦١
٩٦ – العـــراق	١٥,١	٤٣٥	٠٠	٠٠	٣,٢	٠٠	٦٠
ذات الدخل المرتفع المصدرة للنفط							
٩٧ – عمـــان	١,١	٣٠٠	٦٤٩٠	٦,١	٧,١	١٦,٤	٥٣
٩٨ – ليبيـــا	٣,٥	١٧م	٨٥٢٠	١,١-	٩,٤	١٠,٨	٥٩
٩٩ – السعوديـــة	١١,١	١٥٠	١٠٥٣٠	٥,٩	٥,١	١٤,١	٦٢
١٠٠ – الكويـــت	١,٧	١٨	١٦٧٢٠	٠,١-	٤,٦	٩,٢	٧٢
١٠١ – دولة الامارات	١,٣	٨٤	٢١٩٢٠	٠٠	٠٠	٨,٧	٧٢-
إقتصاديات السوق الصناعية							
١٠٢ – أسبانيـــا	٣٨,٧	٥٠٥	٤٤٤٠	٢,٧	٧,٠	١٦,٤	٧٧
١٠٣ – إيرلنـــدا	٣,٥	٧٠	٤٩٧٠	٢,٤	٨,٥	١٤,٤	٧٣
١٠٤ – إيطاليـــا	٥٧,٠	٣٠١	٦٤٢٠	٢,٧	٥,١	١٧,٢	٧٧
١٠٥ – نيوزيلنـــدا	٣,٢	٢٦٩	٧٧٣٠	١,٤	٧,٢	١٣,٥	٧٤
١٠٦ – المملكة المتحدة	٥٦,٤	٢٤٥	٨٥٧٠	١,٦	٦,٢	١٣,٨	٧٤
١٠٧ – بلجيكـــا	٩,٩	٢١	٨٦١٠	٣,٠	٤,٤	٦,٤	٧٥
١٠٨ – النمســـا	٧,٦	٨٤	٩١٤٠	٣,٦	٤,٥	٥,٣	٧٣
١٠٩ – هولنـــدا	١٤,٤	٤١	٩٥٢٠	٢,١	٦,٤	٥,٩	٧٧
١١٠ – فرنســـا	٥٤,٩	٥٤٧	٩٧٦٠	٣,٠	٥,٣	١٠,٧	٧٧
١١١ – اليابـــان	١٢٠,٠	٣٧٢	١٠٦٣٠	٤,٧	٦,٠	٤,٥	٧٧

	السكان (بالمليون) منتصف ١٩٨٤	المساحة (بالألف كيلو متر مربع)	نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى: دولارات ١٩٨٤	نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى: متوسط النمو السنوى (نسبة مئوية) ٦٥–١٩٨٤	متوسط المعدل السنوى للتضخم (نسبة مئوية) ٦٥–١٩٧٣	متوسط المعدل السنوى للتضخم (نسبة مئوية) ٧٣–١٩٨٤	العمر المتوقع عند المولد (سنوات) ١٩٨٤
٦٦ – كوستاريكا	٢٫٥	٥١	١١٩٠	١٫٦	٤٫٧	٢٤٫١	٧٣
٦٧ – باراغواى	٣٫٣	٤٠٧	١٢٤٠	٤٫٤	٤٫٣	١٢٫٩	٦٦
٦٨ – تونس	٧٫٠	١٦٤	١٢٧٠	٤٫٤	٢٫٢	٩٫٩	٦٢
٦٩ – كولومبيا	٢٨٫٤	١١٣٩	١٢٩٠	٢٫٠	١٠٫٨	٢٢٫٨	٦٥
٧٠ – الأردن	٣٫٤	٩٨	١٥٧٠	٤٫٨	—	٩٫٦	٦٤
٧١ – سوريا	١٠٫١	١٨٥	١٦٢٠	٤٫٥	٣٫١	١١٫٩	٦٦
٧٢ – أنجولا	٩٫٩	١٢٤٧	..	..	..	..	٤٣
٧٣ – كوبا	٩٫٩	١١٥	..	..	..	..	٧٥
٧٤ – كوريا الديمقراطية	١٩٫٩	١٢١	..	..	..	..	٦٨
٧٥ – لبنان	..	١٠	..	..	٢٫٥	..	..
٧٦ – منغوليا	١٫٩	١٥٦٥	..	..	..	..	٦٣
ذات الدخل المتوسط المرتفع							
٧٧ – شيلى	١١٫٨	٧٥٧	١٧٠٠	–٠٫١	٥٠٫٣	٧٥٫٤	٧٠
٧٨ – البرازيل	١٢٢٫٦	٨٥٢١	١٧٢٠	٤٫٦	٢٣٫٢	٧١٫٤	٦٤
٧٩ – البرتغال	١٠٫٢	٩٢	١٩٧٠	٣٠٫٥	٤٫٩	٢٠٫٥	٧٤
٨٠ – ماليزيا	١٥٫٣	٣٣٠	١٩٨٠	٤٫٥	١٫٢	٦٫٢	٦٩
٨١ – بنما	٢٫١	٧٧	١٩٨٠	٢٫٦	٢٫٤	٦٫٧	٧١
٨٢ – أوروغواى	٣٫٠	١٧٦	١٩٨٠	١٫٨	٥١٫٧	٥٠٫٠	٧٣
٨٣ – المكسيك	٧٦٫٨	١٩٧٣	٢٠٤٠	٢٫٩	٤٫٨	٣١٫٥	٦٦
٨٤ – جمهورية كوريا	٤٠٫١	٩٨	٢١١٠	٦٫٦	١٥٫٥	١٧٫٦	٦٨
٨٥ – يوغوسلافيا	٢٣٫٠	٢٥٦	٢١٢٠	٤٫٣	١٠٫٩	٢٤٫٦	٦٩
٨٦ – الأرجنتين	٣٠٫١	٢٧٦٧	٢٢٣٠	٠٫٣	٢٤٫١	١٨٠٫٨	٧٠

وعندما نستعرض مظاهر البعد الدولى للتنمية ، سنجدها فى غالبيتها الصراع بين رغبة الأغنياء فى احــكام طوق الاستغلال وبين الفقــراء فى محاولة كسر طوق التخلف . فما هى أهم هذه المظاهر ؟

نستطيع أن نجملها فيما يلى :

أولا : اتساع الهوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة .

ثانيا : أزمة الطاقة .

ثالثا : أزمة الغذاء .

رابعا : الانفجار السكانى .

اولا — اتساع الهوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة :

كان الاعتبار السائد فى عرف الأمم المتحدة أن تعد الدول النامية أو المتخلفة هى التى يبلغ دخل الفرد فيها سنويا أقل من ٣٠٠ دولار ، ويحصل الفرد فى معظم بلدان العالم الثالث على ١٨٠٠ (كالورى) سعرا حراريا لغذائه فى اليوم فى حين أنه اذا عاش فى أوربا الشمالية فسيحصل على ٤٠٠٠ سعر حرارى ، ومعدل الأطباء فى البلدان النامية يبلغ واحدا لكل ٣٥ ألف من السكان ، بينما يزيد عدد الأطباء فى بلد كتشيكوسلوفاكيا أو الاتحاد السوفيتى ٦٠ ضعفا بالنسبة لعدد السكان عنه فى البلدان النامية .

ولعل الاعلان الصحفى يقــدم لنا مثلا واضحا للهوة السحيقة بين الدول الغنية والدول الفقيرة . اذ يبتلع الاعلان فى الولايات المتحدة (٣٠) يوميا من ورق الصحف ما يساوى تقريبا ما يستهلكه العالم كله يوميا من هذا الورق عدا الولايات المتحدة . وهكذا نجد أن الاعلان الموجه الى ما يقرب من ٦٪ من سكان العالم يستهلك من الورق القدر الذى تستهلكه الأخبار والمقالات وأبواب التسلية والاعلانات المخصصــة لـ ٩٤٪ من سكان العالم .

ونظرة الى الاحصاءات التالية تقدم لنا صــورة للهــوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة :

● فى عام ١٩٨٠ بلغ دخل الفرد فى البلدان المتقدمة أكثر من ٣٦٠٠ دولارا أمريكيا فى حين يقل فى نفس الوقت عن ١١٠ دولارات فى البلدان الأكثر فقرا .

● معدل التجارة الخارجية يشير الى زيادة واردات الدول النامية من الدول المتقدمة . هذا الى جانب أن المخزون الاستراتيجى لدى الدول الغنية يفيدها كثيرا فى ارتفاع الأسعار المستمر .

● تبين أن المساعدات الأمريكية الخارجية للدول الفقيرة يزيد قليلا عن المبالغ المخصصة للخدمات فى مدينة نيويورك .

● بلغ اجمالى ميزانية مدينة نيويورك عن السنة المالية ٧٥/٧٦ ما قيمته ١٢٫٣ ألف مليون دولار .

● وصل فائض مدفوعات دول الأوبك عام ١٩٧٨ الى ٢٥ مليار دولار .

● ان ٥٪ من الحبوب المستهلكة فى السوق الأوربية المشتركة كانت كافية لسد المجاعة فى غرب أفريقيا التى راح ضحيتها مئات الألوف عام ١٩٧٤ .

● بلغت مساعدات الدول الغنية للدول الفقيرة بين ٥ ، ٦ بلايين دولار فى حين أن الانفاق على التسليح ٢٣ بليون دولار فى عام ١٩٧٤ .

● يستهلك الطفل الأمريكى ٥٠ ضعفا لما يستهلكه الطفل الهندى .

● فى نيويورك عمارة بها برج دائرى تستهلك من الكهرباء ما يكفى مدينة أمريكية سكانها ٢٠٠ ألف شخص .

● ومن احصائيات الثقافة والترفية فى موسكو التى يبلغ عدد سكانها ٧ ونصف مليون نسمة أنه يوجد ٢٩ مسرحا ، ١١٩ دار سينما ، ٤ آلاف مكتبة ، ٦٢ متحفا وحوالى ٤٠٠ ألف فدان مساحات خضراء .

● وفق الاحصاءات المنشورة فى العقد السابع من القرن العشرين ينفق العالم على التسليح حوالى ٢٥٠ بليون دولار سنويا وهو رقم يبلغ من ثلاثين ضعفا من مجموع مساعدات أغنياء العالم لفقرائه . ان الأغنياء وهم صناع السلاح فى العالم ينفقون على أبحاث التسليح ٢٥ ألف مليون دولار سنويا بينما ينفق العالم أربع آلاف مليون دولار

على أبحاث الطب و ٥٠ مليون دولار على تطوير ماكينات الطباعة وأن المواد المتفجرة من مخزون السلاح يبلغ نصيب الفرد الواحد منها فى العالم ١٥ طنا من مادة « تى • ان • تى » •

● تصل نسبة تجارة السلاح الى ٩٪ من حجم التجارة العالمية • ويستطيع العالم أن ينقذ ٣٠٠ ألف شخص من الجوع كل عام لو خصص ٤٪ من نفقات تسليحه نحو الغذاء • ويستطيع العالم انقاذ مائة ألف طفل من العمى كل عام بثمن حاملة طائرات واحدة •

● أن جملة الانفاق العسكرى للدول النامية فى عام ١٩٧٦ بلغت ٥١ مليار دولار • وهذا المبلغ يمثل ثلاثة أضعاف معونات التنمية التى تحصل عليها هذه الدول •

● ان نصيب ما يقرب من نصف سكان العالم الذين يعيشون فى البلدان النامية لا يزيد عن ٧٪ من الاستهلاك العالمى للطاقة ، وان نسبة نصيب الفرد فى البلدان الصناعية المتقدمة الى نصيب الفرد فى البلدان النامية من الطاقة هو ٢٥ الى ١ •

● تقول احصائيات اليونسكو المنشورة فى مارس ١٩٧٥ أن نسبة ، الأمية بين نساء العالم ابتداء من سن ١٥ سنة فما فوق كالآتى :

٨٤٪ فى أفريقيا ٥٧٪ فى آسيا ، ٢٧٪ فى أمريكا اللاتينية ، ٥٪ فى أوربا والاتحاد السوفيتى ، ٢٪ فى أمريكا الشمالية •

وتزداد الهوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة اتساعا كل يوم • فوفق احصائيات عام ١٩٧٣ نجد الآتى :

● لقد بلغت جملة الديون المستحقة على دول العالم الثالث ، للبنوك والحكومات فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية واليابان فى بداية العقد التاسع من القرن العشرين مبلغا خطيرا •

وتحصل الدول عادة على القروض لعلاج العجز فى ميزانها التجارى ولضمان استمرار خطط التنمية الاقتصادية • ولكن المشكلة تصبح كارثة فى بلدان العالم الثالث التى تتخبط فيها خطط التنمية وتتعرض المشروعات للسرقات والاهمال •

ويبين الجدول التالى حجم ديون العالم الثالث فى عام ١٩٨٠

البرازيل :	٣٨ر٣ مليار دولار
المكسيك :	٣٣ر٥ مليار دولار
الهنـد :	١٧ر٣ مليار دولار
كوريا الجنوبية :	١٦ر٣ مليار دولار
الجـزائر :	١٦ مليار دولار
أندونيسيا :	١٤ر٩ مليار دولار
تركيـا :	١٤ مليار دولار
الارجنتين :	١٠ر٣ مليـار
باكسـتان :	٨ر٨ مليار دولار

ثم قفز اجمالى الديون الخارجية لمعظم بلدان العالم قفزة تهدد الاقتصاد العالمى بالخطر . والجدول التالى وفق ما نشر فى تقرير البنك الدولى عن التنمية فى العالم ١٩٨٧ .

البلـد	اجمالى الدين الخارجى ملايين الدولارات عام ١٩٨٥
أثيوبيا	١٨٦٨
بنجلاديش	٦٥٢٦
مـالى	١٤٦٩
بورمـا	١٣٠٤
مدغشقر	٢٥٨٨
الهنـد	٣٥٤٦٠
كينيـا	٤٢١٩
تنزانيـا	٣٦٠٩
السـنغال	٢٤٥٤
باكسـتان	١٢٦٩٥
مصر	٢٤٣٤٢
كوت ديفوار	٨٤٤٦
نيكاراجوا	٥٦١٥
نيجيريا	١٨٣٤٨
الكاميرون	٢٨٧١
بيرو	١٣٦٨٨
تركيـا	٢٦١٢٤
تونس	٩٢٣٣
كوستاريكا	٤١٩١
شـيلى	٢٠٢٢١
البرازيل	١٠٦٧٣٠
المكسـيك	٩٧٤٢٩
الأرجنتين	٩٨٤٤٤
الجزائر	١٥٥٢٦

ووفق احصائيات البنك الدولى فى تقريره عن التنمية عام ١٩٨٤ نجد الآتى :

زاد دخل الفرد فى الولايات المتحدة الأمريكية من ٧٠٣٠ دولار عام ١٩٥٥ الى ١١٥٦٠ دولارا عام ١٩٨٠ فى الوقت الذى زاد فيه دخل الفرد الهندى من ١٧٠ دولارا عام ١٩٥٥ الى ٢٦٠ دولارا عام ١٩٨٠ ، وبذلك تضاعفت الفجوة فى الدخل من ٦٨٦٠ دولارا عـام ١٩٥٥ الى ١١٣٠٠ دولارا عام ١٩٨٠ •

بحلول عام ١٩٨٥ كان ٧٩٪ من الناتج العالمى الكلى ينتج فى البلدان المتقدمة حيث يعيش ٢٥٪ من سكان العالم • واقتسم سـكان العـالم الاخرون الذين تبلغ نسبتهم ٧٥٪ من سكان العالم باقى الناتج العالمى ، بل ان ٤٧٪ من سكان العالم وهم أبناء البلدان ذات الدخل المنخفض (مثل الهند وبنجلاديش والصين وباكستان ومعظم بلدان أفريقيـا (الاستوائية) قد تشاركوا فى ٥٪ فقط من الانتاج العالمى •

فيما بين عامى ١٩٧٤ — ١٩٨٤ أصاب العالم — ركودان كبيران(٣٢) وكان الركود الأول ٧٤/٧٥ حادا غير أنه كان قصيرا فى البلدان الصناعية• حيث أصبح ارتفاع الناتج المحلى الاجمالى فى عام ١٩٧٤ يمثل ٨٪ مقابل ١ر٦٪ عام ١٩٧٣ • وفى عام ١٩٧٥ بلغت النسبة ٤ر٪ ثم خفت حـدة الركود فى عام ١٩٧٦ حيث بلغت النسبة ٧ر٤٪ أما فى البلدان النامية فقد كان ارتفاع الناتج المحلى الاجمالى أقل سوءا من البلدان الصناعية حيث بلغ ٩ر٥٪ عام ١٩٧٤ فى مقابل ٤ر٧٪ عام ١٩٧٣ وفى عام ١٩٧٥ بلغ ٤٪ وفى عام ١٩٧٦ بلغ ٣ر٦٪ •

أما الركود الثانى فكان بين عامى ١٩٨٠ — ١٩٨٢ ، ولم يكن هذا الركود الثانى فى حدة الأول غير أنه استمر مدة أطول • وكانت نسبة ارتفاع الناتج المحلى الاجمالى فى البلدان الصناعية على النحو التالى : ٣ر١٪ فى عام ١٩٨٠ فىمقابل ٣ر٣٪ فى عام ١٩٧٩ ، وفى عام ١٩٨١ بلغت ٣ر١٪ أيضا ، ثم هبطت الى ٥ر٪ فى عام ١٩٨٢ ، ثم ارتفعت الى ٣ر٢٪ عام ١٩٨٣ — وكانت البلدان النامية فى الركود الثانى شـديدة التأثير حيث سجل الناتج المحلى الاجمالى ارتفاعا فى عام ١٩٨٠ بلغت نسبته ٥ر٢٪ ثم بلغ ٤ر٢٪ عام ١٩٨١ ثم بلغ ٩ر١٪ فى عام ١٩٨٢ •

ويبين الجدول التالى عدد السكان ونصيب الفرد من الناتج القومى الاجمالى ، ١٩٨٠، ومعدلات النمو، ٦٥–١٩٨٥،

مجموعة البلدان	الناتج القومى الاجمالى لعام ١٩٨٠ (ببلايين الدولارات)	سكان ١٩٨٠ (بالملايين)	نصيب الفرد من الناتج القومى الاجمالى لعام ١٩٨٠ بالدولارات	النمو السنوى المتوسط (فى المائة) ٦٥–١٩٧٣	٧٣–١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤أ	١٩٨٥ب
البلدان النامية	٢٠٦٤	٣١٢٤	٦٦٠	٤,١	٢ى٣	١	—٠,٧	صفر	٢ى٣	٤ى٢
البلدان المنخفضة الدخل	٥٥٠	٢١٠٢	٢٦٠	٣	٧ى٢	٣	٣,٢	١ى٦	٤ى٧	١ى٦
آسيا	٤٩٧	١٩٠٠	٢٦٠	٣ى٣	٣	٥ى٣	٧ى٣	٩ى٦	٨,٣	٦ى٦
الصين	٢٨٧	٩٧٨	٢٩٠	٥	٨ى٣	٣,٥	١ى٦	٨ى٨	١٢,٨	٦ى٩
الهند	١٦٢	٦٨٧	٢٤٠	٦ى١	٨ى١	٥ى٣	٥ى٠	١ى٥	٢,٢	٩ى١
أفريقيا	٥٣	٢٠٢	٢٦٠	٢ى١	١ى٠	—٣ى١	٤ى٢	—٧ى٢	—٢,٨	—٤ى٠
البلدان متوسطة الدخل										
المستوردة للنفط	٩٦٣	٨٥٠	١٦٦٠	٦ى٤	١ى٣	—٠ ٨	٢ى٠	—٦ى١	٨ى١	١
شرق آسيا والمحيط الهادى	٢١٢	١٦٢	١٣١٠	٥,٧	٥,٧	٣,٩	١,٨	٤,٧	٤,٧	١
الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	٢٥	٣١	٨٢٠	٥ى٣	٤,٢	—١ ٩	٤ى٤	٣ى٠	—٩ى٠	٦ى١
أفريقيا جنوب الصحراء ج	٢٦	٣٣	٧٨٠	٢	٥ى٠	٨ى٣	—٥ى٠	—٥,٥	—٤,٥	—٦ى٠
جنوب أوروبا	٢١٣	٩١	٢٣٤٠	٤ى٥	٩ى٢	٠,٢	صفر	—٩ى٠	٩ى٠	١ى١
أمريكا اللاتينية والكاريبى	٤١١	٢٣٤	١٧٦٠	٥ى٤	٩ى٢	—٢ى٤	—٩ى٤	—٥ى٤	١,٢	١ى٢
البلدان المتوسطة الدخل										
المصدرة للنفط	٥٥١	٤٤١	١٢٥٠	٦ى٤	٤ى٣	١,٥	—٢,٨	—٤ى٤	٧ى٠	صفر
البلدان المرتفعة الدخل										
المصدرة للنفط	٢٢٦	١٧	١٣٢٩٠	١ى٤	٩ى٥	٧ى٠	—٦ى٧	—٧ى١٥	—٣ى٠	—٥ى٨
إقتصاديات السوق الصناعية	٧٥٤٠	٧١٦	١٠٥٣٠	٧ى٣	٢,١	١ى٢	—٢ى١	١,٦	٩ى٣	٤ى٢

(أ) مقدر . (ب) مقدر مستقبلياً على أساس الناتج المحلى الاجمالى . (ج) استبعاد جنوب أفريقيا .

كما يبين الجدول التالى الناتج المحلى الاجمالى ١٩٨٠ ، ومعدلات النمو ٦٥ — ١٩٨٥ .

مجموعة البلدان	الناتج المحلى الاجمالى لعام ١٩٨٠ (ببلايين الدولارات)	النمو السنوى المتوسط (فى المائة)						
		٦٥-١٩٧٣	٧٣-١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤أ	١٩٨٥ب
البلدان النامية	٢٠٩٤	٦,٦	٥,٤	٢,٥	٢	٢	٥,٤	٤,٣
البلدان منخفضة الدخل	٥٤٩	٥,٦	٤,٧	٥	٥,٣	٧,٨	٩,٤	٧,٨
آسيا	٤٩٥	٥,٩	٥	٥,٤	٥,٧	٨,٦	١٠,٢	٨,٣
الصين	٢٨٧	٧,٨	٥,٨	٤,٩	٧,٧	٩,٦	١٤	١٠,٦
الهند	١٦٢	٤	٤,١	٥,٨	٢,٨	٧,٧	٤,٥	٤
أفريقيا	٥٣	٣,٩	٢,٧	١,٦	٠٨	٠,٣	٠,٧	٢,١
البلدان متوسطة الدخل المستوردة للنفط	٩٧٩	٧	٥,٥	٢,١	٠,٨	٠,٨	٤,١	٣
شرق آسيا والمحيط الهادى	٢١٤	٨,٦	٨,١	٦,٥	٣,٩	٦,٤	٦,٤	٢,٧
السرق الأوسط · شمال أفريقيا	٢٤	٥,٦	٧,١	٠,١	٧,٨	٢,٩	١,٩	٤,١
أفريقيا جنوب الصحراء ج	٢٧	٥,١	٣,٦	٦,٩	−٠,١	−١,٤	−١,١	٢,٩
جنوبى أوروبا	٢١٢	٧	٤,٨	٢,١	٢,١	٠,٩	٢,٧	٢,٥
أمريكا اللاتينية والكاريبى	٤٢٢	٧,١	٥,٤	−١	−١,٥	−١,٧	٣,٧	٤,١
المصدرة للنفط	٥٦٦	٧,١	٥,٨	٤,٤	١	−١,٩	٣,١	٢,٥
المدان مرتفعة الدخل البلمصدرة للنفط	٢٢٥	٩,٢	٧,٧	١,٦	−١,٧	−٧,١	١,٣	−٥
إقتصاديات السوق الصناعية	٧٤٤٠	٤٧	٢٨	١٩	−٠٦	٢,٣	٤٦	٢٨

(أ) مقدر . (ب) مقدر مستقبلياً . (ج) باستبعاد جنوب أفريقيا .

الانتاج العالمى منسوبا الى نسبة السكان فى الأقاليم المختلفة فى عام ١٩٧٣

الأقاليم	عدد البلدان	نصيب الفرد من الدخل القومى بالدولار	نسبة السكان إلى سكان العالم فى المائة		النصيب من الدخل العالمى فى المائة	
البلاد الغنية :				٢٩,١		٨٢,٤
الولايات المتحدة وكندا	٢	٦١٣٠	٦,١		٣٠,١	
اليابـــان	١	٣٦٣٠	٢,٨		٨,٣	
جزر المحيط الهادى	١٥	٣٤٠٠	٠,٥		١,٥	
أوربا فيما عدا الاتحاد السوفيتى	٣٤	٢٩٩٠	١٣,٢		٣١,٩	
الاتحاد السوفيتى	١	٣٠٣٠	٦,٥		١٠,٦	
البلدان النامية :				٧٠,٩		١٧,٦
الشرق الأوسط	١٤	١٠٨٠	٢		١,٧	
أمريكا الجنوبية	١٣	٨٤٠	٥,٣		٣,٦	
المكسيك وأمريكا الوسطى	٢٨	٨٠٠	٢,٦		١,٧	
أفريقيـــا	٥٤	٢٩٠	١٠,٢		٢,٤	
آسيا فيما عدا اليابان والشرق الأوسط	٢٦	٢٠٠	٥٠,٨		٨,٢	
	١٨٨			١٠٠		١٠٠

ان البلدان الغنية وهى تمثل ١ر٢٩٪ من سكان العالم تحصل على ٤ر٨٢٪ من دخل العالم • وقد كانت عام ١٩٧٠ تمثل ٣٠٪ مقـــابل ٧٠٪ ولا شك أن العقد التاسع من القرن العشرين سوف يجعل نصيب البلدان الغنية من دخل العالم أكثر مما هى عليه الآن • ان ٨ر٥٠٪ من سكان العالم فى آسيا يحصلون على ٢ر٨٪ من دخل العالم •

واذا نظرنا الى المؤشرات الاحصائية للاحتياجات الأساسية فى الوطن العربى مقارنة بدولتين متقدمتين هما المانيا الاتحادية واليابان لأمكننا أن ندرك الهوة السحيقة بين التقدم والتخلف برغم ما يقال عن بترول العرب وفوائضهم فى بنوك العالم •

الاحتياجات الأساسية فى الوطن العربى
(أ) التعليم (١٩٧٥)

إسم البلد	عدد المسجلين فى المرحلة الابتدائية كنسبة مئوية من الفئة العمرية للمرحلة	عدد المسجلين فى المدارس الثانوية كنسبة مئوية من الفئة العمرية للمرحلة	عدد المسجلين فى مرحلة التعليم العالى كنسبة مئوية لفئة العمر ٢٠–٢٤	النسبة المئوية للملمين بالقراءة والكتابة بين الكبار
مصر	٧٢	٤٠	١٣	٤٠
السودان	٤٠	٢٧	٢	١٥
ليبيا	١٤٥	٤٥	٧	٥٥
الجزائر	٨٩	١٩	٣	٣٥
المغرب	٦١	١٦	٣	٢٦
تونس	٩٥	٢٠	٤	٥٥
موريتانيا	١٦	٣	١	٢٠
الصومال	٥٨	٢	١	٣٠
العراق	٩٣	٣٥	٩	٢٦
سوريا	١٠٢	٤٨	١١	٥٣
لبنان	١٣٢	٣٨	٢٣	٦٨
الأردن	٨٣	٤٢	٤	٦٢
السعودية	٤٤	١٦	٣	١٥
اليمن الشمالى	٢٥	٣	١	١٠
اليمن الجنوبى	٧٨	١٩	١	١٠
الامارات	١٢٤	١٠	٣	١٥
الكويت	٩٥	٦٠	٧	٥٥
البحرين	٧٧	٤٥	٧	٤٧
قطر	٩١	٢٠	١	٢٠
عمان	٣٠	٣	١	١٠
ألمانيا الاتحادية	١٢٩	٧٠	٢١	٩٩
اليابان	١٠٠	٩٥	٢٥	٩٩

الاحتياجات الأساسية فى الوطن العربى

(ب) الصحة (١٩٧٥)

إسم البلد	السعرات الحرارية فى الغذاء المستهلك يومياً (١٩٧٣)	سنوات الحياة المتوقعة عند الولادة	نسبة وفيات الأطفال فى كل ألف مولد	عدد السكان لكل طبيب	النسبة المئوية للسكان المزودين بالمياه النقية
مصر	٢٨٧٠	٥٢	١٠١	٢٣٤٠	—
السودان	٢٠٩٠	٤٩	١٣٢	١٢٣٧٠	—
ليبيا	٢٥٤٠	٥٣	١٠٠	١١٤٠	—
الجزائر	١٨٩٠	٥٣	٨٠ (عام ١٩٧٠)	٨١٣٠ (عام ١٩٧٠)	٧٧
المغرب	٢١٨٠	٥٣	١١٧	١٢٨٠٠	—
تونس	٢٢١٠	٥٤	٦٣	٩٨٠	٤٠
موريتانيا	١٨٠٠	٣٧	١٨٧	٢٥٠٠٠	١٠
الصومال	١٧٧٠	٤١	—	١٥٥٦٠	٣٨
العراق	٢٠٥٠	٥٣	١٠٤	٢٣٧٠	٦٦
سوريا	٢٠٥٠	٥٤	٢٢	٢٩١٠	٦٥
لبنان	٢٣٦٠	٦٣	٨٢	١٣٣٠	٦٦
الأردن	٢٤٠٠	٥٣	٢٢	٢٤٤٠	—
السعودية	٢٠٨٠	٥٤	—	٦٦٦٦٠	٦٤
اليمن الشمالى	١٨٠٠	٤٥	١٦٠	٢٦٤٤٠	١٠
اليمن الجنوبى	١٨٠٠	٤٥	١٤٠	١١٤٦٨	—
الامارات	٢١٠٠	٤٥	—	٩٩٥	—
الكويت	٣٤١٠	٦٧	٤٤	١١٤٠	٨٩
البحرين	٢٣٤٠	٦٥	٥٠	١١٦٠٠	٩٨
قطر	٢٠٠٠	٥٠	—	١١٢٥	—
عمان	١٨٠٠	٤٥	١٥٠	٥٥٨٦	٢٠
ألمانيا الاتحادية	٢٩٤٠	٧٥	١٠	٨٥	١٠٠
اليابان	٢٤٥٠	٧٣	١٠	٨٧	١٠٠

لعل هذه الاحصائيات التى نشرها كتاب الاحصاء السنوى للأمم المتحدة عن التنمية تبين لنا الهوة التى تزداد اتساعا بين الفقراء والأغنياء. ولو ضربنا مثالا آخر ببلدان آسيوية أو أفريقية لبدت الصور أكثر فروقا وظلاما .

ثانيا — أزمة الطاقة :

تتصدر أزمة الطاقة كافة الازمات الأخرى مثل أزمة الغذاء العالمى وأزمة النقد الدولى ، وأزمة التلوث ، وما شابه ذلك • لماذا ؟ لأن الضجيج الاعلامى المصاحب لهذه الأزمة يفوق كل ما نشر أو أذيع حول مختلف الأزمات الأخرى •

وما هو سر ذلك ؟

يكمن السر فى أن خطة الاحتكارات الدولية النفطية تريد تحقيق استراتيجية محددة تتركز فى نقطتين الأولى هى السيطرة على منابع النفط بشكل أو بآخر ، والثانية زيادة أسعار البترول بما يعود عليها بمليارات الدولارات أرباحا • ومن خلال هذه الاستراتيجية أمكن للدول النامية البترولية أن تحقق أرباحا بزيادة أسعار البترول ومن خلال هذه الاستراتيجية وبسببها لبست الأزمة ثوبا سياسيا بل وعسكريا بالتهديد باحتلال مناطق البترول ، وتصفية أى حركات وطنية فى الدول البترولية•

وأصبحت أزمة الطاقة فى كافة وسائل الاعلام الغربية محصورة فى أزمة البترول ، وانساقت فى ترديد ذلك وسائل اعلام البلدان النامية ، وكأنما البحوث العلمية لايجاد بديل للبترول من طاقة شمسية أو ذرية موضوعات لا تستحق النشر أو لا تستحق التشجيع بالسير فيها خطوات جادة وسريعة •

وقبل أن نستطرد فى تحليل الأزمة نطرح سؤالا قد يبدو مشككا هو هل هناك أزمة طاقة عالمية ؟ •

ان أزمة الطاقة ليست عالمية ولكنها تنحصر فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية واليابان أى أنها تتركز فى الغرب الغنى بصفة مباشرة ، ثم عكست بعض آثارها على البلدان الفقيرة غير البترولية • ان خريطة الطاقة فى العالم تقول ان الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية يتمتعان بالاكتفاء الذاتى من الوقود والطاقة • والدول النامية المتخلفة ليست لديها المصانع التى تحتاج الى البترول وليست لديها المرافق التى تحتاج الى الاسراف فى استهلاك الطاقة •

ومشاكل الطاقة عندها أساسها الفقر ، وبقية ظروف التخلف • ولاينقل الاعلام العالمى شيئا عن طوابير السيارات التى تقف يوما أو أكثر فى بعض بلدان العالم الثالث تنتظر لترات من البترول الشحيح •

المشكلة من الناحية الدعائية اذن هى مشكلة دعاية الرأسمالية المتقدمة الغنية ، ولكن كيف بدأت الأزمة وما هى جذورها ؟ •

ــ ان بذور أزمة البترول والغاز الطبيعى فى العالم الرأسمالى الغنى صاحب التطور السريع والضخم فى الانتاج والعمران فى النصف الثانى من القرن العشرين بعد أن تخلى الفحم عن دوره التاريخى وأصبحت الحضارة المعاصرة توصف بأنها حضارة بترولية وساعد على بروز الأزمة جنون الاستهلاك فى الولايات المتحدة وفى الحضارة الرأسمالية المعاصرة بصفة عامة • وبرغم أن الولايات المتحدة غنية بتروليا الا أن اسرافها فى الاستهلاك ابتداء من السيارات الفارهة التى يصفها ابن البلد المصرى عندما يراها فى شوارع وطنه بأنها تحتاج الى محطة بنزين تجرى وراءها ، الى القاذفات العملاقة مثل ب ٥٢ التى استخدمتها فى حرب فيتنام والتى تستهلك كميات هائلة من الوقود •• مثل ذلك من أنماط الاستهلاك أبرز الأزمة •

وبرغم أن أزمة الطاقة فى الدول الرأسمالية الغنية تشبه الأمراض المتوطنة فى البلدان النامية الا أن تفجيرها قبل حرب أكتوبر ٧٣ فيما بين عامى ١٩٧١ و ١٩٧٣ ثم تحويلها الى سعير اعلامى بعد الحرب يدل على تدبير محكم •

لقد بدأت المؤامرة قبل أكتوبر بعامين تقريبا • « وفى (٣٣) عام ١٩٧٢ انفقت شركات البرول الأمريكية ١٥ مليون فرنك فرنسى (الفرنك الفرنسى يوازى ١٥ قرشا مصريا تقريبا فى ذلك الوقت) على الصحف والاذاعات والتليفزيون داخل الولايات المتحدة فى محاولة لاقناع المواطن الأمريكى العادى بوجود أزمة طاقة » •

وقد صاحب الحملات الاعلامية (٣٤) فى الولايات المتحدة اجراءات مثيرة • فقد انعدم الوقود لتدفئة الكثير من العمارات السكنية ، وأغلقت بعض المدارس أربعة أيام فى الأسبوع ، واقتصرت الدراسة على ثلاثة

أيام أسبوعيا بحجة توفير الوقود اللازم للتدفئة • وشهدت بعض الولايات المتحدة الأمريكية نقصا حادا فى البترول أدى الى اغـلاق الكثير مـن المؤسسات والمصالح اغلاقا مؤقتا • واختلت حركة القطـارات فى بعض الولايات كما اختلت حركة وسائل نقل الركاب داخل المدن • ووجه وزير التجارة الأمريكى فريدريك دينت رسالة الى ١٤٥ ألف أمريكى من رجال الأعمال تضمنت ١٩ طريقة يمكنهم بواسطتها الاقتصاد فى اطفاء المصابيح الكهربائية فى المناطق التى لا تحتاج الى اضاءة • وتنظيم أجهزة السيطرة على درجات الحرارة الى أقل حرارة ممكنة •

لماذا لم تفجر أزمة الطاقة فيما بين عامى ١٩٧١ و ١٩٧٣ فى أوربا الغربية أو اليابان بالصورة المفاجئة والمدبرة التى تفجرت بها فى الولايات المتحدة برغم أن الولايات المتحدة دولة غنية بتروليا ، ولديها فائض تدفئه تحت الأرض ، فى حين أن بلدان أوربا الغربية واليابان تستورد الكميات الهائلة من البترول لحاجتها الماسة اليه ؟ •

الجواب يوضح استراتيجية المصالح الاحتكارية العـالمية • وتبين الاحصائيات الدولية أن استثمارات البترول تدر أرباحا خيالية للشركات المسيطرة عالميا على البترول والتى يبدأ نشاطها من البئر وينتهى بالمستهلك وتسيطر ثمانى شركات احتكارية كبرى على بترول العالم غير الشيوعى منها خمس شركات تشكل فيما بينها احتكارا عملاقا متكاملا فاذا أضـفنا الى ذلك أهمية البترول فى الحرب وأهميته فى صناعة البتروكيماويات لتأكدنا أن الاحتكارات البترولية كوجه للاستعمار الجديد لابد من أن تحاول أحكام سيطرتها على الدول النامية المنتجة للبترول •

ان استنزاف الاحتكارات البترولية لحقوق البلدان الناميـة أشبه بقصص الخيال ، فعلى سبيل المثال بينما كانت الأسـعار ترتفع عالميـا والتضخم يقفز قفزات متلاحقة فى البلدان الرأسـمالية كانت شركات البترول الاحتكارية تخفض سعر البترول بالنسبة لحق البلدان المصدرة عاما بعد آخر • لقد خفضت سعر البترول فى فبراير عام ١٩٥٩ ثم خفضته مرة أخرى فى أغسطس عام ١٩٦٠ ، وقد اخترعت الشركات الاحتكارية سعرا للبترول أسمته السعر المعلن ، تعلنه الاحتكارات من جانبها دون اعتبار للمنتجين أو عوامل السوق •

وفى مواجهة هذه السيطرة الاحتكارية لجأت الدول المنتجة للبترول الى انشاء « الأوبك » كمنظمة للدول المنتجة للبترول عام ١٩٦٠ وبلغ عدد أعضائها حتى عام ١٩٧٣ ، ١٣ دولة ، وعلى نسقها تكونت الأوبك العربية عام ١٩٦٨ وخلال أعوام قليلة ضمت كل البلدان العربية المنتجة للبترول بغية تحقيق التضامن البترولى العربى مع استمرار انضمام الدول البترولية العربية الكبرى للأوبك •

وجاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ بفرصه ذهبية للأوبك فى استرداد حقوق الدول صاحبة البترول ورفع سعر البترول • وبذلك ضعف الدور التاريخى للاحتكارات البترولية وتصدت الدول الغنية المستهلكة للبترول بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية لاقامة تكتل قوى يمنع الدول البترولية من السير فى الشوط الى غايته ، واسترداد حقوقها • وتم انشاء وكالة الطاقة الدولية عام ١٩٧٤ تضم ١٦ عضوا يمثلون الدول الرأسمالية الغنيـة المستهلكة للبترول لتتضامن جميعا أمام أية مصاعب بترولية تواجهها •

وبرغم كل ما تثيره الدول الاستعمارية من أن زيادة سعر البترول هى سبب التضخم والانكماش وأزمة النقد الدولى وكل مشـاكل الاقتصاد الرأسمالى والاحتكارى •• برغم كل ذلك فان الحقائق الاحصائية تقول ان سعر البترول لا يصل الى أيدى الشعوب أو حكوماتهم بحجمه الحقيقى• ان الدولار وهو العملة التى يحسب على أساسها سعر البترول يخفض عمدا بصفة مستمرة ، والتضخم فى أوربا الغربية يبلغ ١٤٫٥٪ سنويا والمواد المصنعة التى تستوردها الدول البترولية النامية من الدول الرأسـمالية المتقدمة تزداد أسعارها بصفة منتظمة ، وفى النهاية نجد أن فاتورة البترول لا تعبر تعبيرا صحيحا عن ثمنه وعن حق أصحابه •

ان الهدف الاحتكارى من تفجير أزمة الطاقة (٣٥) فيما بين عامى ١٩٧١ و ١٩٧٣ يتمثل فيما يلى :

● اعداد المواطن الأمريكى بوجه خاص والأوربى الغربى بوجه عام أعدادا نفسيا لتقبل أية مخططات عدوانية ضـد البلدان المنتجة للبترول وبخاصة فى منطقة الشرق الأوسط • وتصفية حركات التحرر الوطنى بهذه الحجة •

● ربط منطقة الشرق الأوسط الغنية بالبترول ربطا وثيقا بالولايات المتحـدة .

● الاستعانة بالأمم المتحدة — اذا لزم الأمر — فى محاولة لتدويل البترول وتحويله من سلعة محلية ، الى سلعة دولية استراتيجية بحيث تدخل الأمم المتحدة طرفا بين المنتج والمستهلك .

● تستغل الولايات المتحدة الحاجة المتزايدة الى الطاقة فى أوربا الغربية لفرض زعامتها وسيطرتها على القارة الأوربية .

ولكن هل قلة موارد الطاقة تهدد بكارثة عالمية كما تزعم وسائل الاعلام فى البلدان الرأسمالية الغنية ؟ .

ان ما تؤكده التقارير والدراسات العالمية حول مصادر الطاقة — من البترول والغـاز الطبيعى — أن ما هو مكتشف، حتى الآن من احتياطى البترول المؤكد والمحتمل يكفى استهلاك العالم لمدة ٥٠ عاما ، على الأقل ، بل ان معظم خبراء البترول يؤكدون أن الاحتياطى البترولى يكفى لمائة عـام .

والأهم من ذلك أن الكرة الأرضية تحتوى على أنواع عديدة من مصادر الطاقة غير البترول والغاز الطبيعى مثل الفحم واليورانيوم المستخدم فى المفاعلات النووية والحرارة الباطنية للأرض والطاقة الشمسية . وتطوير الطاقة الكهربائية ومزيد من الاستفادة من مساقط المياه فى تطويرها . وكل ما يكتشفه العلم من جديد .

ثالثا — أزمة الغذاء العالمى :

هل توجد مشكلة غذاء فى البلدان الرأسمالية الغنية ؟

ان المواد الغذائية فى البلدان الرأسمالية الغنية مطروحة بكثرة فى الأسواق من كل صنف وشكل ولون ، والمظهر الوحيد اللافت للنظر هو الارتفاع المستمر فى أسعار الاغذية — وهذه سـمة ملازمة للمجتمع الرأسمالى .

هل توجد مشكلة غذاء فى البلدان الشيوعية ؟ .

باعتراف كتابهم لا توجد مشكلة • ومن روايات الذين عاشـوا فى بلادهم من العرب يتأكد لنا عدم وجود مشكلة من حيث الكم ، وان الكيف يتطور عاما بعد عام • والبلدان الشيوعية ليست طرفا فى سرقة موارد البلدان النامية •

المشكلة اذن ترتبط بالعالم الثالث • فما هى طبيعة مشـكلة الغذاء بالنسبة للبلدان النامية ؟ •

فى احصائيات بعض المنظمات الدولية نجد أن ٦٠٪ من أبناء الدول النامية يعانون من الجوع الواضح وغير الواضح ، ويموت سنويا من تأثير الجوع وسوء التغذية ٣٥ مليون شخص ، وهذه النسب والأرقام فى ازدياد مسـتمر •

ما هو السبب ؟ وما هى الجذور التاريخية للمشكلة ؟ لقـد حـرص الاستعمار القديم والجديد على أن يظل اعتماد أكثر البلدان الناميـة على محصول واحد فرضه الاستعمار من قبل . فجواتيمالا متخصصة فى الموز وكولومبيا فى البن • ان الأطعمة من أمريكا اللاتينية تتدفق على موائد جيرانها الأغنياء ، فى حين تذهب الأرباح الى جيوب الشركات الاجنبية التى تتولى التسويق والتصدير • وفى وطننا العربى يذكر التاريخ أن الجزائر كانت تبيع القمح لفرنسا ، وكنا نرى حقول الكروم لانتاج النبيذ تغطى مساحات شاسعة من أرض الجـزائر ، ولكنها بدأت تتقلص عندما بدأت الجزائر بعد الثورة تقتلع الكروم لتحل محله زراعة القمح وغيره مـن الزراعة المرتبطة بغذاء السكان لا بكأس النبيذ •

وهكذا دأب الاستعمار القديم والجديد على ضرورة أن تنتج البلدان النامية زراعة للتصدير ، وأن تبتعد عن تطوير وانتاج المواد الغذائيـة القادرة على اشباع السكان المحليين •

وقد وصف البروفيسور الامريكى « ويندميلر » جوهر الاسـتغلال الاجنبى للبلدان النامية بشكل مجازى قائلا : انه يجرى فى عالم الرأسمالية تعليم الفقراء تربية الدجاج لكى يأكل الاغنياء البيض الطازج •

ويضرب « ماركوف » بأمريكا اللاتينية مثلا على ما تواجهه الدول النامية من اغتصاب البلدان الرأسمالية الغنيـة قائلا : تعتبر الشركات

الأمريكية أكبر مالك فى عدد من بلدان أمريكا اللاتينية . ويؤدى نشاط رجال الاعمال الامريكيين الى افلاس مزارعى القطن المكسيكيين . فالشروط الجائرة للقروض التى تحددها الشركات وأسعار الشراء الزهيدة وعدم وجود امكانية التعامل مباشرة مع السوق العالمية ، كل ذلك يؤدى الى اصابة الفلاحين بالفقر المدقع . ويتم تصدير جميع القطن المكسيكى عن طريق الاتحادات الامريكية والسويسرية واليابانية . ولو عمل المكسكيون أنفسهم على تصريف القطن لحصل اقتصاد المكسيك على فوائد كبيرة .

والى جانب ذلك يعتمد اقتصاد أكثرية بلدان أمريكا اللاتينية بصورة تامة تقريبا على تصريف نوع أو نوعين من المنتجات الزراعية . فيتكون أكثر من ٧٠٪ من صادرات كولومبيا من البن ، وجواتيمالا — من الموز . وتدير الاحتكارات الامريكية انتاج هذه البضائع . ويعلق ماركون (٣٦) على ذلك قائلا : ان الاطعمة من أمريكا اللاتينية تتدفق على موائد جيرانها الاغنياء ، فى حين تذهب الارباح الى جيوب من يجمع ثرواته على حساب مآسى سكان أمريكا اللاتينية .

ولقد وضع خبراء منظمة « فاو » (منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة) تقديراتهم حتى نهاية القرن الحالى ليتم تحسين الغذاء فى البلدان النامية الى مجرد ٢٤٠٠ سعر حرارى للاستهلاك الفردى اليومى ، فذكروا أنه لكى يتم ذلك مع زيادة السكان المتوقعة لابد من زيادة انتاج الأغذية فى أفريقيا نسبة ١٦٠٪ وفى أمريكا اللاتينية ٢٤٠٪ . ويؤكد كثير من الخبراء والعلماء الاشتراكيين كما يؤكد بعض العلماء الرأسماليين أن ذلك ممكن .

ويثير بعض الخبراء مشكلة تناقص خصوبة التربة ، ولكن العلم الحديث وتكنولوجيا الزراعة أكدا أنه يمكن التغلب على تناقص خصوبة التربة فمثلا قلت مساحة الأراضى المزروعة فى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٦٤ بنسبة ١٧٪ وقل عدد العاملين فى الزراعة أكثر من مرتين بينما زاد انتاج المزارعين بنسبة ٨٢٪ .

ان بعض خبراء الزراعة يؤكدون أنه لو تمت زراعة الأراضى الصالحة للزراعة بالمستوى الراهن للهندسة الزراعية فقط ، لأمكن اطعام ٣٥ ألف مليون نسمة على ظهر الأرض . وهناك تقديرات أكثر تفاؤلا .

هذا بالاضافة الى اصلاح الأراضى الجديدة وتجفيف المستنقعات • كما يرى العلماء الى جانب ذلك أن البحار والمحيطات تحتوى على امكانيات هائلة لانتاج المواد الغذائية •

ولكن المشكلة التى تحير أذهان بعض أبناء العالم الثالث هى اقدام الدول الرأسمالية الغنية على احراق الطعام ، فى الوقت الذى يعانى فيه الكثير من أطفال العالم الثالث الموت جوعا • ومن جانب آخر تبرع بعض بلدان العالم الرأسمالى الغنى والولايات المتحدة على وجه الخصوص ببيع فائض غذائهم بتسهيلات كبيرة للبلدان النامية ولكن فى مقابل تنفيذ سياسة الولايات المتحدة •

كنا نقرأ فى كتب التاريخ أنه خلال الأزمة الاقتصادية العالمية فى السنوات من ١٩٢٩ الى ١٩٣٤ وقد كان الكساد والبطالة من مظاهرها الحادة • خلال هذه الأزمة احرق الرأسماليون القمح وسكبوا اللبن فى الأنهار ، وأحرقوا مصنوعات مثل الملابس والأحذية • كل ذلك ليمنعوا هبوط الأسعار ، وكانت تطالعنا الصحف بعد الحرب العالمية الثانية ، بأن الأغنياء من بلدان العالم الرأسمالى يقذفون بالتفاح فى البحر وبالقمح والبن حتى لا تهبط أسعاره • ولكننى لم أكن مستعداً لقبول مثل هذه الأفكار عام ١٩٧٦ عندما أوفدتنى جامعة القاهرة فى مهمة علمية الى فرنسا ضمن اتفاق التبادل الثقافى بين مصر وفرنسا ، وروعت حقا عندما شاهدت اعدام « الخوخ » هناك لأنه لو لم يعدموه لانخفض سعره • وتناقشت مع العرب الذين أمضوا فى فرنسا سنوات عديدة فى جامعاتها ، ومع الفرنسيين أيضا حول هذا الاعدام الذى شمل الخوخ وغيره ، فكان ردهم ببساطة ، هكذا معظم الدول الرأسمالية الغنية ، وهكذا قواعد السوق الرأسمالى ••!

ان بلدان العالم الثالث بما لديها من امكانات بكر لم تستثمر بعد فى الزراعة وتربية الماشية وانتاج الطعام بصفة عامة يمكنها لو قامت بقدر من التنسيق والتعاون فيما بينها أن تهزم الجوع فى بلدانها • ولا شك أن المشكلة محلية فى المقام الأول ثم هى تمس البلدان النامية فى المقام الثانى ثم فى النهاية يمكن الحصول على معونة الدول الغنية وخبراتها فى سبيل القضاء على الجوع وتوفير وتحسين الغذاء للبلدان الفقيرة بل وللبلدان الغنية أيضا •

ولا شك أن السياسات الخاطئة فى بعض البلدان النامية تمثل جانبا حيويا من جوانب المشكلة • ففى عام ١٩٨٣ عندما بحث البنك الدولى أسباب انصراف الفلاح الغانى عن زراعة الكاكاو ، تبين أنه يحصل على ثلث الثمن الحقيقى للمحصول ، لان مجلس تسويق الكاكاو يوظف فى ادارته ٩٠ ألفا من الموظفين •• ! ومن ثم انخفض محصول الكاكاو فى غانا الى ١٥٠ ألف طن بدلا من ٥٠٠ ألف طن •

رابعا — الانفجار السكانى :

يشهد الربع الأخير من القرن العشرين مؤشرات الانفجار السكانى بوضوح كامل • ففى سنة ١٦٥٠ م كان تعداد العالم ٥٠٠ مليون نسمة وفى عام ١٧٥٠ أصبح التعداد ٧٠٠ مليون نسبة ، زاد الى ١٢٠٠ مليون نسمة عام ١٨٥٠ وبعد قرن واحد تضاعف التعداد الى ٢٥٠٠ مليون نسمة ، ثم صار ٤ آلاف مليون نسمة فى عام ١٩٧٥ م وفى نهاية هذا القرن سيصبح تعداد العالم ٦٥٠٠ مليون نسمة • والمشكلة فى ثنايا هذا الانفجار أن الفقراء يزدادون بنسبة أكبر من نسبة زيادة الأغنياء •

ويرسم الجدول التالى مؤشرات الانفجار السكانى حتى نهاية هذا القرن :

تعداد سكان العالم وتوقعاته
فى المستقبل بالمليون

	١٩٧٠		١٩٨٠		٢٠٠٠	
البلدان النامية	٢٥٤٥	٪٧٠	٣٢٥٨	٪٧٣÷	٥٠٦١	٪٧٧,٧
جنوب آسيا	١١٢٦		١٤٨٦		٢٣٥٤	
شرق آسيا	٨٢٧		٩٧٩		١٢٩١	
أفريقيـــا	٣٤٤		٤٥٧		٨١٨	
أمريكا اللاتينية وبعض الجزر	٢٥٨		٣٣٦		٥٩٨	
البلدان المتقدمة	١٠٩٠	٪٣٠	١٢١٠	٪٢٧	١٤٥٣	٪٢٢,٣
أوروبا	٦٤٢		٤٩٧		٥٦٨	
الاتحاد السوفيتى	٢٤٣		٢٧٠		٣٣٠	
أمريكا الشمالية	٢٢٨		٢٦١		٣٣٣	
آخرون	١٥٧		١٨٢		٢٢٢	
إجمالى	٣٦٣٥		٤٤٦٨		٦٥١٤	

والاحصائيات التى اعلنت عام ١٩٨٤ فى المؤتمر العالمى للمشـــكلة السكانية عن سكان العالم بالملايين فى المكسيك تبين الآتى

	١٩٦٠	١٩٨٤	٢٠٢٥
مصـــر	٢٦	٤٦	٨٦
نيجيريـــا	٥٢	٦٧	٣٢٩
البرازيـــل	٧٣	١٣٣	٢٤٣
الولايات المتحدة	١٨١	٢٣٦	٢٨٦
الاتحاد السوفيتى	٢١٤	٢٧٥	٣٣٩
أوروبا	٤٢٥	٤٩٠	٥٤٠
الهنـــد	٤٣٥	٧٥٠	١٣١١
الصـــين	٦٨٨	١٠٢٩	١٤٠٩
العـــالم	٣,٠٣٧	٤,٧٥٠	٨,٢٩٧

وجاء فى تقرير البنك الدولى عام ١٩٨٦ هذا الجدول التالى :
النمو السكان ٦٥ — ١٩٨٥ ، والمقدر مستقبليا حتى عام ٢٠٠٠

مجموعة البلدان	سكان ١٩٨٥ (بالملايين)	النمو السنوى المتوسط (فى المائة)				
		٦٥–١٩٧٣	٧٣–١٩٨٠	٨٠–١٩٨٥	٨٥–١٩٩٠	١٩٩٠–٢٠٠٠
البلدان النامية	٣٤٥١	٢,٥	٢,١	٢	٢	١,٨
البلدان منخفضة الدخل	٢٣٠٥	٢,٦	٢	١,٩	١,٨	١,٧
آسيا	٢٠٧١	٢,٥	١,٩	١,٨	١,٧	١,٥
الهند	٧٦٥	٢,٣	٢,٣	٢,٢	٢	١,٧
الصين	١٠٤١	٢,٧	١,٥	١,٢	١,٣	١,٢
أفريقيا	٢٣٤	٢,٨	٢,٩	٢	٣,٢	٣,١
البلدان متوسطة الدخل	١١٤٦	٢,٥	٢,٤	٢,٣	٢,٣	٢
المصدرة للنفط	٥٠٢	٢,٥	٢,٦	٢,٦	٢,٦	٢,٣
المستوردة للنفط	٦٤٣	٢,٤	٢,٢	٢,١	٢	١,٨
كبـ صدرى السلع المصنوعة	٤٢٠	٢,٤	٢,١	١,٩	١,٨	١,٦
البلدان المرتفعة الدخل لمصدرة للنفط	٢٠	٤,٦	٥,٤	٤,٣	٣,٩	٣,٣
قتصاديات السوق الصناعية	٧٣٧	٠,٩	٠,٧	٠,٦	٠,٥	٠,٤
العالم باستبعاد لاقتصاديات التى لاتأخذ بنظام السوق	٤٢٠٩	٢,٢	١,٩	١,٨	١,٧	١,٦
الاقتصاديات الصناعية التى لاتأخذ بنظام السوق	٢٩٣	٠,٨	٠,٨	٠,٨	٠,٧	٠,٦

وتعد مشكلة الانفجار السكانى المظهر الدولى للمشكلة السكانية فى بلدان العالم كل على حدة • وهى فى حقيقتها مشكلة البلدان النامية بصفة أساسية • فقد ساعد التقدم الصحى النسبى والاستقلال على وقف النزيف البشرى فى بلدان العالم الثالث • ذلك النزيف الذى اتخذ صورا عدة منها صور صيد العبيد ، أو صور السخرة المفضية الى الموت كما حدث فى حفر قناة السويس ، أو صور الاستشهاد فى حروب التحرير كما حدث فى ثورة الجزائر • أو صور اجبار أبناء المستعمرات على خوض الحروب العالمية التى يشنها المستعمرون بعضهم ضد بعض ولم يكن لأبناء المستعمرات ناقة فيها ولا جمل •

والانفجار السكانى يرتبط بمساحة الأرض وهى محدودة ، ويرتبط بما يخرج من الأرض من رزق وهذا يمكن تطويره وزيادته • لذلك ينبغى لأبناء العالم الثالث أن ينظروا بجد الى مشكلة الانفجار السكانى ، وأن يحددوا بدقة السياسات السكانية وتنظيم النسل بما يحقق التوازن بين الثروة البشرية متمثلة فى السكان وبين الثروات الطبيعية متمثلة فى كل ما تنبت الأرض وما يخرج منها •

ومشكلة السكان لها جانب احصائى يربط بين أعداد السكان وتزايدهم وبين مواردهم المتاحة والمحتملة • ولكن لها جانب ايديلوجى يرتبط بسياسة المجتمع ونظمه الاقتصادية ، وهو ما عالجه البعد البشرى للتنمية ، ولكن ينبغى ألا يغيب عن الأذهان أن المشكلة فى وجه من وجوهها تهم العالم بأسره ، وأن التعاون الدولى فى حلها ضرورة لازمة •

وقد أولت الأمم المتحدة مشكلة السكان قدرا كبيرا من العناية ، فالى جانب الصندوق الخاص بالأنشطة السكانية ، خصصت عام ١٩٧٤ لتكثيف الاعلام والاهتمام والتعريف بالمشكلة وبحجمها وجوانبها المختلفة •

وحول موضوع السنة الدولية للسكان عقدت الأمم المتحدة مؤتمرا عالميا ضخما فى بوخارست عاصمة رومانيا فى أغسطس ١٩٧٤ • حضرته وفود عن دول العالم ووفود حركات التحرير وممثلون عن وكالات الأمم المتحدة ومكاتبها والهيئات المتخصصة التابعة لها ، وقد بلغ عدد المشاركين فى المؤتمر ٣٥٠٠ فرد وغطى أعماله ٩٠٠ صحفى يمثلون أجهزة الاعـلام

فى العالم ، وقد استمرت أعمال المؤتمر أسبوعين ، ونتج عنها ٢١ قرارا وخطة عمل عالمية احتوت على ١٥٩ فقرة مثلت آراء الجميع واقتراحات لتجنب الأخطار المتعلقة بمشكلة السكان ، وقد أوصت الخطة بتدعيم وسائل التنمية وتطوير وسائل الحياة بتنسيق العمل بين كل القطاعات الرئيسية الاقتصادية والاجتماعية بما فيها السكان التى تعد معينا لا ينضب للابداع وعاملا حاسما من عوامل التقدم • ومن مبادىء الخطة أنها تقرر أن وضع وتنفيذ سياسات السكان فى العالم هى حق من حقوق السيادة لكل شعب ، وانه يجب ان يمارس هذه السياسة وهذا الحق طبقا للاهداف والاحتياجات الداخلية دون تدخل خارجى • وتؤكد على اعتبار أن الهدف الرئيسى للتنمية التى تعد التنظيمات والسياسات السكانية جزءا لا يتجزأ منها ، هو تحسين مستويات المعيشة • ونوعية حياة الأفراد وأن السكان والتنمية موضوعان متداخلان فتؤثر المتغيرات السكانية على متغيرات التنمية والعكس صحيح •

كما تقوم خطة العمل على عدد آخر من المبادىء تمثل أساس أهدافها وتؤكد على ما يلى :

١ — احترام الحياة الانسانية حق أساسى لكل المجتمعات الانسانية ، وهو حق مستقل عن تحقيق الأهداف الاقتصادية والاجتماعية •

٢ — لكل المتزوجين حق أساسى فى تقرير عدد أطفالهم بحرية وبمسئولية وكذلك الفروق بين أعمارهم ، وأن يتوفر لهم الاعلام والثقافة ، ومسئولية الأزواج فى ممارسة هذا الحق يجب أن تضع فى اعتبارها احتياجات حياتهم ومستقبل أطفالهم ومسئولياتهم تجاه المجتمع •

٣ — ان الأسرة هى الوحدة الأساسية للمجتمع ويجب حمايتها بالتشريعات والسياسات المناسبة •

٤ — للنساء الحق فى الاندماج الكامل فى عملية التنمية • من خلال الاشتراك المتساوى فى الحياة التعليمية والاجتماعية والحضارية والسياسية مع اتخاذ الاجراءات الضرورية لتسهيل هذا الاندماج والقيام بالمسئوليات العائلية التى يجب أن يشترك الزوجان فيها معا بالكامل •

أما التوصيات المتعلقة بدور التعاون الدولى فأهمها ما يلى :

١ — على الجمعية العامة للأمم المتحدة والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ومجلس ادارة برنامج الأمم المتحدة للتنمية وصندوق الأمم المتحدة للنشاطات السكانية وبقية الأجهزة التشريعية والهيئات التى تضع السياسة فى الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة والهيئات العديدة والحكومات أن تنظر بعناية فى هذه الخطة للعمل وأن تضمن تجاوبا مناسبا معهـا ٠

٢ — ان الدول ذات الظروف والمشكلات السكانية المتشابهة مدعوة لتبادل النظر فى هذه الخطة للعمل وتبادل الخبرات المتعلقة بالسكان ، وأن تطور جوانب الخطة ذات الصلة الخاصة بها ٠ كما أن على اللجان الاقليمية والاقتصادية للأمم المتحدة وبقية الهيئات الاقليمية التابعة للامم المتحدة أن تؤدى دورا هاما لتحقيق هذه الغاية ٠

٣ — هناك حاجة خاصة للتدريب فى مجال السكان ٠ وعلى جهاز الأمم المتحدة والحكومات ، وحينما يكون ذلك مناسبا ، والمنظمات غير الحكومية ، أن تعترف بهذه الحاجة وأولوية الاجراءات الضرورية للقيام بها بما فى ذلك الاعلام والتعليم وخدمات تعليم الأسرة ٠

* *

ما هى الحلول التى يراها المفكرون لأزمة التنمية دوليا ؟ وما جهود الهيئات والمؤتمرات الدولية لحل التناقضات الرئيسية بين الغرب الغنى المتقدم وبين العالم الثالث الفقير المتخلف لتذليل العقبات التى تعترض تنمية العالم الثالث ؟ ٠

لقد تعرضت لجنة الخبراء التى رأسها عام ١٩٦٨ ليستر بيرسون رئيس وزراء كندا الأسبق فى تقريرها للسؤال : ما هو هدف التعاون من أجل التنمية الدولية ؟ ٠

وأجابت بأنه ليس سد كافة الفجوات وازالة جميع الفوارق ، فذلك على أية حال أمر مستحيل ، ولكن الهدف هو تقليل الفوارق وازالة القصور وعدم المساواة ٠ وهذا يكمن فى مساعدة الدول الفقيرة فى التحرك الى الأمام ، بطريقها الخاصة الى العصر الصناعى والتكنولوجى ٠ ويضيف هؤلاء الخبراء بأن الحرب ضد الفقر والعوز تبدأ من الداخل ولكنها لا ينبغى أن تنتهى هناك ٠ وهم يؤكدون على الحافز الاخلاقى وعلى أهمية التعاون الدولى والتجارة الدولية الغنية ٠ وهم يقولون أن هدف جهد

التنمية الدولية يتركز فى وضع الدول الأقل تقدما بأسرع ما يمكن فى مكان يمكنها من تحقيق آمالها بصدد التقدم الاقتصادى دون الاعتمـاد على المساعدات الأجنبية (٣٧) ٠

والواقع أن مشكلة المساعدات الخارجية المشروطة للدول الناميـة أثبتت عكس ما كان يؤمل منها ٠ سواء كانت الشروط لتقديم المساعدة علنية أو سرية ٠ فتأييد الولايات المتحدة الأمريكية فى أعقاب الحـرب العالمية الثانية للنظم الديكتاتورية التى قامت فى بعض بلدان العالم الثالث حيث ظن السياسة الأمريكيون أنها نظم مستقرة ومعادية للشـيوعية ومصادقة لرأس المال الامريكى ٠ كل ذلك أثبت تناقضه مع الديمقراطية من جانب ، وعوق التنمية فى العالم الثالث من جانب آخر ٠ لذلك ينبغى النظر فى المساعدات الخارجية نظرة شاملة ونظرة استراتيجية حتى لاتصبح فخا للدول النامية برغم قلتها من حيث الكم ٠

لقد طالبت أصوات عديدة منذ عـام ١٩٥٨ فى المجتمع الدولى بأن تخصص الدول الغنية ١٪ من دخلها القومى لمساعدة البلدان النامية فى صور قروض ومنح ٠ و فىعام ١٩٦٠ اتخذ تالجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا بهذا المعنى ٠ وفى أول اجتماع لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية عام ١٩٦٤ تم تنقيح هذه الفكرة وأيدها مجلس المعونة من أجل التنمية ٠ ولكن كل هذه الجهود لم تسفر عن بلوغ الهدف المطلوب ، اذ بلغت مساعدات التنمية بعد عشر سنوات من بروز هذه الفكرة فى المجتمع الدولى عام « ١٩٥٨ » ٣٩ر٪ ويبين الجدول التالى مساهمات الدول الغنيـة بالتفصيل فى عام ١٩٦٨ ٠

مساعدة التنمية الرسمية كنسبة من اجمالى الناتج القومى

الدولة	النسبة	الدولة	النسبة
استراليا	٥٧ر٠	اليـابان	٢٥ر٠
النمسا	٢٠ر٠	هولنـدا	٥٤ر٠
بلجيكا	٤٢ر٠	النرويج	٢٩ر٠
كنـدا	٢٨ر٠	السـويد	٣٨ر٠
الدنمـارك	٢١ر٠	سـويسرا	(١٠ر٠)
فرنسـا	٧٢ر٠	المملكة المتحدة	٤٢ر٠
المانيـا	٤٢ر٠	الولايات المتحدة	٢٨ر٠
ايطاليـا	٢٣ر٠	**المجمـوع**	**٣٩ر٠**

ماذا تنتظر الدول النامية من دول الغرب المتقدمة ؟ وماذا تنتظر الدول المتقدمة من الدول النامية ؟ .

لقد عقد فى روما فى نوفمبر ١٩٧٥ مؤتمر طرحت فيه هذه القضية بعنوان صفقة الكرة الأرضية (٣٨) على أساس ترتيب العالم الى ناد غربى يشمل الدول المتقدمة وعضويته غير مفتوحة للجميع ، وفى مواجهته العالم النامى . وعلى أساس أن الحلول بين العالمين يبدأ بالاتفاق على منهج هذا الحوار . ويتلخص ما تنتظره الدول النامية من دول الغرب فيما يلى :

١ ــ على المستوى الداخلى : ضبط النفس (أى الاحجام عن دق طبول الحرب أو دعوات العدوان على الدول النامية فى السياسة الداخلية) .

٢ ــ على المستوى الدولى : العدل (فى التعامل مع الدول النامية).

أما ما ينتظره الغرب من الدول النامية فهو :

١ ــ على المستوى الداخلى : الاعتماد على النفس .

٢ ــ على المستوى الدولى : التنبؤية (فى القرارات والأفعال وردود الأفعال) أى أن الدول المتقدمة حائرة مع الدول النامية لأن سياساتها كثيرا ما تكون مفاجات غير منتظرة أو غير متوقعة .

فاذا استمر تكتل دول العالم الثالث فمن الطبيعى أن يحمى الغرب نفسه بالتفكير فى اقامة أمم متحدة صغيرة لا تشتمل الا على الدول العظمى . وقد توصلت الدول الكبرى اقتصاديا وهى أمريكا وبريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية وايطاليا واليابن وبلجيكا وهولندا الى تكوين ما يشبه النقابة المصرفية من بنوكها المركزية لضمان حد أدنى وحد أقصى لقيمة النقد فيما بينها بحيث تتكافل فى تجنب الهزات التى يمكن أن تدمر عملة هذه البلاد فى سوق النقد الدولية » .

وفى حلقة روما هذه طرح السفير « هارلالاند كليفلاند » على المجتمعين تصور خبراء أحد المعاهد الأمريكية لترتيب العالم لوقايته من الاضطرابات الاقتصادية ، وأهم نقاط هذا التصور كما يلى :

١ — انشاء بنك الطعام ومهمته تنمية وتنسيق موارد العالم من الغذاء عن طريق مجلس الغذاء العالمى ، لتوفير الطعام لكل فم ، بحيث تزيد احتياجات العالم من الطعام ولا سيما من الحبوب ، وذلك لمواجهة السنين العجاف بصفة خاصة . مع اعطاء أولوية خاصة فى معونات الغذاء للبلاد المتعرضة للمجاعات ولا سيما الهند وبنجلاديش ودول أفريقيا جنوب الحزام الصحراوى ، وكذلك تحديد حد أقصى وحد أدنى لأسعار الأغذية الأساسية فى السوق الدولية .

٢ — انشاء بنك البترول والمواد الخام ، ومهمته تثبيت أسعار المواد الخام بوضع حد أقصى وحد أدنى لهذه الاسعار بانتظام لتتمشى مع الحالة الحقيقية للعرض والطلب فى العالم ، ومع ضبط الأسعار يكون أيضا ضمان حصول الدول الصناعية عليها من الدول النامية بعقود طويلة الأجل بين الطرفين .

٣ — انشاء هيئة مفوضة من الأمم المتحدة لمراقبة نشاط الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسيات التى استفحلت منذ الحرب العالمية الثانية، حتى أن نشاطها يمثل الان خمس تجارة العالم ، هذه الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسية فى الصناعة وغيرها ، وأكثرها مقره فى البلاد المتقدمة ، قد بلغ بعضها من الجسامة أنها أصبحت أكبر حجما وأكثر قوة من كثير من البلاد النامية التى أصبحت تتحرج من التعامل معها والانفتاح لها ، خوفا من ثقلها السياسى الذى يمكن أن يغير أو يحدد مجرى الأمور ونظم الحكم فى الدول الصغيرة ، وكذلك لقدرتها على التهرب من الضرائب وعدم احترام قوانين البلدان النامية .

٤ — انشاء صندوق دولى للمعونات يمول من فرض رسوم وضرائب دولية على كل استثمار له طابع دولى ، مثل استغلال قاع البحار ومرور السفن فى المياه الدولية والطيران المدنى فى المجال الجوى المدنى ، وعلى مصايد المحيطات وعلى المواصلات السلكية واللاسلكية الدولية ... الخ والغرض من صندوق المعونات الدولى هو تعزيز قرار الأمم المتحدة أن تخصص الدول الصناعية ١٪ من اجمالى دخلها القومى لمشروعات التنمية فى الدول النامية . عن طريق المعونات والقروض الطويلة الأجل ، لم يعد هذا القرار ينفذ الا فى حدود ثلث الواحد فى المائة ، بسبب اقتناع الدول الواهبة أو المقرضة بأن هذه المعونات لا ينتفع منها فى البلاد النامية من

يجب أن ينتفعوا منها ، وهذا الصندوق يقوم جنبا الى جنب مع البنك الدولى وبرنامج التنمية التابع للأمم المتحدة وليس بديلا عنهما ، ومهمته معاونة الدول النامية على تمويل مشروعات التنمية الأساسية فيها لسد حاجتها الحيوية .

٥ ـ اعادة التوزيع الجغرافى للصناعة ، فالصناعة حتى الآن مركزة فى الدول المتقدمة ، وقد كانت الدول المتقدمة تقليديا تحاول احباط التنمية الصناعية فى الدول المتخلفة . والحل الآن هو أن تغير الدول المتقدمة هذه السياسة وتبدأ فى تشجيع تصنيع الدول النامية بالاستثمار فيها بشرط اطمئنانها على أموالها وأرباحها ، وبذلك تتفرغ الدول المتقدمة لدخول عصر ما بعد الصناعة ، وهو عصر العقل الالكترونى ، وصناعات المعلومات . وبذلك تنتقل الصناعات والتكنولوجيا التقليدية الى البلاد النامية فتمر البلاد النامية فى نفس الثورة الصناعية التى مرت فيها البلاد المتقدمة .

٦ ـ التعاون الدولى للاستثمار فى المجال المشترك بين جميع الدول وهو المحيطات وقاع البحار للانتفاع المشترك من موارده الطبيعية . ولكى يتم ذلك لابد من الاتفاق على قانون البحار الذى يمكن من هذا الاستثمار المشترك .

ويعلق الكاتب المصرى الدكتور لويس عوض (٣٩) الذى حضر المؤتمر على هذه النقاط ويفندها وينقذها ، فيرد على فكرتهم حول بنك الطعام بقوله :

« وهذا بالطبع كلام جميل ولكنه يفجر مشاكل كثيرة خطيرة ذلك لأن سلاح القمح أو الحبوب بصفة عامة الذى تملكه بعض الدول العظمى وفى مقدمتها أمريكا يمكن أن يكون سلاحا أفعل فى الضغط على الشعوب الفقيرة من سلاح البترول فى الضغط على الشعوب الغنية . ولهذا فالسيطرة على بنك الطعام أى هذا المخزن العالمى أو هذه المخازن العالمية للأغذية الأساسية قد تترتب عليها أخطر النتائج ثم أن اشتراط توجيه التنمية الزراعية فى البلاد المتخلفة والنامية لتغطية حاجاتها من الطعام ، برغم أنه يصون استقلال هذه البلاد بضمان الكفاف ، الا انه كفيل بأن يجعل البلاد النامية عاجزة عن دخول عصر الصناعة لتركيزها على الزراعة » .

أما عن انشاء بنك البترول والمواد الخام لتخزين رصيد دولى من البترول والمواد الخام لطرحه فى السوق الدولية كلما نقص العرض عن الطلب ، فان معنى هذا لو طبق فانه يجرد الدول البترولية من أقوى سلاح تملكه فى وجه الدول القوية ، كما أنه يضمن منع حظر تصدير البترول من الدول النامية الى الدول الصناعية كما حدث فى حرب أكتوبر ، ولما كانت البلاد النامية أو المتخلفة هى مصدرة المواد الخام للدول المتقدمة ، فان نظرية العقود الطويلة الأجل مهما كانت مرنة سوف تكبل الفقراء الضعفاء لحساب الأغنياء الأقوياء ، لعدم تكافؤ الطرفين فى القدرة على المساومة ، كذلك فان هذا النظام سوف يكسر نهائيا فاعلية منظمة الأوبك ويضع حدا لاحتكار الطاقة .

أما الشركات المتعددة الجنسية فالدكتور لويس عوض يسميها الاحتكارات المتعددة الجنسية . ويرى أنها الوباء الذى استفحل فى نصف القرن الأخير ، « وهو الوباء الذى يحفر قبر الديمقراطية الليبرالية فى العالم اليوم وحتى منذ الحرب العالمية الثانية ، لعلنا نذكر أن الاسطول البريطانى لم يغرق بعض السفن التجارية الالمانية لأن رأسمالها كان انجليزيا أو لأنه كان مؤمنا عليها فى شركة اللويدز الانجليزية . وقد كانت الطائرات الأمريكية تدمر كل شبر فى برلين ومع ذلك كانت تتجنب اسقاط قنبلة واحدة على مصانع تليفونكن لأنها كانت استثمارا أمريكا أو متعددة الجنسية ، ومن بعد ذلك السوق الأوربية المشتركة ، والاستثمارات الامريكية فى كل ركن من أركان أوربا ، وفى عديد من دول العالم النامى .. فهل تجدى مع هذا الاخطبوط الاحتكارى سلطة أدبية مثل اقامة محكمة عدل دولية جديدة ؟ وماذا يحمى الدول النامية من أن تسلم مصيرها لاستثمارات أجنبية ميزانية كل منها أكبر من ميزانية كثير من دول العالم النامى » .

ويصف الكاتب المصرى التصور لاعتبار الكرة الأرضية كلها مجالا لاستثمارات الدول المتقدمة فى الصناعة بأنه تصور خطر . ففيه يتمثل حلول الاستعمار الجديد محل الاستعمار القديم ، واعتبار مواطنى العالم النامى بروليتاريا عالمية لمواطنى الدول المتقدمة ، الأولون يدربون على الانتاج الآلى والآخرون وهم مالكو رأس المال ، يجنون فوائض القيمة من هذه البروليتاريا العالمية . ومثل هذا التصور يكون مقبولا لو أن

هناك تكافؤا فى القوة بين البلدين المتقدم والمتخلف ، بما يخضع رؤوس الأموال الأجنبية لسيادة الدول النامية ، أما والحال عكس ذلك فالارجح أن رأس المال الأجنبى كفيل بأن يشكل دولة داخل الدولة فى كل بلد نام • لم تعد هناك حاجة فى هذا التخطيط لكرة الأرض لنقل العبيد من أفريقيا للعمل فى مزارع ومصانع البلدان الغنية ، اذ الأرخص الآن اقامة المصانع لهم فى محال اقامتهم ، مادامت هذه المصانع فى حراسة عواصم الدول المتقدمة • ويؤكد الدكتور لويس عوض على أن تبنى الدول النامية صناعاتها بأموالها وبعمل أبنائها ، وأن تقتصر معاونة الدول المتقدمة فى تقديم آلاتها وخبرتها التكنولوجية بالأسعار التى لا تشل النمو الصناعى فى بلاد العالم الثالث •

ويطرق الكاتب المصرى الكبير توفيق الحكيم باب البعد الدولى للتنمية عندما يعرض رأيه فى مشكلة تغيير النظام الاقتصادى العالمى ، ورأيه فى توفير الطعام لكل فم • ويشير الحكيم الى عبارة وردت فى كتاب العالم نحو التغيير الذى طبعته اليونسكو هى : « ان وضع نظام جديد للاقتصاد العالمى فرصة للسلام لا ينبغى أن تضيع » كما يشير الحكيم الى عبارة مقابلة هى : « ان فكرة وضع نظام جديد للاقتصاد العالمى ضرب من الخيال » •

ويرى الحكيم أنه لكى نطرح عنا اليأس يجب ألا نزدرى الخيال ، وأن تتذكر أن كل تقدم عملاق فى تاريخ البشرية قد أعتبر فى أول مرة من قبيل الخيال ، وأن « اينشتين » قال أن الخيال أهم من المعرفة لأنه يعلم أن المعرفة الخلاقة ثمرة للتخيل • ومن ثم يدعونا الحكيم الى التمسك بالشجاعة والايمان بمستقبل السلام • هذا السلام الذى ينظر اليه اليوم على أنه خيال بعيد • ولكن ما السلام ؟ هنا يدخل الحكيم الى جوهر فكرته التى ينادى بها ورؤيته للحل فيقول : « ان السلام ليس سوى نتيجة لنظام اقتصادى جديد ، يقوم على العدل الانسانى ، اذن لا سلام بغير عدل • ولكى نحقق هذا العدل يجب البحث فى نظام جديد للاقتصاد• كل هذا مرتبط — منطقيا — بعضه ببعض ، ولكن — عمليا — تحقيق ذلك فى منتهى الصعوبة ، أولا : من الذى سيتركنا نغير أو على الأصح نهز دعائم النظام الاقتصادى الحالى ؟ •• ان تغيير الواقع الحاضر للاقتصاد العالمى معناه بكل بساطة انهيار البناء الضخم للمجتمع المشيد على هذا

الاقتصاد القائم ، فلا بد اذن لكى ننشىء نظاما اقتصاديا جديدا أن ننشىء مجتمعا جديدا • ويبقى أن نعرف بماذا نبدأ ؟ •• هل نبدأ بالمجتمع الذى يخلق الوضع الاقتصادى الجديد ؟ أم نبدأ بالنظام الاقتصادى الجديد الذى يشكل المجتمع الجديد ؟ » • والحكيم يحدد ما يقصده بالمجتمع هنا بأنه مجتمع البلدان الغنية المتقدمة التى تستطيع اعطاء العدل • وهنا يصل الكاتب الى ذروة المشكلة ويعترف بها فى شكل الأسئلة التى يطرحها: من الذى يرغم البلدان القوية الغنية على تغيير المراكز التى تحتلها ؟

ويجيب الحكيم بترك ذلك الى الرجال ذوى العزائم المدافعين عن السلام ، فهم بما ينطوون عليه من اخلاص وأمانة فى حمل القضية يستطيعون تغيير العالم • ويترك ذلك الى العلم الذى يغير وجه الاقتصاد ومن ثم يغير العالم • ويؤكد الكاتب فكرته بما يسوقه من أمثلة فيقول : « لقد قام العلم فعلا بأبحاث محدودة حتى الآن لاكتشاف موارد جديدة للطعام •• ولكن هذه الأبحاث لم تزل ، مع الأسف ، فى نفس المرحلة التى كانت عليها الأبحاث النووية منذ خمسين سنة •• لماذا اذن قفزت الأبحاث النووية كل هذه القفزات الجبارة ؟ •• الجواب هو أن الدول القوية لها مصلحة فى تشجيع ودفع هذه الأبحاث لأغراض سياسية وعسكرية ، فى حين أن توجيه هذه الأبحاث لاطعام البشر واقرار العدل الاقتصادى لم يزل بعيدا عن اهتمام القوى العظمى ، التى يهمها فى المكان الأول انفاق المليارات من أجل تحسين سلاح رهيب مدمر ، قادر على تأكيد التفوق والسيطرة •

يجب اذن أن نبحث فى مكان آخر عن الموارد اللازمة لتمويل البحوث العلمية المتقدمة التى تقفز القفزات الجبارة لاكتشاف الطعام لكل البشر •• وليس أمامنا الا أن نتجه الى الشعوب نفسها •• شعوب العالم جميعا •• الشعوب « بملاليمها » ومعها الأثرياء الكرماء « بملياراتهم » •• ومن حصيلة هذه الأموال ينشأ صندوق دولى لتنشيط العالم الذى يلغى الجوع فوق كوكبنا الأرض •• وعلى أصحاب العقول والقلوب تقع اليوم مسئولية الاقناع بضرورة انشاء هذا الصندوق ، فقد آن الأوان لانهاء جوع البشر فوق كوكبنا ، وبغروب شبح الجوع يشرق فجر السلام (٤٠)•

لا شك أن رؤية الأديب والفنان تختلف عن رؤية السياسى وعالم الاقتصاد • وهذا ما جعل رؤية الحكيم انسانية ومثالية ، ولكنها — فيما أرى — بعيدة عن امكان التطبيق فالعلم مثل الثروة فى يد الأغنياء وهم أشد ضنا به من المال ، وقد وصل الأمر بين مجتمع الأثرياء الى ظاهرة التجسس العلمى لسرقة الاختراعات • وعدد ذوى الرأى وذوى العزائم المدافعين عن السلام أقل من ذوى العزائم المدافعين عن ضرورة رواج تجارة السلاح بل ويملكون من وسائل التأثير أضعاف ما يملك الكتاب النبلاء من أمثال الحكيم • وفيما أرى أن أكبر قيمة لرؤية الحكيم هى أنها تبصرنا بضرورة الثورة •• ثورة العالم الثالث على الاستغلال محليا وعالميا ليتحقق التقدم ويتحقق السلام •

ان قضايا التخلف فى العالم الثالث لا تهم المفكر الغربى الا من زاوية السياسة الخارجية لمجتمعه ، أو من زاوية تطور البحث العلمى واهتماماته الشخصية • أما بالنسبة للمفكر المنتمى لبلدان التخلف فهى قضية حياته ومعاشه • ان من يسبح فى النهر ليس كمن يشاهد السباحة من فوق الشاطىء • وفى أثناء الاعداد لمؤتمر الأمم المتحدة للتنمية (٤١) فى استوكهولم فى يونية عام ١٩٧٢ فزع بعض خبراء التنمية من أبناء الدول النامية ، عندما تبين لهم أن مشكلات بلدانهم تطرح من وجهة نظر الدول المتقدمة وحدها •• وقد انعقد عزم هؤلاء الخبراء على أن الطريق لمواجهة المشكلة يبدأ بدعوة المشتغلين بقضايا التنمية من أبناء العالم الثالث التصدى لها بفكر جديد ، يدع جانبا النماذج والاهداف التى تنقل عن العالم المتقدم ، ويحاول فى أصالة أن يكشف عن غيرها ، تكون أكثر التصاقا بالواقع واستلهاما لحضارات العالم الثالث واحتراما لقيمتها الخاصة •• لقد تبين لهؤلاء الخبراء أن المطلوب لبلدانهم قبل التمويل والتكنولوجيا هو جهد ذهنى مكثف يبذله أبناؤه لتحديد أهداف التنمية واستراتيجياتها •

وقد دعت مجموعة الخبراء هذه لاجتماع حضره حوالى الأربعين من خبراء التنمية فى العالم الثالث فى أبريل عام ١٩٧٣ فى سانتياجو • وقد صدر عن هذا الاجتماع البيان الذى دعا الى انشاء « منتدى العالم الثالث » كتنظيم يهدف فيما يهدف الى تجميع خير الكفاءات الذهنية بين أبنائه بقصد اقتراح استراتيجيات تنمية جديدة ومناسبة للواقع • وكان

جوهر تلك الدعوة هو التخلص من التبعية الفكرية واستثمار الطاقات الذهنية المتاحة داخل العالم الثالث وذلك باقتراح أساليب جديدة للتنمية نابعة من الاحتياجات الفعلية للشعوب وأن تتجاوز مجرد التقدم المادى لتشمل القيم الحضارية والاجتماعية لمجتمعاتها . وأن تستهدف مصلحة الجماهير العريضة من السكان وليس مصلحة أقلية ذات امتيازات . وأن تعكس التفاعل الخلاق بين الفكر الوطنى والتجارب الخارجية . وأن تعتمد فى المقام الأول على الموارد المحلية وتطوير التكنولوجيا المحلية . وأكدت الوثيقة من ناحية أخرى أن الجهد الفكرى المطلوب ضخم ، وأن على المفكرين من أبناء العالم الثالث أن يعتبروا القيام به فريضة عليهم أن يؤدونها فى صلة وثيقة بجماهير شعوبهم . كما أشارت الى أن الجهد الفكرى يجب أن يشمل أيضا اعادة النظر فى النظام الاقتصادى العالمى ليوفر الحماية لمصالح العالم الثالث المشروعة فى مجال التجارة والموارد الطبيعية ونظام النقد .

وبعد جهد شاق فى الاتصالات وتدبير التكاليف اللازمة ، انعقد الاجتماع التأسيسى للمنتدى فى كراتشى فى الفترة من ٦ الى ١١ يناير سنة ١٩٧٥ وحضره عدد من الاقتصاديين العرب ، وقد أقر الحاضرون فى نهايته النظام الأساسى للمنتدى الذى أكد أن منتدى العالم الثالث رابطة تضم على مستوى العالم أبناء البلدان النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية المبرزين فى العلوم الاجتماعية والملتزمين التزاما شخصيا ازاء تنمية بلدانهم وازاء ميثاق حقوق الانسان الذى أقرته الأمم المتحدة .

اما أهداف المنتدى كما صورها النظام الأساسى فتشمل :

● توفير الاطار الفكرى لتبادل وجهات النظر حول مختلف استراتيجيات التنمية وما يترتب على كل منها من سياسات .

● معاونة دول العالم الثالث فى تحديد اتجاهات التنمية وأسس التفاوض مع الدول المتقدمة .

● دعم البحوث الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بالتنمية بالاعتماد بصفة خاصة على مراكز البحث القومية والاقليمية فى العالم الثالث .

● تشجيع تبادل الأفكار ونتائج البحوث والكشف عن مجالات التعاون بين بلدان العالم الثالث بهدف معاونة صانعى القرارات على

المستويات القومية والاقليمية والدولية لحماية الحقوق والمصالح المشروعة لشعوب العالم الثالث .

● الاسهام فى دعم وتطوير التعاون بين بلدان العالم الثالث وبصفة خاصة فى مجال العلم والتكنولوجيا .

● ابداء الرأى فى القضايا الدولية التى تهم العالم الثالث فى علاقته بالدول المتقدمة وقد نص النظام الأساسى على أن « منتدى العالم الثالث » تنظيم غير حكومى ولا يسعى لتحقيق الربح . ولذلك فان العضوية فيه شخصية بحيث لا يمثل العضـو أى حكومة أو هيئة أو تنظيم آخر ، ولا يعبر بالتالى الا عن رأيه الخاص . وفى هذا ضمان لحرية البحث العلمى، وتيسير للتفاعل بين الأعضاء . وعضوية المنتدى مفتوحة للمشتغلين بالعلوم الاجتماعية وغيرهم من المثقفين بشرطين هما : الكفاءة المشهود بها والمبنية على العلم والخبرة ، وتبنى أهداف الندوة والالتزام بها .

وقد حرص « منتدى العالم الثالث » على استقلاله الكامل ، ونجحت المساعى الأولى فى الحصول على تمويل من السويد وكندا لتنظيم اجتماعى « سانيتاجو » « وكراتشى » ، وكانت السياسة المقررة هى محاولة تدبير التمويل من مصادر لا تحاول السيطرة على المنتدى أو توجيه أعماله . وحين عقدت اللجنة التنفيذية التى تم انتخابها فى « كراتشى » اجتماعها الأول فى مدينة « مكسيكو » استقبل « اتشفريا » رئيس المكسـيك أعضاءها ، وأبدى تحمسه للندوة واقتناعه برسالتها ، وعبر عن ذلك بأن المكسيك مستعدة لتحمل نفقات المنتدى بالكامل فى المرحلة الأولى من حياته على الاقل ، حتى لا يحتاج الى تمويل من خارج العالم الثالث .

الهوامش

(١) رجب البنا — صرخة من المسلمين فى جزر القمر — جريدة الاهرام بتاريخ ١٩٧٦/٤/١٦ .

(٢) فهمى هويدى — رحلة الى ماليزيا — جـريدة الأهـرام بتاريخ ١٩٨٨/٣/٢٩ .

(٣) كوامى نكروما — الاستعمار الجديد — (تعريب خيرى حماد) دار الكاتب العربى للطباعة والنشر — ص ٦٢ .

(٤) د. عبد العظيم رمضان — محاضرات فى تاريخ افريقيا .

(٥) ايف بينوت — ما هى التنمية — دار الحقيقة — بيروت — ص ٢٤.

(٦) الندوى — ماذا خسر العالم بانحطاط المسـلمين — الطبعـة الحادية عشر — دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت ، حلب — ١٩٧٨ صفحة ٢١٠ .

(٧) ج. هالكر وفرجسـون — ثورات امريـكا اللاتينية — ترجمـة عبد الرؤوف عز الدين — الدار المصرية للتاليف والترجمة — ص ٢٣ ؛ ص ٨ .

(٨) المرجع السابق ص ٦٠ .

(٩) تختلف تقديرات تجارة الرقيق من افريقيا ، ولكن البعض يقدرها بمائة مليون ، واضعا فى التقدير أن من مات من الرقيق أثناء الصيد والنقل والرحلة يبلغ ثلاثة او اربعة أضعاف من وصل الى العالم الجديد .

(١٠) كوامى نكروما — الاستعمار الجديد (تعريب خيرى حماد) — دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ص ٣٥ .

(١١) د. احمد كمال ابو المجد — وقفة مع مسـارنا الاقتصـادى وانماط السلوك — جريدة الأهرام بتاريخ ٩ — ٩ — ١٩٨٤ .

(١٢) د. رمزى زكى — الاقتصاد السياسى لديون مصر الخارجية — الأهرام الاقتصادى — بتاريخ ١٩٨٤/١٢/٢٤ .

(١٣) جريدة أخبار اليوم فى ١٩٨٢/١/١٦ ص ٣ .

(١٤) محمد حسنين هيكل — خريف الغضب الطبعة الثانية — لندن ص ٤٣٧ — ص ٤٤ .

(١٥) د. محمود عبد الفضيل — اقتصاد الكازينو ومشروعات الانتاج — جريدة الأهالى — بتاريخ ١٩٨٤/١٢/١٢ .

(١٦) د. احسـان هندي — كلمات فى الحضـارة — مجلة العربى — العدد ٢٢٤ — وتاريخ يوليو ١٩٧٧ .

(١٧) بول بوريل – ثورات النمو الثلاث « ترجمة اديب العاقل » مطبعة وزارة الثقافة السورية – دمشق – ١٩٧٠ – ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(١٨) د. السيد عليوه – استراتيجية الاعلام العربى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٧٨ – ص ٢٠٧، ص ٢٥٨ .

(١٩) من رسالة الرئيس أنور السادات الى أعضاء المجلس التنفيذى لليونسكو الذى عقد بمبنى الجامعة العربية بالقاهرة يوم ١٩٧٥/١٠/١٣ .

(٢٠) د. اسماعيل صبرى عبد الله – ملتقى الجزائر والنظام الاقتصادى العالمى الجديد – جريدة الأهرام ١٩٧٥/٧/٢٧ .

(٢١) د. صلاح الدين نامق – اقتصاديات السكان – دار المعارف – ١٩٧٠ – ص ٥ ، ص ١٥ .

(٢٢) على عجوة – دور الاعلام فى تنظيم الاسرة بالريف المصرى – رسالة دكتوراه من قسم الصحافة بكلية الآداب – جامعة القاهرة عام ١٩٧٤ – ص ٣٩ .

(٢٣) أحمد عبد الفتاح – تطورات السياسة القومية للسكان وتنظيم الأسرة فى مصر – بحث غير منشور ١٩٨٦ .

(٢٤) سيد محمود الهوارى – الادارة ، الأصول والأسس العلمية – الطبعة الخامسة – مكتبة عين شمس – ١٩٧٣ – ص ٩٨ .

(٢٥) المرجع السابق :

(٢٦) Yves Prats - Decentralisation et deueloppement - Editions Cujas - 1973 P. 17.

(٢٧) محمد عبد العليم مرسى – كارثة فى العالم الاسلامى (مأساة النزيف البشرى وهجرة العقول) – الطبعة الأولى – دار الصحوة – القاهرة – ١٩٨٦ – ص ٤٩ .

(٢٨) اسماعيل صبرى عبد الله – ملتقى الجزائر والنظام الاقتصادى العالمى . جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٧٥/٧/٢٧ .

(٢٩) تقرير البنك الدولى عن التنمية فى العالم – مركز الأهرام الترجمة والنشر – القاهرة – ١٩٨٦ – ص ٦٤ .

(٣٠) خليل صابات – الاعلان – مكتبة الانجلو المصرية – ١٩٦٩ ص ٩ .

(٣١) جريدة مايو فى ١٨ – ١ – ١٩٨٢ – ص ٢ .

(٣٢) تقرير البنك الدولى عن التنمية فى العالم – ١٩٨٤ – الأهرام – ص ٢٥ .

(٣٣) حربى محمد – النفط العربى وأزمة الطاقة فى العالم – دار الثورة بغداد – ص ٣٩ وذلك نقلا عن مجلة الاكسبريس الفرنسية فى عددها الصادر فى ١٩٧٣/٨/٢ .

(٣٤) المرجع السابق ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣٥) المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣٦) ماركوف ـ مشكلة التغذية وسياسة الامبريالية ـ دار التقدم ـ موسكو ـ ١٩٧٥ ـ ص ٣٢ ؛ ص ٥٠ الى ٥٢ .

(٣٧) لستر بيرسون (أعداد ابراهيم نافع) ماذا يجرى فى العالم الغنى والعالم الفقير ؟ ـ شركاء فى التنمية ـ دار المعارف ـ ١٩٧١ ص ١٣ .

(٣٨) لويس عوض ـ ترتيب العالم ـ جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٧٥/١٢/٢٦ .

(٣٩) المرجع السابق .

(٤٠) توفيق الحكيم ـ طعام الفم والروح والعقل ـ دار المعارف ـ ١٩٧٧ ـ ص ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

(٤١) اسماعيل صبرى عبد الله ـ منتدى العالم الثالث ـ جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٧٥/٥/٢٥ ص ٧ .

الفصل السادس

خطة الاعلام وخطة التنمية

الخطة والتخطيط :

ان تحديد المصطلحات يلاحقنا عندما نبدأ فصلا جديدا بمصطلح جديد • ما معنى الخطة ؟ وما هو مفهوم التخطيط ؟

يمكننا أن نحدد مفهوم الخطة بأنها التنظيمات والترتيبات التى سبق تحديدها والتى تسعى لتحقيق هدف معين ومحدود • ومن هذا المفهوم لمصطلح الخطة نجد أنه يتضمن عنصرين أساسيين : العنصر الأول هو وجود هدف معين ومحدد تسعى لتحقيقه ، والعنصر الثانى هو وجود تنظيمات وترتيبات تم اختيارها وتقررت لتحقيق الهدف •

أما التخطيط فانه يعنى التنبؤ بالمستقبل والاستعداد له • وهو بهذا المعنى المبسط أمر شائع فى حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات منذ القدم • ويحدثنا الدكتور على المرشدى [1] عن أشهر خطة لتحقيق الأمن الغذائى عرفت لنا فى تاريخ مصر القديمة ، تلك الخطة التى رواها القرآن الكريم فى قصة سيدنا يوسف ، اذ جاء فى القرآن الكريم على لسان سيدنا يوسف « قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » • (سورة يوسف آية ٤٧ ، آية ٤٨) •

لقد كانت هذه الخطة منذ آلاف السنين قبل أن يبرز الفكر الماركسى فيرى مفكروه وفلاسفته أن للتخطيط شروطا لا تتحقق الا فى مجتمع اشتراكى • وخلال آلاف السنين من تاريخ العقل البشرى مارست المجتمعات بل والجماعات والأفراد أيضا ألوانا مختلفة من التخطيط للمحافظة على حياتها ولتحقيق نفسها ومصلحتها •

ولقد اختلف المفكرون حول مفهوم التخطيط فى علوم الاقتصاد والسياسة والادارة والاجتماع وفق موضوع المعالجة وأيدلوجية المفكر وطبيعة العصر ، ولكن مصطلح التخطيط بصفة عامة يعبر عن تعبئة وتنسيق وتوجيه الموارد والطاقات والقوى البشرية والمعنوية والمادية والمالية المتاحة للمجتمع — حاضرا ومستقبلا — لتحقيق أهداف اقتصادية واجتماعية وثقافية ، متفق عليها مترابطة ومحدودة ومرسومة فى اطار سياسى ارتضاه المجتمع ، وفى فترة أو فترات زمنية محددة .

والعلاقة بين التخطيط والخطة هى أن عملية التخطيط تستلزم وضع مجموعة من الخطط . احداها عامة تمثل الأهداف التى ينشد المجتمع تحقيقها خلال مدة طويلة . كما توضع خطط تفصيلية سنوية تمثل الترجمة التفصيلية لأهداف الخطة ، والمشروعات الواجب تنفيذها فى كل من سنوات الخطة العامة تحقيقا لأهداف الخطة . وتوضع خطط اقليمية تفصيلية تهدف الى توزيع المشروعات الواجب تنفيذها فى الأقاليم المختلفة للدولة ، حتى تتحقق العدالة فى التوزيع الاقليمى لهذه المشروعات .

ويرى المفكرون الاشتراكون (٢) أن التخطيط ليس مجرد فن ، وانما هو أسلوب حياة نوع معين من المجتمعات ، وأنه لا يمكن أن يوجد تخطيط الا فى مجتمع تحققت فيه شروط الاشتراكية أو هى بسبيلها الى التحقيق أو على الأقل شروط الشروع فيها . ويقضى ذلك الى ابراز أن التخطيط يمكن أن يتخذ شكلا متطورا فى حالة المجتمع الاشتراكى المتطور ، أو شكلا انتقاليا فى مجتمع تكون الاشتراكية فيه فى مرحلة البناء عندما ترسى قواعده الأساسية .

ويطلق المفكرون الاشتراكيون على التخطيط فى المجتمع الرأسمالى البرمجة الرأسمالية نسبة الى البرامج ، على أساس أن شرط التخطيط هو الشمول ، وهو مالا يمكن تحقيقه فى المجتمعات الرأسمالية ، وان تخطيط المنتج لسلعته أو تخطيط الاحتكارات لانتاجها انما هو وضع برامج وليس تخطيطا بالمعنى الشامل للتخطيط ، وهو المعنى الاشتراكى للتخطيط .

وفى بعض البلدان الرأسمالية تضع الحكومة خططا للانتاج القومى وتعرض على البرلمان ، ولكنها غير ملزمة للرأسماليين . وان كان الواقع يثبت استفادتهم منها وسيرهم على هداها . كما أن الدول كافة تخطط

لمواردها ومصروفاتها لتضع ميزانياتها على ضوء هـذا التخطيط . وعلى أية حال لقد فرضت طبيعة العصر الاهتمام بالتخطيط فى كافة المجتمعات . ومع ازدياد تدخل الدولة فى أمور الانتاج والأسـواق حتى فى البلدان الرأسمالية الغنية أصبح التخطيط ضرورة عصرية ، ولكنه ضرورة أكثر للبلدان النامية التى يتحتم عليها أن تلم شتات نفسها وأن تضع خططها للتنمية الشاملة .

« وجون ميدلتون » (٣) باعتباره باحثا فى الاتصال يقول انه لكى نجيب عن السؤال : ما هو التخطيط ؟ علينا أن نسأل انفسنا أولا لمـاذا نخطط ؟ . وعند التأمل يبدو واضحا أننا نخطط حتى يمكن انجـاز أمور ما ؛ فالمخططون يسعون الى تنظيم الموارد (الأشياء ، النـاس ، الأموال) فى تدابير تؤدى اذا نفذت الى النتائج المتوقعة . ومن ثم ، فان التخطيط فى أساسه تعبير عن قضية شرطية تتمثل فى اذا بمعنى اذا اتخذت هذه التدابير فان نتائج مرغوبة معينة ستحدث .

ويكمن هذا المنطق فى صميم معظم تعريفات التخطيط . مثل التعريف الذى يرى ان التخطيط هو تطبيق الفكر العلمى والتقنى على أوجه النشاط المنظمة . والتعريف الذى يرى ان التخطيط هو تطبيق النظريات على الواقع لتقرير ما ينبغى عمله وأين وكيف ؟ .

اعداد الخطة :

وعندما يصدر القرار السياسى فى البلد النامى بوضع الخطة الشاملة للتنمية تتولى الوزارات والمصالح والمؤسسات العامة اعداد مشروعات خططها العامة والسنوية . كذلك تقوم هذه الهيئات مشتركة ومنفصلة بأجراء الدراسات وتقديم البيانات والاحصائيات اللازمة . ومن واقع التجربة المصرية (٤) فان ذلك لابد وأن يشمل على وجه الخصـوص ما يلى :

١ — حجم ونوع الموارد المالية والمادية والبشرية .

٢ — أوجه استخدام هذه الموارد فى الانتاج والاستثمارات والاستهلاك والتصدير والاستيراد .

٣ — نظم التمويل فى القطاعين العام والخاص وما يتعلق بذلك من أجهزة الائتمان وتوجيه المدخرات .

٤ ــ وسائل توفير العملات الأجنبية وما يتعلق بذلك من قروض وصادرات وواردات منظورة وغير منظورة .

٥ ــ برامج ومشروعات التنمية فى مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية .

٦ ــ برامج التدريب الفنى والمهنى ونظم الادارة والاشراف وتوفير الفنيين والعمال .

٧ ــ وسائل التنسيق بين الأجهزة الاقتصادية والتنفيذية العامة والخاصة .

وتقدم الوزارات والمصالح والمؤسسات مشروعاتها الى وزارة التخطيط التى تتولى اعداد الخطة العامة للسنوات الخمس وكذلك الخطط السنوية التفصيلية .

وحتى يتسنى لوزارة التخطيط اعداد الخطط فان القوانين تعطى لوزير التخطيط القومى أن يطلب من الهيئات والمؤسسات الخاصة تقديم البيانات اللازمة لاعداد الخطة العامة والخطط السنوية . واذا كانت البيانات ذات صفة خاصة يخشى عند افشائها الاضرار بمصلحة مقدميها فتعتبر بيانات سرية ولا تستخدم الا فى الغرض الذى طلبت من أجله وبواسطة الجهاز الفنى للتخطيط القومى .

ويراعى فى اعداد الخطط تقدير ما يلى (°) :

١ ــ الانتاج القومى فى القطاعات المختلفة ومستلزماته وأنواع السلع والخدمات المنتجة وتكليف الانتاج واستخدامه فى الداخل والخارج وأهداف الخطة المختلفة فى هذه النواحى .

٢ ــ الأجور والأرباح المختلفة للأفراد والهيئات بسبب الانتاج والمدخرات التى تنشأ من الدخول فى القطاعات المختلفة ووسائل توجيهها نحو الاستثمار ومصادر التمويل والاستثمار والأهداف العامة للادخار والاستثمار والدخل .

٣ ــ العمالة فى المجتمع وتهيئة فرص الدخل والتدريب للمواطنين وانتاجية العامل ورأس المال ووسائل رفعها تحقيقا للتنمية .

٤ — مستوى الاستهلاك الفردى للمواطنين وتوافر السلع والخدمات اللازمة لتحقيق مستوى معيشة أفضل لأفراد الشعب وخاصة الطبقات محدودة الدخل .

٥ — مشروعات الاستثمار والتنمية فى القطاعات المختلفة والعائد المنتظر منها واجراءات تنفيذها وتشغيلها .

٦ — دور القطاع العام ممثلا فى الادارة الحكومية وقطاع الأعمال الحكومية واستثمارات القطاع العام والسياسة المالية والاقتصادية والميزانية العامة للدولة .

هذا ، ويجب أن يراعى فى اعداد الخطة ، التوافق بين النشاط الاقتصادى العام والنشاط الاقتصادى الخاص تحقيقا للاهداف الاجتماعية ورفاهية الشعب (٦) .

أما الخطط السنوية فانها تبنى على أساس تقدير ما تم من أهداف فى السنة السابقة وما يجب أن يتم من أعمال وأهداف خلال السنة ، حتى يمكن الوصول بالمجتمع الى ما يراد له من تطور فى نهاية الخطة وعلى أساس ما تقترحه الوزارات والمؤسسات المختلفة من مشروعات وبرامج للتنفيذ خلال السنة وعلى أساس تطوير أجهزة التنفيذ وتلافى أسباب النقص والقصور التى لم تعمل تلك الأجهزة على تلافيها فى السنوات السابقة ، وعلى أساس ما قدر أن يتاح من الموارد المالية التى تصورها الميزانية العامة للدولة ومقابلها من الموارد المادية والبشرية سواء من المصادر المحلية أو الخارجية .

ومن مشاكل خطط التنمية فى بلدان العالم الثالث الانفصال بين الخطط وبين تنفيذها . ففى كثير من الأحيان تكاد تعتبر عملية التخطيط منتهية باعداد الخطة وأخذ الموافقة عليها ، ويوصف التخطيط فى مثل هذه الأحوال وصفا تهكميا بالعبارة القائلة « خرج ولم يعد » (٧) .

يفرق جون ميدلتون (٨) بين الأسباب التى دفعت الى الاهتمام بالتخطيط الاعلامى فى البلدان النامية والتى دفعت الى الاهتمام بالتخطيط الاعلامى فى البلدان المتقدمة . فيرى أنه ارتبط التخطيط الاعلامى فى البلدان النامية بالتخطيط للتنمية . وتجلى ذلك فى الاستخدام الهادف

للاتصال باعتباره جزءا من استراتيجيات التنمية بطرق مختلفة ، وذلك عن طريق تنمية خدمات الارشاد فى الزراعة والصحة والتعليم والاعلام وما الى ذلك . اما الاهتمام بنظم الاتصال فى البلدان الصناعية المتقدمة فقد نشأ عن مصدر مختلف بعض الشيء ، لقد نشأ عن تقدم تكنولوجيا الاتصال ثم عن تصديرها للبلدان النامية ، ومن ثم أصبح يؤخذ فى الاعتبار الجهود المبذولة للاستخدام المخطط للاتصال فى استراتيجيات التنمية . والتى قد تبدو فى بعض الأحيان مجزأة وغير منسقة بل متناقضة أحيانا ، كما تشوبها شوائب عدم اليقين بشأن آثارها . ومن هذه الاتجاهات الثلاثة ، الاتصال من أجل التنمية ، جوانب التقدم التكنولوجى، تغيير صور التنمية ــ نشأ الميدان الجديد التخطيط الاعلامى .

ويتحدث الدكتور أحمد كمال أبو المجد (٩) من واقع تجربته كوزير للاعلام فى مصر (١٩٧٤) عن ضرورة التنسيق بين أجهزة الاعلام والصحافة والتنظيم السياسى مؤكدا أنه بغير هذا التنسيق يمكن أن ينطلق التنظيم السياسى فى خط ، وأن تنطلق الاذاعة والتليفزيون ومصلحة الاستعلامات مثلا فى خط ، وأن تسير الصحافة فى خطوط متعددة فيكون الانسان المصرى الذى هو المستقبل لهذا ووعاؤه فى حيرة بين من يدعوه الى هنا ومن يشده الى هناك . كما أن استراتيجية التثقيف فى أجهزة الاعلام محتاجة الى مدارسة والى تحديد . أما عن الدور الخارجى لأجهزة الاعلام ولمكاتبنا الاعلامية فى الخارج فانها قاصرة ، وليست مقصرة .. قاصرة بتكوينها وبعدد الذين يعملون فيها .. والأجهزة التى تعمل بها وبالمواد الاعلامية التى تصل اليها ، وبالتمويل الذى يصلها وبدرجة التنسيق مع الشعارات ومع التنظيم السياسى .. هى قاصرة يقينا عن أن تؤدى الدور الكبير الذى يتطلع الى أدائه فى الخارج . وعندما يتحدث الوزير عن قضية الترويح . فانه يقول أن أبناء هذا المجتمع النامى يتعبون ويعملون ، ونطالبهم بمزيد من العمل ، ومن حقهم أن يستريحوا وأن يمرحوا ، وأن يروح عنهم بعد أيام عمل هى شاقة ونريدها أكثر مشقة بمهام المرحلة المقبلة . ولكن المشكلة هى أن أذواق الناس فيما يتصل بالترويح متباينة » .

ان هذا الطرح المسئول يؤكد لنا أن التخطيط الأعلامى ضرورة فى المجتمعات النامية وضرورة أشد بالنسبة لخطة التنمية فيها .

ما المقصود بالتخطيط الاعلامى ؟

ان التخطيط الاعلامى فى دولة نامية هو حصر القوى الاعلامية فيها من طاقات بشرية وأجهزة اعلامية ومعدات ومؤسسات بدءا من النشرات الحزبية الى المؤسسات الصحفية الى الاذاعة والتليفزيون الى مصلحة الاستعلامات الى قصور الثقافة ونوادى الاستماع والمشاهدة الى دور العرض السينمائى والاستوديوهات والمسارح وفرق الفنون الشعبية حتى خيال الظل وشاعر الربابة ، وتعبئة وتوجيه هذه القوى لتحقيق أهداف المجتمع ، ومن بينها أهداف خطة التنمية ومن بينها الأهداف التفصيلية لخطة الاعلام ذاتها .

من الذى يقوم بالتخطيط الاعلامى ؟

لابد من هيئة قومية تشكل بمنتهى الدقة ، ويتحقق فيها التكامل بين المفكرين والمنفذين ومن بيدهم تقديم العون المادى لتسيير وتدفق العمل الاعلامى . ان نظرة الى تشكيل المجلس (*) الاعلى للصحافة فى مصر . تقرب لنا تصورا لمجلس أعلى للتخطيط الاعلامى يضم كل من فى مجلس الصحافة ، وزير الخارجية ووزير التعليم ووزير الثقافة ، وممثلا أو أكثر للمجالس القومية المتخصصة . ثم ممثلين عن أجهزة الاذاعة والتليفزيون والسينما والمسرح والثقافة الجماهيرية وغير ذلك من كافة القطاعات العاملة فى الحقل الاعلامى الواسع وممثلين عن الأحزاب .

ولا شك أن مجلسا موسعا كهذا سوف يجد خلال جلسات قصيرة طريق عمله ولائحته والأسس العلمية التى تحقق أهداف تكوينه . ولاشك أن مجلسا كهذا المجلس سوف يشكل لجانا للبحوث تكون ضوءا دائما أمام تحقيق أهداف التخطيط الاعلامى وقائمة على أسسه فى التنسيق والتكامل والشمول والاستجابة للمتغيرات بالمرونة والتجديد .

(*) فى الحادى عشر من شهر مارس ١٩٧٥ أصدر رئيس الجمهورية بوصفه رئيسا للاتحاد الاشتراكى العربى قرارا بانشاء أول مجلس أعلى للصحافة فى مصر وقد نصت المادة الخامسة من القرار على تشكيل المجلس على النحو التالى :

(أ) وزير الاعلام .

(ب) أمين الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى العربى .

ويرى بعض الباحثين (١٠) أن أهمية التخطيط الاعلامى السياسى تكمن فى تهيئة المناخ اللازم لنشاط الدولة السياسى فى ظروف الاحداث والواقع ، والهام الجماهير الاحساس بشعور مشترك تجد نفسها من خلاله أنها قادرة على ضمان أمنها ومواجهة الأخطار التى تهددها أو تحقيق أهداف أخرى موحدة .

وأهم ما ينبغى للتخطيط الاعلامى أن يقوم به من أجل تحويل الناس الى أفكار جديدة هو دفعهم للاشتراك فى تنظيمات جديدة تتسلح بهذه الأفكار ، وبذلك تزداد قيمة هذه الأفكار أكثر فأكثر .

متى يبدأ الاعلام دوره ؟

ان أول ما يلقاه الباحث الاعلامى فى موضوع أثر الاعلام فى المجتمع والدور الذى يمكن أن تؤديه وسائل الاعلام فى تغيير المجتمع ذلك الخلاف الأيدلوجى بين الباحثين حول هل بناء الانسان يبدأ بتغيير الأوضاع الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية فى المجتمع ، ثم ينعكس ذلك على الوعى والادراك ؟ أم هل يبدأ بناء الانسان بالتأثير فى العقل والوعى وفى الضمير ثم ينعكس ذلك على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع ؟

(ج) وكيل مجلس الشعب .

(د) نقيب الصحفيين .

(هـ) أحد مستشارى محكمة الاستئناف .

(و) ثلاثة من رؤساء المؤسسات الصحفية ورؤساء التحرير .

(ز) ثلاثة من المشتغلين بالمسائل العامة .

(ح) عميد كلية الاعلام .

(ط) اثنان من أعضاء مجلس نقابة الصحفيين .

(ك) ثلاثة من الصحفيين ممن تقل مدد اشتغالهم بالمهنة عن خمسة عشر عاما يرشحهم مجلس نقابة الصحفيين .

(ل) رئيس النقابة العامة للطباعة والنشر .

وفى عام ١٩٨١ أصبح تشكيل المجلس الاعلى للصحافة فى مصر يضم ٤٨ عضوا برياسة رئيس مجلس الشورى ، منهم ٢٣ يمثلون رؤساء مجالس الادارة بالمؤسسات الصحفية ، ورؤساء التحرير ، و٢٣ عضوا من الشخصيات العامة ، وعضوين قانونيين .

وهو خلاف تقليدى أسهم فيه الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخون ، وقد اختلفت الآراء بينهم حول علاقة التتابع بين جانبى التراث الاجتماعى • الجانب المادى والجانب المعنوى • ففى رأى فريق منهم أن الجانب المادى يسبق الجانب المعنوى ، وعلى رأس هذا الفريق الماركسيون ، وذهب فريق آخر الى سبق الجانب المعنوى وأشهر القائلين بذلك أرنولدتوينبى •

ولكن الجدير بالاهتمام أن تجارب العالم الثالث أثبتت أن الأخذ بالرأيين ممكن الحدوث ، وأثبت التاريخ ذلك ، ففى الوقت الذى بدأت فيه بعض بلدان العالم الثالث تغيير الأوضاع الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية بدأت فى نفس الوقت فى العقول والسلوك ، وأثبت ذلك أن التأثير متبادل بين الجانبين المادى والمعنوى وأن بناء الانسان يرتبط ارتباطا وثيقا ببناء التقدم ماديا ومعنويا •

ولكن أهم ما يجب اضافته هو أن دور الاعلام لا يقتصر فى التنمية الشاملة على البناء المعنوى للانسان بل انه أيضا يسهم فى البناء المادى ، وأبسط دليل على ذلك استيعاب الاعلام لتكنولوجيا وسائله من أقمار صناعية الكترونية ، ومحاولة تطويرها واخضاع سلطانها للظروف المحلية • بل ولا يقف منتظرا حتى تبدأ خطة التنمية فى التنفيذ • ان المجتمع فى حركة مستمرة وكذلك الاعلام وقبل أن تتحرك خطة التنمية من الاحصائيات والتنسيق الى شكلها النهائى يكون الاعلام قد سبقها بأن يجعل المجتمع يحس بمرارة موقفه الحضارى المتخلف ـ كما سبق القول ـ وبضرورة تغيير هذا الموقف المتخلف ، ويخلق ثورة التطلعات بين أبناء المجتمع •

الاعلام والمجتمع :

اذا شبهنا النشاط الاقتصادى فى أى مجتمع من المجتمعات بالدورة الدموية فى جسم الانسان فاننا نشبه الاعلام بالجهاز العصبى فى جسم المجتمع • وما ينبغى على الاعلام أن يقوم به هو تفجير الطاقات الخلاقة داخل الانسان وشحذها للبناء ، وذلك فى اطار تغيير القديم المتعفن ، واحلال الجديد القويم من قيم وعادات وسلوك ، وفى اطار بعث القديم الأصيل ودفعه فى اتجاه التقدم • هذه هى الوظيفة الاعلامية فى المجتمع • وهذا ما يعنيه تعبير البناء المعنوى للانسان •

ان الاجابة التقليدية عن وظائف الاعلام فى المجتمع ، هى الاخبار والتثقيف والترويح والاعلان ، ولكن هذه الاجابة التقليدية ، وان عبرت عن المظهر الا أن الجوهر أكثر عمقا وفاعلية .

ولقد أولى أساتذة الاتصال أهميـة كبرى للدور الذى تلعبه وسائل الاعلام فى المجتمع فاعتبر بعضهم الاتصال نسيجا للمجتمع الانسانى برمته، وكلما تدفق الاعلام بين شرايين هذا النسيج كلما زادت فاعلية المجتمع وقدرته على التنمية .. وأكد آخرون أن عملية الاتصال لدى المواطن ترسخ شعوره بالانتماء الى وطنه وقوميته ، وأن استغلال هذا الشعور فى التنمية ضرورة من ضرورات نجاحها الى جانب أن وسائل الاتصال تنقل التراث الاجتماعى من جيل لجيل واهتم آخرون (١) بالمعلومات والأفكار التى تحملها وسائل الاتصال ، والتى تعد العامل الأساسى فى زيادة مجالات المعرفة لدى الجماهير وتوسيع أفاقهم ، وازدياد قدرة أفرادهم على التقمص الوجدانى وتقبلهم للتغيير واشتراكهم فى التنمية ويرى كثير من الباحثين أن التقمص الوجدانى جزء لا يتجزأ من الاتصال ، لأنه يربط ذهن المرسل وذهن المتلقى ، والتقمص الوجدانى هو المقدرة على فهم الحالة الذهنية لشخص آخر ، كان تقول لشخص آخر « اننى أفهم مشاعرك » . كيف يتحقق التقمص الوجدانى ؟ وما هى قيمته للاتصال ؟

يكتسب الفرد المقدرة على التقمص الوجدانى بالتحرك المادى من مكان الى آخر ، أو عن طريق التعرض لوسائل الاعلام التى تجعل التحـرك السيكلوجى يحل محل التحرك المادى . وقيمة التقمص الوجدانى للاتصال يمكن تلخيصها فى أنه لكى تتصل ، يجب أن يتوافر لنا على الأقل ثلاثة عناصر .

(١) وسائل مادية للاتصال ، (٢) ورجع صدى ، (٣) ومقدرة على التقمص الوجدانى .

والمقدرة على التقمص الوجدانى . أى عمل استنتاجات عن الآخرين وتغيير تلك الاستنتاجات لتتفق مع الظروف الجديدة ، هذه المقـدرة معروفة منذ القدم ولكن الجديد هو اكتشاف علاقتها بوسائل الاعلام . اننا حين نتوقع أو نستنتج مشاعر الآخرين بالتقمص الوجدانى ، أى القدرة على الاسقاط وتصور أنفسنا فى ظروف الآخرين . ويساعد على تطوير تلك القدرة ، التحرك المادى من مكان الى آخر ، لذلك تعمل وسـائل الاعلام على تطوير المقدرة على التقمص الوجدانى بين الأفراد الذين لم

ينتقلوا من مجتمعاتهم المحليـة أبدا ، لأن تلك الوسائل تنقل العـالم الخارجى اليهم .

وهناك نظريتان عن التقمص الوجدانى : نظرية تقول اننا نجـرب الأشياء مباشرة ونفس ما يفعله الآخرون وفقا لخبراتنا أى نفترض أن جميع الناس سوف يتصرفون بنفس الطريقة التى تتصرف بها ، واننـا لا نستطيع أن نتنبأ بما سيفعله الاخرون اذا لم نمر نحن أنفسنا بنفس التجربة التى يمرون بها . والنظرية الثانية تقول اننا نحاول أن نضـع أنفسنا فى ظروف ومواقف الآخرين . وفى اتصالنا نتحول من الاستنتاجات الى أخذ أدوار الآخرين ، على أساس تنبئنا .

ويصف العقاد فى كتابه حيـاة قلم سحر الكلمة المطبوعة ، سـحر الصـحافة قائلا : وان تعجب لسر من أسرار تلك الدعوة فى بعد مداها للبون الشاسع مثلا فى صحيفة كصحيفة العروة الوثقى أو أبو نظارة أو الأستاذ ، وريقة ذات مقال وبضعة أخبار من قبيل الأخبار البوليسـية أو البرقيات المقتضبة وتحاول أن تتبع أثرها الى أقصى مداه فلا تسـتقصيه لأنك قد تسمع صداه فى تخوم الصـين أو على متون الرمال فى جوف الصحراء . كما تروى الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى كتابها « قمم أدبية » أن على أمين سافر الى الشرق بعد احتجاب مجلة الرسـالة (١٩٣٣ ــ ١٩٥٣) ، وعاد يقول لو أن الحكومة أغلقت سـفاراتها فى الشرق وأبقت على الرسالة لكان خيرا لها وأجدى عليها .

وينبغى أن ندرك أن بناء الانسان فى أى مجتمع من المجتمعات وان كان وظيفة اعلامية معاصرة الا أن روافد عديدة تشارك مع الاعـلام فى عملية البناء هذه .. تبدأ بالأسرة الصغيرة وما يتلقاه الطفل فيها من قيم وسلوك ومزاج ، وبالميراث الحضارى فى الأمة التى ينتمى اليها الفرد . وبالتربية التى تقدم للصبى نمطا من التعليم ومن السلوك ، ثم بحركة المجتمع الثقافية وأهمها تأثير الدين والتنظيمات السياسـية القائمة فى المجتمع . كل هذه الروافد تصب فى جدول واحد وليس الاعلام الا رافدا من هذه الروافد ، ولكن نظرا للتأثير اليومى وللحـركة المتجددة وللصوت الأعلى لوسائل الاعلام فى حياتنا العصرية فاننا نلاحظ أن مطالب

الناس دائما متزايدة فى القاء مسئولية بناء الانسان العصرى فى المجتمعات الحديثة على عاتق وسائل الاعلام .

ويرى بعض أساتذة الاعلام (١٣) أن دور رجل الاعلام فى التنمية هو دور المعلم فى المجتمع فان لأجهزة الاعلام مهام محددة تترجم الى برامج تفصيلية ، هذه المهام هى التعليم والترفيه والاخبار . والصحفى كمنفذ للسياسة الاعلامية له كذلك دور المعلم .

والنظرة التاريخية لدور الاعلام فى حياتنا تؤكد مسئوليته المعاصرة . وترتبط أهمية الاعلام فى تطوره التاريخى بواقعنا المعاصر .

ان تفسير التاريخ — كما نعلم — نوع من الفلسفة ، وأن الاختلاف فى تفسير التاريخ هو فى نفس الوقت اختلاف للنظر فى تفسير العلاقات الاجتماعية الكائنة والتى مضت فى المجتمع ونحن فى هذا المقام لا نتعرض لتفسير التاريخ وانما نستعرض رأيا للكاتب العالمى ه.ج ويلز يعد من الآراء الطريفة التى تفسر التاريخ ، وهو وان كان فى نظرنا ليس تفسيرا علميا للتاريخ الا أنه يرتبط بتطور الاعلام ، ويكاد ويلز أن يرى قصة التطور البشرى قصة تطور اعلامى . فان هذا الكاتب العالمى ويلز يرى أن الانسانية مرت بمراحل فى تاريخها ، ولكنه لا يحدد هذه المراحل بالعصر القديم ثم العصور الوسطى ثم العصر الحديث كما تعود التقليديون ، ولم يفسر تطور التاريخ تفسيرا ماديا كما يرى التقدميون . وانما نظر الى تطور التاريخ على أساس ظاهرة اجتماعية واحدة وهى التى تنزع بالانسان الى تحطيم الحواجز والاتصال بأخيه الانسان فى مكان آخر وفى مجتمع آخر . وقسم ويلز مراحل التاريخ وفق هذه النظرة الى خمس مراحل :

المرحلة الأولى — هى مرحلة الكلام :

وهو يرى أن هذه المرحلة الأولى فى حياة الانسانية هى التى تميز الاسان عن غيره من الحيوانات ، لان الكلام أو النطق نابع من الفكر ومن العقل . من هنا يبدأ تاريخ الانسانية بتميز الانسان عن غيره من الحيوانات بالكلام فنقول ان الاسان حيوان ناطق أو حيوان مفكر .

المرحلة الثانية ـ هى مرحلة الكتابة :

فبعد مرحلة الكلام تقدم الانسان فاخترع رموزا يعبر بها عن مشاعره وأفكاره ووثائقه عبر الزمان والمكان ، هذه الرموز هى الكتابة .

المرحلة الثالثة ـ هى مرحلة اختراع الطباعة :

وفى هذه المرحلة أصبحت الكتابة ذات أثر فعال . واتسعت وظيفتها بامكان نقل الكلمة المطبوعة من مكان الى آخر بسهولة ، وبتعدد وكثرة النسخ المطبوعة زادت الفاعلية .

المرحلة الرابعة ـ هى المرحلة العالمية :

وهى المرحلة التى استطاعت فيها البشرية أن تجعل نقل الأشياء بصورة عالمية بفضل المخترعات الحديثة من بخار وكهرباء ووسائل المواصلات السريعة .

المرحلة الخامسة ـ مرحلة الاذاعة :

يرى ويلز أن هذه المرحلة قمة التقسيم الخامس الذى رآه يمثل تطور تاريخ البشرية ، لأنه يرى أننا بواسطة الاذاعة استطعنا أن نتخطى فى نقل المشاعر والأفكار الحدود والحواجز الجغرافية .

واذا كان « ويلز » قد نظر الى قصة التطور البشرى كقصة تطور للاتصال بين البشر ، وأسبغ عليها من شخصيته الروائية هذه النظرة الطريفة فان « ولبور شرام » (١٣) قد تتبع الوظائف الاعلامية عند تفسيره لأهمية الاعلام فى تطوره التاريخى . فهو يرى أنه عندما كان المجتمع الانسانى عبارة عن قبائل بدائية مكدسة فى الكهوف اتقاء البرد والاخطار القائمة على الدوام ، حتى هذا المجتمع كانت له احتياجات اعلامية جوهرية معينة ، الى جانب الاعلام اليومى المتبادل فى الغزل بين المحبين ، وفى نطاق العائلة وبين الأولاد فى لهوهم ، أو فى المحادثة العابرة . كان على القبيلة أن تعين « ديدبانا » مهمته مراقبة الافق والابلاغ عن الاخطار وفرص الصيد .

ان ما يذكره « شرام » يذكرنا بقصة زرقاء اليمامة المشهورة فى التراث الشعبى العربى . تلك الفتاة الحادة البصر التى كانت تصعد الى ربوة أو

تل لتخبر قبيلتها بما ترى من بعيد ، فيستعدون لمن يحاول غزوهم ، أو للفوز بصيد قطيع من الحيوانات • وذات مرة لجأ أعداء قبيلتها للتضليل والتمويه فساروا لهم تحت فروع شجر كثيفة يحملونها فوقهم • وأخبرت زرقاء اليمامة قومها بما رأت ولكنهم لم يصدقوها وظنوا بعقلها الظنون وبأن قدرة بصرها اختلت • ونتيجة لسوء تقديرهم هاجمهم أعداؤهم على غرة ونالوا منهم كل نيل وأوقعوا بهم هزيمة مروعة •

ان زرقاء اليمامة وهى تؤدى وظيفة الاعلام فى المجتمع القديم أصبحت رمزا فى عالمنا الحديث لما يصيب المجتمع عندما يسخر من رأى ذوى الرؤية البعيدة فيه •

واذا تتبعنا مهمة هذا « الديدبان » كما يقررها « شرام » فاننا نجدها تنحصر فى الابلاغ ، ثم بمجرد وصول المعلومة عن قبيلة معادية مثلا ، أو قطيع من الماشية الى القبيلة يبدأ ترتيب معين لتقرير ما يتخذ من اجراء • فشيخ القبيلة أو مجلس قيادتها يقرر بعد مناقشة وأخذ ورد تحديد المسئوليات ويصدر الأوامر وبالطبع لم تكن كل سياسة القبيلة تقرر عن طريق المجلس على اثر حالة طارئة • كان البت فى الكثير منها مرهون بنظام من المعتقدات والتقاليد والقوانين التى يبلغ بعضها من العمر ما يزيد عن عمر أكبر الأحياء فى القبيلة سنا • لذلك كان من أهم الواجبات تعليم هذه المعتقدات والتقاليد والقوانين والمهارات الضرورية فى حياة القبيلة الى الشباب وهم الاعضاء الجدد فى الجماعة • الآباء والأمهات كانوا يعلمون الأطفال ، والكاهن والشيوخ يعلمون الشباب • هذه الأدوار الاعلامية الثلاثة اذن كانت ترى بوضوح فى المجتمع الباكر : دور الديدبان (ليراقب الافق ويبلغ) ودور السياسى (لتقرير السياسة والقيادة والتشريع) ودور المعلم (ليبصر الأعضاء الجدد بشئون المجتمع من مهارات ومعتقدات يقدرها المجتمع) • هذه الوظائف الرسمية نسبيا ترتكز فوق طبقة من الاعلام اليومى لا عيش للقبيلة دونه ، وهو تعابير الصداقة والحب والتحديات والمجادلات والمناقشات والمبادلة والمتاجرة والرقص والغناء والحكايات ، وغير ذلك من الاعلام اليومى الذى يكسب المجتمع اللون والتماسك •

ويتساءل « شرام » ماذا يحدث لهذه الوظائف الاعلامية عندما يتسع نطاق المجتمع ويتعقد ويحقق الشيء الذى نسميه حضارة ؟ •

ان الوظائف الجوهرية ذاتها تظل باقية . وتبادل الاعلام يصبح أيسر من ذى قبل . وبعض وجوه النشاط التى كانت ودية عابرة تصبح رسمية. بعض ما كان يقوم به الأفراد يتطلب الآن مؤسسات اجتماعية ، أدخت الآلة فى عملية الاعلام لترى وتصغى وتتكلم وتكتب للانسان ، وحول هذه الآلات نهض عدد من أكبر المؤسسات الاعلامية وهى أجهزة الاتصال الجماهيرية . الا أن الوظائف الاعلامية ذاتها ما تزال هى الاساسية . فوظيفة مراقبة الافق يعهد بها الآن الى وسائل الاخبار الجماهيرية بكل ما لها من مخبرين ووكلات أنباء ومواصلات سلكية ولاسلكية وطباعة وتسهيلات اذاعية . ووظيفة الوصول الى التراضى الاجتماعى واقامة السياسة وادارة التنفيذ عهد بها بصفة رئيسية الى الحكومة ، ولكن منظمات كالأحزاب السياسية والأجهزة الجماهيرية تحتل مكانا ضخما ضمن عملية تشكيل الرأى العام ودفعه للعمل . ما كان يقوم به نفر قليل من محادثة قصيرة قد يستغرق الآن شهورا من المناقشة ويشمل ملايين الناس وربما يتطلب حملات على نطاق الأمة . ولكن المهمة ما تزال كما كانت أيام القبيلة — وهى تقرير السياسة والقيادة . أما مهمة تبصير الاعضاء الجدد بالمجتمع فتتولى المدارس أمرها الآن الى درجة كبيرة ، وكذلك الوسائل التعليمية : الكتب والاذاعة التعليمية والتليفزيون التعليمى والافلام التعليمية ودوائر المعارف . واتسع نطاق التعليم وتخصص ، وبرغم ذلك لا يستطيع المجتمع الاستغناء عن الخدمات الاعلامية فما تزال مطلوبة وقد زادت تعقيدات ومهارة .

أما الاتصال الاجتماعى فما يزال كما كان فى العهد القبلى يكون الطبقة التى ترتكز فوقها الخدمات المذكورة ، ولو أن بعض أجزاء الاعلام هنا أيضا قد نمت وتعقدت واتخذت طابعا رسميا . ما يزال الرجال والنساء يحيون أصدقاءهم فى الشارع ، ولكن أصبح من المألوف أيضا أن يحيى المرء صديقا بعيدا له بالبريد أو التلغراف أو التليفون . وأن يوجه زعيم وطنى تحيات للسكان جميعها عن طريق الاذاعة ، مايزال الناس يعقدون الصفقات ويبيعون ويشترون ، ولكن نشأ محل نظام المقايضة القديم اعلام ضخم معقد للشراء والبيع والاقتراض وللاعلان ولنقل تقارير الأسعار . كذلك تحول الكثير من مسئولية الترفيه العام الذى كان مجاله الغناء الشعبى والتقليدى والاسطورة ورقص القبيلة الى الاجهزة الجماهيرية وغيرها من المستحدثات المظهرية كالمسرح والسيرك والملعب الرياضى .

فالوظائف الاعلامية بذلك لم تتغير على مدى القرون فيما بين الثقافة القبلية والحضارة العصرية ، وانما برزت مستحدثات وهياكل لتكبير هذه الوظائف ومد نطاقها • نمت الكتابة حتى يحتفظ المجتمع برصيده من المعرفة فلا يضيع فى اعتماده على الاتصالات الشـخصية أو ذاكرة الشيوخ ونما فن الطباعة حتى تضاعف الآلة ما يكتب الانسان بطـريقة أرخص وأسرع • حول هذه الآلة نهضت كل مؤسسات الطباعة والنشر والمدارس العامة • وظهرت الآلات فيما بعد حتى لا يتقيد ما يمكن أن يراه الانسان بالمـكان أو الزمان ففى أول الأمر جاءت آلة التصـوير (الكاميرا) وأجهزة العرض ، ثم جاء طبع الصور • ثم استوديوهات السينما والتوزيع ودور العرض • كذلك اخترعت الآلات التى تجعل الانسان يسمع ويرى على بعد مسافات هائلة ، وحول ذلك قامت شبكات التليفون الكبرى والتسجيل الصوتى والراديو • ولما انضـمت آلات الاسـتماع الى آلات المشـاهدة وجـد الأسـاس للافـلام الصوتية والتليفزيون ، وبعبارة أخرى اكتشـف المجتمع فيما بين أيام القبيلة وعهد الحضارة العصرية كيف يشارك فى الاعلام وكيف يخزنة متخطيا بذلك المكان والزمان ليصون التاريخ من الضـياع وليزيد كم المجتمع الفعال من العشرات الى الملايين •

ليس فى الامكان أن تتخيل مجتمعا متحضرا عصريا يستخدم نمط التبادل الاعلامى الذى كان يستخدمه المجتمع القبلى البدائى ، كما أنه ليس فى الامكان أن تتخيل قبيلة بدائية تستخدم النوع الذى يستخدمه مجتمع عصرى •

ويمكن القول بأن التطور الاقتصادى كان سببا رئيسيا فى تطـور الاعلام • كان الاقتصاد البدائى يقوم على أساس الانتاج لاشباع الحاجات المباشرة للفرد ، ولذلك كان التبادل محدودا للغاية ، ففى البيئة الاقتصادية البدائية كان الفرد يستطيع بسهولة أن يشـبع معظم حاجاته ، وتفى المقايضة بالقليل من الحاجات التى لم تشبع • فى ذلك العصر وبسبب تلك الظروف كان الاعلام متوازنا فى كمه وكيفه مع شكل التبادل القليل فى صورة القليل من المقايضة • فلما تطور الاقتصاد العالمى وأصبح أسـاس الانتاج تقسيم العمل ، أصبح على الفرد أن يسهم فى الانتاج بجزء ضئيل جدا بالنسبة للعملية الانتاجية كلها • من ذلك التطور الاقتصادى ، وما

صحبه من أفكار ومبادىء وصراع ، أصبح الاتصال متناسبا فى كمه وكيفه مع الشكل الجديد من أشكال التبادل ، الشكل الذى يتسم بالتعقيد والتركيب والتناقض والتشابك .

واذا نظرنا الى واقع الاعلام فى المجتمعات النامية فاننا نجد أن الدول المتخلفة ذات نظم اعلامية متخلفة أيضا ، وعندما يأخذ أى مجتمع جديد بوسائل التنمية فانه يبدأ — فى الاتصال — بنظام وسط بين النظام القبلى والنظام العصرى ، فالقرى تغفو فى أوضاع حياتها التقليدية ، أما فى المدن فنجد وسائل الاتصال الجماهيرية والعصرية .

ان استعراضنا لأهمية الاعلام فى تطوره التاريخى يبين لنا الترابط بين خطة التنمية وخطة الاعلام ، وخطة التنمية تضــع فى حسابها تدعيم أجهزة الاعلام وتطويرها ومدها بالمعدات الحديثة وبالخبرات الفنية والمهنية اللازمة . كما تدرج فى الميزانية الأموال اللازمة لانشاء أجهزة اعلام جديدة أكثر فاعلية وأكثر تغطية لقطاعات بشرية ومساحات جغرافية فى الوطن . وتركز الحكومات فى المجتمعات النامية على أهمية الاعلام فى دفع التنمية لأن وسائل الاتصال ووســائل التعبير التقليدية فى تلك البلدان قاصرة ومتخلفة . وبرغم القصور النسبى فى وســائل الاعلام الا أن معالجتــه ممكنة فى فترة زمنية أقل نسبيا .

ويصف أحد الخبراء (١٤) حدود وامكانات وسائل الاعلام فى تغيير البشر قائلا : « لقد بدىء بتنفيذ برامج اعلام فى بعض بلداننا ، بهدف تغيير بعض سمات أسلوبنا فى الحياة . ولقد انصبت هذه البرامج على عادات الغذاء وعلى تصرفات المرء فى مسائل النسل ، ويمكن أن تنفع هذه البرامج أو بالأحرى هذه التجارب كأمثلة لاستخلاص النتائج ، ســواء فيما يتعلق بقدراتها أو بحدود العمل الاعلامى فى مسئولياته الجديدة فى تعليم الجماهير الذين يتراوحون بين الفلاح الأمى فى الريف ، وربات المنازل فى الضواحى الصناعية الجديدة . يمكن تفسير الفشل النســبى لبرامج الاعلام ، فى مجال التغذية كما فى مجال تنظيم الاسرة .. يمكن تفسيره فى جزء كبير منه من زاوية أن تغيير مظهر واحد لنمط من أنماط الحياة يقتضى التغيير الكلى لنمط الحياة ، هذا مع كل ما يحتمل ذلك من تغيير فى البناء الاجتماعى والثقافى الذى يحكم نمط الحياة » .

والواقع أن الدراسات التى أجريت على تغيير سلوك البشر تؤكد ذلك • ان غـذاء فرد ما ينتمى الى مجتمـع معين هو جزء مـن الواقع الاجتماعى والنفسى لهـذا المجتمع ، ويعكس قيما ومعتقدات ومواقف وتصرفات منغرسة فيه تماما ، وهى — غالبا — لا تتأثر بضرورة المعرفة العامة لهذا الغذاء ، ومن هذا الواقع فان ما يأكله فرد ما يمكن أن ينم ويكشف عن ثقافته ، وبيئته الاجتماعية وعن وضعه الاقتصادى وعن دينه، وبالتالى فان تغيير العادات الغذائية يحتمل تغيرات أكثر عمقا بكثير لها صلة بالشخصية الاساسية لهذا الفرد ، وكذلك بكل أسلوب حياته الذى تعبر شخصيته عن نفسها من خلاله •

كما أننا فى حقل السكان وتنظيم الأسرة نجد أنفسنا فى وضع مشابه، فقد وجد مسئولو برامج الاعلام أنفسهم فى مواجهة مواقف تناصر التكاثر دون تحديد للنسل منغرسة منذ آلاف السنين فى البنية الاجتماعية ، وفى الثقافة والدين والواقع الاقتصادى ، وأحيانا فى الواقع المكانى للمجتمعات التى وجهت اليها هذه البرامج • وقد كان مسئولو هذه البرامج فى حقل تنظيم الأسرة يتوقعون أن يحدثوا تغييرات فى مواقف وتصرفات ثابتة لها علاقة بالجانب الاكثر حساسية من الحياة البشرية (أى الجانب الجنسى من الحياة) والمحروسة بقلعة شبه مستعصية من المحرمات ومن المخاوف الكامنة تحت الوعى ، الا أن التغيير فى المواقف بازاء التناسل تمـاما كالتغيير فى مجال التغذية يقتضى تغييرات فى نمط الحياة بكل جوانبه •• والواقع أنه لابد من سبق النظر ومن المعرفة المسبقة بأن تغيير سمة واحدة من نمط حياة فرد واحد يقتضى تغييرات على مستوى جميع المظـاهر والسمات الأخرى •

لقد نجح أحد خبراء الزراعة فى استنباط نوع جديد من الذرة طبق زراعته فى احدى قرى المكسيك وجاء بغلة للفدان توازى ثلاثة أمثال النوع المزروع من قبل ، وعلى أثر ذلك أقبل نصف المزارعين فى القرية تقريبا على زراعة التقاوى الجديدة المستنبطة ، ولكن بعد مرور عامين عاد الجميع الى زراعة النوع القديم برغم قصور محصوله ، لماذا ؟ لأن العادات الغذائية المتوارثة والمتأصلة فى هذا المجتمع أجبرت الفلاحين على ذلك • فقد تعودت المرأة الريفية المكسيكية أن تصنع خبزها على شكل أرغفة مستوية السطح من الذرة القديمة ، وبمحاولتها صنع نفس الأرغفة من

الذرة الجديدة لم تنجح التجربة لأن عجينة الذرة الجديدة لا تصلح لهذا النوع من الخبز .

من ذلك نرى أن محاولة اقناع الفرد فى حد ذاته هدف من أهـداف الاعلام لأنه باقناع أكبر عدد من الأفراد يمكن أن ينجح التغيير .

وتفسر الدكتورة جيهان رشتى (١٥) وظائف الاتصال الأساسية من وجهة نظر الفرد القائم بالاتصال ، أى المرسل ، بأنها فى أغلب الاحوال هى : ١ — الاعلام ٢٠ — والتعليم ٣٠ — والترفيه ٤٠ — والاقناع .

أما المتلقى أى الطرف الآخر فى عملية الاتصال ، فأهدافه من المشاركة فى عملية الاتصال هى ١ — فهم ما يحيط به من ظواهر وأحداث .

٢ — تعلم مهارات جديدة . ٣ — الاستمتاع والاسترخاء والهرب من مشاكل الحياة . ٤ — وأخيرا الحصول على معلومات جديدة تساعده على اتخاذ القرارات والتصرف بشكل مقبول اجتماعيا .

وتقول أنه بينما كانت هذه الأهداف تتحقق فى الماضى قبل اختراع الطباعة بشكل محدود ، عندما كان يقوم بها أفراد ، أصبحت وسائل الاعلام الجماهيرية مسئولة عن القيام بغالبية هـذه المهـام الى جانب مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى . — فما هى المهام التى يؤديها الاتصال للمجتمع ؟ . — يمكن حصرها فيما يلى :

١ — توفير معلومات عن الظروف المحيطة بنا (أخبار) .

٢ — نقل التراث الثقافى من جيل الى جيل والمساعدة على تنشئة الجيل الجديد من الأطفال أو الوافدين الجدد على المجتمع .

٣ — الترفيه عن الجماهير وتخفيف أعباء الحياة عنهم .

٤ — مساعدة النظام الاجتماعى ، وذلك بتحقيق الاجماع أو الاتفاق بين أفراد الشعب الواحد ، عن طريق الاقناع وليس العنف ، بمعنى الاعتماد أساسا على الاقناع فى السيطرة على الجماهير وضمان قيامهم بالأدوار المطلوبة .

تلك هى الأهداف الأساسية للاتصال سواء بالنسبة للفرد كمرسل أو كمتلقى أو للمجتمع أو الجماعات المختلفة داخل ذلك المجتمع • ولكن لماذا يساهم الفرد فى عملية الاتصال وما هى أهدافه بشكل عام ؟ بمعنى آخر ، ما الذى يسعى الفرد لتحقيقه من اعلام وتعليم واقناع وترفيه ؟ •، يساهم الفرد فى عملية الاتصال لكى يؤثر على الآخرين من حوله ، ولكى لا يصبح محورا لتأثيرهم فقط • أى أنه يتصل ليؤثر ، يتصل لكى يحس أن له دورا وكيانا وأنه قادر على ممارسة ارادته والتأثير فى الظروف المحيطة به • ولكى نفهم ذلك المعنى أكثر ، علينا أن نتتبع تطور الانسان ككائن حى منذ طفولته حتى يشب ويصبح صاحب دور اجتماعى •

الوظائف المعاصرة للاعلام :

ما هى الوظائف المعاصرة للاعلام ؟ فى معظم الدراسات الاعلامية حتى بداية الربع الأخير من القرن العشرين يذكر الباحثون وظائف الصحافة بأنها الابلاغ أي نشر الأخبار ، ثم الشرح والتفسير أى تفسير الخبر والتعليق عليه وابداء الرأى فيه وحوله ، ثم التثقيف ، ثم التسلية والامتاع ثم الاعلان • وظل مفهوم الصحافة فى الدراسات الاعلامية يعنى مفهوم الاعلام ، بمعنى أن الصحافة مقروءة ومسموعة ومرئية ، ومع اتساع حقول الدراسات والبحوث الاعلامية لم يعد هذا التعميم ملائما للعصر • فالراديو غير التليفزيون ، والصحف غيرهما ، والأفلام السينمائية تتنوع وتتعدد وتختلف • لذلك نستطيع القول بأن الوظائف المعاصرة للاعلام يمكن النظر اليها نظرة جديدة تعتمد على التوسع الذى طرأ على وظائف وسائل الاعلام ، وعلى تطور الخدمة الاعلامية فى المجتمعات المعاصرة • وأبادر فأقول بأن ذلك ليس ابتكارا منى لوظائف جديدة الاعلام ، ولكننى أروى عن العصر الذى أعيشه • ودورى هو دور الراوية للقصص الشعبى ، يضعها فى قالب عصره • وليس مؤلفا ولا مبتكرا • ولا شك أن باحثا بعدى سوف يصنف وظائف الاعلام فى عصره أوسع من تصنيفى ، وسيكون راوية لعصره • من هذا الادراك لتطور وظائف الاعلام يمكن أن نحصرها فيما يلى :

١ — الوظيفة الاخبارية :

هناك تعبير شائع فى فن الرسم يقول : (اللون الأبيض خبز الفنان) لكثرة ما يخلطه بالألوان الأخرى فيعبر بدرجات اللون المختلفة عما يريد • وهذا القول يصدق على الخبر فى وسائل الاعلام • ان الخبر هو العمود الفقرى فى الخدمة الاعلامية • ولقد أصبح البحث عن الأخبار ، والتقاطها ، والسبق اليها ، ونشرها ، جوهر صناعة الاعلام المعاصرة • والنظـرة البسيطة لواقعنا العالمى المعاصر تؤكد أن الخبر اليوم أساس المعرفة • ومن غير الاخبار لا نستطيع أن نفهم ما يجرى حولنا فى عالمنا المعاصر •

٢ — وظيفة التنمية :

لقد أصبحت وظيفة الشرح والتفسير والاقناع وحشد الجمهور هى تعبير عن دور وسائل الاعلام فى التنمية • ومفهوم التنمية الشاملة عندى كما ذكرنا فى الفصل الاول هو زيادة محسوسة فى الانتاج والخدمات شاملة ومتكاملة مرتبطة بحركة المجتمع تأثيرا وتأثرا ، مستخدمة الاساليب العلمية الحديثة فى التكنولوجيا والتنظيم والادارة • والتنمية بهذا المعنى كمثلث يعبر كل ضلع من اضلاعه عن أبعادها الثـلاثة : الاقتصـادية والاجتماعية والثقافية مع التأكيد بأن ما نقصده بالبعد الاجتماعى هو البعد الشامل لحركة المجتمع السياسية ونظم الحكم وما شابه ذلك •

ان نشر الخبر مجردا يكون فى كثير من الأحيان بغير معنى • ولكن الشرح والتحليل يضيف اليه المعانى والمدلولات • كذلك اقناع الناس بفكرة أو قضية هو التعبير عن قوة الرأى العام • وحشد الجهود وراء عمل ما ، هو تعبير عن مسيرة التقدم • ان هذه الوظيفة هى التطور الطبيعى لوظيفة تفسير أو شرح الخبر فى وسائل الاعلام •

٣ — الوظيفة التربوية :

هل كان أجدادنا عندما أصدروا الصحف بعد انتشار الطباعة الآلية يظنون أنها ستعلم الناس القراءة والكتابة ؟ لقد أصبحت الصحف وسيلة من وسائل محو الأمة (*) ، ووسيلة من وسائل تعليم اللغة • ويتضاءل

(*) لصحيفة التعاون المصرية تجربة جديرة بالدراسة فى عام ١٩٧٣م فى محو الأمية . ولجريدة الشعب الجزائرية تجـربة جديرة بالدراسـة فى التعـريب فى عام ١٩٧٢م . ولاذاعة القـاهرة تجـربة رائدة فى تعليـم العربية للاجانب عام ١٩٦٢ وجهـود هيئة الاذاعة البريطانيـة فى تعليم الانجليزية مشهورة وذائعة .

دور الصحف فى محو الأمية وفى تعليم اللغات اذا قيس بدور الاذاعة (راديو وتليفزيون) • فاذا أضفنا الى ذلك البرامج التعليمية أصبحنا أمام حقيقة هامة ، هى أن وسائل الاعلام تقوم بدور تعليمى مباشر • أما الدور التربوى الرئيسى والمستمر لوسائل الاعلام فيتمثل فى أنها تمثل جامعة للذين تركوا مقاعد الدراسة • وأن التعليم فيها مستمر مدى حياتهم • ولقد أصبح رجل الاعلام فى المجتمع يقوم بدور المعلم فى المدرسة • والوظيفة التربوية لوسائل الاعلام تتمثل بالمعنى الشامل لمفهوم التربية •

لقد أصبحت وسائل الاعلام تقوم بالدور التربوى من تعليم وتهذيب وحماية التراث الثقافى للأمة ونقله من جيل الى جيل • وقد ساعدت العملية الاعلامية فى ذاتها على تحقيق ذلك • لقد سبق علماء الاجتماع غيرهم فى الكشف عن الدوافع التى تشعل فى الناس حماسا للاتصال بعضهم ببعض ، وقالوا ان الانسان بهذا الالتقاء يخفف عبء الحياة الواقعية والعملية فى حياته • وفسر بعض علماء الاجتماع نزوع الانسان الى الاتصال بأخيه الانسان هو شعوره بأن العالم الخارجى لا يخصه وحده • وان فى العالم أمورا تشبع مشاعره وترضى طموحه • وبذلك أعطى الانسان للحياة الاجتماعية قيمة وتقديرا لما تفرضه عليه • ولذلك وجدنا وسائل الاعلام فى عصرنا هذا تقوم بدور الرقيب الاجتماعى • ان العيب الذى يعتبره المجتمع عيبا يترسخ فى وسائل الاعلام ، بكثرة ما تنشره عنه استنكارا له ، أو تسخيفا لمن يأتيه ، أو سخرية بمن يبيح شيئا منه •

وبرغم اختلاف وسائل الاعلام عن وسائل التربية الا أن أهداف التربية وأهداف الاعلام تتقارب فى معظم الوجوه • لذلك يسهل تقدم كل منهما تقدم الآخر • ويحقق النجاح فى وظائف كل منهما النجاح فى وظائف الآخر •

٤ — وظيفة الشورى او الوظيفة الديمقراطية :

أصبحت وسائل الاعلام منابر للناس • لقادة الرأى الصدارة والافتتاحيات • وللقراء البريد والشكاوى ومطالب المستمعين والمشاهدين وما شابه ذلك • وكلما توسعت الوسائل فى هذا الدور كلما تقدم المجتمع • وكلما ضيقت كلما تدهور المجتمع • ومع تشابك وتعقد المصالح فى المجتمعات المعاصرة أصبحت قضية تعبير وسائل الاعلام عن من ؟ قضية

حيوية وخطيرة . ففى ظل الاحتكارات من جانب وفى ظل الدكتاتوريات من جانب آخر تتقلص الوظيفة الديمقراطية لوسائل الاعلام ، وينـذر تقلصها بالمهالك . لأن التعقيد والتركيب والتشابك فى المجتمعات المعاصرة يجعل الاعتماد على وسائل الاعلام أساسيا وحيويا . فاذا أظلمت بتقلص الوظيفة الديمقراطية تخبط الناس فى الظلام . ومن أجل ذلك يستمر الحوار حول أهمية تحرر وسائل الاعلام من السيطرة .. من صـور السيطرة العديدة المتمثلة فى المعلنين ، وتجار السـلاح ، وقادة الحزب الواحد ، وخدم الحاكم المطلق ، وما شابه ذلك .

وفى كافة الدساتير فى مختلف بلدان العالم ينص على حق الفرد فى التعبير عن رأيه . وفى الاعلان العالمى لحقوق الانسان نص بحق الانسان فى المعرفة . ولكن المشكلة دائما فى التطبيق . والوظيفة الديمقراطيـة للاعلام المعاصر تستطيع أن توسع دائرة مسئولية الفرد فى صنع القرارات الوطنية وفى ادارة شئون الوطن . ان نشر المعلومات ، وتبادل الأفكار ، والحوار حول القضايا من شأنه أن يثير حماس الناس للمشاركة فى الحياة العامة ، وأن يدفع الناس للتفكير فى الحلول السليمة لمشاكلهم العامة .

٥ — الوظيفة الترفيهية :

كانت هذه الوظيفة تسمى التسلية والامتاع . وكانت أمثلتها الشائعة الطرائف والنوادر . ثم أصبحت الآن فى عصر التليفزيون الملون ، وعصر وسائل الاعلام التى تعتمد فى بقائها على الاعلانات حجر الزاوية فى كثير من الوسائل . والسعى لاستغلال هذه الوظيفة فى الأهداف التى يسعى خبراء الاعلام الى تحقيقها . لقد اتسع نطاق هذه الوظيفة وأضفى ظله على كثير من الوظائف الأخرى . وهذه الوظيفة الاعلامية تمتد من وسائل الاعلام التقليدى والبسيط الى وسائل الاعلام الالكترونية الحديثة . فلكل مجتمع طريقته فى الترفيه والتسلية ، ولكل ظرف من ظـروف الزمان والتحضر المستوى المناسـب له من مسـتويات الترفيه والتسـلية . (فالأراجوز) و (شاعر الربابة) و (صندوق الدنيـا) حـل محلهم الروايات الفكاهية والمسلسلات التليفزيونية وعروض السيرك والحفلات الرياضية والرقص الشعبى وما شابه ذلك .

٦ — الوظيفة التسويقية أو وظيفة الاعلانات :

لم يعد خافيا اليوم أهمية هذه الوظيفة للبائع والمنتج وهم أطـراف السوق . وقد تعود القارىء والمسـتمع والمشـاهد على الاعلانات فى

الصحيفة والراديو والتليفزيون ، وبدونها تصبح منقوصة • وفى الحرب العالمية الثانية كانت الحكومة الأمريكية ترسل الى جيوشها فيما وراء البحار طبعات خاصة من أهم المجلات بدون اعلانات • ولكن الجنود طالبوا بأن تصدر الطبعات باعلاناتها • ويرى بعض علماء الاعلام أن الاعلانات هى أخبار ولكنها أخبار سعيدة • وأنها بذلك تحفظ التوازن فى الصحيفة التى تنشر أخبار الفيضانات والاغتيالات والزلازل وما شابه ذلك •

٧ — وظيفة الخدمات العامة :

وتتمثل فى النشرات الجوية بأحوال الطقس ، وفى نشر مواقيت الصلاة أو اذاعة الآذان ، وفى الاستشارات القانونية والطبية ، والتعارف ، وفى مئات الأشياء الصغيرة التى لا يمكن حصرها وتدخل فى نطاق الخدمات التى تقدم لجمهور وسائل الاعلام • حتى يمكن القول بأن وسائل الاعلام المعاصرة أصبحت جهاز علاقات عامة لكل قارىء أو مستمع أو مشاهد • فالاذاعة المحلية للقاهرة الكبرى واذاعة الشعب عندما تذيع أسماء ركاب الطائرات الذين تخلفت لهم حقائب بالمطار ، وبرامج الخدمات المفتوحة التى تقدمها محطات الاذاعة المختلفة مجانا ، ومحطة الراديو السودانية بأم درمان تذيع نشرات الوفيات وأسماء أقاربهم عقب معظم نشرات الاخبار ليتمكن المواطنون من المشاركة فى تشييع الجنازات وتقديم واجب العزاء •• كل هذه الاشياء أصبحت من الخدمات المألوفة التى تقدمها وسائل الاعلام •

ولقد أغفلت عن عمد فى تصنيف وظائف الاعلام وظيفة التثقيف • فان المفهوم المعاصر للثقافة يجعل كل وظائف الاعلام تؤدى الدور التثقيفى • لأن الثقافة تعبير عن الفكر الانسانى ، وتنمية لهذا الفكر بمختلف الوسائل المتاحة فى المجتمع • ولكننى أضيف أن وظائف الاعلام لا يمكن حصرها حصرا كاملا فان الناس فى زماننا يولدون فى الصحف ويتزوجون فى الصحف ويموتون فى الصحف • ولا ندرى ماذا يستجد من وظائف الوسائل الاعلامية المختلفة •

اعلام الاستعمار والمجتمع الجديد :

ان البعد التاريخى للتنمية يقف بنا أمام حقيقة واضحة ، وهى أن التنمية فى العالم الثالث صراع بين الاستعمار الجديد وبين الدول الحديثة

الاستقلال . ما الذى يعمله اعلام الاستعمار الجديد فى مجتمع حديث الاستقلال يتطلع الى التنمية ؟ وما الذى يجب أن تنحو اليـه خطـة الاعلام الوطنى لتسهم فى عملية التنمية الوطنية ؟ .

خطة الاعلام فى التنمية الوطنية :

أولا — ماذا يعمل اعلام الاستعمار الجديد فى مجتمع حديث الاستقلال يتطلع الى التنمية .

ان الاعلام الاستعمارى يسعى الى صياغة عقول فى البلدان الناميـة توافق مصالحة من جانب ، ويسعى الى تثبيت قيم ومفاهيم تؤكد استمرار مصالحة أيضا من جانب آخر . ويرتبط الهدفان بعضهما ببعض ارتباطا وثيقا لأنهما يمثلان هدفا استراتيجيا واحدا ، والاستعمار يغير خططـه التكتيكية وينتقل من موقف الى نقيضه ما دام ذلك فى خـدمة هدفه الاستراتيجى المحدد .

ان صياغة العقول صناعة اعلامية قديمة عند الاستعمار ولعل ما قاله الامام محمد عبده بأننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية يكشف لنا هذه المسألة . ولعل تعبير القلوب الاستعمارية يشمل العقل والعاطفة معا . ويجد رجل الاعلام المؤمن بقيم المجتمع الجـديد فى وطنه النامى صعوبات كثيرة ترجع الى التركة المثقلة التى خلفها اعلام الاستعمار . ولا شك أن الأمثلة أكثر من الحصر ولكننى سأضرب مثلا من الصحافة المصرية .

ان من يتصفح الصحف المصرية منـذ ثورة ١٩١٩ الى ثورة ١٩٥٢ يجدها بصفة عامة حافلة بالهجوم على البلشفية والنظام الشيوعى . ويجد أن المادة الصحفية المنشورة فى هذه الصحف على كثرتها محشوة بالطعن والتشويه للتجربة الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى . ويرجع ذلك الى سببين : أولهما وأهمهما فى مقام الحديث عن صياغة العقول — أنه منقول فى معظمه عن الصحف الأوربية الغربية ، وكانت هذه الصحف سـياطا دائمة الضرب فى ظهر التجربة السوفيتية . والسـبب الثانى هو الموقف انطبقى لأصحاب الصحف المصرية التى نقلت المادة التحريرية ، وغلبة الفكر الليبرالى فى مصر آنذاك . ولكن يهمنا أن نؤكد أن نشر هـذه المادة الصحفية كان يتم بوعى وعن قصد لاثارة الكراهية ضد الفكر الاشتراكى ، وما يهمنا أكثر وأكثر هو الأثر الذى أحدثه ذلك . لقد كان لهذه البذور

التى بذرتها الصحافة المصرية فى تشويه التجربة السوفيتية الأثر الواضح عندما حدث التغيير فى مصر وبدأت مسيرتها الاشتراكية عام ١٩٦١ • كانت البذور القديمة قد خلفت تصورا كئيبا عشعش فى أذهان قطاعات عريضة من المصريين عن الاشتراكية ومبادىء البلشفيك وتجربتهم •

أصبح عناء رجل الاعلام المصرى فى أنه يلاقى الرفض من كثير من أصحاب المصلحة الحقيقية فى الاشتراكية ، لأن ما توارثوه من صياغة العقول أنها تعنى الكفر والالحاد وانها تعنى أن تصبح النساء مشاعا بين الرجال وغير ذلك ، برغم أن طريق التنمية الاشتراكى المصرى كان بعيدا عن الكفر والالحاد فضلا عن عدم المساس بوضع المرأة الدينى والأسرى •

وهناك مثل آخر حدث بعد مايو (١٩٧١) لقد انتهزت بعض العناصر الرجعية فى الاعلام فرصة ما حدث وطالبت بالغاء الثورة من جذورها ، والعودة بعقارب الساعة الى الوراء •

ومن الأمثلة الشائعة فى البلدان النامية لتفوق المستعمر وعبقريته ونسبة كل حسن اليه ونسبة كل سىء الى ابن البلد هذه الأمثلة التى تلقاها فى البلدان العربية لتسمية الخضروات والفواكه • فالجزر الافرنجى يطلق على الصنف الأصفر الممتاز فى مصر والجزر البلدى يطلق على الصنف الردىء • وكذلك « الخص » وفى الجزائر تسمى الفاكهة أو الخضر الممتازة باسم « رومى » وتطلق تسمية « بلدى » أو ما شابه ذلك على الاصناف السيئة • والمضحك أن الافرنجى والرومى والبلدى كلها انتاج زراعى عربى فى تربة عربية وبيد عربية وليس للاجنبى فيها من علاقة الا أنه يأكلها ويستغلها •

ولعلنا نلحظ ما خلفه تثبيت هذه القيم فى بعض البلدان العربية ومنها مصر من التهافت على المستورد وتفضيل « بتاع برة » فى كثير من الأمور •

ولكن الأخطر والأقسى وطأة فى العمل الاعلامى الاستعمارى هو الوصول بأبناء البلدان النامية الى كراهية بلدانهم • ومن ثم يمكن ايجاد المناخ الملائم للاستغلال أمام الاحتكارات العالمية • ان الصعوبات والأخطاء التى تقابل عملية التنمية تفرض مضايقات شتى لشباب هذه البلدان الذى يصاب بخيبة أمل كبيرة فى قياداته السياسية ويصاب بارهاق نفسى ومادى من سوء الادارة يوميا • ومن هذا الوضع يستغل الاعلام الاستعمارى فرصة نادرة لتضخيم النقد والبعد تماما عن ذكر الايجابيات حتى يصل المواطن النامى بنفسه الى كراهية وطنه •

ان الأمثلة فى سعى الاعلام الاستعمارى الى صياغة العقول فى الدول النامية وسعيه فى تثبيت قيم تؤكد استمرار مصالحة فى هذه البلدان أكثر من أن تحصى . وهو يستخدم لها كافة وسائل الاعلام ، بل انه يلجأ الى الشائعات وأساليب الحرب النفسية الى جانب محطات الاذاعات السرية والعلنية والكتب التى تتحدث عن قوة دول الاستعمار وتفوقها الذى لايقهر . هذا بطبيعة الحال الى جانب وسائل الاعلام الاخرى التى تبدو فيها هذه الأهداف سافرة معلنة حينا وتختفى بين سطورها كما يختفى السم فى أطباق حلوى حينا آخر .

وتبرز لنا أهداف الاعلام الاستعمارى ذلك الدوى المستمر بين أجهزته الاعلامية القوية والغنية وبين وسائل اعلام البلدان النامية التى تدافع عن حقها فى حياة . ولعل أصوات الحرب الاعلامية بين الاستعمار الجديد والعالم النامى هى أصداء مشكلات التنمية المعاصرة فى الاعلام . أو بمعنى أصح هى أصداء الحوادث الناجمة عن كسر الدول النامية للحواجز التى تعوق التقدم . ولعل هذا الصوت هو صوت التاريخ ذاته وهو يباشر حركته الحتمية ويصحح الأخطاء التى وقعت ضد حقوق الانسان . ولقد نسمع أصوات الذين يقاومون هذا التيار أو يحاولون تغيير مجراه أكثر وأجهر وأعلى لانهم يملكون من وسائل الاعلام الأعلى صوتا والاجهر نبرة والاقوى تأثيرا . وأصدق مثل على ذلك .. زيادة أسعار البترول الخام . ان الاستعمار الجديد يسعى الى السيطرة على خامات الدول النامية والتحكم فى أسعار المواد الخام ، فما أن رفعت دول البترول أسعاره كاجراء عادل فى مواجهة الزيادة المستمرة فى أسعار منتجات الدول الغنية حتى هبت وسائل اعلام الاستعمار الجديد تصرخ فى وجه دول البترول ، والعربية بصفة خاصة ، وتصورها بصورة المعتدى على الحضارة ، أو بصورة من يقود العالم الى الدمار ، وتلصق بها من بعيد ومن قريب كل أسباب المشكلات المعاصرة . ويبدو الأمر فى بعض الأحيان وكأنه حمى أصابت الاستعمار الجديد ، والا كيف نفسر مثلا أن وزير الزراعة الانجليزى يتحدث فى تليفزيون بلده عام ١٩٧٤ ويعتذر لمواطنيه عن نقص بعض المواد الزراعية بحجة أنه كان هناك اتفاق بين بلده وجاميكا على تصدير هذه المواد ولكن جاميكا لم تف باتفاقها . والسبب هو العرب الذين رفعوا أسعار بترولهم فاضطرت جاميكا الى الغاء الاتفاق وبيع حاصلاتها الزراعية لغير بريطانيا .

وتلجأ وسائل اعلام الاستعمار الجديد الى التهديد باحتلال مواقع البترول العربية وغير ذلك مما نطالعه ونسمعه كثيرا فى الصحافة المكتوبة والمسموعة ، كما تصور الانسان العربى فى صورة تدعو للسخرية أو الكراهية .

ثانيا — ما الذى يجب أن تنحو اليه خطة الاعلام الوطنى لتسهم فى عملية التنمية الوطنية ؟ :

قلنا ان الظروف الموضوعية لكل شعب لابد وأن تؤدى الى نمط محدد من أشكال التنمية ، وأن هذا النمط أو الشكل المحدد لم يتكون من فراغ ، وانما فرضه الواقع وفرضته الظروف .

ان شكل خطة التنمية لابد وأن يستتبعه شكل الخطة الاعلامية ، بمعنى ارتباط خطة الاعلام بخطة التنمية ارتباطا عضويا . لأن مقومات خطة التنمية نفسها هى مقومات خطة الاعلام ، أى أن الخط الذى أوصلنا الى شكل معين من أشكال التنمية هو نفس الخط الذى يقودنا الى الخطة الاعلامية .

وينبغى أن نتذكر هنا نظريات الاعلام واختلاف الاعلام من مجتمع الى آخر ، فلا تتوقع فى الولايات المتحدة الأمريكية خطة اعلامية تحبذ أو تنادى بخطة تنمية على النمط الاشتراكى ، وكذلك لا تتوقع فى الاتحاد السوفيتى خطة اعلامية تحبذ أو تنادى بخطة تنمية رأسمالية وهكذا .

وبغير أن ندخل فى تفاصيل نستطيع أن نقسم — فيما أرى — خطة الاعلام فى مجال التنمية الوطنية الى قسمين رئيسيين :

اولهما : بنائى ، وثانيهما : دفاعى .

والتسميتان مجازيتان ، فالأول يتلخص فى البناء المعنوى للانسان وفى المناداة بقيم المجتمع الجديد والتبشير بها ، ودعم خطط التنمية وشرحها وتبسيطها . والثانى يتلخص فى الدفاع ضد هجمات اعلام الاستعمار الجديد ، ومحاولة ابطال مفعولة وكشفه وفضح أساليبه أمام الجماهير .

القسـم البنـائى :

قبل أن نضع خطة للاعلام أو نباشر العمل الاعلامى فى خدمة التنمية لابد أن نفهم الواقع فهما موضوعيا وأن نعرف الساحة التى سنعمل فيها حتى لانكون غرباء عن الواقع الذى نريد العمل فيه أو نريد تغييره .

*** فهم الواقع :**

ان أول سؤال يواجه رجل الاعلام وهو يعد خطته الاعلامية فى خدمة التنمية هو : هل البيئة مدركة لواقعها المتخلف ؟ لأن ادراك الوضع المتخلف هو أول الخطوات نحو تغيير هذا الوضع . ثم لكى نفهم الواقع لا بد أن نحصل على حقائق موقف التخلف ، وأن نحصل على الاحصائيات والميزانيات وكافة ما يتعلق بالتنمية . وليس لرجل الاعلام أى عذر فى عدم حصوله على حقائق الموقف المتخلف . ربما يكون من الصعب الحصول على كافة الاحصائيات والأرقام نظرا لموقف السلطة فى بعض الأحيان من حرمان الاعلام خوفا من كشف تقصيرها وانحرافاتها ، وربما يرجع عدم الحصول على حقائق الموقف الى تقصير الاعلاميين فى معايشة الناس ومشاكلهم . فى كل الاحوال ليس هناك من عذر يمكن قبوله من رجل الاعلام فى تبرير عدم معرفته للواقع . وعليه أن يجتهد للحصول على أكبر قدر من المعلومات والاحصائيات ، وأن يعايش الناس ويتحسس المشاكل . وهذه مهنته ومهمته . وعليه أن يدرك طبيعة الوجدان الخاص بالجمهور الذى يتوجه اليه . فعلى سبيل المثال تجد فى أحيان كثيرة أن « الرأى المصرى ، والمزاج المصرى ليس هو ما تسمعه من الناس فى العلن مثلا أو فى جلسات المقاهى أو حتى فى القعدات الخاصة ، الرأى المصرى الحقيقى شىء غويط جدا ، من الصعب تماما الوصول اليه ومن المستحيل تقريبا الامساك به ، شىء دفين ، دفين ، وكأنه من أسرار الحياة أو الخلود ، بل لعله فعلا كذلك وربما هو الذى أبقى شعبنا حيا ، متماسكا لسبعة آلاف عام أو تزيد ، قدرته الخارقة على اخفاء ما يريد ، حتى يحقق ما يريد فأحيانا يقتل التحقيق أو يضيعه مجرد اعلان النيه أو امكان الوصول اليها . نجدهم يصفقون تصفيقا راعدا للمطربة أو الراقصة أو اللاعب أو الكاتب ، فاذا انتحيت بأيهم جانبا وسألته عن رأيه الحقيقى لأبدى وفى الحال رأيا مخالفا تماما . شىء غريب ، نحن نستطيع أن نفهم أن ينافق البعض شخصا أو يتحمسون له مجاملة ، أما هذا ، فماذا أسميه ؟ نفاق للنفس

مثلا أو الوصول بالموقف الساخر من الحياة الى الحد الذى يجعل لك تجاه الشىء الواحد ، موقفين ، أحدهما هو الحقيقى الدفين والآخر هو المزور الذى تبديه أمام الناس ولكن المضحك ــ أنك تبديه أمام نفسك أيضا (١٦) » .

وقد لا يعبر ما على السطح عن حقيقة وجوهر النفوس ، لكن ادراك ذلك لا يتم اعتباطا وانما يتم بخبرة رجل الاعلام المستمرة ، وتقدمه فى عمله الاعلامى وبالممارسة والتجربة .

*** تحديد الأهداف :**

بعد أن نفهم الواقع فهما جيدا تبرز أمامنا تحديد الاهداف التى تسعى خطة الاعلام لتحقيقها ، وهى بالضرورة مرتبطة بخطة التنمية . واذا أردنا أن نتعرض لشىء من تفاصيل دور الاعلام فى التنمية فى الواقع المصرى المعاصر .. فلنستمع الى وجهة نظر الوزير المصرى ممدوح سالم (١٩٧٤) عن التنمية .

(أ) فى مجال التنمية الاقتصادية :

ــ التركيز على زيادة انتاجنا الذاتى ــ وهو حجر الأساس بالرغم من الاستثمارات العربية والأجنبية ــ وقيادة حملات زيادة الانتاج .

ــ أيضاح صعوبات مرحلة أعقاب الحرب ــ وأن الرخاء يحتاج الى عمل كبير وطويل وشاق وعدم ايجاد أمال بسرعة تعطى ردودا غير مواتية .

ــ نقد القطاع العام ــ نقدا بناء ــ واظهار ايجابياته كلما برزت وتدعيمه بالآراء لانجاحه باعتباره حجر الأساس .

ــ تدعيم المناخ المناسب للاستثمار العربى والأجنبى وتنمية الوعى السياحى كمصدر دخل كبير .

ــ ترشيد الاستهلاك وتشجيع التصدير .

(ب) فى مجال التنمية الاجتماعية :

ــ قيادة الحملات الشعبية ــ بالاشتراك مع الاتحاد الاشتراكى بالنسبة للقضايا القومية فى التنمية وبالجهود الذاتية ــ وبمجهود شعبى (فى التعمير واعادة بناء الريف ومحو الأمية) .

ــ فتح الباب لجميع الآراء الخاصة بسياسات التعليم وكيفية تطويرها واستطلاع الحلول فى أعلى وأدنى السلم الوظيفى .

ــ قيادة حملات اعلامية لتعاون شعبى بالنسبة للنظافة والرعاية الصحية .

ــ استثمار الجهود النسائية ــ وعرضها وتشجيعها .

(ج) فى مجال بناء الانسان المصرى :

ــ التعرض لقضية الايمان وشرحها شرحا عصريا من كتاب عصريين ومن قادة الدين لتثبيت مفاهيمها بالأسلوب السليم الذى يقطع على المتاجرين بالدين استغلال الميل الدينى للشعب والانحراف ببعض الشباب .

ــ التعرض لرواسب الفكر الاقطاعى المتخلف والذى تظهر صوره فى كثير من أشكال الحياة المصرية ومفاهيمها والاستجابة لرياح التغير لثورة العدل الاجتماعى والتحول من المجتمع الزراعى الى المجتمع الصناعى والاثار الحضارية لتطبيق العلم والتكنولوجيا واستخدام وسائل الاتصال والمعرفة الحديثة .

ــ اعطاء أهمية خاصة لنشاطات الشباب واتجاهاتهم وأفكارهم كمتنفس فكرى للأجيال الصاعدة .

التركيز على أبواب تؤكد القيم الروحية والأخلاقية فى مواجهة موجة الاستمتاع المادى التى تسود المجتمعات الأخرى .

ــ التركيز على الاحساس بالمال العام وتقديره والحفاظ عليه كقيمة لابد من ترسيخها فى نفوس الجماهير .

التركيز على الأسلوب التعاونى ــ كقيمة تراثية يمكن تطويرها حضاريا واقتصاديا والذى ينبعث من التكامل الاجتماعى وتماسك الأسرة وسيادة مشاعر المحبة ونبذ الاحقاد (١٧) .

وينبغى لرجل الاعلام أن يتسلح فى رؤيته للأهداف بالنظرة العلمية فيرى الجزء دائما فى اطار الكل ، ويستوعب قوانين الترابط .

*** اختيار انسب الوسائل :**

الخطوة الثالثة بعد فهم الواقع وتحديد الاهداف هى اختيار أنسب الوسائل المهنية لتعبئة الجماهير وحشدها وراء التنمية . ولابد أن تتأكد

فى هذه الخطوة من معرفة اطار الدلالة للمتلقين معرفة يقينية محددة . لأن الرسالة الاعلامية لا يمكن تبادلها الا فى المساحة المشتركة بين اطار دلالة المرسل وهو رجل الاعلام وبين اطار دلالة المستقبل وهو القارىء أو المشاهد أو المستمع . ومعنى اطار الدلالة أن تكون اللغة والخبرات مشتركة بين المرسل والمستقبل فلكى يفهم المستقبل مضمون الرسالة لا بد أن تكون له درايه باساسيات الموضوع الذى تدور حوله . فعند الحديث عن تنظيم الأسرة مثلا يعرف المستقبل مسبقا الحمل والطفل والأسرة والعلاقة الجنسية بين الرجل وزوجته وما شابه ذلك . عند الحديث عن ميكانيكا السيارة لن يستفيد من الرسالة الفلاح الذى لم يعرف عن السيارة غير أنه واحد من ركابها عند سفره من القرية الى المدينة ، وليكون هناك اطار دلالة فى هذه الحالة لابد للمستقبل من الالمام بقيادة السيارة ومعرفة ولو بسيطة بالأجزاء الرئيسية فيها حتى يمكن تبادل الرسالة فى داخل الاطار الدلالى للمرسل . ولا شك أن اطار الدلالة يتسع ويضيق ، وكلما امكن تبادل الرسالة فيه كلما نجحت الرسالة . والقدرة المهنية لرجل الاعلام تتركز فى قدرته على توصيل رسالته الاعلامية الى المتلقى بسهولة ويسر ، فكثير من الناس لديهم الادراك التام لما يريدون قوله ولكن عندما يحاولون وضع ذلك فى تعبير سليم مبسط فانهم يجدون صعوبة بالغة .

ولقد أظهرت دراسات ميدانية اعلامية عديدة أن لكل وسيلة من وسائل الاعلام قدرة على الاقناع تقل عن غيرها أو تزيد ، وأن الامكانيات الخاصة لكل وسيلة تختلف من مهمة اقناعية الى أخرى وفقا للموضوع وبسبب اختلاف التلقى من جمهور الى جمهور . كما تبين أيضا أن وسائل الاتصال الجماهيرى عندما تعمل مع الاتصال المباشر الشخصى تؤكد نوعا من الترابط بين الاثنين . ويمكن لرجل الاعلام أن يستفيد من أشكال الفن الشعبى والثقافة الجماهيرية لخدمة أهدافه، فالأمثال جزء من التراث الثقافى للأمم ، ومهما تقدمت الأمة فان الأمثال تظل لها فاعليتها فى حماية تراث الامة الخلقى والسلوكى . وهناك قول شائع فى معظم البلدان بأن المثل لم يترك شيئا من القول . وهو تعبير عن اتساع معانى الامثلة وشمولها لمختلف جوانب الحياة .

وهذه العملية الفنية قد يؤدى عدم اتقانها الى سقوط الرسالة الاعلامية وفشلها . وما يتميز به رجل الاعلام الناجح هو قدرته على

توصيل أكبر قدر ممكن من الحقائق التى تحويها رسالته الاعلامية وكلما كان رجل الاعلام منتميا الى الجماهير التى يخاطبها ومعايشا لها كلما نجح فى هذا السبيل ، ولعل أصدق تأكيد على ذلك أن كل رسول كان يخاطب قومه بلسانهم وأن قوله تعالى « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » يبين لنا ضرورة وأهمية علم المرسل باطار دلالة المتلقين .

كذلك ينبغى أن نعرف أهمية الحملة الاعلامية فى اختيار أنسب الوسائل المهنية لتعبئة الجماهير وحشدها وراء التنمية . ان عنصر التتابع والاصرار فى الحملة الاعلامية يزيح المعوقات أمام أهدافها . ويجند ويوسع دائرة المؤيدين والمتحمسين ، بل ويتغلب على محاولات طمس الحقيقة فى كثير من الأحيان .

*** المتابعة والتقييم :**

تبقى الخطوة الرابعة وهى المتابعة والتقييم لخطتنا الاعلامية وقياس أثرها حتى يمكننا تعديل المسار أو اقرار الطريق الذى سلكناه .

وعلينا أن ندرك الفرق بين المتابعة والتقييم فى خطتنا الاعلامية ، وفى كل خطة ، ان المتابعة عملية مستمرة وهى جزء من تنظيم وتقسيم أدوار العمل فى الخطة ، أما التقييم فهو مواجهة بين الأهداف والنتائج وقد تكون الصعوبة فى تقييم خطة الاعلام هى عدم وجود النماذج السابقة التى يمكن القياس عليها أو عدم تطابق التجارب السابقة التى يمكن القياس عليها . وبرغم ذلك فان المتابعة والتقييم لا يقومان من فراغ وانما يقفان على أقدام ثابتة من تاريخ الاجهزة نفسها وتجاربها فى العمل ومن تاريخ الظروف المتشابهة فى بلدان أخرى . وأساسا من التصور السليم للأهداف التى تم الاتفاق عليها .

وينبغى أن نفرق كاعلاميين بين نقطتين رئيسيتين فى خطتنا الاعلامية المرتبطة بخطة التنمية أو بمعنى أدق فى كافة خططنا الاعلامية . ينبغى أن نفرق بين حشد الجماهير وراء هدف محدد أو موضوع معين أو قضية بذاتها وبين عملية البناء المعنوى للانسان المصرى والعربى بصفة عامة . ان عملية الحشد مرحلية ومؤقتة وترتبط بظرف معين أو هدف معين أو قضية بذاتها . أما عملية البناء المعنوى فهى عملية مستمرة وهى عملية عقائدية الى حد كبير .

ولا شك أن التربية والتنظيمات السياسية تؤدى دورا أساسيا فى بناء الانسان فى كل مجتمع من المجتمعات ، ولكن ذلك لا يقلل من دور وسائل الاعلام المختلفة وبخاصة فى مصر حيث يبدو القصور الوظيفى للمدرسة والجامعة نظرا لكثافة عدد الطلبة ، وحيث يبدو القصور فى وضــوح هذا الهدف أمام التنظيمات السياسية المصرية العلنية وعلى وجه التحديد التى واكبت ثورة يوليو .. فاننا نلحظ أن هذه التنظيمات تقــوم بعملية الحشد كثيرا ولكنها قليلا ما تقوم بعملية البناء المعنوى المتكاملة .

والامثلة بين عملية الحشد وبين عملية البناء توضح الفروق الجوهرية بينهما ، اننا عندما قمنا بحملة اعلامية لانجاز بناء السد العالى فى موعده . كنا نحشد الجماهير وراء هذا العمل العظيم ، ولكننا عنــدما نرسخ فى المجتمع قيمة حضارية جديدة فاننا نؤدى عملية البناء المعنوى . وأضرب لكم مثلا بالاهتمام بالوقت أو الاحساس بالزمن . فمن المحزن حقا أن نرى صورة عدم ادراك قيمة الوقت أو أهمية الزمن منتشرة بيننا حتى كبار المثقفين ، ويتوطن الداء حتى أن اجتماعا من مسئول كبير يعقد فى السابعة يعلن عنه مساعدوه أنه فى السادسة ولا يبدأ قبل الثامنة . أو صورة من يقسم النهار الى ثلاثة أقسام فيقول لك فى الصباح أو فى الظهر فى آخر النهار وكأنما الساعة الغيت وكأنما تقسيم الساعة لا يجوز ! يحدث ذلك فى أواخر القرن العشرين ، والتراث العربى القديم يحمل قولا رائعا يكشف أهمية الوقت بقوله : الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك .

* نموذج للاقنــاع

وغاية ما تسعى اليه خطة الاعلام هو اقناع الناس وتغيير اتجاهاتهم . لذلك شغلت قضية الاقناع وتغيير الاتجاهات مساحة شاسعة فى حقــل الدراسات الاعلامية ولناخذ مثالا نموذج الاقناع وتغيير الاتجاهات فى الزراعة الحديثة فى مصر .

١ ــ كان الفيضان ساعة شديدة الدقة بالنسبة للفلاح المصرى . ظلت هذه الساعة تعمل آلاف السنين بدقة متناهية . ضبط الفلاح المصرى لآلاف السنين عليها مواقيت الزراعة ونوع البذور وطريقة الزراعة .

٢ ــ بعد بناء السد العالى حدث تغير شديد فلم يعد هناك فيضان للنيل . كما أصبح من الضرورى اقناع الفلاح بطرق جديدة للزراعة وتغيير اتجاهاته . وقد رأينا الفلاح يؤخر مواعيد الزراعة ومواعيد الحصاد لان الفيضان لم يعد ينبهه أو يهدده .

٣ — استجد عنصر حيوى وهو ما يمكن ان نسميه بنموذج الزراعة الحديثة فى مصر . ومثال ذلك زراعة ثلاثة محاصيل بدلا من محصـــول واحد ثم الزراعة المحمية فى الصوب تم زراعة محاصيل جديدة ثم تركيب محصولى جديد وما شابه ذلك من أساليب الزراعة الحديثة .

٤ — تقوم العناصر الرئيسية للزراعة الحديثة على ما يلى :

(أ) البذور المنتقاة .

(ب) المواعيد المحددة .

(جـ) الوقاية من الآفات الزراعية .

ما هى مهمتنا ؟هى اقناع الفلاح بكل ذلك وتغيير اتجاهاته فى سبيل تحقيق خطة التنمية الزراعية الجديدة . وهو أمر جد عسير أتمنى ان تقوم وزارة الزراعة فى مصر باجراء خطة اعلامية له ، وان تعمم نتائجها الناجحة بعد ذلك على المستوى الوطنى العالمى .

الوجـــه المظلم للاعـــلام :

بعد الحديث عن الدور الايجابى لخطة الاعلام فى التنمية ينبغى أن نتعرض للوجه الآخر وهو أخطاء الاعلام فى التنمية ، وأثرها على خطة التنمية ، أو بمعنى أكثر سفورا هل من الممكن أن يصبح الاعلام فى بعض المواقف معوقا للتنمية ؟

يجب أن نفرق بين الاخطاء الطفيفة التى تحدث فى مجرى الحيـــاة اليومية للعمل الاعلامى ، وبين الاخطاء القائمة على تناقض أساسى بين بعض رجال الاعلام وأهداف جماهير المجتمع العريضة . فالاخطاء الطفيفة ينطبق عليها ما قاله نهرو .. من أنه ليس أمامنا الا ان نجرى وأن نقع . وكما نعلم ان العصمة لله وحده . ولكن الاعلام كمعوق للتنمية وخطر عليها يكمن فى التناقض الاساسى بين بعض رجال الاعلام وبين الاغلبية الساحقة فى المجتمع صاحبة المصلحة الحقيقية فى التغيير الاجتماعى وفى احراز التقـــدم .

ونضرب بعض الامثلة من واقع الاعلام المصرى التى تبرز لنا هــذا الجانب السلبى للاعلام . اننا عندما نقرأ العمود اليومى القصير للكاتب المصرى أنيس منصور .. نرى صورة جديرة بالتأمل :

« لو أمسكت ورقة وقلما وأحصيت عدد آبار البترول وبراميل البترول التى فاضت على أرض مصر فى العشرين عاما الماضية لوجدت أنها تعادل بترول السعودية وأبو ظبى معا . فكل يوم تظهر بئر عميقة .. لابد أن تكون عميقة جدا ، لان هذا يدل على أننا وجدناها بصعوبة . واننا وجدناها خلافا للقواعد المعروفة فى البحث عن البترول . لانه لا يستبعد ان يكون الاجانب قد تجاهلوا أو قدموا لنا خرائط كاذبة .. أو اننا فحصنا طبيعة الارض التى لا يوجد بها بترول بينما كل البـلاد المجـاورة غارقة فى البترول .

« وقد نشرت الصحف المصرية صورا مضحكة لعينات البترول النادرة فى احدى المرات نشرت صورة لمسئول وهو يحتضن زجاجتين كأنه يرضع توأمين كانت ولادتهما صعبة .. ولا بد أن تكون هناك أكثر من زجاجة . لان زجاجة من عينة واحدة معناها أن البترول شىء عادى وان العثور عليه كالعثور على حجر رشيد صدفة . ولكن اذا ظهرت زجاجتان كان ذلك دليلا على العناء ، وفى نفس الوقت على الثقة بالنفس وعلى الخير المضاعف لمصر كلهـا .

« أما بحيرات البترول التى نمشى عليها فلا حدود لهـا .. ومـن الغريب أن كل هذه الآبار قد تلاشت بقدرة قادر .. أو أنها ذرفت دموعا من البترول ثم سكتت أو أسكتت .. وهى أنواع من الهلوسة القومية فنحن نريد أن يكون عندنا بترول . ولاننا نريد ، فاننا نحول أن نجعل أحلامنا أقرب الى الواقع . أو هى الواقع نفسه . ولان هناك اعتقادا عاما بأن أرضنا خضراء تجرى من تحتها الانهار ، فاذا ظهر بترول فاننا نجعل ظهوره عسيرا عنيفا .. تماما كما يقال عن سيدة عاقر لا تلد ، فاذا حملت فهى تشيع عن نفسها أن الجنين كبير أكثر من اللازم ، وأن الولادة يجب ان تكون قيصرية .. يعنى أنها لاتقنع أنها ولدت ككل الناس . وانما ولادتها مختلفة . من نوع خـاص .. وأنها غـير خلق الله جميعا » .

ان التكبير أو التصغير فى تناول وسائل الاعلام للمشاكل القومية خطر على التنمية ، لان تناول المشاكل بحجمها الحقيقى هو الطريق الوحيـد لحلها ، بعيدا عن اليأس أو بعيدا عن التفاؤل الساذج . ان الافراط الشديد فى التفاؤل يقودنا الى أحلام اليقظة والى السراب ، والافراط فى التشاؤم يقودنا الى تكريس اليأس فى النفوس .

وقد يكون الاعلام ضحية بسبب تخبط البيانات التى يحصل عليها . ولكن يكفى أن يكشف الاعلام مصادر هذه البيانات ليعالج الموقف ويبين خطـر التخبط .

« اذا حاولت (١٨) أن نفهم مشروع فوسفات « أبو طرطور » بالوادى الجديد ، سوف تصاب بالحيرة الشديدة . مثلا ، اذا أردت أن تعرف احتياطى خام الفوسفات فى هذه المنطقة فهو ١٠٠٠ مليون طن كما تقول نشرة هيئة مجمع الحديد المكلفة بتنفيذ المشروع ، و ٧٠٠ مليون طن كما يقول تقرير هيئة المساحة الجيولوجية و ٥٦٠ مليون طن كما يقول تقرير محافظة الوادى الجديد وهكذا وصلنا الى نصف الكمية ! .

واستثمارات المشروع : ٣٤٥ مليون جنيه وفقا لآخر تصريح لوزير الصناعة ، و ٣٠٠ مليون جنيه وفقا لنشرة هيئة مجمع الحديد . والفرق ٤٥ مليون جنيه وهو مبلغ ليس بسيطا — و ١٠٠ مليون جنيه وفقا لنشرة هيئة المساحة الجيولوجية — وهكذا أصبح الفرق ٢٤٥ مليون جنيه — فمن الأصدق ؟

أما العائد السنوى للمشروع فان آخر تصريح لرئيس هيئة التصنيع يقول انه ٣٠٠ مليون دولار سنويا ، — لعله يقصد جنيها بدلا من دولار — وآخر تصريح لوزير الصناعة يقول انه ٢٥٠ مليون جنيه — بفـرق ٥٠ مليونا فقط — أما تقرير هيئة المساحة الجيولوجية فيقول ان العائد ٣٥ مليون جنيه — وهكذا أصبح الفرق أكثر من ٢٠٠ مليون .

ليست المشكلة من الصادق ومن الكاذب ؟ المشكلة هى كيفية الوصول الى البيانات والارقام ، هل تعتمد على دراسات علمية فعلا أم تعتمد على تخمينات وظنون وفلتات لسان . اذا كانت الارقام خاصة بمشروع صغير ربما كنا سكتنا ، ولكن فى مثل ضخامة مشروع « أبى طرطور » فلابد أن نطلب الدقة ، لان الشغل « بالبركة » ، سوف يكلفنا الكثير » .

ونضرب مثلا آخر يظهر الجانب المظلم للاعلام بالباب الثابت فى معظم الصحف المصرية وهو بختك اليوم أو بختك هذا الاسبوع أو حظك اليوم أو حظك هذا الاسبوع ذلك الباب الذى يتعارض مع الفهم الصحيح للدين ويتناقض مع البناء العقلى للانسان العصرى . أو أن نطالع اعلانا يقول ان الحاجة « فلانة » الروحانية تقدم استشارتها بالمنزل رقم كذا

بشارع كذا ، وأن زيارتها من الساعة كذا الى الساعة كذا ، أو أن فلانا يقرأ لك الكف ويحدثك عن المستقبل وغير ذلك .

لقد نشرت الاهرام فى صفحتها الأخيرة يوم ١٩٧٥/٢/٢٥ هـذا الخبر : المنياوى الفلكى يقدم لك : « حظك اليوم » فى الاهرام :

● ابتداء من الغد تلتقى كل صباح اذا كنت من الحريصين على متابعة باب « حظك اليوم » مع الفلكى المعروف محمد يوسف المنياوى الذى اتفق مع « الاهرام » على ان يقدم « حظك اليوم » بعـد وفاة المرحوم « التونسى الفلكى » .

المنياوى (٥٨ سنة) تولى رئاسة مؤتمر الفلكيين العالمى الذى عقد فى باريس كما أشتهر عنه انه أبلغ تشرشل رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية أن أمريكا ستدخل الحرب الى جانب الحلفاء وحدد له موعد المعركة الحاسمة فى العلمين مما دعا تشرشل الى استضافته فى لندن بعد الحرب حيث أقام فى بيته الريفى الخاص .

وف اليوم التالى ١٩٧٥/٢/٢٦ . نشرت القصة الخبرية التالية :

« تحت عباءة الرهبان » :

● قال انه راهب : وارتدى ملابس الرهبان ، وراح يدعى القدرة على شفاء المرضى وتزويج البنات والتعجيل بحمل السيدت ، والتقريب والتفريق بين الازواج باستخدام الجان ولا أحـد يتعظ ـ الجاهلات كالمثقفات . كل واحدة منهن تدفع له عشرة جنيهات دفعة واحدة كمقدم أتعاب .. كانت هذه المعلومات التى وصلت الى قسم رعاية الاحداث بمديرية أمن القاهرة والتى دفعت اللواء كمال خير الله مدير أمن القاهرة ، والعميد أحمد حسن مدير المباحث الى طلب اتخاذ الاجراءات السريعـة لضبطه..فان ذلك الذى يصنعه لا يدخل تحت بند الدين ولابند القانون. ودخلت احدى السيدات الى بيت الرجل والتقت داخل الشقة بشابين وسيدة أخذوا يستفسرون منها عن مشكلتها وعن اسمها فقالت لهم ان زوجها تركها ليصادق فتاة أخرى وأخذ يهملها وأنها ترغب بأن يعـود اليها فقرروا لها أنهم سيقدمونها الى الرجل الذى يتصل بالجان ليحل كربها ويقربها من زوجها عن طريق العمل « السفلى » وعندما استعلمت منهم عن معنى كلمة سفلى أكدوا أنه حتى يتحقق هذا العمل سريعا لابد

لها ان تجلس أمامه فى غرفة مظلمة عارية الجسد ليلقى عليها بعض التعاويذ ويدون على ظهرها بعض العبارات .. ثم يخرج بعد ذلك أحد الجان من داخل جدار الحائط فيقدم الى الدجال قطعة من الفضة وكتب عليها العمل بمادة بيضاء اللون .. وطلبوا منها اذا لم تكن لديها الرغبة فى هذه الجلسة عليها ان تستعين بفتاة أخرى تؤدى هذه الجلسة نيابة عنها وعندئذ تتضاعف الاتعاب فتصل الى مبلغ عشرين جنيها . وخرجت السيدة لتفكر فى الامر : وعادت فى اليوم التالى وقابلتها زوجة الرجل استر غالى سمعان (٣٧ سنة) وتسلمت منها عشرة جنيهات مقدم الاتعاب ، وراحت تتحدث معها بأنها تدير شقة مفروشة وطلبت من المرشدة أن تأتى لها ببعض الفتيات لاجراء تجارب عليهن بالطريقة السفلية فتظاهرت بالاستجابة . ثم دخلت الى غرفة الرجل . وبعد حوالى ربع ساعة اقتحمت عليهما الابواب لم تكن السيدة سوى مرشدة للبوليس . ولم يكن الذين اقتحموا الابواب سوى قوة يقودها الرائدان شريف عبد الرازق وأحمد أدريس والنقيبان عبد الوهاب العادل وعادل فوزى وقد فوجئوا بمشهد مثير .

كانت المرشدة تجلس على مقعد بينما الدجال يخلع ملابسه ويطلب منها فى غيظ أن تخلع هى الاخرى ملابسها ليبدأ الجلسة .. وكان وراء الستار شاب آخر يزعم انه « العفريت » اتضح ان اسمه شنوده جيد .

وقبض على الرجل — الدجال — خلف شحاته الشهير بادوارد ، وقبض أيضا على زوجته ، وعلى « العفريت » .. وعلى شاب آخر .. لمعى جرجس فام كان دوره استدراج الفتيات والسيدات نظير ٣٠ فى المائة من قيمة المبالغ التى يدفعنها . وضبطت بعض الادوات المختلفة التى يستخدمها فى مزاولة أعمال السحر والشعوذة ومجموعة كبيرة من الصور المختلفة لبعض الفتيات والسيدات من المترددات مدونا خلف كل واحدة كلمات حب وكراهية وزواج وطلاق ، ودفتر توفير باسم المتهم بمبلغ ٥٠٠ جنيه . وكانت نهاية غير سعيدة أمام وكيل نيابة الآداب .

وتنشر مجلة الحوادث اللبنانية المهاجرة التى تصدر من لندن فى عددها (١٤٢٢) الصادر فى ٣ فبراير ١٩٨٤ الاعلان التالى :

« العالم الروحانى والمنجم الفلكى المعجزة (فلان) سيكون موجودا فى لندن فى أوتيل الانتركونتيننتال من تاريخ ٢٠ الى ٢٣ فبراير ، بامكانكم

الاتصال به حاليا فى برلين على الرقم (كذا) برلين الغربية لأخذ المواعيد لمقابلته فى لندن .

فاذا أردت أن تعرف ماضيك ... حاضرك والمستقبل وما خبألكم الدهر من سعادة وشقاء ، فاكتب الى (فلان) واخبره بمشكلتك العاطفية والنفسية أو الصحية ، ان هذا الأحدب لديه سيطرة على الجان والتحكم بهم بالسر الذى يحكمه وبامكانه أن يبعد كل شر وحسد عنكم وبالمراسلة أيضا . فاكتبوا له على عنوانكم أدناه مع ذكر الاسم الكامل واسم الام وتاريخ الميلاد فى صورة مرفقة بمبلغ ١٠٠ دولار أو ما يعادلها بالعملات الاخرى بالبريد المسجل مع ذكر عنوانكم ورقم تلفونكم ان وجد . عنواننا هو المانيا الغربية برلين (كذا) » .

ومع هذا الاعلان صورة لصاحبه ، وأمامه شمعة وكرة يبدو أنها من الزجاج وتدل الصورة على انه شاب فى منتصف العمر . كما ان هذا الاعلان نشر قبل ذلك فى المجلة نفسها .

ويمكن القول بأن هذه الامثلة التى ضربناها من الصحافة المكتوبة يتضائل حجمها وخطرها أمام حجم وخطر ما تعج به الافلام والمسلسلات الاذاعية والتليفزيونية والتمثيليات ، وحتى بعض البرامج الخاصة ، لقد قدمت احدى محطاتنا الاذاعية برنامجا عن يوم القيامة اعتمد على نبوءة أحد المنجمين وأثار البرنامج الهلع والفزع بين المستمعين . ومن الغريب أن هذا كله تقليد لبرنامج قديم اذاعته احدى المحطات الامريكية على نفس النحو ، وسبب قلقا وخسائر فادحة ، ففى يوم ٣٠ أكتوبر عام ١٩٣٨ اذاع أورسن ويلز مع فرقة راديو (اس ب اس) الامريكية تمثيلية عن وقوع غزو من المريخ . وقبل أن يحل المساء كان الآلاف من المستمعين فى حالة ذعر وهلع . وفر بعضهم الى التلال . وتلقى مركز البوليس آلاف المكالمات . وكذلك وكالات الحكومة الفيدرالية . وحاول آلاف من الناس تحذير أصدقائهم كما أخذ بعض الناس أسرهم ، وما خف حمله وغلا ثمنه من متاعهم وانطلقوا بسياراتهم بعيدا عن الشاطىء الشرقى الذى زعمت التمثيلية أن الغزاة من أهل المريخ قد نزلوا عليه .

ويتضاءل كل ذلك أمام الخطر الناجم عن تبنى بعض رجال الاعلام سياسة مدروسة ومنهجا يبشرون به ، ويشيع فى معظم ما يقدمونه من مواد

اعلامية . ويلخص هذا المنهج أو هذه السياسة فى الالتفاف حول الاسس الحقيقية لأسباب تخلف الانسان الكادح فى البلدان النامية وصرفه عنها . نرى مثلا لذلك فى ان حل مشاكل الانسان الكادح هو ان يربح ورقة يانصيب ، أو أن تطرق بابه مندوبة ليلة القدر . لأن المقابل الواقعى أو الصحى هو تغيير المجتمع واقرار حق العمل وتقديس جهد الانسان فى ان يعمل وان يكد وأن يتقدم .

ان تفتيت الرغبة العارمة والمتأججة لدى الانسان الكادح فى كسر طوق التخلف بصرفه عن قضايا الانتاج أو بتخديره بحلم كاذب له فى صورة مقعد وثير فى طائرة بوينج مثلا وفى يده حقيبة « سامسونيت » كل ذلك خطر محدق بالتنمية وبالانسان صانع التنمية .

فعلى سبيل المثال ماذا يفيد القارىء المصرى الذى لا يجد مكانا لقدميه فىأوتوبيس مزدحم فىالخبر التالى : العقل الالكترونى يقود سيارتك(١٩): « ستعاونك العقول الالكترونية فى قيادة سيارتك . ستجعل قيادتك أكثر متعة وأقل عناءا ، وبدون تفكير ! عقل اليكترونى صغير سيوضع فى كل سيارة ، وفيه يضع السائق رغبته قبل بدء الرحلة . لنفترض أنه سيسافر الى حى المنتزة بالاسكندرية مثلا . سيقوم العقل الاليكترونى أوتوماتيكيا بتوجيهه الى الطريق . سيطلب منه السير الى الامام ، والانحراف يمينا أو يسارا ، ويستمر هكذا حتى تصل السيارة الى المكان المطلوب . سيطلب العقل الاليكترونى من السائق أيضا تخفيض السرعة قبل المنحنيات وسيطلب منه التهدئة قبل اشارات المرور ، العقل الاليكرونى لن يقدم لك أقصر الطرق ولكنه سيقدم لك أسهلها وأكثرها أمنا فقط ، اذا لم تسمع كلام العقل الاليكترونى فى أى جزء من الرحلة فانه لن يغضب منك بل سيقدم لك التوجيهات الجديدة الخاصة بالطريق الذى قررت تغيير رحلتك اليه ! العقل الاليكترونى الجديد انتجته شركة بلونبكت فى المانيا الغربية .

واذا كان هذا الخبر لا يهم قارئا فى مثل ظروف القارىء المصرى ، فاننا نسوق خبرا شبيها به ولنا ان نفكر فى تأثيره على الفتاة المراهقة فى مصر الانفتاح . وهذا نص الخبر المنشور تحت صورة فتاة جميلة تبتسم ابتسامة عريضة تحت عنوان : الوجه الجميل ثمنه مليون دولار (٢٠) .

« امتلكى وجها جميلا • وتعالى لتربحى مليون دولار • هذا ما تقوله لك شركات مستحضرات التجميل • فقد نشرت احدى الصحف الامريكية موضوعا عن ثمانى امريكيات يعتبرن أكثر الفتيات حظا فى الولايات المتحدة حيث يعملن فى مجال الاعلان عن مستحضرات التجميل وثروتهن أصبحت الان أكثر من مليون دولار بعد ان كن فتيات عاديات • فعلى سبيل المثال كارول التى كانت مجرد مضيفة تخدم الزبائن فى أحد محلات نيويورك ، ورآها ذات مرة أحد المصورين وعرض عليها العمل كفتاة غلاف ، وقبلت وتدرجت فى العمل حتى أصبحت تعمل الان فتاة غلاف لأكثر من مجلة وتتقاضى ٢٥٠ دولارا مقابل ساعة واحدة من العمل ، ومثل كارول توجد مارجو هيمنجواى ولورين هاتون وشيرلى تيجز التى تبلغ ثروتها ٥ر١ مليون دولار » •

ما الذى يمكن أن يفعله اعلام سيىء فى مجتمع يسعى الى التنمية ؟ كيف يصبح الاعلام السقيم التافه سما يقتل تحفز الشعب ويقبر الاشراقة المضيئة فى أذهان الاجيال ؟ ان الكاتب المصرى يوسف أدريس (٣١) يكاد يصرخ حين يقول : « أيها السادة ، نحن نمر بمجاعة ثقافية لم يسبق لها مثيل • أن تحس أن هذه المسرحية تافهة أو أن تلك التمثيلية التليفزيونية سقيمة ، أن تفتقد وجود كتاب يستحق القراءة ، أن يحدث هذا بين الحين والحين ، شيء ، أما أن ترى الاثر الحقيقى لتراكم الهيافات والتوافه • أن ترى ، عاما بعد عام ، كيف تترسب السخافات ، طبقة فوق طبقة حتى نصل الى درجة الظلام التام والهلوسة والتخريف • قد تسمع حوارا اذاعيا أو تشاهد على مضض تمثيلية هزلية فى التليفزيون غبية ، يضحكك فيها محمد رضا مثلا وتتأذى مما يسودها من جهل وسطحية واخماد لكل مواهب العقل والفكر والذكاء • قد يحدث هذا ، وتسب وتلعن ، وتغلق الجهاز منقذا نفسك من هذا الانحدار السمج • ولكنك فى الوقت الذى تمنع عن نفسك هذا البلاء لا تعرف المأساة الحقيقية • ان هذا البلاء ، يتلقاه الآخرون ، ويطعم منه شعبك كله • هذا الطعام البالغ الرداءة ، ان كنت ترفضه أنت فليس معنى هذا ان كل الناس ترفض ، فقد تكون لديك امكانيات أخرى ، لطعام أفضل ، قد يكون بوسعك أن تغلق الراديو أو التليفزيون أو الصحيفة وتفتح كتابا أو تسمع موسيقى ، ولكن الجماهير العريضة ليس لديها هذا الترف ، وما يقدم هو الطعام الوحيد الموجود ، حتى لو كان فيه السم ، فهم مضطرون لالتهامه ، فلا يوجد ثمة طعام

آخر . كم من مئات المرات كتبنا ، ونقدنا ، وقلنا ، وصرخنا ، وغضبنا وسخطنا ولكننا كنا كمن يؤذن فى مالطة ، والامر الواقع ماض ، يصب فى آذان وعيون وعقول الشعب تفاهات فوقها تفاهات الى ان ننتهى الى وضع تصبح فيه التفاهة هى الاصل ، هى الحقيقة الموجودة ، العملة الزائفة تسود وتطرد بتوحش ما تبقى من آثار الذكاء أو الموهبة حتى يسود الظلام التام . ان بطولة الواعين من طلبة الجامعة وبقية المتعلمين هى كيف استطاعوا ان ينقذوا أنفسهم وعقولهم من بحر التفاهة ، وان يروا رغم الظلام المستشرى الحقيقة ، انها حقا بطولة ، رغم عدم ايمانى بضرورة أن تتملق صباح مساء الشعب وقوى الشعب العامل وطوائفه وفئاته . ففى الواقع منذان وضع ماركس نظريته الماركسية،وكانت الحكومات الشيوعية كدول فى بلاد الكتلة الاشتراكية والحديث دائم ومستمر لا ينقطع عن الشعب المعلم الشعب الاستاذ والقائد والشعب المعجزة .. الى آخر هذه الكلمات والشعارات التى يضج منها الشعب نفسه فى أحيان . ان الشعب مثله مثل الانسان الكائن الحى ، مثله مثل المواطن الفرد له نواحى ضعفه ونواحى قوته ، فلا هو فوق النقد أو الخطأ ، ولا هو مجموعة من النعاج — حسب النظريات الفاشية — من المحتم ان يوجد لها الحاكم الذى يفكر لها ويحلم لها ويخطط لها ، ويقوم مقام العقل فى جسم من العضلات . الشعب اذن ليس كومة عضلات فى حاجة ماسة الى عقل يدرك له ويفكر من أجله ويوجهه ، ولا هو أيضا عقل سيد غير قابل للمراجعة أو النقد . الشعب كما قلنا مثله مثل المواطن الفرد ، قد يخطىء وقد يصيب وعلى أى الحالات هو فى حاجة مستمرة ماسة الى أن يتثقف ويتعلم بمفردة هو ، ودون أدوات العلم والثقافة لا يملك الشعب أن يصير بمفرده معجزة ، ولهذا فحين تترك الشعب بلا تعليم وبلا ثقافة لا يكون من نتيجته الا أن ينحدر المجتمع علميا وثقافيا وتعليميا ، بل وليس هناك ما يمكن أن يوقف انحداره طالما ظلت تلك الظواهر قائمة مستشرية » .

ومن أخطر ما يبثه الاعلام هو ترسيخ فكرة الموارد المحددة وترسيخ فكرة فقر الوطن وترسيخ فكرة زيادة عدد السكان . وان ذلك كله وراء مستوى المعيشة المنخفض الذى يعيشه الناس . وان معجزة يومية تقوم بها الحكومة هى توفير المواد التموينية الضرورية للشعب . وان خطورة هذه المقولات التى يراد بها الكسب السياسى للحكومات تأتى فى أنها تقضى على طموح الناس فى تقدم عام يشمل الجميع ، وتقتل الامل فى

الانتماء لأمة قوية ، وترسخ فكرة الاستكانة بأخطارها المتعددة (٣٣) .

وفى الواقع المصرى (١٩٨٤) يقول د. ابراهيم دسوقى : « نحن حقا اغنياء . قلت ذلك مرارا وتكرارا ولكن ضحايا الاعلام الحكومى فى مصر يدمنون المقولة الشهيرة ان مصر بلد فقير ، وان مواردها الطبيعية لاتفى باحتياجاتها البشرية ، وان استجداء القروض والمساعدات هو الامل الوحيد للتنمية والتقدم ! » .

ويقول : « ان مصر تملك كما سكانيا هائلا ، وكفاءات صناعيةوزراعية وفكرية تفوق ما تملكه الدول العربية مجتمعة ، مصر تملك البترول والغاز الطبيعى والحديد وغيره من المعادن ، وتملك كذلك أراضى شاسعة صالحة للزراعة ، ومصادر مائية هامة ، وثروات بحرية هائلة . وتملك فوق ذلك نصف كنوز العالم الاثرية ، وامكانات سياحية غير محدودة ، وأكبر رصيد من الفنون والثقافة فى عالمنا العربى . هذا التنوع فى مصادر الثراء ، وهذه المهارات اليدوية والقدرات الذهنية هل نجدها فى بلد آخر من بلاد المنطقة غير مصر ! دلونى على بلد من بلاد المنطقة يملك هذه الثروات ثم يتضور أهله جوعا وعريا وتتهالك حكوماته على استجداء القروض والحسنات ؟! مصر ليس بلدا فقيرا بثرواته ، ولكنه فقير بتنظيماته وسياساته ، فقير بادارته السياسية العليا التى لا تملك قدرة التدبير والتخطيط والتنفيذ ، فقير بحكوماته التى لا تعرف كيف تستثمر ثرواته وتنمى طاقاته » .

ومن مساوىء الاعلام أيضا تجاوز النقد لاهدافه ، فبرغم أنه لا يمكن انكار ضرورة وحيوية النقد لاصلاح مسارات العمل الوطنى . ولكن النقد اذا تجاوز أهدافه انقلبت حسناته سيئات . يروى وزير الاعلام تجربته من تجاوز النقد قائلا :

« نحن أحيانا ننتقل من النقيض الى النقيض ، من النقيض فى تعظيم الذات والعجز عن رؤية العيوب الى النقيض فى تعذيب الذات والعجز عن رؤية الجوانب الايجابية . ينبغى ان نلتزم برؤية المثالب موضوعيا وان نتصدى لها فى شجاعة وصراحة ، ولكن أن تصور الصورة كما لو كانت كلها سوادا فذلك تجنى وذلك ظلم وله اثر نفسى سىء على العاملين فى أى حقل من الحقول لانه يصور لهم ان الطريق مسدود وان الامل

ضعيف وان الفشل مقضى به فيتردد من كان عازما على العمل ويعرض من كان مقبلا ، وتضيق نفس ويذهب حماس من كان مستبشرا متحمسا للعمل . واحدد .. جهاز الاذاعة والتليفزيون يتعرض الان لنقد ونحن ننقده من الداخل لتطويره لكى يصل الى المستوى المرتجى المطلوب ولكن أن يتجاوز الامر علاج المشاكل الى التسلى على حسابها أظن ذلك غير مقبول من أى منطق بحال من الاحوال .. نحن نعرف أن النقد مطلوب وأن المسئول فى موقع قد يعجز عن رؤية العيب واذا رآه قد يغطيه واذا رآه ولم يقومه قد يتقاعس فى اصلاحه ومن هنا فان الكلمة الحرة من أى منبر من المنابر هى هدية ومرشدة ومصححة ، ولكنها ينبغى ان تساق بحيث لا تنقلب من كلمة حفز وتشجيع الى كلمة تيئيس وتثبيط وهذا التيئيس والتثبيط يأتى من أحد بابين .. حجم النقد أو نوع النقد .. اذا كنت لا أفتح صفحة من الصفحات فى أى جريدة من الجرائد الا وأجد نقدا بالغ الشدة . أخشى أن يؤدى هذا التناقض الكمى الى تأثير نوعى بحيث تترك الاصلاح يأسا منه أو تصورا أننا نعجز عنه ، أحيانا بعض النقد أيضا يتجاوز النقد الى ما يصل الى الاساءة والتجريح .. بعض ذلك مقبول حين يتعلق بواقعة ، وحين يكون معنى التصحيح فيه واضحا . ولكن فى بعض الاحيان يتجاوز هذا وذاك فتكون له آثار سلبية ، بحيث يوشك الذين يمسكون بالاقلام طلبا للاصلاح أو الذين يعملون بسواعدهم طلبا للتغير ان يقولوا لا أمل ولا رجاء وان توضع الاقلام وان تجف الصحف ، وبذلك تتعسر مسيرة الاصلاح (٣٣) » .

هذه الامثلة تبين لنا الجانب السلبى للاعلام فى التنمية . ومن جانب آخر هناك صعوبات تعترض الاعلام لتأدية دورة فى التنمية . وقد تكون هذه الصعوبات من داخل أجهزة الاعلام ذاتها مثل قلة الصحفيين المدربين والاكفاء كما نرى فى كثير من البلدان النامية أو قلة الورق كما نرى فى بعضها . وقد تكون هذه الصعوبات مرتبطة بالسلطة مثل الرقابة أو مرتبطة بالواقع الاجتماعى المتخلف مثل غلبة الامية أو مرتبطة بالادارة المتخلفة . وساضرب لكم مثلا فى هذا الصدد يتمثل فى ان الموظف المسئول عن توزيع احدى الصحف الزراعية على الفلاحين فى الجمعية التعاونية كان يتسلمها ويضعها فى المخزن لانها عهدة ، وبعد تراكمها تباع بالميزان .

ان ارتباط خطة التنمية بخطة الاعلام يذكرنا بالحديث النبوى الشريف الذى يصور لنا تأثير الالم فى عضو من أعضاء الجسم بتداعى سائر الجسد بالسهر والحمى .

فعلى سبيل المثال ، لاينبغى لرجل الاعلام المصرى فى العقد التاسع من القرن العشرين أن يغفل عن ظاهرة عدم المشاركة من الشعب المصرى بما يكاد يشبه الاضراب الصامت . ان البيانات التى نشرت عن الانتخابات البرلمانية تبين ان ١٨ ٪ من المقيدين فى جداول الانتخابات هم الذين ادلوا بأصواتهم فى كافة الأحزاب . أى أن المسرح السياسى أو الملعب السياسى لا يغطى الحضور فيه نسبة الخمس . كذلك فان احصاءات تنظيم الأسرة تبين أن عدد الذين يمارسون تخطيط الأسرة أو تنظيم الأسرة لا يزيد عن ٢٥ ٪ فى القاهرة من الذين يمكن أن ينظموا انجابهم ، ولا يتجاوز ٨ ٪ فى الريف . كذلك فان ما تنشره الصحف ووسائل الاعلام حول ظاهرة تجريف الأرض الزراعية يؤكد استمرار التجريف برغم القوانين والاجراءات المتتالية . ان هذه النماذج لا ينبغى أن تمر بصورة عارضة على رجل الاعلام ، بل عليه أن يربط بين الظواهر ، وأن يسعى الى فهمها وشرحها وتسليط الضوء عليها . والبحث عن الحلول الصائبة ، والدعوة الى تبنى هذه الحلول .

القسم الدفاعى :

اننا نجد أن اعلام الاستعمار الجديد يغير أساليبه بين حين وآخر ، ولكن هدفه الاستراتيجى واضح دائما ، ويتلخص فى استمرار الظروف المناسبة لممارسته الاستغلال ، وتعويق خطط التنمية فى بلدان العالم الثالث . فهو يزعم أنه قبل ان تدخل بلدان العالم الثالث مجالات الصناعة عليها أن تهتم بتغذية أبنائها وتطوير زراعتها من أجل ذلك . واعلام الاستعمار الجديد يريد للدول النامية ان تغفل العلاقة بين ارتباط التقدم الزراعى على تقدم صناعى ، وارتباط الاثنين بالخدمات وتنمية الموارد البشرية . ثم يزعم الاستعمار انه ينبغى البعد عن الصناعات الثقيلة والبدء بالتصنيع الريفى والزراعى . ويزعم ان مقياس التخلف والتقدم ليس بالنمو الاقتصادى أو التقدم الصناعى وحسب وانما هناك مقاييس أخرى تزخر بها بعض البلدان النامية . مثل المقياس « الجمالى » أو « التأصلى » نسبة الى الأصالة ، وكأنما يريد الاعلام أو على وجه الدقة بعض مفكرى

الغرب ان يقدموا لنـــا عزاء فى أن عندنا أصالة ولنا تراث قديم ، وعلى ذلك لا نكون متخلفين •• ! وقد يروج اعلام الاستعمار الجـديد لفكرة التحديث نسبة الى الحديث أو الجديد •• ويرى أن العالم الثـــالث فى حاجة الى التكنولوجيا فقط بدون ايدلوجيـــة أو عقيدة • ويؤكد بأن التكنولوجيا موجودة فى العالم الرأسمالى وهى — فى رأيه — سـبب تقدمه • وموجودة فى العالم الاشتراكى وهى — فى رأيه — سبب تقدمه • والاعلام الاستعمارى يريد بذلك ان يصرف العالم الثالث عن قضية العدل الاجتماعى وهى المحور الاساسى فى تنميته ، لان البشر هم العنصر الحاسم فى التنمية • والتغيير سمة أساسية فى المجتمعات الجديدة وضرورة من ضرورات التنمية •

وقد يلجأ اعلام الاستعمار الجديد الى محاولة صرف طاقات المجتمعات النامية وفكرها الى قضايا ودروب بعيدة عنه ، ويفرض على الانسان فى المجتمعات النامية قضايا غير مطروحة فى مجتمعه وغير ضرورية له ، فهو يحدثه عن الازرار الكهربائيـــة فى المجتمعات المترفة وملابس النايلون والعطور فى الوقت الذى هو فيه فى أشد الحاجة لمناقشة الامن الصناعى ، وحماية الريف والغابات من الحرائق فى فصل الصيف • وليس معنى ذلك انه على أبناء البلدان النامية أن يغلقوا عيونهم عما يجـرى فى العـالم المتقدم ، ولكن الفرق شاسع بين نشر واذاعة ما يعد دروسا مسـتفادة من تجارب التقدم وبين ما يقصد به صرف الناس عن قضايا حياتهم وصرفهم عن الانتاج والعمل • ونضرب مثلا باليابان فى التقدم يعـد نشره فائدة للتنمية •

« وقد (٣٤) لوحظ أخيرا أن اليابان تنفق على « البحث العلمى » أقل مما تنفقه أية دولة أوروبية • ومع ذلك فاليابان هى عملاق الصـناعة المتطورة جدا فى العالم كله •• وهى مصدر الخـوف والفزع لأوروبا وأمريكا • حتى أصبحت اليابان هى مشكلة أوروبا وأمريكا • كيف يواجهونها ؟ كيف ينافسونها ؟ كيف يتفوقون عليها ؟

« أما كيف وصلت اليابان الى التقدم العلمى الهائل بأقل نفقـات ممكنة • فهذه هى العبقرية العلمية الصناعية الاقتصادية اليابانية • ومن مظاهر هذه العبقرية أن الشركات الكبرى فى اليابان اذا وجدت اختراعا أوروبيا أو امريكيا جديدا فانها تشـترى عـددا كبيرا من هذا الاختراع

الجديد . وينسحب عدد كبير من المهندسين والمخترعين يدرسون . ثم يستدعون مئات الشبان الذين تخرجوا حديثا فى الجامعات . ويعطون كل واحد نموذجا لهذا الجهاز الجديد ويطلبون منه ان يكتب تقريرا عن كيف يمكن تطوير الجهاز الجديد ليكون اصغر وأقل تكلفة وارخص سعرا وأجمل شكلا فى اسرع وقت ممكن . ويرجع مئات الشباب الى بيوتهم يفكون الجهاز قطعة قطعة ويدرسون ويقررون ويعودون الى الشركة باقتراحاتهم الجديدة وأفكارهم المبتكرة . وكل شاب يعلم ان هناك مئات الالوف مثله يحاولون نفس الشيء . وانه لا بد ان يصل الى شيء جديد ، والا فلن يجد عملا ولن يجد لقمة العيش .

« ولا يكاد يمضى وقت قصير جدا حتى تكون الشركة قد حصلت على مئات الافكار الجديدة . والاقتراحات العلمية المدروسة . والشركة لم تنفق مليما واحدا على تطوير الاختراع الجديد . وانما استدعت الشباب وحشدت قواهم الخلاقة من أجل أعظم منافسة ابداعية فى التاريخ الحديث . وتكون الشركات اليابانية كلها قد حلت مشكلة ملايين الطلبة والخريجين وملأت عقولهم بكل شيء نافع لليابان والعلم الانسانى ، وأفرغت ايديهم وجيوبهم من الطوب ووفرت عليهم اهدار قواهم فى اللف والدوران فى الشوارع . وفى الاسبوع الماضى نشرت احدى شركات الراديو اليابانية المحاولات المختلفة لتطوير شكل الراديو الصغير الذى يوضع فى الجيب .. وقد بلغ عدد الاشكال المقترحة ١٤ ألف شكل ، كل هذه الاشكال درست من جميع الوجوه الاقتصادية والنفسية والتسويقية . حتى استقر رأى مجلس المستشارين فى هذه الشركة على الشكل الذى اختارته .. » .

ان هذا المثل يختلف تماما عن كثرة الحديث حول أصحاب اليخوت وأندية القمار الدولية والبلاجات التى يباح فيها السباحة للناس كما ولدتهم امهاتهم وغير ذلك مما يقدمه اعلام الاستعمار الجديد من زيف وضلال لأبناء البلدان النامية محاولا ان يعوق تقدمهم .

التكامل والترابط بين الخطتين :

ان التصور الصحيح لدور الاعلام خلال التنمية يوضحه لنا التداخل والترابط بين خطة الاعلام وخطة التنمية . فلا بد من جهود مشتركة بين الخطتين حتى يمكن تدعيم دور الاعلام فى التنمية . ماذا ينتظر المسئولون عن خطة التنمية من المسئولين عن الاعلام ؟ وما هى

مطالب الاعلام فى خطة التنمية ؟ ان التكامل بين جوانب العمل الوطنى فى أى مجتمع من المجتمعات هو دليل نجاح التنمية ، ونسوق النقاط التالية التى تبرز التكامل والترابط بين خطة الاعلام وخطة التنمية .

١ — لابد ان تتسع وسائل الاعلام للتعبير الحقيقى والامين عن آراء وأفكار كل قوى الشعب وفئاته . وأن تشجع الحوار البناء بين هذه الافكار على اختلاف منابعها . ان الحرية لا تتمثل فقط فى الغاء الرقابة على الصحف أو التشويش على الاذاعات ، بل تشمل عدم تدخل الحكومة فيما تنشره الصحف أو مالا تنشره وأن تتاح للمحررين حرية الكتابة ولا تصبح وقفا على بضعة أفراد هم رؤساء التحرير وقلة قليلة من الكتاب .

ولكى تتسع دائرة الحرية ينبغى على الدول النامية ان تعيد النظر فى القوانين والتشريعات المنظمة للعمل الاعلامى بما يجعلها أكثر مرونة وبما يشجع المنظمات الشعبية والاتحادات والنقابات على التعبير بشكل شعبى جاد ، وبما لا يجعل من التشريعات والقوانين الاعلامية قيودا تحد من حرية الفكر والتعبير فى اطار النظام الاساسى الذى ارتضاه المجتمع والذى لابد من تكاتف جميع الجهود والقوى فيه لتحقيق التنمية الشاملة .

٢ — التطوير المستمر للعاملين فى الاعلام معنويا وذلك بالتدريب ومدهم بالاحصائيات والمعلومات واتاحة الفرص الكافية أمامهم للتزود بالمعرفة ، حتى يمكنهم ان ينقلوها الى الجماهير فمن لا يمكنه أن يتعلم لا يمكنه أن يعلم .

« ان أخطر ما نواجهه اليوم (٢٥) وما سوف نواجهه غدا هو أن شعبنا تخلف أجيالا عن تقدمه . بفعل ظروف مختلفة بعضها يرجع الى عوامل داخلية وبعضها الاخر يرجع الى عوامل فرضت عليه من الخارج فرضا . اننا لا نملك ان نتخلف اطلاقا عن العالم الجديد . ولقد بذلنا من التضحيات وواجهنا الكثير من الآلام لاننا تخلفنا عن تطورين سابقين هما البخار والكهرباء .. ولكن ذلك كله لا يقاس بما يمكن ان نتعرض له اذا فاتنا الفجر الجديد الذى أشرق على الدنيا . ان الذين يتخلفون عن الفجر الجديد سوف يقامرون بحقهم فى الوجود .

« هذه هى صورة المشكلة التى تواجهنا • وأحب أن أضيف عليها ان هناك نتائج سياسية كبرى سوف تترتب عليها • ذلك ان الفارق بين الدول التى تساير التطور الكبير القادم والدول التى تعجز عن مسايرته سوف يكون أكبر بكثير من الفارق بين دول الاستعمار والشعوب التى رضخت تحت طغيانه • ان المعرفة ستكون فى العصور القادمة هى القوة الحقيقية•• هى الحرية الحقيقية » •

٣ — مساعدة أجهزة الاعـلام بتطويرها وتدعيمها بالتكنولوجيـا ويستتبع ذلك ضرورة قيام صناعة متقدمة للاتصال الجماهيرى بالدول النامية وخفض الرسـوم على وارداتها من وسـائل وأدوات الاتصـال الجماهيرى بما فى ذلك تصنيع أجهزة ارسال واستقبال الاذاعة والتليفزيون وورق الصحف وحبر الطباعة وآلات العرض السينمائى والافلام الخام وغير ذلك من صناعات الاتصال ، وكذلك من المهم بالنسبة للدول النامية ان تتعاون فى تطويرالاتصالات السلكيةواللاسلكية داخل وبين هذه الدول بدلا من أن تضطر بعض الدول الافريقية مثلا الى الاتصال بين بعضها البعض عن طريق العواصم الاوربية ، وبصفة عامة ضرورة الاستفادة من التطورات الفنية الحديثة ، ومن تكنولوجيا الاعلام ومن أقمار صناعية • ومثال ذلك الاتفاق الذى تم أخيرا بين الدول العربية على استخدام الاقمار الصناعية فى مجال الاتصالات •

فقد أطلق القمر الصناعى العربى « عربسات » يوم ٩ فبراير ١٩٨٥ من جزيرة « جويانا » بأمريكا اللاتينية ، بصاروخ فرنسى • ويحمل القمر معدات تكنولوجية متطورة لتشغيل ٨ آلاف دائرة تلفزيونية فى وقت واحد ، وأكثر من ٧ برامج تلفزيونية • ويبلغ العمر الافتراضى للقمر ٧ سنوات • وهو على ارتفاع ٣٦ ألف قدم فوق خط الاستواء •

وتقول مصادر اعلامية عديدة أنه فى المقابل تعتزم اسرائيل اطـلاق قمر صناعى اسرائيلى تحت اسم « القمر الصناعى الافريقى المتوسطى » • والمشكلة هى ان القمر الاسرائيلى — كما تقول المصادر والاخبار المنشورة عنه — سيطلق على مسافة ١٠ درجات من القمر الصناعى العربى ومن ثم قد يحدث تأثيرا عليه يصل الى ١٢ ٪ فى حين أن التداخل المسموح به دوليا لا يتجاوز ٤ ٪ • وربما يحمل الغد مشاكل فى الفضاء بين العرب واسرائيل هى فى طبيعتها امتداد لمشاكل الارض •

ويمكن عن طريق الاقمار الصناعية نقل رسائل التليفون والتلغراف والراديو والصور والتليفزيون بين نقط تبعد عن بعضها البعض آلاف الاميال كما يمكن عن طريقها ربط نظام التليفزيون بين دولة وأخرى ، وسيكون له فائدة هامة بالنسبة لوكالات الانباء وتبادل البرامج التليفزيونية الحية من دولة لأخرى ، كما يمكن عن طريق استخدامه اذاعة برامج تعليمية تشمل عددا من الدول النامية عن طريق جهاز ارسال واحد واستوديو واحد فى وقت معين .

وتؤكد الاحصائيات ان البلدان النامية تعانى نقصا شديدا فى وسائل الاعلام حيث نجد انه بينما بلغ سكان أوربا الغربية سنة ١٩٧٠ ، ٣٩٣ مليون نسمة كان بها فى نفس السنة ١٥٣ مليون جهاز راديو و ٨١ مليون جهاز تليفزيون ، وفى الولايات المتحدة التى كان عدد السكان بها سنة ١٩٧٠ ، ٢٠٨ مليون نسمة كان عدد أجهزة الراديو فى نفس السنة ٣٠٤ مليون جهاز وأجهزة التليفزيون ٨٩ مليون جهاز .

أما فى الدول النامية فنجد أن الشرق الاوسط بما فيه شمال أفريقيا والذى بلغ عدد سكانه سنة ١٩٧٠ ، ١٥١ مليون نسمة كان عدد أجهزة الراديو فيه فى نفس السنة ١٨ مليون جهاز وعدد أجهزة التليفزيون ٦ر٢ مليون جهاز بينما لا يزيد عدد أجهزة الراديو فى الهند التى بلغ عدد سكانها سنة ١٩٧٠ ، ٥٥٠ مليون نسمة عن ١٤ مليون جهاز بينما كانت أجهزة التليفزيون أقل من ربع مليون جهاز .

وعدد محطات الاذاعة فى العالم يزيد عن ١٩ ألف محطة اذاعة ، منها ٥٠٠٠ فى أوربا و ٦٧٥٠ فى أمريكا الشمالية و ٤١٠ فى الاتحاد السوفيتى ، بينما عددها فى أفريقيا ٦٥٠ وفى جنوب شرق آسيا ٩٥٠ محطة .

وبينما معدل أجهزة الراديو عالميا ٢٥٠ جهاز لكل الف من السكان نجد ان المعدل فى افريقيا هو ٥٠ جهاز لكل الف من السكان .

وبالنسبة لمحطات التليفزيون فى العالم تبلغ ١٥ الف محطة ارسال تلفزيونى و ١١ ألف محطة تقوية . نصيب أفريقيا فيها هو ١١٢ محطة ارسال و ٣٠ محطة تقوية ونصيب جنوب شرق آسيا ١٢٠ محطة ارسال

و ٦٠ محطة تقوية • أما نصيب أوربا فهو ٥١٥ ٦ محطة ارسال و ٥٥١٠ ونصيب أمريكا الشمالية ، ٣٠٥٠ محطة ، ارسال و ١٩٦٠ محطة تقوية محطة تقوية • وفى الاتحاد السوفيتى ١٠٨٩ محطة ارسال •

وبالنسبة للصحف فان معدل استهلاك ورق الصحف بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة يقدمان لنا صورة واضحة • ان استهلاك ورق الصحف فى مصر مثلا هو ٢ كيلو جرام للفرد فى العام وهى نفس النسبة تقريبا فى المغرب العربى وفى الكويت ، بينما نجد ان استهلاك الفرد للورق طوال العام فى امريكا الشمالية يبلغ ٤٣ر٦ كيلو جراما وفى السويد ٤٢ر٧ كيلو جراما للفرد •

ومن صور الترابط والتكامل بين التقدم بصفة عامة والاعلام بمعناه الشامل صورة السياق العلمى والتكنولوجى بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية • فعندما أطلق الاتحاد السوفيتى أول قمر صناعى فى الفضاء فى السابع عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٥٧ ، كان الحدث سبقا علميا ومفاجأة للولايات المتحدة على وجه الخصوص • وقد أطلق بعض الكتاب والباحثين على ما أصاب الأمريكيين قادة ومثقفين واعلاميين وعامة تسمية « حمى سبوتنيك » وسبوتنيك هو اسم « القمر الصناعى » الذى أطلقه السوفيت آنذاك • ووصل الأمر فى هذه الحمى الى الحد الذى جعل الامريكى العادى يحكم على التفوق السوفيتى من خلال وسائل الاعلام ليقول : ان ما حدث معناه ان التربية الأمريكية بالذات ليست على مستوى المنافسة مع نظيرتها السوفيتية ، والتى كان من نتيجتها أن « جون » أقل فى مستواه ومعرفته من « ايفانون » • والاسم الأول يرمز للطالب الامريكى ، والثانى للطالب السوفيتى • وقال بعض علماء التربية الأمريكيين آنذاك : لقد أضعنا جزءا غاليا وثمينا من وقت شبابنا ونحن نعلمهم التفاهات Trivialities ، بينما كان السوفيت اعقل منا بكثير فلم يفعلو ذلك ، وانما كانوا عمليين فى تربيتهم فركزوا على التكنولوجيا وتعلمها وتطبيقها •

وتتيجة للحملات الاعلامية الناقدة والمعبرة عن رأى قادة الرأى فى المجتمع وأهل الخبرة والعلم فيه وقع الرئيس الأمريكى « ايزنهاور » على قانون الدفاع القومى من خلال التربية فى عام ١٩٥٨
National Depense Education Act.

وكان الهدف الأساسى من القانون هو مد يد المعونة والمساعدة لتأكيد الحصول على القوى العاملة الماهرة والمدربة العالية الكفاءة لمواجهة احتياجات الأمة الامريكية • وبموجب هذا القانون رصدت الاموال لتحسين تدريس العلوم والرياضيات واللغات الحية فى المدارس • وعدلت المناهج والخطط • وجاءت نتيجة هذا التحدى يوم ٢٠ يوليو ١٩٦٩ يوم وضع أول انسان قدميه على سطح القمر ، وكان أمريكيا • وما يزال السباق فى ميدان الفضاء مستمرا (٣٦) •

هكذا تتشابك الأهداف فى عملية التقدم ، وهكذا يبدو الترابط بين دور الاعلام ودور التعليم ودور الثقافة فى برامج التنمية • ان تطوير الاعلام مثلا يحتاج الى علاج مواطن الضعف فى الشركة الاعلامية ، ونقل التكنولوجيا وتطويرها ، كما يحتاج الى التدريب والبرمجة والتعليم •

بحوث الاعلام والتنمية :

كان العرب القدماء يعرفون الادب بأنه الاخذ من كل شىء بطرف ، وفى عصرنا الحاضر يعرف الدكتور مهدى علام المجلة بأنها صورة مختصرة سريعة متجددة رخيصة الثمن لدوائر المعارف • وعلى نفس المقياس ننظر الى بحوث الاعلام والتنمية • ان الابعاد المتعددة للظواهر الاعلامية ، والابعاد المتعددة لمشاكل التنمية ، تحتم علينا فى مجال بحوث الاعلام والتنمية أن نأخذ من كل بعد ما يتوافق مع بحثنا ، وتحتم علينا ان نكون موسوعيين ونحن نعالج هذه البحوث ، لانها بطبيعتها ذات جذور متشعبة وذات أبعاد متعددة •

ما هى أهمية بحوث الاعلام فى التنمية ؟ :

انها تقدم لنا الجرعة الشافية لمشاكل المجتمع وتفتح الطريق لانطلاق التنمية • ان التشخيص هو الشوط الاكبر فى طريق الشفاء • ان البحوث تقدم لنا اجابة عن المشاكل التى تواجه الجهد الوطنى فى بناء المجتمع • كيف كانت ؟ وكيف تطورت ؟ وما هى احتمالات تطورها وظروفها فى المستقبل • وما هى طرق حلها ؟ •

وعندما تتخذ القيادة السياسية فى احدى البلدان النامية ، قرارا يمس الجماهير العريضة من السكان ويعد قفزة فى طريق التنمية يظهر

دور البحوث وينعكس بصورة مباشرة على الاعلام . فعندما أعلن الرئيس السادات ــ مثلا ــ فى مايو ١٩٧٧ عن الثورة الادارية ، أخذت أجهـزة الاعلام هذا الشعار وردته دون تخطيط مسبق فى كافة قطاعات الأجهزة الادارية . بمعنى أن الأجهزة الادارية لم تكن لديها بحوث ولا دراسات ولا حتى مجرد تصور شامل لابعاد ثورة ادارية ، ومساوىء التناول الاعلامى لهذه المفاهيم بهذا الاسلوب الخالى من مضـمون ومعنى محدد يجهض الشعار أو الهدف . مثال آخر للنقد الاعلامى بدون بحوث محددة فى تناول بعض الأمراض الاجتماعية مثل الرشوة . فالاعلام يعاملها كأنها مرض اجتماعى متوطن . ودائما يقدمها للجماهير دون حلول جذرية ، ودون علاج ، وتصبح الرشوة من المسلمات الاجتماعية ، على الرأى العام أن يكيف نفسه للتعامل فى اطار الأمراض القائمة .. كم مسرحية فيهـا رشوة وكم تمثيلية فيها رشوة ، كأنما أصبحت الرشوة من الأمور المعترف بهـا .

مثال آخر فى معالجة مشكلة التليفونات . ان تشتيت المسئولية عن أعطال التليفونات الذى تقدمه وسائل الاعلام بغير قصد يخفى المقصرين ، ويرسخ لديهم عدم المبالاة ، ويثبت فى اذهان مشتركى التليفونات أنه لا فائدة من الشكوى .. ولو اجتهدت وسائل الاعلام فى تتبع الخيط لأمسك الرأى العام بتلابيب المقصرين وحملهم المسئولية محددة .

كيف نعالج كاعلاميين مشكلة من مشاكل العمل الوطنى ؟ :

لقد تحدثنا نظريا عن النظر الى المشكلة فى أبعادها المتعددة ، ولكننا فى مجال خطة الاعلام وخطة التنمية لا بد من مثال نطبق فيه هذا التصور . وليكن المثال حول محو الأمية ، تلك المشكلة التى يشترك فيها العـالم الثالث بأسرة .

اذا نظرنا الى كيفية القضاء على الأمية فى المجتمع وعدم الارتداد اليها نظرتنا الى كيفية الاستفادة من مصادر الميـاه وعدم تبديدها ، فان طرقا عديدة تنفتح أمامنا لمحو الأمية وعدم الارتداد اليها :

١ ــ المدرسة وهى أقرب الشبه الى مياه النهر دائمة العطاء منتظمة العطاء هادئة العطاء وعميقة فى نفس الوقت .

٢ ــ الحملات الحزبية والطلابية والعمالية ، وبصفة عامة الحملات الجماهيرية لفترات محددة وبرامج محددة ، وهى أشبه بالفيضانات أو مواسم الأمطار خيرها عميم ولكن ليست لها صفة الدوام ، ولو تكررت لكان خيرها أعم وأفضل •

٣ ــ الجهود المحلية وهى أشبه بالآبار فحيثما تهيأت الأسباب لحفر بئر تدفق الماء ، وكلما أمكن فتح فصل لمحو الأمية دخل عالم المعرفة بالقراءة والكتابة عشرات فى كل عام • وكما نقول بأن أول الغيث قطرة ثم ينهمر كذلك ما يحدث فى مشروعات محو الأمية وعدم الارتداد اليها أن نبــدأ فى كل قرية « بكتاب » الشيخ أو بالمسجد أو بنادى الاستماع والمشاهدة •

٤ ــ التنسيق بين كافة الاطراف المعنية بوضع خطة مشتركة كخطة ضبط مياه الأنهار والأمطار بالخزانات والقناطر ففى محو الأمية فى مصر تشترك عدة هيئات منها وزارة التعليم ــ الاتحاد الاشتراكى العربى حتى عام ١٩٧٦ ــ مؤسسة الثقافة العمالية ــ الاذاعة ــ التليفزيون ــ بعض الصحف مثل تجربة صحيفة التعاون ــ الجيش ــ الشرطة ــ مصــلحة السجون ــ النقابات والاتحادات العمالية • هذا الى جانب جهود المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ووزارة التعليم هى الوزارة المسئولة عن محو الأمية وتعليم الكبار فى مصر فهى تقوم بتنفيذ الخطة التى يضــعها المجلس الأعلى لتعليم الكبار ومحو الأمية وذلك من خلال الادارة العامة لتعليم الكبار بديوان الوزارة وأقسام تعليم الكبار بالمديريات التعليميــة والمحافظــة •

وقد تحدد الهدف من محو أمية الانسان المصرى بأن يتحقق له ما يلى:

(أ) أن يكتسب القدرة على الكتابة والقراءة باعتبارهما أساسا هاما من الأسس الحضارية والثقافية فى المجتمع الحديث •

(ب) أن يكتسب القدرة على الحساب كوسيلة ضرورية للتعامل فى المجتمع الذى يحيا فيه •

(جـ) أن يكون ملما بالمبادىء الأولية المتعلقة بظروف مجتمعه ومشاكله والتطورات التى تحدث فيه •

(د) أن يكون مثقفا ثقافة دينية وخلقية يهتدى بها فى الحياة •

(هـ) أن يكون على وعى بجوانب حياته الخاصه والوظيفية •

(و) أن يكتسب القدرة على تنمية شخصيته ، وتذوق الفنون وأن يحسن استغلال وقت فراغه ، وأن يستمتع ويسعد بحياته •

ـــ ما هو الدور الذى تتصوره للاعلام فى محو الأمية ؟ •

يمكن أن نشير الى نقاط رئيسية ينبغى أن يقوم بها الاعلام فى هذا الصدد على النحو التالى :

١ ـــ حملة اعلامية متناسقة للتعريف بالمشكلة وأبعادها وخطرها على التنمية ، وتجارب الأمم التى سبقتنا فى القضاء على الأمية •

٢ ـــ حث المثقفين على الاشتراك والتطوع فى جوانب العمل الوطنى لمحو الأمية كمدرسين أو اداريين أو غير ذلك •

٣ ـــ حث الأميين على الالتحاق بفصول محو الأمية ، وذلك بحفز هممهم واعدادهم ذهنيا للتحمس لمحو الأمية •

٤ ـــ اعداد برامج محو أمية فى وسائل الاعلام ذاتها أسوة بمشروع محو الامية الوظيفى فى التليفزيون ، وتجربة صحيفة التعاون عام ١٩٧٢ ، وتجربة اذاعة الشعب وغير ذلك • ان هذه البرامج التى تقوم فيها وسائل الاعلام بدور المعلم تتضمن أيضا مساعدة المعلمين الذين يقومون بمحو الأمية بالجهود الذاتية حيث تقدم لهم البرامج التى يستطيعون الاقتداء بهـا •

٥ ـــ النفخ فى النار حتى لا تتحول الى رماد بمعنى متابعة جهود محو الأمية وتشجيع النماذج الايجابية ، والنقد والتقييم المستمر •

ان الأمثلة فى بحوث الاعلام والتنمية لا يمكن حصرها لأنها ترتبط بالواقع الاجتماعى ، وبقدرة الباحث الاعلامى على التفكير والتـأمل والبحث • وكما يلتقط القصاص بذهنه المتوقد التماعة صغيرة من أشعة الحياةليجعل منها قصة ، كذلك يستطيع رجل الاعلام أن يلتقط من الواقع الاجتماعى الذى يعيشه عشرات الموضوعات التى يمكنه أن يبنى حولها من

المعلومات والافكار بالبحث والجهد والتتبع والتنقيب ما يشكل عملا اعلاميا ناجحا ورائعا • وقد تكون الفكرة عريضه حتى تكاد تشمل قطبى الأرض وشرقها وغربها ، مثال ذلك مناقشة فكرة تطوير اذاعة القرآن الكريم فى مصر لتصبح اذاعة عالمية تشرح الاسلام بأهم اللغـات العالمية للبشرية جمعاء • ان احصائية عام ١٩٧٦ تقول لنا ان متوسط البث اليومى لاذاعة القرآن الكريم ١٧ ساعة و ٦ دقائق • هل يمكن أن توجه الساعات الباقية من اليوم للعالم الخارجى ؟ هل يمكن أن تصبح لهذه الاذاعة أكثر من موجة قصيرة تغطى العمران فى الكرة الأرضية ؟ هل يمكن الاستفادة بموجات الاذاعات الاسلامية لتتوحد ساعة فى اليوم تبث جميعها برنامجا محددا من اذاعة القرآن الكريم ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها يمكن أن تصبح موضوعات لبحوث الاعلام والتنمية • وفى مقابل هذا الموضوع العريض قد تكون فكرة صغيرة تتعلق بالتوحيد الزراعى فى حوض زراعى فى قرية • لقد ثبت أن صغار الفلاحين الجيران عندما يزرعون محصولا واحدا فان ذلك يزيد انتاجهم ويساعد على مقاومة الآفات الزراعية فى الحوض كله بتكاليف أقل وأساليب أحدث كالرش بالطائرات • ولكن يحب الفلاح أن يزرع أكثر من محصول فى مساحة أرضه الصـغيرة ، الذرة لغذائه ، والبرسيم لغذاء حيواناته والقطن ليبيع محصوله فى آخر العام • وهنـا تطرح المشكلة أمام رجل الاعلام عدة أسئلة : هل الفلاح يدرك أبعـاد الفائدة التى يحصل عليها من التوحيد الزراعى ؟ هل الهيئات العاملة فى الريف تعلم ذلك • هل مراكز البحوث فى المجتمع تحاول حل هذه المشكلة ؟ كيف يمكن اقناع الفلاح ؟ كيف يمكن تنمية السوق المحلى لسد احتياجات الفلاح بغير عناء ؟ كل هذه الاسئلة وغيرها يمكن أن تكون موضوعا آخر لبحوث الاعلام والتنمية •

وبطبيعة الحال ليست كل بحوث الاعلام والتنمية تشـبه البحـوث الأكاديمية المتعارف عليها ، ولكنها يمكن أن تكون أقرب الى دراسة الموضوع أو جمع مادته بشىء من التعمق والتركيز انها بصـفة عامة دعوة الى التفكير والوعى الفردى والجماعى للقائمين بالعمل الاعلامى • ففى احصائية أجرتها الدكتورة منى الحديدى (٣٧) فى رسالتها لنيل درجـة الدكتوراه عن المرأة والسينما تبين أن السينما المصرية خلال الفترة المختارة للبحث ١٩٦٢ — ١٩٧٢ قدمت حلولا لـ ١٩٧ مشكلة من مجموع القضايا

والمشكلات المعروضة فى أفلام تلك الفترة بنسبة ٤٦٪ من جملة المشاكل فى حين أن السينما لم تقدم حلولا لـ ٢٣٢ قضية ومشكلة بنسبة ٥٤٪ من مجموع القضايا والمشكلات التى عرضتها أفلام البحث .

وقد يرى البعض أنه ليس من واجب الفن أو واجب السينما على وجه الخصوص أن تقدم حلولا للمشاكل التى تعرضها ، وبرغم امكان قبول ذلك الرأى الا أن الاحصائية تدل على المدى الواسع لعدم مساهمة السينما فى ترشيد سلوك مشاهديها ومحاولة البحث عن حلول للمشاكل المطروحة فى الواقع الاجتماعى . ان التفكير والوعى الاجتماعى يمكن أن يجعل اسهام السينما أوسع فى التنمية وأكثر رشدا وفاعلية .

الهوامش

(١) د. على المرشدى — التخطيط — مجلة الطليعة — يونيو ١٩٦٥ .

(٢) شارل بتلهيم — ترجمة د. اسماعيل صبرى عبد الله — التخطيط والتنمية — الطبعة الثانية — دار المعارف — ١٩٦٨ ص ٢٠ .

(٣) جون ميدلتون — نهوج فى تخطيط الاتصال — اليونسكو — باريس ١٩٧٥ .

(٤) المادة ٥ من قرار رئيس الجمهورية رقم ١٣٢٩ لسنة ١٩٦٠ .

(٥) المادة ٥ من قرار رئيس الجمهورية رقم ٢٣٢ لسنة ١٩٦٠ .

(٦) المادة ١٢ من قرار رئيس الجمهورية رقم ٢٣٢ لسنة ١٩٦٠ . فى شأن التخطيط القومى والمتابعة .

(٧) المرجع السـابق .

(٨) جون ميدلتون (مرجع سابق) .

(٩) د. أحمد كمال أبو المجد — من محضر اجتماع باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى فى ١٩٧٤/٧/٢ حول الاعلام والصحافة فى مصر .

(١٠) أنور السباعى — التخطيط الاعلامى السياسى — سورية — ١٩٧١ ص ١٣ ، ١٤ .

(١١) انظر د. جيهان أحمد رشتى — الأسس العلمية لنظريات الاعلام— دار الفكر العربى — ١٩٧٥ — ص ٣٦٧ و ٣٦٨ .

(١٢)
Dominique Desouches information et developpement en Côte Divoire, These, Doctorat d'Etat Paris, 1972.

(١٣) ولبور شرام « ترجمة محمد فتحى » — أجهزة الاعلام والتنمية الوطنية — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر — ١٩٧٠ .

(١٤) محمد رضا — من محاضرة فى دورة بغداد الاعلامية — ١٩٧٤ المركز العربى للدراسات الاعلامية للتنمية والتعمير .

(١٥) د. جيهان أحمد رشتى — الأسس العلمية لنظريات الاعلام — دار الفكر العربى — ١٩٧٥ — ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .

(١٦) يوسف ادريس — تعالوا الى كلمة سواء — جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٧٧/٦/٢٣ .

(١٧) مجلة الطليعة عدد اغسطس ١٩٧٤ .

(١٨) رجب البنا — أرقام أبى طرطور — جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٧٥/٩/٢٩ .

(١٩) جريدة الأخبار بتاريخ ١٩٧٥/٥/٣٠ ص ٧ .

(٢٠) جريدة الأخبار بتاريخ ١٩٨٢/١/١٥ .

(٢١) د. يوسف أدريس — هل أصبح كله « يوك » ؟ — جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٧٥/١٠/٣١ .

(٢٢) د. ابراهيم دسوقى — نعم مصر بلد غنى — جريدة الوفد بتاريخ ١٩٨٤/٩/٦ .

(٢٣) د. احمد كمال ابو المجد من محضر اجتماع باللجنة المركزية فى ١٩٧٤/٧/٢ حول الاعلام والصحافة فى مصر .

(٢٤) أنيس منصور — مواقف — جريدة الأخبار — بتاريخ ١٩٧٥/١/١٣

(٢٥) من خطاب الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر فى اليوبيل الذهبى لجامعة القاهرة — ٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٨ .

(٢٦) د . محمد عبد العليم مرسى — كارثة فى العالم الاسلامى — مأساة النزيف البشرى وهجرة العقول — دار الصحوة — القاهرة — الطبعة الأولى — القاهرة — ١٩٨٦ ص ٢٠ الى ص ٢٤ .

(٢٧) د. منى الحديدى — دراسة تحليلية لصورة المرأة المصرية فى الفيلم المصرى والآثار الاعلامية والاجتماعية المترتبة على ذلك — رسالة دكتوراه — كلية الاعلام بجامعة القاهرة — عام ١٩٧٧ — ص ٢٩٦ .

الفصل السابع

استراتيجية عربية للتنمية

معنى الاستراتيجية :

ماذا تعنى كلمة استراتيجية؟ لقد أصبحت هذه الكلمة دارجة ومتداولة، ولم تعد كلمة اكاديمية فحسب أو متخصصة فحسب .. ان كلمة استراتيجية تعبير مشتق من الكلمة اليونانية (ستراتيجوس) ومعناها فن قيادة القوات . والمفهوم البسيط الشائع لمعنى الاستراتيجية هو الهدف ، وأن التاكتيك هو الوسيلة لتحقيق الهدف . ولم يعد مفهوم الاستراتيجية منصبا على الحرب وحسب ، وان كان هذا المفهوم لدى المفكرين العسكريين قد شغلهم كثيرا وما زال يشغلهم ، وأصبحوا ينظرون اليوم الى التعريفات القديمة التى ترى الاستراتيجية من زاوية عسكرية مجردة نظرة قصور ، لأنهم يقولون بأن الحرب الحديثة أصبحت شاملة لكل مظاهر الحياة البشرية وأنها تحيط بمختلف جوانب النشاط الانسانى من اقتصاد وثقافة وسياسة وغير ذلك ، وكذلك يرى العديد من المفكرين العسكريين أن الاستراتيجية الشاملة هى التعبير الملائم لطبيعة هذا العصر . والواقع أن المفكرين العسكريين فى هذا العصر على حق فى رؤيتهم السابقة بأنها قاصرة ، وتجرد الاستراتيجية المعاصرة من عديد من آفاقها الجديدة . فالتعريف القائل مثلا بأن الاستراتيجية هى اجراء الملاءمة العملية للوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد مع الهدف المطلوب ، هذا التعريف يحدد مسئولية القائد أمام دولته ضمن حدود استخدام الوسائل العسكرية ، لتحقيق أهداف السياسة العليا للحزب . وفى هذا قصور كبير لمعنى الاستراتيجية المعاصرة . وثمة تعريف آخر « بأن الاستراتيجية هى فن توزيع وتنظيم واستخدام مختلف الوسائط العسكرية لتحقيق هدف السياسة » وهذا التعريف يفترض امكانية تحقيق الاستراتيجية لأهدافها بأخذ مواقع والقيام بحركات تقلب توازن العدو المادى والمعنوى ، بحيث يتم تحقيق هدف السياسة والنصر دون الاشتباك أو بمعركة غير دامية . بمعنى أن الاستراتيجية تعتمد على نتائج تحركات الجيوش .

ولقد حاول بعض القادة والمفكرين العسكريين الخروج بتعريفاتهم للاستراتيجية عن النطاق العسكرى المحدد بالقول بأن الاستراتيجية هى فن استخدام القوة للوصول الى أهداف السياسة وأن الاستراتيجية ومضة من ومضات العبقرية ، وانها جدل وصراع الارادات المتقابلة التى تستعمل القوة فى فض ما ينشأ من نزاع •

وثمة تعريف للاستراتيجية (١) بأنها « مجموعة من الأفكار والمبادىء ، التى تتناول ميدانا من ميادين النشاط الانسانى بصورة شاملة متكاملة وتكون ذات دلالة على وسائل العمل ومتطلباته واتجاهات مساراته بقصد أحداث تغييرات فيه وصولا الى أهداف محددة ، وما دامت معنية بالمستقبل فانها تأخذ بنظر الاعتبار احتمالات متعددة لأحداثه ، فتنطوى على قابلية التعديل وفقا لمقتضياته ، وهى تقع وسطا بين السياسة والخطة » والاستراتيجية بهذه الدلالات من المفاهيم التى أصبحت تستعمل فى الدراسات بأساليب التخطيط والتدبير والتنظيم •

وقد ذهب بعض علماء الاجتماع الى تمييز أنماط أو أنواع من الاستراتيجيات التى تتصدى للتغيير الاجتماعى الشامل وخصوا بالذكر ثلاثة أنواع رئيسية منها :

١ — الاستراتيجية العقلانية : وهى تتناول المسائل المعنية فى مجالاتها على أسس فكرية محددة ، وتستند الى الدراسات العلمية ، وتفترض استعداد الناس المقصودين بها للاقتناع بمتطلباتها بحكم موضوعيتها واستنادها الى أصول التفكير المنطقى السليم ، ومثل هذه الاستراتيجية تعتمد على البحث العلمى ، وعلى توالى الكفايات العلمية لوضعها وللنهوض بمتطلباتها وقيادة حركة التغيير المنشود منها كما تعتمد على الأساليب الحديثة فى الادارة والتنظيم •

٢ — الاستراتيجية التوجيهية : وهى تعتمد على جذب اهتمام الناس المعنيين بها واستثارة بواعثهم وكسب ثقتهم وشحذ ارادتهم وتعديل مواقفهم واتجاهاتهم وعواطفهم تعديلا يدفع بهم الى القيام بالأعمال المطلوبة منهم عن طواعية واختيار • بينما لا تنكر ما لدى الانسان من ذكاء وعقلانية، فانها تعول أكثر ما تعول على عواطفه واتجاهاته وتسعى الى تعديلها

وتنسيقها وفقا لمتطلباتها فهى تعنى بالدعوة والاقناع وكسب الثقة وتنمية الروح المعنوية بين أتباعها ، ويترتب على ذلك تمكينهم من المشاركة فى اتخاذ القرارات بشأنها وتيسير اندماجهم فى عملياتوضعها والاعتماد على تعاونهم فى تطويرها والمساهمة فى الدراسات الميدانية الخاصة بها ، وتراعى خصائص الثقافات والاتجاهات والقيم الاجتماعية السائدة بين الناس فى مجالاتها .

٣ ــ الاستراتيجية السياسية الادارية : وهى تعتمد على القوة النابعة من السلطة السياسية أو الادارية ، وتفترض فى الناس المعنيين بها المطاوعة لمطالب السلطة واتجاهاتها ومتابعتهم للخطط والتوجيهات الصادرة عنها ، وهى على العموم ذات نمط سياسى وادارى وتعتمد على التشريعات الحكومية وما يترتب عليها من توجيهات وتعليمات .

وقد يكون لكل نوع من هذه الأنواع من الاستراتيجية مواضع ملائمة لتطبيقه دون غيره ، سواء من حيث طبيعة الأعمال التى يتناولها ، أو من حيث طبيعة الناس المقصودين منه ، ولكن حيثما كانت المجالات التى يراد استحداث التغييرات فيها واسعة ، سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافيه ، وتشمل الشعب والأمة فالأجدر أن تكون الاستراتيجية المعتمدة توليفية وشاملة .

من ذلك كله نرى أن واجبنا عند النظر الى مفهوم الاستراتيجية أن ننظر اليها بمفهومها الشامل وهو المفهوم المعاصر . وأن الاستراتيجية هى فن اختيار أفضل الخطط وأنسبها لتحقيق الأهداف المطلوبة .

وبذلك يمكن القول بأن الاستراتيجية العربية للتنمية هى فن السيطرة على جميع موارد الأمة العربية وطاقاتها واستخدامها الاستخدام الأمثل الى أقصى حد ممكن لصالح أبناء الأمة العربية .

ويرى خبراء مجلس الوحدة الاقتصادية العربية أن هدف الاستراتيجية العربية للتنمية هو « جعل المنطقة العربية محصنة فى الوقت الحاضر ، بأقصى ما يمكن من مقومات الأمن القومى الاجتماعى والاقتصادى وصالحة فى المستقبل لمعيشة شعبها بمستوى الرفاهية الذى تكفله ثرواتها ، ويقترب من مستوى الشعوب المتقدمة اقتصاديا ، ضمن منظور قومى عربى واطار حضارى متميز » .

دوريات الاستطلاع :

ولقد شغلت مشكلة البحث عن استراتيجية عربية للتنمية هيئات ومنظمات عربية ، وكانت هذه الأعمال الرائدة أشبه بدوريات الاستطلاع فقد دعت منظمة العمل العربية لندوة تحضيرية للاعداد لاستراتيجية عربية للتنمية عقدت بمقر مكتب العمل العربى فى القاهرة فى الفترة من ٨ الى ١١ من فبراير سنة ١٩٧٥ ، وضمت ممثلين عن الجهات التالية : من الهيئات العربية الرسمية : الامانة العامة لجامعة الدول العربية — المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم — المنظمة العربية للتنمية الزراعية — منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول — المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس — الأكاديمية العربية للنقل البحرى — مجلس الوحدة الاقتصادية — مركز التنمية الصناعية للدول العربية — منظمة العمل العربية • ومن الهيئات الدولية الرسمية : اللجنة الاقتصادية لغربى آسيا التابعة للامم المتحدة • كما اشتركت فى الندوة هيئات عربية غير رسمية هى : الاتحاد الدولى لنقابات العمال العرب — ندوة الدراسات الانمائية (بيروت) بالاضافة الى عدد من الخبراء المختصين بشئون التنمية فى الوطن العربى •

وكانت أهم نتائج وتوصيات اللجنة المنبثقة عن ندوة منظمة العمل العربية كما يلى :

تدراست اللجنة خلال الاجتماع « ورقة العمل » التى أعدتها منظمة العمل العربية فضلا عن تقرير المدير العام لمكتب العمل العربى المقدم الى الدورة الثالثة لمؤتمر العمل العربى « الرباط / مارس ١٩٧٤ » المعنون « التنمية •• الامل والتحدى » ووجدت اللجنة أن الاراء والافكار القيمة الواردة بهما تعتبر نقطة الانطلاق وبداية طيبة من أجل اعداد استراتيجية عربية للتنمية الشاملة •

● أجمعت اللجنة على ضرورة اعداد استراتيجية عربية للتنمية الشاملة ومتابعة الجهود المنظمة فى سبيل وضعها وتنفيذها انطلاقا من المعطيات الأساسية التالية :

(أ) ان السياسات والوسائل التخطيطية القطرية والقطاعية تحتاج الى مراجعة بالنظر للتطور العلمى والتكنولوجى الهائل فى عالمنا المتغير ، وبالنظر لأن الدول العربية قد أصبحت مهيأة فى الوقت الحاضر لأن تكون محورا من محاور الانماء الانسانى •

(ب) توافر المقومات الأساسية للتنمية فى البلاد العربية من حيث رأس المال والموارد الطبيعية البشرية غير أن الملاحظ أن الدول العربية تنقصها حتى الآن السياسات والخطط المنسقة والمتكاملة المادية والبشرية بما يتفق والمصلحة العربية المشتركة .

(جـ) ان المنطقة العربية تواجه تحديات مختلفة على الصعيدين القومى والدولى وتملك فى نفس الوقت القدرات والامكانات التى تمكنها من مواجهة هذه التحديات اذا ما تم تنسيق وتعبئة الموارد والامكانات المتاحة على النحو الأمثل .

(د) ان النجاح فى وضع وتنفيذ استراتيجية عربية للتنمية الشاملة يعد تجسيدا عمليا لآمال وتطلعات الشعب العربى فى الوحدة .

(هـ) الانتقال من التنظير الى التطبيق ومن التخطيطات القطرية القطاعية الى التخطيطات العربية التنموية المتكاملة .

● رأت اللجنة أن مشروع الاستراتيجية العربية للتنمية الشاملة يجب أن يعالج الجوانب التالية بصفة أساسية :

(أ) تنمية الموارد البشرية .
(ب) التنمية الصناعية .
(جـ) التنمية الزراعية .
(د) تنمية الهياكل الأساسية .
(هـ) تنمية التجارة والخدمات .
(و) التنمية الادارية .
(ز) تهيئة فرص أوسع للاستخدام .
(ح) التقدم الفنى والعملى والتكنولوجى .
(ط) استخدام رؤوس الأموال العربية فى المنطقة العربية .
(ى) العدالة الاجتماعية .

وأكدت أن الأهداف والمبادىء الأساسية للاستراتيجية المنشودة :

١ — التحرر من مظاهر التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى المنطقة

العربية بما يحقق تنمية وتطوير المستوى المادى والاجتماعى والفكرى للانسان العربى •

٢ ــ تأكيد السيادة العربية على الثروات والموارد المتوافرة فى الوطن العربى وضمان تأمينها والحفاظ عليها •

٣ ــ تحرير الوطن العربى من النفوذ والسيطرة السياسية والاقتصادية الأجنبية •

٤ ــ تحسين وتنسيق الاستفادة العربية من الموارد والامكانات العربية •

أما المبادىء التى رأتها اللجنة فانها تشمل :

١ ــ أن تقوم الاستراتيجية المنشودة على مبدأ تكاملية الانماء العربى •

٢ ــ أن تحقق الاستراتيجية المنشودة الانتقال بالعمل العربى المشترك من مرحلة التمنيات والتوصيات والقرارات الى مرحلة تعاقدية تقوم على الالتزام •

٣ ــ أن تنبع الاستراتيجية المنشودة من واقع وظروف العالم العربى وحاجاته الحالية وتطلعاته المستقبلية ، مع تحقيق المعاصرة الايجابية •

٤ ــ أن تكون هذه الاستراتيجية بعيدة المدى •

٥ ــ أن تتسم الاستراتيجية بالحركة بحيث تتواءم مع ما يستجد من تطورات وتغيرات •

٦ ــ أن تتيح الاستراتيجية لصانعى القرار السياسى فى الوطن العربى امكانية اختيار الحلول المناسبة بما يضمن المصلحة القطرية والعربية •

ــ مراعاة الأخذ فى الاستراتيجية بمبدأ سلم الأولويات •

أما التوصيات فكانت كما يلى :

١ ــ لما كان اعداد تصور عن الاستراتيجية العربية للتنمية الشاملة يتطلب القيام بأعمال تحضيرية ومتابعة فانه يقترح :

(أ) استمرار اللجنة التحضيرية للاعداد لاستراتيجية عربية للتنمية الشاملة فى عملها على أن ينبثق عنها لجنة عمل فرعية تمثل فيها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية والمنظمات العربية لتنسيق جهودها فى مجال اختصاصها ولها أن تستعين بالخبرات العربية وغير العربية التى تقتضى الحاجة اليها •

(ب) أن تقوم اللجنة الفرعية المشـار اليها فى الفقرة (١) باعداد الاستراتيجية المنشودة على ضوء المسوح الميدانية التى تجرى للتعرف على امكانات واحتياجات البـلاد العربية فى مجالات التنمية المختلفة والخطط النوعية التى تقوم باعدادها المنظمات العربية •

(جـ) التوصية بدعوة وزراء التخطيط لعقـد مؤتمر خاص لبحث مشروع الاستراتيجية الذى تعده اللجنة الفرعية المشار اليها أعلاه توطئة لعرض هذا المشروع على مؤتمر القمة العربى لمناقشته واقراره •

(د) دعوة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية والمنظمات العربيـة والحكومات العربية الى توفير التسهيلات الفنية والمادية اللازمة لانجاز المهام المشار اليها آنفا فى أقرب وقت •

٢ ـ التوصية لدى الحكومات العربية بالعمل على انشاء مجلس أعلى للتنمية العربية على أن يمنح هذا المجلس سلطة تنفيذية من قبـل مؤتمر القمة العربى •

كما عقدت فى النصف الثانى مـن مارس ١٩٧٥ اجتماع للمجلس المركزى لاتحاد عمال التجارة والبنوك العرب فى القاهرة وأصدر قراراته بالاعداد لمؤتمر يعقد فى احدى العواصم العربية لبحث الاسـتثمارات والارصـدة العربية فى الخـارج للتحـرير والتنمية فى الوطن العربى ، ويناقش المؤتمر دور التجارة والبنوك العربية فى هذا المجال ، ويحـدد الأسس التى سيتم على ضوئها استكمال تحرير الاقتصاد العربى واتفاقيات التجارة من الارتباطات غير المتكافئة ، وضرورة الاسراع باستخدام المال العربى فى مجالات التنمية •

وقد أسهم كتاب ومفكرون وصحفيون فى الدعوة الى أهمية وضرورة الاسراع بوضع استراتيجية عربية للتنمية •

التجـارب التاريخيـة :

والحديث المعاصر على أبواب العقد الاخير من القرن العشرين حول استراتيجية عربية للتنمية لا ينبع من ظروف طارئة ، وانما يعتمـد على تجارب تاريخية قريبة العهد • وحتى اذا عبرنا الظروف التى كانت فيها المنطقة العربية منطقة واحدة وبدأنا الحديث من العصر الذى تم فيه تمزيق الوطن العربى ، فاننا نجد أن أشكالا عدة من التعاون الاقتصادى والثقافى قدر لبعضها النجاح وأخفق البعض الآخر •

لقد برزت أفكار الوحدة العربية فى طورها الحديث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كتعبير سياسى للاستقلال • وبعد الحرب العـالية الثانية برز المضمون الاقتصادى الى جانب النضال السياسى لنيل الاستقلال •

وعندما وقع ميثاق الجامعة العـربية فى ١٩٤٥ لم يكن يحوى من النصوص ما قد يكتسب الصفة الاقتصادية الا ما جاء فى الديباجة مـن توطيد الروابط وتوجيهها الى ما فيه خير الأمة العربية قاطبة ، وصـلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها ، والا ما جاء فى بعض نصوصه من أن من أغراض الجامعة تعاون الدول الاطراف تعاونا وثيقا وحسب نظم كل دولة وأحوالها فى الشئون المنصوص عليها وأهمها الشئون الاقتصادية والمالية ويدخل ضمن ذلك التبادل التجارى والجمارك والعمالة وأمور الزراعة والصناعة وشئون النقل والمواصلات والثقافة •• الخ • وكان مجلس الجامعة بمثابة جهـاز فنى لتحضير مشروعات التعـاون الاقتصادى دون أن يكون له دور تخطيطى أو تنفيذى على الاطلاق • كما كانت الاتفاقيات ذات صفة جماعية ، ان أجمع عليها الجميع كان التنفيذ ، وان وافقت عليها أكثرية صارت كل دولة فى حـل من التنفيذ الا ما تراه متلائما ومتمشيا مع نظمها وأحوالها •

وكان قيام دولة اسرائيل دافعا الى اقتراب أكثر بين الدول العربيـة دعاها الى عقد معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى فى ابريل عام ١٩٥٠ • ومع أن المعاهدة كانت دفاعية وسياسية فى الاسـاس الا ان **المضمون الاقتصادى بدأ يتشكل بالفعل ضمن العمل العربى المشترك ،** فقد نصت تلك المعاهدة على أن تتعاون الدول المتعاقدة على النهوض باقتصاديات بلادها واستثمار مرافقها الطبيعية ، وتسهيل تبادل منتجاتها

الوطنية والزراعية والصناعية ، كما نصت على أن ينشأ مجلس اقتصادى من وزراء الدول المتعاقدة المختصين بالشئون الاقتصادية لكى يقترح ما يراه كفيلا بتحقيق أغراض الرفاهية والطمأنينة للعرب •

وكانت حصيلة أعمال المجلس الاقتصادى حتى منتصف الستينات عقد عدد من الاتفاقيات الجماعية فى مجالات التبادل التجارى ، وتنظيم الترانزيت وتسهيل المدفوعات والمعاملات الجارية وانتقال رؤوس الأموال ، والتعريفة الجمركية ، وانشاء عدد من الاتحادات النوعية للاذاعات والمواصلات السلكية واللاسلكية والبريد والطرود • وامتداد التعاون الى تنسيق السياسة التنظيمية ــ اثر الدعوة لتكوين الأوبك ــ واستخدام الطاقة الذرية ، وحرية الطيران المدنى •

وأدى تطور أشكال التعاون فى تلك الفترة الى ايجاد عدد من المنظمات تمثل بيوتا للخبرة (٢) هى المنظمة العربية للعلوم الادارية ، والتربية والثقافة والعلوم ، والعمل ، والمواصفات والمقاييس • كما أنشئت مجموعة من الشركات والمؤسسات مثل شركة البوتاس العربية ، والمؤسسة المالية العربية للائتمان الاقتصادى ، ومؤسسة الخطوط الجوية العربية العالمية ، والشركة العربية لناقلات البترول والشركة العربية للملاحة البحرية •

وكان العائق الأول أمام الاتجاه نحو التكامل الاقتصادى العربى هو صدور القرارات التى لا تجد طريقها للتنفيذ • لقد أقر المجلس الاقتصادى اتفاقية الوحدة العربية عام ١٩٥٧ ولكنها لم تدخل حيز التنفيذ قبل عام ١٩٦٤ بخمس دول فقط زادت الى سبع ثم وصلت عام ١٩٧٧ الى اربع عشرة دولة • فى عام ١٩٦٤ بدأت اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية كاطار لتحقيق التكامل الاقتصادى بين الدول الاعضاء ، وفى عام ١٩٦٤ أيضا أنشىء مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، وهو الهيئة الدائمة المنوط بها تنفيذ أهداف اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية • ويتكون المجلس من وزارة الاقتصاد أو التجارة أو المالية فى الدول الاعضاء باعتبارهم الممثلين الدائمين لدولهم لدى المجلس ولهم نواب هم وكلاء الوزارات فى دولهم •

ويعاون المجلس فى أعماله الأمانة العامة للمجلس ، وهى الجهاز التنفيذى الرئيسى للمجلس ، وعدد من اللجان الدائمة والفرعية • ويؤلف

المجلس والأجهزة المرتبطة به وحدة تتمتع باستقلال مالى وادارى وشخصية اعتبارية .

وعضوية مجلس الوحدة الاقتصادية العربية فانها تكون للدول العربية الأعضاء فى جامعة الدول العربية وغير الأعضاء .

ولقد بدأ المجلس أعماله ولم يكن عدد الدول الأعضاء فيه يتجاوز خمس دول هى : المملكة الأردنية الهاشمية ، الجمهورية العربية السورية ، الجمهورية العراقية ، دولت الكويت ، وجمهورية مصر العربية . ثم ما لبث هذا العدد ان ارتفع حتى أصبح عدد الدول الاعضاء فى المجلس ثلاث عشرة دولة فى نهاية عام ١٩٧٥ .

أما اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية فانها تهدف الى أن تكفل للدول العربية ورعاياها على قدم المساواة الحريات والحقوق الآتية :

ـ حرية انتقال الأشخاص ورؤوس الأموال .

ـ حرية تبادل البضائع والمنتجات الوطنية والأجنبية .

ـ حرية الاقامة والعمل والاستخدام وممارسة النشاط الاقتصادى .

ـ حرية النقل والترانزيت واستعمال وسائل النقل والموانىء والمطارات المدنية .

ـ حقوق التملك والايصاء والارث .

ولتحقيق هذه الأهداف نصت الاتفاقية على أن تعمل الأطراف المتعاقدة على ما يلى :

ـ جعل بلادها منطقة جمركية واحدة تخضع لادارة موحدة وتوحيد التعريفة والتشريع والأنظمة الجمركية المطبقة فى كل منها .

ـ توحيد سياسة الاستيراد والتصدير والأنظمة المتعلقة بها .

ـ توحيد أنظمة النقل والترانزيت .

ـ عقد الاتفاقيات التجارية واتفاقات المدفوعات مع البلدان الأخرى بصورة مشتركة .

تنسيق السياسة المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة الداخلية وتوحيد التشريع الاقتصادى بشكل يكفل لمن يعمل من رعايا البلاد المتعاقدة فى الزراعة والصناعة والمهن شروطا متكافئة •

— تنسيق تشريع العمل والضمان الاجتماعى •

— تنسيق السياسات المالية والنقدية والأنظمة المتعلقة بها فى بلدان الأطراف المتعاقدة تمهيدا لتوحيد النقد بها •

— توحيد أساليب التصنيف والتبويب الاحصائية •

— اتخاذ أية اجراءات أخرى تلزم لتحقيق الأهداف المبينة آنفا •

كما نصت اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية فى مادتها الثانيــة على أنه يمكن التجاوز عن مبدأ التوحيد فى حالات وأقطار خاصة بموافقة مجلس الوحدة الاقتصادية العربية •

وفى مقابل ذلك نصت فى مادتها الخامسة عشرة على أنه يجوز لبلدين أو أكثر من بلدان الأطراف المتعاقدة ، عقد اتفاقات اقتصادية تستهدف وحدة أوسع مدى من هذه الاتفاقية •

كذلك فان القرار رقم ١٧ الصادر عن الدورة الثانية لمجلس الوحدة الاقتصادية بتاريخ ١٣/٨/١٩٦٤ ، والقاضى بانشــاء الســوق العربية المشتركة ، والذى بدىء تنفيذه فى ١/١/١٩٦٥ ، يعد من أهم القرارات التى أصدرها المجلس فى بدء نشاطه وأبعدها تأثيرا فى العلاقات الاقتصادية والتجارية بين الدول الأعضــاء ، اذ أن هــذا القرار هو التجسيد العملى لتحقيق أحد أهداف الاتفاقية ، وهو حرية تبادل البضائع والمنتجات الوطنية والأجنبية وفى مراحل متدرجة ، بدءا بالغاء الرسوم الجمركية والرسوم والضرائب الأخرى والقيود الادارية ، وليس للسوق جهاز مستقل أو كيان ذاتى متميز عن المجلس ، بل ان المجلس هو الذى يشرف على تنفيذ أحكام السوق ، كاشرافه على تنفيذ أى قرار أو أية اتفاقية تنبثق عنه •

ولقد خلص خبراء التخطيط فى مجلس الوحدة الاقتصادية العربية من استعراض النظرة التاريخية والاطار الفكرى لمحــاولات التــكامل الاقتصادى العربى الى عدة منطلقات يمكن أن يرتكز اليها واضــعوا

الاستراتيجية العربية للتنمية والتى يمكن تصويرها فى النقاط الرئيسية الآتيــة :

ــ ان الوحدة الشاملة هى الهدف النهائى الذى يمثل أمل الجماهير العربية ، عاشته تاريخيــا فى القديم ، وتطلعت اليه منذ بداية القــرن العشرين وتحت الشعور بالاستغلال والضغط الاستعمارى .

ــ ان الوحدة يتأكد تطورها مع الأحداث بحيث لا يشــوبها مفهــوم عاطفى أو عرقى بل تكتسب مضمونا اقتصاديا وسياســيا واجتماعيا ، بالتحرر من الاستعمار ، وبناء المجتمع المتقدم مع مستوى العصر .

ــ ان الوحدة بسبب تزايد هذا المفهوم تقف أمامها عقبات عربيــة وعالمية ، سياسية وعسكرية ، اقتصادية واجتماعية بحيث تجعل ميزان القوى حولها يميل فى صالح المعوقات ، وان كان لا ينفى وجود الدوافع على ضعفها النسبى فى الميدان .

ــ انه قد كان التعاون العربى محاولة لبديل عن الوحدة فى وقت ما ولكنه لم يستطع الصمود أمام التحديات .

ــ ان الضغط من أجل الوحدة تزايد تحت عوامل سياسية فى وقت ما بحيث انتقل بالعمل العربى الى عتبات التكامل بدلا من التعاون .

ــ ان الاتجاه نحو التكامل ظل يتصــاعد عبر عقد كامل من الزمان بحيث اتسع الايمان به كضرورة .

ــ وان اطاره الفكرى قد تبلور بحيث صار ذا مغزى اقتصــادى متكامل ، وذا أبعاد اجتماعية وعسكرية ودولية .

ــ وانه صار مسلما بأنه الحلقة الرئيسية فى اتجاه الوحدة ، والذى اذا تحققت صار ممكنا صياغة وتنفيذ باقى الحلقات .

ــ ولكن التكامل ذاته ــ وهو هدف أدنى درجة أو درجات مــن الوحدة ــ تقف أمامه كذلك عوامل عربية وعالمية ، سياسية وعسكرية ، اقتصادية واجتماعية .

ـ ومع ذلك فضغط قوى الوحدة التى قبلت بالنزول جـزئيا الى التكامل والوحدة الاقتصادية لا يتم بغير حركة ديناميكية ، هـذه الحركة الايجابيات والمعوقات بنفس درجة الميل فى حالة الوحدة بل أقـل منها ، ويدل استقراء التطور العربى والعالمى أن الفارق بين الميل فى الحـالتين سيزداد .

ـ وكما كان التكامل حلقة رئيسية تؤدى الى الوحدة يصبح ضروريا البحث عن حلقة أو حلقات رئيسية تؤدى الى التكامل ، مع نضج الظروف لتحققه .

***

وأعتقد أن التنمية هى أساس التكامل والوحدة الاقتصـادية لأن التكامل والوحدة الاقتصادية لا يتم بغير حركة ديناميكية . هذه الحركة تتمثل فى التنمية .. اننى أرى أن التكامل الاقتصـادى العربى والوحدة الاقتصادية العربية لا يمكن أن يتم بغير حركة للأمام تشبه التقاء الروافد فى مجرى النهر العظيم عند نقطة متقدمة من جريان هذه الروافد كلها أو جميعها . أما الماء الآسن والراكد فسواء كان بركا منفصلة أو بركة واسعة كبيرة لا ينتج غير مشاكل الماء الآسن ومشاكل البرك .

وسواء كان التكتل فرعيا أو رئيسيا بمعنى أنه سـواء كان التـكتل يشمل جميع البلدان العربية أو يشمل عددا منها مثل المغرب العربى أو مصر والسودان أو سورية والعراق وهكذا .. فانه خطوة الى الأمام . ان الشرط الوحيد للتكتل الصحيح ألا يكون تشرذما بمعنى أن السؤال المطروح دائما أمام التكتلات الفرعية هو هل سيؤدى ذلك الى نوع من الاستقطاب ، ويعوق التكتل الرئيسى أم أنه يعد خطوة متقدمة نحـو التكتل الرئيسى الذى يضم العرب جميعا ؟ وفى رأيى أن أى بطوة عربية بغير هدف التشرذم لابد وأن تقود الى خطوة أخرى متقدمة ، نحو التكامل والوحدة .

والى جانب الجهود المبذولة فى المجال الاقتصـادى ، تقف جهـود المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عملاقة فى وضع استراتيجية عربية لتطوير التربية وفى شتى مجالات الثقافة والعلوم ، ولعل ميثاق الوحـدة الثقافية العربية (الملحق ٣ من هذا الفصل) يلقى لنا ضوءا باهرا لتصور الجانب الثقافى فى الاستراتيجية العربية للتنمية الشاملة .

العرب وفرص التنمية :

من الواضح تماما أن العرب قطعوا أشواطا فى طريق التبادل والتعاون والتكامل الاقتصادى والثقافى منذ انشاء الجامعة العربية التى أصبحت بدورها منظمة (٣) تستطيع لو نفخت فيها روح التوثب ، وأزيلت من أروقتها الحساسيات ، ولم تقم السدود والحواجز أمام تنفيذ قراراتها .. تستطيع أن تؤدى دورا رائدا فى مجال الاستراتيجية العربية للتنمية الشاملة .

ومن الواضح أيضا أن العرب الذين يسمونهم القوة السادسة فى العالم بعد أكتوبر ١٩٧٣ ليسوا فى آخر قائمة التخلف .. وأن هذا الكيان البشرى الذى يمثل ٥٪ من مجموع سكان البلدان النامية يملك أكبر فرص التقدم وكسر حاجز التخلف فى العالم الثالث ، لماذا ؟ للاسباب الآتية :

١ ـ الوضع الجغرافى : تمثل المنطقة العربية ٨و١٠٪ من مساحة العالم . والمساحة الكلية للوطن العربى تبلغ ١٣٧٣٨ مليون كيلو متر مربع ، ويمتد الوطن العربى لمسافة سبعة آلاف كيلو مترات من شواطىء المحيط الأطلسى غربا حتى ساحل خليج عمان شرقا ، وبعض الكتاب يصور الأرض العربية باسفنجة مشبعة بالبترول . ان النظرة المتفحصة لموقع ومناخ وثروات الوطن العربى تجعل الانسان مذهولا أمام واقع الثراء الجغرافى بكل أبعاده وواقع التخلف الذى يعيشه أبناء هذه الوحدة الجغرافية من الكرة الأرضية ، ولعل عنصرا واحدا ـ غير البترول ـ من عناصر الثراء الجغرافى العربى يضرب لنا مثلا صارخا لذلك . ان مساحة الأرض المنزرعة فى السودان حوالى ٦ ملايين فدان أما مساحة الأراضى الصالحة للزراعة وتنتظر رأس المال العربى والايدى العاملة فهى ١٢٠ مليون فدان ، والأراضى الصالحة للرعى تبلغ ٨٠ مليون فدان .. !

٢ ـ الطاقة البشرية : وأهمها فى نظرى ايجابيات الشخصية العربية القادرة على التقدم والتطور ، والقادرة على التفاعل مع العالم ، انها ليست الشخصية المنغلقة أو الشخصية المعتنقة لأفكار الجنس الأسمى . ان الطاقة البشرية العربية التى أدارت قناة السويس عقب التأميم فى ظل

ظروف استعمارية معوقة ومعادية ، والتى أدارت عمليات استخراج البترول عقب تأميم بعض شركاته فى بعض الاوطان العربية بمهارة وكفاءة أكبر من خبراء الشركات الاحتكارية ، هذه الطاقة البشرية العربية المكبلة والمهاجرة والمترددة تستطيع يوم تزال من أمامها الحواجز ، وتوضع موضع المسئولية أن تقود التقدم وتصنع المعجزات .

٣ — الثروة .. وقد يتبادر الى الذهن أن فوائض الاموال العربية الهائمة على وجهها فى بنوك أوربا وأمريكا هى كل مفهوم الثروة ، ولكن الحقيقة أنها جزء من الثروة الوفيرة للوطن العربى ، وهى جزء حيوى لانه يستطيع أن يعجل بدوران العجلة ، وان يتخطى حواجز التمويل . ويقدر (٤) حجم الأصول والموجودات الأجنبية التى تمتلكها الحكومات والجهات العربية العامة حوالى ٣٠٠ مليار دولار (ثلاثمائة ألف مليون دولار) فى نهاية عام ١٩٨٢ ، وذلك طبقا لاتفاق أكبر عدد من المصادر المصرفية الخبيرة ، أما حجم الاستثمارات العربية الخاصة أى المملوكة لافراد فى الخارج فتبلغ ٥٠ مليار دولار وذلك باتفاق مصادر غربية وعربية .

٤ — الوضع الحضارى المعاصر الذى هو امتداد لحضارات قديمة وعريقة .. ولو بحثنا فى الجوانب المعنوية للعرب حاليا — وليس تاريخيا فقط — لوجدناهم على درجة كبيرة من البناء المعنوى الذى يمكنهم من احراز التقدم ، ولوجدناهم فى طليعة العالم الثالث من هذه الزاوية .

ضرورة وحتمية الاستراتيجية العربية للتنمية :

هل الاستراتيجية العربية للتنمية ضرورة ؟ أم هل هى حتمية ؟ ولماذا ؟ .

ان الاستراتيجية العربية للتنمية الشاملة ضرورة لاحراز التقدم وكسر طوق التخلف ، فبغير هذه الاستراتيجية تستطيع كل دولة على حدة أن تنمى نفسها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا — كما يحدث الان — ولكن محصلة كل ذلك هو ان تصبح البلدان العربية حلقات متفرقة منها القوى ومنها الاقل قوة ، ومنها الضعيف ولكنها على أية حال حلقات منفصلة .

وفى ظل التكتلات العالمية من الدول الرأسمالية الغنية المتقدمة ، والدول الشيوعية المتقدمة ، وحتى الصين التى انفصلت عن الفلك السوفيتى تمثل بمفردها كتلة بشرية واقتصادية وجغرافية هائلة ، فى ظل هذه الكيانات العملاقة لا أمل للاقزام فى احراز تنمية هائلة .. ومهما قويت عضلات القزم ، أى مهما اشتدت الحلقة فان السلسلة شيء مختلف فى عالم التنمية . من أجل ذلك حتمية الاستراتيجية العربية للتنمية كطريق فرضه الواقع العالمى المعاصر ، وفرضته ظروف العرب وامكاناتهم المعاصرة. والكيانات الكبيرة العملاقة تتكاتف بشتى الطرق ليشد بعضها بعضا . ويصل مدى التكاتف بينها الى ما هو أبعد من السوق المشتركة أو الانتاج المشترك ، فيبدو أحيانا وكانه من الامور التلقائية لمواجهة مشكلة حلقة فى السلسلة أو اقالتها من عثرة اعتراضتها ، انه نوع من العلاقات شبه الخفية بين الدول الغنية . لقد مر الاسترلينى مثلا بفترات عصيبة منذ مارس ١٩٧٦ عندما هبط سعره الى أقل من دولارين ثم توالى فى الهبوط حتى وصل الى ١٫٥٥٥ دولار فى أكتوبر من نفس العام ، واضطرت الحكومة البريطانية الى اتخاذ اجراءات نقدية شديدة فرفعت سعر الخصم من ١١ ونصف فى المائة الى ١٥ فى المائة ، وحصلت على قرض من صندوق النقد الدولى يبلغ ٣٫٩ بليون دولار ، وفاوضت الحكومة البريطانية الدول العشر الغنية للحصول على تسهيلات من البنوك المركزية فيها بلغت ٥٫٣ بليون دولار ، وفى نوفمبر من نفس العام بدأ التحسن ، وفى مطلع عام ١٩٧٧ أصبح الاسترلينى ١٫٧ دولار ثم قفز الى ١٫٨٤ دولار فى أكتوبر ١٩٧٧ ، وذلك بتكاتف جهود الدول الغنية والبنك الدولى مع أصحاب المشكلة .

اننا كعرب فى حاجة الى اعادة قراءة قصة الحطاب الذى جمع أولاده، وحفز كل واحد منهم أن يكسر حزمة الحطب ، فلم يفلح واحد منهم فى كسرها . ثم فك الحزمة فاستطاع كل منهم أن يكسر عود الحطب المنفرد. لا شك أن الحزمة تختلف كما عن العود المنفرد ومن ثم فهى تختلف نوعا . وهذا هو الذى يجعل الاستراتيجية العربية للتنمية ضرورة وحتمية ان أردنا أن نحرز التقدم الحقيقى والباهر والمأمول .

عناصر النجاح ومعوقاته :

ان أقوى ما تملكه الامة العربية ، بل وأكبر وأقيم ما تملكه هـو وحدة ثقافتها • وهذا هو أقوى عناصر نجاح الاستراتيجية العربيـة للتنمية • أما أخطر معوقات هذه الاستراتيجية فهو عدم النضج السياسى المتمثل فى بعض الحكام ، ومن ثم نجد وحدة الثقافة العربيـة هى عـامل المد ونجد الخلاف السياسى عامل الجذر ، وفى المساحة المشتركة بين عاملى المد والجذر يمكننا أن نصـنف عنـاصر النجاح ونبين كيف يمـكن دعمهـا وتقويتها ، وأن نصنف المعوقات وأن نبحث سبل ازالتها أو تقليصها أو تخفيف أثرهـا ، وسنجد أن عوامل الجـذر عالقة فى عوامل المد أحيانا ، كما نجدها تقف خارجها متربصة بها فى أحيان أخرى ، أو تلتف حولها مطوقة كالشرنقة •

وقبل أن نعرض للعناصر التقليدية للتنمية والمتمثلة فى الانسان والمال والثروة الطبيعية ينبغى أن نشير الى حقيقة تاريخيـة مذهلة هى : أن **ما توافر للعرب فى هذا الربع الاخير من القرن العشرين من عناصر التنمية لم يتوافر لبشر من قبلهم • ان ظروف العرب الان فى احراز التنمية الشاملة** أقوى كثيرا من ظروف البلدان الرأسمالية المتقدمة التى صنعت تنميتها خلال قرون وكانت لها مستعمرات لا تغيب عنهـا الشمس • وكذلك تتفوق الامكانات العربية الان عن الامكانات التى بدأ بها الاتحـاد السوفيتى تنميته بعد ثورة ١٩١٧ •• أو اليابان بعد الحرب العالميـة الثانيـة •

الانسان :

يمثل العرب ٤ر٣٪ من سكان العالم و ٥٪ من العالم الثالث تقريبا ، ويقدر عـدد السكان عام ١٩٨٠ بما يزيد على ١٧٢ مليون نسـمة ، ومن هذا الرقم يصبح التجمع البشرى العربى خامس تجمع فى العالم اذ تحتل الصـين المركز الأول ، ثم تليها الهنـد ، ويحتل الاتحاد السوفيتى المركز الثالث ، ثم تحتل الولايات المتحدة الأمريكية المركز الرابع •

وبرغم انه لا توجـد احصائيات دقيقة لعـدد العرب المهاجرين خارج الوطن العـربى فاننى أعتقـد أنهم أكثر من ثلاثة ملايين ، ما بين عمـال وخبراء وعلماء •

واقبال العرب على التعليم ظاهرة اجتماعية بارزة فى كافة الاقاليم العربية ، ومقدرة الانسان العربى على استيعاب تكنولوجيا العصر تؤكدها مواقفه اللامعة فى الحرب والسلم ــ وان قلت ــ الا أنها نموذج يؤكد صلاحية قدراته الحضارية .

ان هذا التجمع البشرى يتحدث لغة واحدة وينتمى الى أصل واحد ، ويدين فى معظمه بدين واحد ، ويندمج مع الأقلية الدينية اندماجا عاطفيا ووطنيا وقوميا لا يقل عن اندماجه بأبناء دينه فى الاغلب الأعم .. وهذا التجمع البشرى بحكم وحدة الثقافة توحدت مشاعره بل ومعظم جوانب سلوكه .

هذا الانسان العربى قادر على احراز التنمية لو حصل على العدل الاجتماعى وأتيحت له الديمقراطية الحقيقية ، ولو تخلص من رواسب عصور الضعف وأولها غيبة المرأة عن ساحة العمل فيما يلائمها من أعمال وانتاج ، وهذا نجد أن العامل السياسى ــ بجانبيه ؛ الحرية الاجتماعية والحرية السياسية ــ يمثل معوقا للتنمية اذا قيد الانسان صانع التنمية .

المـــال :

نقصد بالمال بصفة خاصة الفوائض البترولية العربية المودعة فى بنوك أوربا وأمريكا ، لانها تفوق قدرة أصحابها على الانفاق وعلى الاستثمار ــ فى أقاليمهم .

لقد قدرت ايرادات دول الاوبك من البترول فى عام ١٩٧٥ بأكثر من ٩٤ ألف مليون دولار كانت على الوجه التالى :

السعودية : ٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠٠ر٢٤ دولار .

ايـــران : ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١٩ دولار .

العـــراق : ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٥٠ر٨ دولار .

فنـــزويلا : ٠٠٠ر٠٠٠ر٩٠٠ر٦ دولار .

الكـــويت : ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠٠ر٦٦ دولار .

نيجـــيريا : ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ر٦ دولار .

الامـارات : ٦٫٠٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

ليبيـا : ٥٫٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

أندونيسـيا : ٣٫٩٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

الجـزائر : ٣٫٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

قطـر : ١٫٥٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

جابون : ٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

أكـوادور : ٧٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

المجمـوع : ٩٤٫٠٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

وهـذه الأرقام تصـور لنا حجم الفوائض العربية التى بدأت تقفز بعد أكتوبر ١٩٧٣ (٥) محققة السعر العادل للبترول من جانب ، وفاتحة نافذة واسعة لآمال التقدم فى بلدانها من جانب آخر .

ولقد صاحب تراكم الموارد المالية العربية الكثير من الضجيج الاعلامى المتعمد ، وقدمت وسائل اعـلام الاستعمار الجـديد صـورة سـادها التهويل لفوائض الدول العربيـة البترولية لتوهم بضرورة تحويلها الى الغـرب الغنى القـادر على استيعابها ودفع أربـاح على ودائعها ، ولكن البحث البسيط المتأنى يثبت أن كل الفوائض البترولية العربية والتى وصلت الى ٣٣٫٥ بليون دولار عام ١٩٧٥ و ٣٩٫٤ بليون دولار عام ١٩٧٦ يمكن استثمارها بل واستثمار اضعافها فى التنمية العربية الشاملة . وتقول دراسة لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية (٦) « ان البلاد العربية بصفة عامة على قدر من التخلف بحيث انه اذا أردنا الوصول بمتوسط الدخل الفردى للمواطن العربى فى عام ١٩٩٥ الى المستوى الذى هو عليه فى الدول الصناعية فى سنة ١٩٧٢ لكان ضروريا استثمار ١٤٠ بليون دولار سنويا فى المنطقة » .

وتبرز دراسة مجلس الوحدة الاقتصادية العربية العقبات التى تقف عقبة تمنع تدفق الاموال العربية الى المنطقة فيما يلى :

— وجود قيود عديدة على تحويل رأس المال والاجراءات النقدية .

- وهناك آثار سلبية للعلاقات السياسية على العلاقات الاقتصادية بحيث تستعمل القروض حاليا - شبيها بامبريالية القرن التاسع عشر - في فرض شروط سياسية أو تدخل في السياسات الداخلية .

- عدم توافر المشروعات المدروسة التي يمكن أن تجتذب التمويل الانمائي .

- عدم نشوء سوق مالية عربية .

- محدودية موارد كل من الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي ، والمؤسسة العربية لضمان الاستثمار .

- ومع ذلك فقد أمكن قيام عدد من الشركات العربية المشتركة برءووس أموال قد تصل الى ٦ بلايين دولار لا يتهدد رؤوس أموالها شيء ، وتشير كل الدراسات المسبقة لقيامها واللاحقة لمباشرة البعض منها نشاطه أنها سوف تلاقي نجاحا طيبا سواء في مجالات نشاطها أو في تدعيم الرابطة الانتاجية العربية .

وبعد استعراض هذه الحقائق يطرح خبراء التخطيط بمجلس الوحدة الاقتصادية امكانات الحل في اتجاهين رئيسيين هما :

● قيادة وتوجيه وتنسيق الدراسات حول المشروعات الانمائية العربية التي تساعد على تحقيق التنمية والتكامل الاقتصادي .

● انشاء هيئة أو جهاز أو مستوى يقوم بالتنسيق بين جهود المؤسسات المالية والاستثمارية العربية .

وبذلك يمكن تحقق الآتي :

١ - اجتذاب أكثر لرءووس الاموال .

٢ - تحقيق معدلات ربح أعلى من مواقع الاستثمار المعتمدة حتى الآن .

٣ - تحقيق ضمان لرءووس الاموال ضد الاخطار المختلفة .

٤ - نفي انتشار التبعية الاقتصادية الذي يتهددنا حاليا .

٥ - دفع النشاط العربي المشترك في اتجاهات تخدم دفع النشاط المحلي في الاقطار المختلفة .

٦ ــ ارساء خطوات على طريق التكامل .

ومنــذ البدية أقامت الرأسمالية العالمية الغنية والمتقــدمة شــباكها لاصطياد رأس المال العربى فى شكل ديون بفوائد عالمية ، وفى شكل أسهم وسندات لشركات صناعية تحقق أرباحا مرتفعة ، وحتى فى شكل عقارات فى مدن الغرب . غير أن هناك مخاطر حقيقية (٧) تواجه رأس المال العربى المتجه للاستثمار فى الدول الاجنبية ، وهى :

أولا : تمثل الضرائب بأشكالها الشتى فى البلاد المتقدمة صناعيا فى الوقت الحاضر نسبا عالية ، وبالتالى فان العائد الصافى أقل اغراء بكثير من عائد الاستثمار الاجمالى .

ثانيا : مجمــوعة القواعد التى أصــدرتها البلاد المتقــدمة صناعيــا والتى كان من نتيجتهــا أن وضــعت عــراقيل أمــام حــرية تحــرك رأس المــال من بلد الى آخــر .. فمن تقييــد وقتى لحــرية المــودع الاجنبى لتحويل جزء من حسابه الى عملة أجنبية الى تقييد كامل بمنع اضافة أى أرصدة جديدة لحساب المودع الاجنبى كما اتبع فى المانيــا وسويسرا وبلجيكا وهولندا . هناك أيضا قواعد تحد من قدرة الاقتراض الخارجى وضعتها تلك البلاد المتقدمة صناعيا . فمثلا استخدمت المانيا وسيلة معينة وهى اجبار المقترض الالمانى بأن يودع فى البنك نسبة نقدية مما يزمع اقتراضه من الخارج وبذلك تستطيع الدولة أن تمنع الاقتراض الخارجى كلية اذا ما رفعت تلك النسبة الى مائة فى المائة .

ثالثا : القيد السياسى وهو قيد هام للغاية فى تاريخنا العربى الحديث . فاذا حزمت البلاد العربيــة المصــدرة للبترول أمرها واتبعت القــواعد الاقتصادية للاستثمار فقط فان معظم رءووس الأموال العربية ستستثمر فى الولايات لمتحدة الامريكية ، حيث انها ما زالت تمثل السوق الحرة المفتوحة التى تتسم بحجمها الكبير وبقيود أقل كثيرا من مثيلاتها فى الدول الاخرى الصناعية .

مثل هذا الاستثمار اذا لم توضع له قواعد اقتصادية سياسية حكيمة ، فانه قد يعرض الاموال العربية لما أطلق عليه ظاهرة « رأس المال الرهين » . ففى الوقت الذى ستنهال رءووس الأموال العربية سعيا للاســتثمار فى الولايات المتحدة سوف لا يقابلها رأس مال أمريكى كبير يسعى للاستثمار

فى تلك البلاد العربية المصدرة للبترول وبالتالى فانه بعـد سنوات قليلة سنجد أن حجم رؤوس الاموال الامريكية المستثمرة فى تلك المنطقـة العربية لن يمثل الا نسبة ضئيلة من حجم رؤوس الأموال العربية المستثمرة فى الولايات المتحدة .. نتيجة عدم التوازن هذا ؛ فان التهـديدات التى ستوجه ضد رؤوس الاموال العربية فى أمريكا أخطر بكثير من التهديدات التى يمكن ان توجه ضد رؤوس الاموال الامريكية المستثمرة فى البلاد العربية المنتجة للبترول .

ولا شك ان دعوة زراعة المال العربى فى أرض عربية هى الطـريق الوحيد والصحيح للمحافظة عليه ، ودوام بقائه بعيدا عن أزمات النقـد العالمية وأزمات الاقتصاد الرأسمالى بصفة عامة .

« ولقد مرت بدول « الاوبك » ، وبالدول العربية النفطية ، لحظة تاريخية كان ممكنا ان تؤثر تأثيرا عميقا على طبيعة العلاقات والتوازنات الدولية ، وكان ممكنا أن تقفز بالنضال العربى الى مستوى جديد ، ولكن كل هذا فى أواخر ١٩٧٣ وأوائل ١٩٧٤ . ثم تبددت الامكانية ، بل انتكس النضال العربى ، وتبدد قسم كبير من مكاسبه المحققة خلال سنوات طويلة من التضحية والمعاناة .

كانت هناك امكانية للحديث أو للبدء فى استراتيجية مالية مستقلة . ولكن هذا التصور أصبح لا معنى له بعد ان رتبت الولايات المتحدة أوضاع المنطقة على نحو يدعم سيطرتها .

ان سيطرة الولايات المتحدة ، والغرب بشكل عام ، على الامـوال النفطية كانت هدفا دائما ومعلنا ، وتضاعفت الهمة لتحقيق الهدف منذ أواخر ١٩٧٣ ، فلجنة العشرين التى أنشأها صندوق النقد الدولى للبحث عن الحلول اللازمة لاصلاح نظام النقد الدولى تضمنت اقتراحـاتها ان تستثمر الاموال العربية فى سندات وأذونات لا يجوز لاصحابها استخدامها أو السحب عليها الا بشروط معينة وفى ظروف محددة . ولما تبين للجنـة العشرين فشل محاولتهم بفرض الوصاية على الأموال النفطية العربية ، تراجعت لجنة العشرين ، ولكن لتظهر مقترحات أخرى قدمتها بعض الهيئات الدولية للاحتفاظ بهذه الاموال لديها ، وهى مقترحات تؤدى الى الهدف نفسه ، وهو السيطرة على الأموال العربية ، بدعوى حسـن استخدامها ، وبدعوى المحافظة عليها .

ولكن الكارثة الحقيقية تكمن فى تآكل القيمة الفعلية للأموال العربية فى الخارج • فان الفائض المتراكم من الاموال العربية حين يرد الى قيمته الفعلية ينخفض انخفاضا شديدا بسبب معدل التضخم العالمى الذى يتراوح بين ١٠٪ ، ٢٠٪ فى كل عام • وما يترتب عليه من انخفاض سنوى فى قيمة النقد العالمى •

ان هذه الأموال مخطط لها ألا تعود الى المنطقة الا بحساب ، فيأخذ منها صندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى ، ويوظف جزء منها فى شراء سندات على الخزانة الامريكية أو سندات على الحكومة البريطانية ، ثم يوظف جزء منها عبر شبكة المصارف الدولية ، هذه العملية هى التى سميت فى الغرب اعادة تدوير الدولارات النفطية • وفى نهاية يونية ١٩٧٤ كان « بنك أوف امريكا » يستحوذ على ٥٧ر٤ مليار دولار ، فى حين ان السيولة النقدية المتوفرة لدى جميع الأقطار المصدرة للنفط لم تزد على ٣٥ر٤ مليار دولار » •

الثروة الطبيعية :

وهى غير معروفة على وجه الدقة ، ولا على وجه التقريب ، ولكن المعروف منها فقط يدير الرءووس ، ويجعل القارىء يعجب لعدم الاستفادة من هذه الثروة الهائلة ، ولعل الأراضى الزراعية تقدم لنا دليلا شامخا على ضخامة الموارد ، مساحة الوطن العربى ٣٥٠٠ مليون فدان منها ألف مليون فدان صالحة للزراعة (محاصيل ومراعى وغابات) • من هذه الألف مليون فدان يزرع فعلا ١٢٦ مليون فدان والباقى ينتظر الاستثمار الأمثل أو مجرد الزراعة •

ولو استخدمت تكنولوجيا الزراعة لأصبح الفرد فى الوطن العربى عام ألفين يحصل على نصيب من الأرض الزراعية أعلى من نصيب الفرد فى الولايات المتحدة الأمريكية وهى الدولة المنتجة لأكبر فائض غذائى فى العالم •

وثروة العرب من البترول على كل لسان ، ووفق احصائيات عام ١٩٧٥ بلغ انتاج العالم ما متوسطه ٥٣ر٤ مليون برميل يوميا ، ومن هذه الكمية بلغ انتاج دول الأوبك ٢٧ر١ مليون برميل أو ما يعادل ٥٠ر٩٪ من كل الانتاج العالمى ، وكان توزيع الانتاج على الدول أعضاء الأوبك

على الوجه التالى محسوبة على أساس متوسط الانتاج فى اليوم الواحد بالبرميل :

١ ـ السعودية : ٤٠٠ر٠٥٤ر٧ •

٢ ـ ايـران : ١٠٠ر٣٥٠ر٥ •

٣ ـ فنزويـلا : ٢٠٠ر٣٤٦ر٢ •

٤ ـ العـراق : ٧٠٠ر٢٦١ر٢ •

٥ ـ الكـويت : ٢٠٠ر٠٨٤ر٢ •

٦ ـ نيجيريا : ٢٠٠ر٧٨٣ر١ •

٧ ـ الامـارات : ٣٠٠ر٦٣٦ر١ •

٨ ـ ليبيـا : ٨٠٠ر٤٧٩ر١ •

٩ ـ اندونيسيا : ٥٠٠ر٣٠٦ر١ •

١٠ ـ الجزائر : ٣٠٠ر٠٢٠ر١ •

١١ ـ قطـر : ٦٠٠ر٤٣٧ •

١٢ ـ جـابون : ٠٠٠ر٢٢٣ •

١٣ ـ أكوادور : ٩٠٠ر١٦٠ •

فاذا أضفنا الى هذه الاحصائية تقديرات احتياطى البترول العربى التى تؤكد أن احتياطى البترول العربى أكثر من نصف احتياطى العـالم لتبين لنا قيمة هذا المورد •

ولا يمكننا ان نتخيل أن البترول أهم ثروات العـرب ، وهو ثروة قصيرة الأجل ، ان السماء العربية الغنيـة بالأمطـار فى كثير من المواقع ، والأنهار العربية التى تضم النيل والفرات ودجلة •• بل والمناخ والآثار التى تعد كنوزا سياحية يمكن أن يجنى منها العرب آلاف الملايين مـن الجنيهات •• والصحراوات التى لم يتم اكتشاف ما فيها من معـادن وكنوز ، وشواطىء العرب ومواقع موانيهم التى تؤهلهم لأن يصبحوا بحارة العالم وصيادى أسماكه •• كل هذه الثروة تحتاج الى المال وهو

موجود والى الطاقة البشرية وأساسها موجود ويمكن تطويرها ودعمها ، والى التكنولوجيا ويمكن استيرادها وتوطينها •

آفاق المستقبل :

ماذا حدث للذين فاتهم عصر البخار وعصر الكهرباء ؟ وماذا حدث للذين أدركوا العصرين ولحقوا بعصر الذرة ؟ ان ما حدث هو الواقع المعاصر للتخلف والتقدم وللهوة التى تزداد اتساعا فى كل ساعة بين المتقدمين والمتخلفين ، وهذا ما نرى منه آفاق المستقبل العربى ، ان شروط التنمية لم تتيسر لبلد واحد من بلدان الوطن العربى ، فالذين يملكون الطاقة البشرية تنقصهم الثروة الطبيعية وينقصهم التمويل والذين يملكون المال تنقصهم الموارد الطبيعية والطاقة البشرية والذين يملكون الموارد الطبيعية تنقصهم الطاقة البشرية ، والتمويل ، والعرب جميعا يملكون شروط التنمية جميعها وبصورة لم يحظ بها من قبل تجمع بشرى• ولكن الصورة المعاصرة للأمة العربية ، تكاد تكون صورة نادرة لم يحظ بها مسرح فى مأساة أو ملهاة ، العرب يصدرون بصفة عامة المواد الخام للبلدان المتقدمة الغنية ، ويودعون أموالهم فى بنوكها ، وتهاجر العقول والأيدى العاملة العربية الى هذه البلدان المتقدمة الغنية • ثم يستورد العرب من هذه البلدان التى صدورا اليها المادة الخام والمال والبشر ، المواد المصنعة ليأكل العرب ويشربوا ويرتعوا • لقد بلغت واردات العالم العربى من الولايات المتحدة الامريكية (على سبيل المثال) عام ١٩٨٣ (١٤٠ مليار دولار) بزيادة قدرها ١٤٪ عن عام ١٩٨٢ •

ماذا يمكن أن يحدث لو استمر هذا الوضع ؟ ببساطة شديدة وأليمة سوف تزداد الزوايا انفراجا ، فتزداد هجرة العقول والأيدى العاملة العربية الى البلدان الغنية المتقدمة وتتضاعف ، وسوف يستمر تصدير المواد الخام والأولية للبلدان الغنية ، وسوف تتوطن الاموال العربية فى الغرب • ويبقى بعد ذلك أن تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ العرب بعد انتهاء الدور التاريخى للبترول وهو ما يقدر فى أكبر التفاؤلات بأقل من نصف قرن من الزمان •

يبقى السؤال المقابل هو ماذا يمكن أن يحدث لو أدرك العرب قطار التقـدم •• !

ببساطة شديدة وأكيدة سوف تتغير خريطة المجتمع الدولى ، ويصبح هذا الكيان الواهن ، أصبى عمالقة القرن الحادى والعشرين فى عـالم الكيانات العملاقة ، وكافة الدعـاوى لعـدم امكان ذلك كاذبة ، وكـافة العوائق التى تبدو مانعا لحدوث ذلك مصطنعة • ومشكلة العرب تتركز فى نقطة واحدة هى ألا يفوتهم القطار •

ملاحق الفصل السابع

ملحق ١ للفصل السابع

الدخل الإجمالي بالنسبة للفرد الواحد من السكان فى الوطن العربي مقدراً
بالدولار الأمريكي فى سنوات : ١٩٧٢–١٩٧٣–١٩٧٤–١٩٨٥

الدولة	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٨٥
جمهورية مصر العربية	٢٣٠	٢٥٠	٢٨٠	٦١٠
جمهورية السودان الديمقراطية	١٤٠	١٣٠	١٣٢	٣٠٠
المملكة المغربية	٣١٠	٣٢٠	٤٣٠	٥٦٠
جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية	٥٥٠	٥٧٠	٧٣٠	٢٥٥٠
الجمهورية التونسية	٤٤٠	٤٦٠	٦٥٠	١١٩٠
جمهورية الصومال الديمقراطية	٨٠	٨٠	٩٠	٢٨٠
الجمهورية العربية الليبية	١٨٣٠	٣٥٣٠	٤٤٤٠	٧١٧٠
جمهورية موريتانيا الاسلامية	١٨٠	٢٠٠	٢٩٠	٤٢٠
الجمهورية العراقية	٣٧٠	٨٥٠	١١١٠	—
الجمهورية العربية السورية	٣٩٠	٤٠٠	٥٦٠	١٥٧٠
الجمهورية العربية اليمنية	٩٠	١٠٠	١٨٠	٥٥٠
الجمهورية اللبنانية	٨٠٧	٩٤٠	١٠٧٠	—
المملكة الأردنية الهاشمية	٣٤٠	٣٤٠	٤٣٠	١٥٦٠
جمهورية اليمن الديمقراطية	١٠٠	١١٠	٢٢٠	٥٣٠
المملكة العربية السعودية	٥٥٠	١٦١٠	٢٨٣٠	٨٨٥٠
دولة الكويت	٤٩٠	١٢٠٥٠	١٠٠٣٠	١٤٤٨٠
سلطنة عمان	٥٣٠	٨٤٠	١٦٦٠	٦٧٣٠
دولة الإمارات العربية المتحدة	٣٢٢٠	١١٦٣٠	١١٠٦٠	١٩٢٧٠
دولة البحرين	٦٧٠	٩٠٠	٢٣٥٠	—
دولة قطر	٢٥٣٠	٦٠٤٠	٦٦٣٠	—

ملحق (٢) للفصل السابع

وضعت ادارة التخطيط بمجلس الوحدة الاقتصادية العربية تصورا مبدئيا حول أساسيات خطة عربية مشتركة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية تمتد من عام ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٥ . وأكدت أن الغرض الأساسى من هذه الوثيقة هو اثارة الاعتماد وبلورة الأفكار حول أساسيات الاطار العام لخطة عربية مشتركة للتنمية وأن الغرض المبدئى والتمهيد للنقاط الرئيسية بها يتعين تحليلها ومناقشتها ، بكل دقة وعمق وتفصيل ، بهدف التوصل الى صورة لمقترح الاطار العام للخطة ، تكون أكثر قربا لواقع الاقتصاد العربى، وأكثر تجسيدا لامكاناته المتاحة والمحتملة ، وأكثر تحقيقا لأهداف التنمية والتكامل التى يتوخاها .

وقد شملت هذه الوثيقة أساسيات محددة أهمها بايجاز شديد هى :

١ — الأساس الهيكلى :

من الضرورى تحديد ، ولو بصورة مختصرة ، طبيعة وخصائص الاقتصاد العربى ، وذلك كخطوة أساسية للتعرف على المشكلات التى يعانى منها ولتحديد الوسائل العامة لكيفية معالجتها ، وتصميم السياسات التفصيلية لهذه المعالجة .

وعلى ذلك ، تشكل الدراسات القطرية والقطاعية ، وما تقدمه من بيانات حول الخصائص الهيكلية للاقتصاد والمجتمع العربى ، والخطط الانمائية القطرية ، وما تحدده من مشكلات انمائية وسياسات واجراءات لمعالجتها ، مداخل هامة فى عملية صياغة الخطة المقترحة .

الأساس المنهجى :

تستند عملية تصميم الخطة المقترحة الى تصور طويل الأجل حول المعالم الرئيسية لعملية التنمية خلال العشرين سنة القادمة (١٩٨١ — ٢٠٠٠) . وفقا لنموذج انمائى طويل الأجل عن الفترة نفسها فى ضوء الدراسات التى سوف تجرى بصدد اعداد نماذج تخطيطية ، اقليمية وقطاعية ، لتحديد أفضل مسارات للتنمية على المدى الطويل ، كما تعتمد هذه الخطة على خبرة تخطيط فعلية على المستوى القطرى فى الدول العربيــة .

وتبنى تفاصيل الخطة على أساس نموذج توزيعى يبين كيفية التوصل الى الأهداف الكلية والقطاعية المرغوب التوصل اليها — اقليميا وقطريا — ويحدد المعاملات الفنية المختلفة التى استندت عليها عملية تحديد دور كل قطاع ومكوناته ، ودور كل قطر ومسئولياته ، فى تحقيق الأهداف الكمية المنشودة .

ويرتكز المنهاج على أحدث خطط التنمية العربية فى شكل تنسيق وصيغة تكاملية ومن ثم ، لن تكون الخطة المقترحة مجرد تجميع لخطط قطرية ، وانما أداة لسد الثغرات فى هذه الخطط لتدعيم مسيرة التكامل الاقتصادى العربى .

وعلى ذلك ، تمثل المشروعات الانتاجية « ذات الطابع الاقليمى » عصب هذه الخطة . وتتطلب عملية اختيار وتقويم هذه المشروعات ثلاث مجموعات متكاملة ومتوافقة من المعايير ، وهى :

(أ) معايير اختيار المشروعات — من حيث جدواها الفنية والاقتصادية والتمويلية .

(ب) معايير تخصيص المشروعات على الدول .

(ج) معايير الترتيب الزمنى لتنفيذ المشروعات .

٢ — الأساس الاستراتيجى :

تتلخص الغاية الأساسية للخطة المقترحة فى احداث مزيد من التكامل الاقتصادى التنموى العربى ، بهدف المساهمة فى بناء وتطوير الانسان العربى القادر على مواجهة الاحتياجات المتزايدة فى مختلف مجالات التنمية ، ومن أهمها : تهيئة الاقتصاد العربى لعملية تحقيق معدلات تنمية متزايدة فى الانتاج ودرجات تنويع أكبر فى مصادر الدخل ، والتوصل الى مستوى معقول من الدخل الحقيقى والحياة الطيبة لأفراد المجتمع العربى ، بمختلف أبعادها الاجتماعية والبيئية . وتمثل هذه الغاية خطوة أولى فى الغاية الاستراتيجية طويلة المدى ، وهى : صناعة الانسان العربى القادر على صنع الرخاء فى المستقبل فى ظل وحدة اقتصادية عربية .

وتترتب على هذه الغاية الأساسية العناصر الرئيسية لاستراتيجية الخطة المقترحة والتى يمكن اجمالها فيما يلى :

(أ) تنمية الموارد الانتاجية المختلفة .

(ب) تنمية وتنويع الانتاج ومصادر الدخل .

(جـ) تحقيق التنسيق والتكامل الاقتصادى .

(د) زيادة مقومات الأمن القومى والاقتصادى والغذائى .

(هـ) التطوير الحضارى للمجتمع والبيئة .

وتستند هذه العناصر على عدد من المبادىء العامة التى تحكم مسار العمل العربى وتحدد مدى فعاليته وامكانات نجاحه ، أهمها ما يلى :

(أ) احترام سيادة كل دولة على أراضيها ، وحريتها فى اختيار نظامها الاقتصادى وسياساتها الاقتصادية .

(ب) عدم التعرض للأوضاع والسياسات الاجتماعية والسياسية الداخلية للدول العربية .

(جـ) أخذ مبادىء وأهداف الخطط القطرية كمعطيات ، ومراعاة التكامل معها ، والعمل على تدعيمها .

(د) ضرورة الاستغلال الاكفأ للثروات الطبيعية والبشرية والتمويلية العربية على المستويين الاقليمى والقطرى .

(هـ) الحصول على استجابة وتعاون الدول المعنية من أجل احداث تنمية اقتصادية مخططة اقليمية ، تتسم بالجدية والتجدد .

٤ — الأساس الهدفى :

وتشمل هذه الأهداف ما يلى :

(أ) رفع مستوى معيشة المواطن العربى ، وتأمين حدود دنيا مناسبة من الرفاهية له .

(ب) تحقيق الاستغلال الأكفأ للموارد العربية ، لزيادة الاعتماد على الامكانات الذاتية ، مع تطوير هذه الامكانات ، بهدف تكوين تكتل

عربى يساعد على الحصول على نصيب « عادل » فى المبادلات الدولية ، وعلى مساعدات تنموية غير مشروطة .

(ج) تقريب الفوارق التنموية بين الدول العربية بما يجعل الوحدة الاقتصادية بينها أكثر قربا من الناحية الزمنية ، وأكثر عدالة من الناحية الموضوعية .

(د) تحقيق درجة أكبر من الأمن الغذائى والمواد الأولية والوسيطة اللازمة للجهود الانمائية .

(هـ) تحقيق حـد أدنى من الاكتفاء الذاتى لأهم السـلع الزراعيـة والصناعية على المستويين القطرى والاقليمى .

(و) الارتفاع بمستوى البنية الاساسية فى الوطن العربى ، خاصة ما يزيد منها من سهولة الانتقال اقليميا .

(ز) توزيع عبء التنميـة بطـريقة عادلة بين الأجيـال الحاضرة والمستقبلة ، وبين الأقطار العربية ، وبين الفئات المختلفة .

(ح) تحديد مستوى المخزون الاستراتيجى من السلع الهامة لمواجهة كافة الطوارىء المحتملة .

(ط) القضاء على الأمية فى الدول العربية .

وللعمل على تحقيق هـذه الاهداف العـامة ، يتعين الاخذ ببعض التدابير والاجراءات التنفيذية . من أهمها ما يلى :

(أ) ايجاد تعاون وثيق وتنموى بين القطـاع الخاص والمشترك والعام قطريا واقليميا ، وتنمية أساليب ومجالات المشاركة الشعبية على مختلف المستويات من أجل تعميق الولاء والانتماء والترابط بين أفـراد المجتمع العربى .

(ب) العمل على رفع انتاجيـة الموارد البشرية عن طريق التعليم الفنى والتدريب والتأهل لتلبية مختلف الاحتياجات الانمائية ولتحقيق أفضل استثمار ممكن لهذه الموارد .

(جـ) ضرورة اتباع فن انتاجى يتمشى وخصائص عناصر الانتاج المتاحة — قطريا واقليميا — والعمل على التكنولوجيا الحديثة بما يتفق والخصائص الهيكلية للاقتصاد العربى ، والسمات الخاصة بالموارد الانتاجية المختلفة ، وذلك لمنع أى تبديد أو اهدار فى استخدام هذه الموارد .

(د) خلق المناخ الملائم ووسائل تنشيط وتنسيق استثمار المال العربى فى المنطقة العربية خاصة فى مجالات الصناعة والخدمات .

(هـ) اتباع سياسة تصنيعية وزراعية تعتمد على استخدام أكفأ للموارد الطبيعية والتمويلية والبشرية المتاحة ، وتحقق مزيدا من التوازن القطاعى المنشود ، وتستند على معايير انمائية واضحة تتبع من خصائص وامكانات الاقتصاد المتاحة والمحتملة .

(و) الأخذ بتدابير تحكم طرق استغلال وتنمية الارض ، كما تنظم عملية حماية البنية البيئية ، وذلك بالتحكم المناسب فى التوسع المقبل ، ووقاية البيئة ومعالجة أى آثار سلبية يمكن أن تنجم عن الجهود الانمائية .

٥ — الأساس الزمنى :

تعطى الخطة المقترحة فترة السنوات الخمس ، ١٩٨١ — ١٩٨٥ . وتشكل هذه الفترة الخمسية المرحلة الاولى من التصور طويل الأجل (١٩٨١ الى ٢٠٠٠) . تهتم الخطط التفصيلية قصيرة الأجل ، بجانب كونها جزءا من الخطة الخمسية المقترحة ، بعملية انتاج وتوفير عدد محدد من السلع الاستراتيجية لمواجهة مشكلات طارئة تتعلق بالامن الغذائى أو المخزون الاستراتيجى بينما تهدف الخطة المقترحة ، فى الاساس ، الى المساهمة فى اجراء تعديلات هيكلية فى الأنشطة الاقتصادية لتحقيق أهداف الخطة فى اطار من التكامل الاقتصادى ، كخطوة أولى فى تحقيق أهداف التصور طويل الاجل والتى تتلخص فى صناعة الانسان العربى القادر على صنع الرخاء فى المستقبل فى ظل وحدة اقتصادية عربية . وأن يأخذ واضعو الخطط القطرية فى الاعتبار الأهداف التكاملية الواردة فى الخطة الاقليمية ، وأن يأخذ واضعو الخطة الاقليمية فى حساباتهم حقيقة أن خطتهم عنصر مكمل لمكونات الخطط القطرية .

٦ — الأساس التمويلى :

فى ظل عائدات النفط المتزايدة ، وفى ظل الحاجة القومية لضرورة تحويل الاستثمارات العربية الخارجية الى استثمارات عربيـة محليـة لزيادة مقومات الأمن القومى ، ولأن فرص هذه الاستثمارات عربيـا أفضل ، يقترح أن تتم عملية التمويل وملكية المشروعات — وفقا للخطوات التاليـة :

(أ) تخصيص الدول العربية ذات الفائض ، نسبة (٤٪) ، والدول العربية ذات العجز بنسب تتمشى مع امكاناتها التمويلية ، مـن دخولها القومية لتمويل مشروعات الخطة العربية المشتركة .

(ب) تحشد الأموال المخصصة للخطة فى صندوق يسمى « صندوق خاص بالخطة العربية المشتركة » ، فى اطـار الصندوق العـربى للانمـاء الاقتصادى والاجتماعى وتحصل كل دولة على عدد من الاسهم مقابل نصيبها فى الصنـدوق .

(جـ) يقوم الصندوق بتمويل المشروعات الواردة فى الخطـة بحد أقصى قدره (٧٥٪) من اجمالى التمويل اللازم لكل مشروع . على أن تتولى الدولة التى يقام بها المشروع تمويل (٢٥٪) على الأقل . ويكون لهـذه الدولة الحق فى اقتراض نصيبها من التمـويل اللازم للمشروع من أحد صناديق التنمية العربية بشروط ميسرة .

(د) تؤول ملكية المشروعات المنفذة فى اطار الخطة تدريجيا — بعد بدء تشغيلها — الى الدول التى توجـد على أراضـيها ، ويتم ذلك بأن تشترى الدولة — على فترات محددة — نسبة من أسهم المشروع .

(هـ) يكون « الصندوق الخاص بالخطة العربية المشتركة » شريكا فى ملكية المشروع بنسبته من رأس المال ، ويحصل على الأرباح المستحقة عليها وله حق اصدار سندات تنمية فى الأسواق المالية لزيادة موارده التمويلية .

(و) توزع الارباح التى يحصل عليها الصندوق من المشروعات المختلفة على أصحاب الأسهم كل حسب نصيبه .

٧ - الأساس المشروعى :

يتم اختيار المشروعات المتضمنة بالخطة المقترحة من ثلاثة مصادر وهى :

(أ) التخطيط القطرى : حيث يطلب من كل دولة « ترشيح » عدد محدود من المشروعات الانتاجية - لا يزيد عن ثلاثة - والتى ينطبق عليها مواصفات معينة ، من أهمها :

(●) البعد التكاملى للمشروع .

(●) حاجة المشروع الى تكنولوجيا عالية .

(●) ضخامة حجم التمويل .

(●) تحقيق مزايا وفورات الحجم .

(●) توسيع الطاقة الاستيعابية للاقتصاد العربى .

على أن تدون المشروعات المرشحة مدعمة بدراسات الجدوى الاقتصادية والفنية .

(ب) المشروع المشترك : بين الأمم المتحدة والصندوق العربى للانماء الاقتصادى والاجتماعى ومجلس الوحدة الاقتصادية العربية « لاكتشف وتقييم المشروعات » التى تصلح لأن تكون محلا للتعاون العربى ويزيد من أهمية هذا المصدر ان « المشروع يتضمن اجراء دراسات الجدوى الاقتصادية للمشروعات المستكشفة .

(ج) الدراسات القطرية والقطاعية التى تقوم الأمانة العامة لمجلس الوحدة الاقتصادية باعدادها ، والتى من المتوقع أن تكشف عن عدد من المشروعات ذات الأهمية الخاصة بالنسبة لدعم القواعد الانتاجية فى الدول العربية .

ويراعى عند اختيار المشروعات أن يخصص مشروع لكل دولة ، أو مشروع لأكثر من دولة اذا كانت طبيعة هذا المشروع تتطلب وجود فروع متعددة ، وذلك لضمان توزيع الفوائد الناجمة على الدول المشتركة فى الخطة بصورة أكثر عدالة .

٨ ــ الأساس الاجرائى :

ولتنفيذ الخطة بدرجة فعالية معقولة ، ولتحقيق أهدافها بدرجة « مناسبة » يتعين وضع عدد من السياسات والاجراءات التنفيذية المساعدة ، لعل من أهمها :

(أ) اعفاءات ضرائبية وضمانات خاصة : تقدمها الدولة التى يقام بها المشروع .

(ب) اعفاءات جمركية : تقدمها الدول الأخرى المشتركة فى الخطة .

(جـ) اتفاقيات تبادل تجارى : يمهد لها ويدعو الى عقدها الجهاز التنفيذى للخطة فى ظل الاطار المؤسسى الذى تتفق عليه .

خاتمــة :

ليست هناك حاجة الى تأكيد أن الخطة المقترحة تعد ، فى الواقع ، أول خطة اقليمية عربية ، تصمم ــ فلسفيا ومنهجيا واستراتيجيا وفنيا ــ على أساس السعى نحو تحقيق التكامل الاقتصادى العربى كسياسة مرسومة ومباشرة ومتعمدة . وبقدر ما تثيره هذه الخطة من اهتمام لدى المشتغلين فى الميدان الاقتصادى العربى بصفة خاصة ، ولدى المواطن العربى بصفة عامة ، بقدر ما سيكون نجاحها فى تحقيق ما احتوته من أهداف . وهنا ، يبرز دور جهاز الاعلام العربى فى التعريف بالخطة وتقديمها الى الشعب العربى .

ملحق (٣) للفصل السابع

ميثاق الوحدة الثقافية العربية :

استجابة للشعور بالوحدة الطبيعية بين أبناء الأمة العربية ، وايمانا بأن وحدة الفكر والثقافة هى الدعامة الأساسية التى تقوم عليها الوحدة العربية ، وبأن الحفاظ على التراث الحضارى العربى وانتقاله بين الأجيال المتعاقبة وتجديده على الدوام هو ضمان تماسك الأمة العربية ونهوضها بدورها الطليعى الابداعى فى مجال الحضارة الانسانية والسلام العالمى المبنى على أسس العدل والحرية والمساواة .

وتنفيذا لما جاء فى ميثاق جامعة الدول العربية ومتابعة لما حققته المعاهدة الثقافية التى أبرمت بين الدول العربية سنة ١٩٤٥ . واعتزازا بانضمام أجزاء من الوطن العربى الى جامعة الدول العربية بعد خلاص هذه الأجزاء من ربقة الاستعمار . وتطلعا الى استعادة العرب أراضيهم المقدسة المغتصبة واستكمالهم حريتهم فى سائر أجزاء وطنهم ، وانطلاقا لما حققه مؤتمر الذروة بين ملوك العرب ورؤسائهم من وحدة الهدف ووحدة الصف فى مجالات واسعة من حياة الأمة العربية .

ولما للتعاون فى ميادين التربية والثقافة والعلوم ورقيها من آثار فعالة فى الانسان والمجتمع العربى والقومية على الصعيد العالمى .

وبما يؤدى اليه هذا التعاون من ضمان حقوق الانسان العربى فى التعليم والحرية والكرامة والرفاهية وتمكينه من الاسهام فى خؤومة مجتمعه . وبما يؤدى اليه هذا التعاون من تطور هذا المجتمع وتقدمه على أسس متينة من قيمة الروحية الأصيلة ، ومن العلوم الحديثة وتطبيقاتها .

وبما يؤدى اليه هذا التعاون من ابراز الشخصية العربية فى المجال العالمى وقدرتها على الوقوف فى وجه الشرور العالمية المتمثلة فى الاستعمار والصهيونية ، واسهامها فى اقرار السلام العالمى ، وقيامها بدورها التاريخى فى بناء الحضارة الانسانية وتقدمها .

توافق الدول العربية على الميثاق التالى للوحدة الثقافية العربية :

المادة الأولى : يكون هدف التربية والتعليم : تنشئة جيل عربى واع مستنير ، مؤمن بالله مخلص للوطن ، يثق بنفسه وامته ، ويدرك رسالته القومية والانسانية ، ويستمسك بمبادىء الحق والخير والجمال ، ويستهدف المثل العليا الانسانية فى السلوك الفردى والجماعى .

جيل يهيىء لافراده أن تنمو شخصياتهم ، جوانبها كافة ، ويملكوا ارادة النضال المشترك وأسباب القوة والعمل الايجابى ، متسامحين بالعلم والخلق ، كى يسهموا فى تطوير المجتمع العربى والسير به قدما فى معارج التطور والرقى ، وفى تثبيت مكانة الأمة العربية المجيدة ، وتأمين حقها فى الحرية والأمن والحياة الكريمة .

وتعمل الدول الأعضاء على رسم الفلسفة التربوية العربية التى تنهض بهذا الهدف العام وعلى تعيين أهداف التربية فى جميع مراحل الدراسة ، وابرازها فى مجال العمل والتنفيذ بما يحقق ما تعقده الأمة العربية على تربية شبابها من آمال .

المادة الثانية : تتعاون الدول الأعضاء تعاونا كاملا فى ميادين التربية والثقافة والعلوم فى ارساء دعائمها على أساس من التكافل والتكامل ، وتعمل بصفة خاصة على تنسيق أنظمتها التعليمية وتطويرها ، وعلى تبادل الخبراء والمعلومات وثمرات البحوث العلمية والتقنية ، وتبادل الأساتذة والمدرسين والخبراء وقبول الطلبة بالمدارس والمعاهد والجامعات ، وتقديم المساعدات التقنية والمشاركة فى انشاء معاهد البحوث ومراكزها ، وعقد المؤتمرات والحلقات الدورية والتدريبية ، وتيسير انتقال المطبوعات العربية ، وتنسيق ألوان النشاط الرياضى والفنى ، وتحقيق التعاون بين الهيئات والمجالس المختصة بهذه الشئون حكومية وغير حكومية .

المادة الثالثة : يوافق الأعضاء على تطوير الأجهزة الثقافية بجامعة الدول العربية (الادارة الثقافية ومعهد المخطوطات العربية ومعهد الدراسات العالية) الى منظمة واحدة تشملها جميعا فى نطاق جامعة الدول العربية تسمى « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » ، وفقا للدستور الذى يقره مجلس الجامعة بناء على مقترحات المؤتمر الثانى لوزراء المعارف والتربية والتعليم لتتولى هذه المنظمة الجهود المشتركة التى تقوم بها الدول الأعضاء فى سبيل تحقيق هذا الميثاق وفقا لدستورها .

المادة الرابعة : تعمل الدول الأعضاء على بلوغ مستويات تعليمية متماثلة عن طريق تنسيق أنظمة التعليم فيها ، وبخاصة توحيد السلم التعليمى وتوحيد أسس المناهج ، وخطط الدراسة ، والكتب المدرسية ، ومستوى الامتحانات وقواعد القبول ، وتعادل الشهادات . وأساليب أعداد المعلمين وادارة المؤسسات التعليمية •

المادة الخامسة : توافق الدول الأعضاء على تنسيق التعليم الجامعى والعالى ، ومراكز البحوث والمعاهد الجامعية فيما بينها بحيث يسهل تبادل الخبرات فى هذا المجال • وتعمل الدول على توحيد الدرجات العلمية أو تعادلها وعلى تنشيط البحث العلمى • ويشكل مجلس أعلى لتنسيق التعليم الجامعى فى الوطن العربى بالتعاون مع الجامعات والجهات المسئولة عن التعليم العالى ، لتحقيق هذا التنسيق مع جميع وجوهه •

كما تعمل المنظمة على انشاء اتحاد للجامعات العربية ، وتشجيع الجامعات العربية على الانتساب اليه •

المادة السادسة : تتعاون الدول الأعضاء على تطوير أنظمة التعليم فيها بالعمل على تحقيق الزام التعليم فى مرحلته الابتدائية على الأقل ، ومحو الأمية ، وتيسير التعليم الثانوى والتوعية وتمكن ذوى الاستعدادات من التعليم العالى ، والعناية بالتعليم الفنى على أن يتم ذلك ضمن مخطط عام يهدف الى التنمية الاجتماعية والاقتصادية للبلاد العربية •

المادة السابعة : تتفق الدول الاعضاء فيما بينها على تبادل انشاء المعاهد العلمية والمراكز الثقافية فى بلادها وخاصة المعاهد العلمية ذات التخصص الدقيق • وتعنى باصدار المجلات الدورية فى مختلف ميادين العلوم •

المادة الثامنة : تعمل الدول الأعضاء على تنشئة الأجيال الصاعدة على التمسك بمبادىء الدين •

المادة التاسعة : توافق الدول الاعضاء على النهوض بتعليم البنات وفقا للمبادىء الدينية والقيم العربية والتقدم العلمى الحديث مع مراعاة تزويد هذا التعليم بما تقتضيه رسالة المرأة بأن تكون أما ومواطنة صالحة

فى المجتمع لها من الحقوق وعليها من الواجبات ما يتمشى مع مسئولياتها فى المجتمع .

المادة العاشرة : توافق الدول الأعضاء على أن تكون اللغة العربيـة لغة التعليم والدراسات والبحث فى مراحل التعليم كلها ، وعلى الأقل فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وفى الوقت نفسه تعمل الدول العربية على توثيق صلة طلابها بالثقافة الأدبية والعلمية والفنية الحديثة ومساعدتهم على اتقان الوسائل اللغوية التى تمكنهم من استيعاب هذه الثقافة .

المادة الحادية عشر : تعمل الدول الأعضاء فى المجـال الثقافى على تعريف ابنائها بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية فى سائر البلاد العربية ، وذلك بواسطة الكتب المدرسية وواسطة التليفزيون والاذاعة والتمثيل والصحافة أو بغيرها من وسائل ، وبانشـاء متاحف للحضارة والثقافة العربية بامدادها بما ييسر نجاحها وباقامة معـارض دورية للفنون والمنتجات الأدبية والمهرجانات العامة والمدرسـية فى البلاد العربيـة .

المادة الثانية عشر : توافق الدول الأعضاء على تأليف « الكتـاب الأم » الذى يعد المرجع الرئيسى لما يؤلف من الكتب المدرسـية فى تاريخ البلاد العربية وحضارتها وجغرافيتها ولغتها وأدبها ومقومات المجتمـع العربى .

المادة الثالثة عشر : تؤكد الدول الأعضاء أهمية العناية باعـداد المعلم العربى روحيا بتزويده بالمبادىء الدينية والقيم العربية الأصلية ، وقوميا بتزويده بالثقافة العربية ، ومهنيا بتزويده بأحدث النظـريات التربوية وطرق التربية والتعليم ، وعلميا بتزويده بأساس علمى متين فى مواد تخصصه ، وذلك ايمانا بأن المعلم هو أهـم العـوامل فى تنفيذ السياسة التعليمية وتحقيق التطور القومى والاصلاح الاجتماعى .

المادة الرابعة عشر : تساعد الدول الأعضاء ، وفقا لأوضاعها ونظمها الخاصة على انشاء منظمة للمعلمين فى كل منها لتعمل هذه المنظمات على ترقية مستوى المهنة التعليمية ، ورفع مستوى المعلم العربى ، على أن يجمع هذه المنظمات اتحاد المعلمين العرب .

المادة الخامسة عشر : تتعاون الدول العربية فيما بينها على احياء التراث العربى ــ الفكرى والفنى ــ والمحافظة عليه ونشره وتيسيره المطالبين بمختلف الوسائل وعلى ترجمة روائعه الى اللغات الحية ، وعلى التعريف بالثقافة العربية الاسلامية ، وبشئون الفكر العربى المعاصر وبالقضايا العرية الحاضرة ، كما تتعاون على نشر اللغة العربية والخط العربى وتيسير تعلمها فى البلاد الأجنبية وفى البلاد الاسلامية خاصة •

المادة السادسة عشر : تعمل الدول الأعضاء على تنشيط الجهود التى تبذل لترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة وتنظيم تلك الجهود، كما تعمل على تنشيط الانتاج الفكرى فى البلاد العربية بمختلف الوسائل كانشاء معاهد للبحث العلمى والأدبى وتنظيم مسابقات فى تأليف ووقف جوائز على المتفوقين من أهل العلم والأدب والفن •

المادة السابعة عشر : توافق الدول العربية على أن تسعى الى توحيد المصطلحات العلمية والحضارية ، وعلى أن تساعد حركة التعريب بما يحقق اغناء اللغة العربية مع المحافظة على مقوماتها ، وذلك بالتعاون مع المكتب الدائم للتعريب بالرباط التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ليقوم برسالته على خير وجه ممكن ، وكذلك بالتعاون مع ما قد ينشأ من هيئات مماثلة •

المادة الثامنة عشرة : تعمل الدول الأعضاء على انشاء مجلس للمجامع اللغوية تمثل فيه المجامع العربية والمكتب الدائم للتعريب والعلماء المتخصصون ، ويعنى هذا المجلس على وجه الخصوص بتوحيد المصطلحات العلمية وتنسيقها ونشرها •

المادة التاسعة عشرة : توافق الدول الأعضاء على أن تعمل على توثيق الصلات بين دور الكتب فيها ومتاحفها العلمية والتاريخية والفنية بشتى الوسائل ، كتبادل المؤلفات والفهارس والقطع الأثرية ذات النسخ المتعددة وتبادل الفنيين وبعثات التنقيب عن الآثار كما تتعاون فى مجال الكشف عن الآثار وصيانتها والتعريف بها والاعلام عنها وحسن استثمارها للأغراض التربوية والثقافية والعلمية •

المادة العشرون : تتعاون الدول العربية على تبادل الخبرات الثقافية الخاصة بالموسيقى والمسرح والسينما والفنون الشعبية والصحافة ووسائل

الاعلام المختلفة ، وتعمل على تسجيل هذه الفنون ورعايتها وتنسيق جهود العاملين فيها وتبادل خبراتهم .

المادة الحادية والعشرون : تعمل الدول الأعضاء على أن تضع كل منها تشريعا لحماية الملكية الأدبيــة والعلمية والفنية لمـا ينتج فى هـذه الميادين فى كل دولة من دول الجامعة العربية .

المادة الثانية والعشرون : تتفق الدول الأعضاء على اصدار قانون ايداع للمطبوعات وعلى انشاء مراكز للتسجيل فى كل دولة منها ، على أن ترسل كل دولة الى مركز التسجيل فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بيانات وافية عن كل مطبوع ، وفقا لبطاقة خاصة وموحدة يعدها المركز ، ثم يقوم المركز باصدار نشرات ببلوجرافية دورية تتضمن ما طبع فى الدول الأعضاء .

المادة الثالثة والعشرون : توافق دول الجامعة العربية على تبــادل الأساتذة والمدرسين والخبراء بين معاهدها العلمية بالشروط العامة والفردية التى تتفق عليها ، وعلى أن تعتبر مدة الخدمة لمن هو موظف حكومى من المدرسين أو الأساتذة والخبراء الذين يشملهم التبادل كأنها فى حكومته ، ومع حفظ حقه من حيث المنصب والترقية والتقاعد ، وكذلك تيسر انتقال غير الموظفين وتعاقدهم تعاقدا فرديا مع الحكومات أو المؤسسات التى تحتاج الى خدماتهم ، على أن يتم ذلك عن طريق الجهة المختصة وتبعــا للانظمة الموضوعة لذلك .

المادة الرابعة والعشرون : توافق الدول الأعضاء على تبادل الطلاب والتلاميذ بين مدارسها ومعاهدها التعليمية وتيسير قبولهم ، على قــدر امكانياتها ، فى المراحل والصفوف المناسبة ومع مراعاة الأنظمة المتبعــة فيها . وريثما يتحقق توحيد الأسس المشار اليها فى المادة الرابعة من هذا الميثاق تعمل الدول ، مع احتفاظها بأنظمة التعليم العامة فيها ، على تعادل أو توحيد الشهادات فى مراحل الدراســة المختلفة . ويمكنها أن تعقــد اتفاقيات بعضها مع بعض لتيسير ذلك وكذلك تقدم كل دولة التســهيلات الممكنة للدولة أو الدول الأعضاء التى ترغب فى انشاء بيوت لاقامة طلبتها فيهــا .

المادة الخامسة والعشرون : تتعاون الدول الاعضاء على تلبية الرحلات الثقافية فى البلاد العربية التى تكون فى حاجة اليها ، وتتبادل المساعدات الفنية بعضها مع بعض .

المادة السادسة والعشرون : تعمل الدول الاعضاء على تشجيع الرحلات الثقافية والكشفية والرياضية بين البلاد العربية وذلك فى المناطق التى تسمح حكومات البلاد بارتيادها وفقا لامكاناتها مع العمل على تيسير اسباب ذلك .

المادة السابعة والعشرون : تتخذ الدول الأعضاء الوسائل اللازمة للتقريب بين اتجاهاتها التشريعية التربوية والثقافية وتوحيد ما يمكن توحيده منها . وادخال الدراسات القانونية المقارنة للبلاد العربية فى مناهج جامعاتها ومعاهدها.

المادة الثامنة والعشرون : تتعاون الدول الأعضاء على تنسيق جهودها فى سبيل التعاون الثقافى الدولى وخاصة مع منظمة اليونسكو ، على تبادل الخبرات وتنظيم الاتصالات وانشاء المؤسسات الثقافية فى البلاد الصديقة .

المادة التاسعة والعشرون : يصدق على هذا الميثاق من الدول الموقعة بالتطبيق لنظمها الدستورية فى أقرب وقت ممكن وتودع وثائق التصديق بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية التى تعد محضرا بايداع وثيقة تصديق كل دولة وتبلغه الى الدول المتعاقدة .

المادة الثلاثون : يجوز للبلاد العربية التى ليست أعضاء فى جامعة الدول العربية أن تنضم الى هذا الميثاق باعلان يرسل منها الى الأمين العام لجامعة الدول العربية الذى يبلغ انضمامها الى الدول المتعاقدة الأخرى .

المادة الحادية والثلاثون : يعمل بهذا الميثاق بعد شهر من ايداع وثائق التصديق عليه من ثلاث دول من الدول الأعضاء .

المادة الثانية والثلاثون : يجوز لأية دولة ملتزمة بهذا الميثاق أن تنسحب منه وذلك بمقتضى اعلان يرسل الى الأمين العام لجامعة الدول العربية وينتج الاعلان أثره بعد سنة من تاريخ ارساله .

(بغداد فى ١٦ شوال ١٣٨٣ — ٢٩ فبراير شباط ١٩٦٤) .

الهوامش

(١) هذا التعريف اقرته لجنة وضع استراتيجية لتطوير التربيـة فى البلاد العربية (١٩٧٧) — المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

(٢) د. عبد العال الصكبان — الوحدة الاقتصـادية بين التعـاون والتكامل — الاطار القطـرى والتطبيق — ١٩٧٧/٤/٣ — مجلس الوحدة الاقتصاد العربية .

(٣) تضم الجامعة العربية منظمات ومجالس ومكاتب ولجان عديدة أهمها : منظمة العمل العربية — مجلس الوحدة الاقتصادية — المنظمـة العربية للتربية والثقافة والعلوم — مجلس الطيران المدنى للدول العربية — المنظمة العربية للتنمية الزراعية — المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس — المنظمة العربية للعلوم الادارية — المنظمة الدولية العربية للدفاع الاجتماعى ضد الجريمة — الاتحاد العربى للمواصلات السلكية واللاسلكية — الاتحاد البريدى العربى — اتحاد اذاعات الدول العربية—معهد البحوث والدراسات العربية — مركز التنمية الصناعية — المركز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار.

والى جانب المنظمات التابعة للجامعة العربية تبرز منظمات شـعبية ومهنية للعرب مثل اتحاد الصحفيين العرب والاتحـاد الدولى لنقـابات العمال العرب واتحـاد الأطباء العـرب واتحاد الصيادلة العرب واتحاد المهندسين وغير ذلك .

كما أن الاتحـادات النوعيـة العربية — تشمل الصناعات الورقية — التأمين — غرف التجارة والصناعة والزراعة — الحديد والصلب — المصارف— الأسـمدة الكيماوية — الصناعات الهندسية — الأسـماك — الصـناعات النسيجية .

(٤) مجلة التضامن (العدد ٢ بتاريخ ١٩٨٣/٤/٢٣) .

(٥) يبين الجدول التالى تطور سعر البرميل الواحد من البترول **بالدولار :**

من ١٩٦٠/١/١ : ١ر٨٠
من ١٩٧١/٢/١٥ : ٢ر١٨
من ١٩٧١/٦/١ : ٢ر٢٨
من ١٩٧٣/١/١ : ٢ر٥٩
من ١٩٧٣/٦/١ : ٢ر٩٠
من ١٩٨٧/٨/١ : ٣ر٠٧
من ١٩٧٣/١٠/١٦ : ٥ر١٢
من ١٩٧٤/١/١ ١٠ر٥٦
من ١٩٧٥/٩/١ : ١١ر٥١
من ١٩٧٧/١/١ : ١٢ر٧٠
من ١٩٧٧/٧/١ : ١٣ر٣٠

(٦) مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ــ اللجنة الفــرعية للتخطيط ــ استراتيجية التنمية العربية ــ دراسة موسعة أكتوبر سنة ١٩٧٧ .

(٨) عادل حسين ــ الاقتصاد المصرى من الاستقلال الى التبعية ــ الطبعة الثانية ــ دار المستقبل العربى ــ القاهرة) ١٩٨٢ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٧) د . ابراهيم محمد عويس ــ استاذ الاقتصاد بجامعة جورج تاون الأمريكية ــ مخاطر تدفق رأس المال على الدول الصناعية ــ جــريدة الاهرام بتاريخ ١٩٧٥/١/١٠ .

خـاتمـة

دور رجل الاعلام العربى فى التنمية

ان رجل الاعـلام العربى يقف بين واقعين متناقضين . واقع يدفـع باليأس الى القلوب والنفوس والعقول ، وهو الاحتكاكات السياسية ـ بل والعسكرية احيانا ـ بين بعض الدول العربية وبعضها الآخر ، والذى من شأنه أن يجعل رجل الاعلام متشائما شديد التشاؤم لدور عربى قومى .

وواقع يؤكده التضامن العربى امام أخطار الحرب ، ويؤكده توحد مشاعر الشعوب العربية وآمالها ومستقبلها ويؤكده تاريخهـا البعيـد والقريب ، وتؤكده امكانات العرب الهائلة التى لو استغل جانب منهـا استغلالا حسنا لوضعتهم فى الصف الأول من صفوف التقدم . وهذا من شأنه أن يجعل رجل الاعلام العربى متفائلا شديد التفـاؤل لدور عربى قومى .

ومهمتنا ـ كما يقول توفيق الحكيم ـ ان نغرس الأمل فى النفوس ، وان ندخل اليقين فى القلوب بأن التقدم والرخاء ممكن تحقيقه على هـذه الأرض . ولكن ذلك يجب أن لا يجعلنا نغفل عن الجانب القاتم من الصورة .

علينا ان نكون موضوعيين قدر ما يمكن للبشر ان يكونوا موضوعيين ، اذ يقول الدكتور راو سكرتير عام المركز الآسيوى للاعلام وبحوث الاتصال بالجماهير (عام ١٩٧٣) : يعمل رجال الاتصـال ، على مختلف مستوياتهم فى محيط اجتماعى ونفسى واقتصادى وسـياسى وثقافى منفرد . وهـم سريعو التأثر ، ليس فقط بهذا المحيط بل هم يحملون معهم ايضا قيمهم ونظمهم وحريتهم الخاصة ، التى تستند أساسـا الى تجـاربهم وثقافتهم الذاتية ولهذا لا توجد « موضوعية » بالمعنى الدقيق لها .

وبرغم مثل ذلك القول ، فانه ينبغى علينا دائما أن نفصل بين الأوهام والأمنيات ، وبين حقائق الأشياء والآمـال ، فلا نجعـل الوهم واقعـا ، أو الامنيات الطيبة أخبارا ، وان نجعل المساحة بين الخيالات والامنيات وبين الحقائق والأرقام ثابتة وواضحة .

والمشكلة التى تواجه رجل الاعلام العربى فى واقعه القومى المتناقض ، بين التشاؤم والتفاؤل ، تعكس واقعه الاجتماعى المعاصر للتخلف ، برغم ما يحمله من نبضات والتماعات تبشر بتقدم مزدهر .

وهناك نكتة قاسية علينا كعرب ، ولكنها ذات دلالة وثيقة بقضية التنمية العربية . تقول النكتة ان جدنا العظيم آدم عليه السلام خرج فى القرن العشرين يمر على الأرض فى طائرة ، وعندما حلقت الطائرة فوق « برج ايفيل » فى باريس لم يعرف المكان وعجب للتطور الهائل الذى حدث. ثم عندما توقفت فوق أبراج الكرملين فى موسكو ثم فى لندن ونيويورك حدث نفس الشىء . ولكن الطائرة عندما مرت فوق بعض الاقاليم العربية عرفها جدنا عليه السلام من أول نظرة لأنه وجدها كما تركها منذ آلاف السنين .

ان هذه النكتة تدخل فى باب القول بأن شر البلية ما يضحك . ولكنها ينبغى ان تكون حافزا لنا كعرب ، لتغيير الواقع المشين الذى فرضته علينا ظروف عديدة .

وينبغى أن نفرق بين الواقع العربى المعاصر ، وبين القدرات المكبلة للانسان العربى . ان الانسان العربى ، وعلى وجه الخصوص الجماهير العاملة العريضة من العرب ، لديها من القدرات والملكات ما يذهل العالم لو اتيحت لها الفرصة المناسبة . خلافا للصورة المشوهة للانسان العربى ، التى ترسمها وسائل الاعلام الغربية له ، والتى ترجع فى أساسها الى الصراعات الدينية القديمة ، كالحروب الصليبية والصراعات الحضارية القديمة والحديثة ، والصرعات العنصرية كالحروب الصهيونية ، ثم اسهام الانسان العربى بأكبر نصيب فى الصراع بين حركات التحرر وقوى الاستعمار العالمى فى هذا القرن . الى جانب التصرفات المشينة لبعض الأثرياء العرب التى تقدم للعدو — رغم فرديتها — مادة للتشنيع والتشويه والتعميم .

من هذه البداية ، وهى الواقع العربى بما يحمله من تشاؤم وتفاؤل وبما يحمله من يأس وأمل ، وبكل ما فيه من ايجابيات وسلبيات ، علينا كاعلاميين عرب ان نتلمس دورنا فى التنمية العربية الشاملة .

ان ما يقوله بعض علماء الاتصال ، بأن ضغط وسائل الاعلام هو الذى أدى الى سقوط المجتمعات التقليدية ، يبين لنا أهمية الوسائل التى نعمل فيها ، والدور الذى يمكن أن تؤديه لو أحسن استخدامها .

ماذا يستطيع رجل الاعلام العربى ان يفعل فى خدمة التنمية ؟ .

— على المستوى الوطنى والمحلى ، تحدثنا فى الفصل السادس من هذا الكتاب حديثا مفصلا . ولكننا الآن بصدد الحديث عن الدور القومى لرجل الاعلام العربى .

— على المستوى القومى نرى أن الوعى العفوى لدى الجماهير العربية بأهمية التنمية القومية الشاملة ، وتحرق هذه الجماهير الى تغيير واقعها المتخلف يفرض على رجل الاعلام العربى استراتيجية عمله الاعلامى ، وهى كيف يحول هذا الوعى العفوى الى جهد منظم وبناء ، والى ادراك محدد والى اقناع ويقين ، كيف يحول هذا الوعى — بل كيف يخلق ويعمق هذا الوعى — الى طاقة وسلوك ، ودفع لعجلة التنمية الشاملة وبناء الانسان العربى الجديد ؟

أولا : على رجل الاعلام العربى أن يجعل المواطن العادى يحس بمشكلة التنمية ، أن يحس بها ليست داخل قطره وحسب ، وانما ينبغى ان يحس بها داخل الوطن العربى ، وبأبعادها القومية الحقيقية . وأن يدرك علاقة المشكلة بالعالم ، وتأثيرها وتأثرها بالأزمات العالمية ، كمشاكل الغذاء والطاقة والبطالة والنقد والتضخم .

ثانيا : أن يبصر بطبيعة العصر ، وأن ينشر روح العصر فى ظل الكيانات الكبيرة ، ومخاطر الانغلاق القطرى والتشرذم والحساسية الاقليمية .

ثالثا : أن يؤكد على أهمية اشتراك رأس المال ، مع الطاقة البشرية ، مع الثروة الطبيعية ، وان هذه العناصر لا ينبغى التفاخر بأيها أو المزايدة على احداها ، لأنها متكاملة ومتكاتفة وضرورية ويستطيع اعلام الاستعمار الجديد أن يروج لبعض أثرياء العرب ، بأن فوائض الأموال العربية الضخمة لا تستطيع الارض العربية استيعابها ، وأنه لفائدة أصحاب هذه الاموال ومصلحتهم أن يستثمروا ما لاتستطيع الأرض العربية استيعابه فى أوربا وأمريكا . ان مثل هذا المنطق يعود الى تغيير الاستعمار لأساليبه والى تثبيت القيم وصياغة العقول . ولكن السؤال هو كيف تستطيع الارض العربية استيعاب الأموال العربية ؟ وما هى الحواجز التى تقف أمام ذلك لنزيلها ؟

رابعا : أن يدافع عن خطة عربية شاملة للتنمية ، وان يدعو الى ذلك ثم عليه أن يشرحها ويفسرها ، يوم تخرج الى حيز التنفيذ ، وان يدافع عنها وينقدها .

واذا كانت هذه العناصر تمثل ما يمكن أن نسميه الجانب البنائى فى دور رجل الاعلام العربى فى التنمية فهناك جانب دفاعى يتمثل فى مقاومة كل ما هى سلبى وما من شأنه أن يعوق التنمية العربية ، ونضرب لها أمثلة بما يلى :

* مقاومة ظاهرة الخصام الاعلامى العربى التى تبدى أعلام بعض الدول العربية فى بعض المواقف وكأنها الجارة الجاهلة عندما تخاصم جارتها فتتجاهل بعصبية كل ما يجرى من أمور الجارة ، لا تذكره على لسانها . أضرب لكم مثلا بمؤتمرات الأدباء العرب . لقد عقد الأدباء العـرب على المستوى القومى أحد عشر مؤتمرا حتى عام (١٩٧٧) . واذا اتيح لباحث أن يتتبع ما نشر عن هذه المؤتمرات فى الصحف العربية وما اذيع عنهـا فى الاذاعات العربية ، يجد عجبا ، فكثيرا ما يتجاهل اعلام دولة ما مؤتمرا لأنه عقد فى عاصمة ليست العلاقات السياسية معها على ما يرام . علما بأن النشر حـول هذه المؤتمرات القومية ضرورى للتنمية الثقافية القومية .

* مقاومة ظاهرة التعتيم الاعلامى للمواقف العربية الناصعة أضرب لكم مثلا بالقرارات العراقية الخاصة بتشجيع عودة العقول العربية المهاجرة اليها . والقوانين التى تتسم بالوعى القومى والروح القومية كحق الصحفى العربى فى الانضمـام الى نقـابة الصحفيين العراقيين ، وحصـوله على كافة الحقوق التى يحصل عليها المواطن العراقى . واضرب لكم مثلا آخر بخطوات التكامل بين مصر والسودان . لو تتبعنا هذين الموضوعين فى الصـحف والاذاعات العربية ماذا نجد ؟ نلمس بوضوح التعتيم الاعلامى برغم أن معالجة مثل هذه الموضوعات تمس القارىء العربى مباشرة .

* مقاومة ظاهرة النفخ فى الدخان ، قد يختلف الحكام لبعض الوقت فهل من الضرورى أن يتطوع عدد من رجال الاعلام الى نافخى دخـان لتظل النار مشتعلة . أم من الأفضل والاصلح قوميا أن يضيقوا دائرة الخلاف الى أضيق حد ممكن . . !

* مقاومة ظاهرة ترسيخ العداوة والبغضاء بين الشعوب العربية ، والمتمثلة فى تكبير الأخطاء الفردية الصغيرة ، وطمس الجوانب الايجابية الباهرة لعلاقات الأفراد والاسر والصداقات الكثيرة بين أبنـاء الشـعوب العربيـة بعضها والبعض الآخـر .

— وفى الجانب المهنى يمكن لرجل الاعلام العربى أن يؤدى دورا فيما يلى على سبيل المثال :

* **حصر معوقات تدفق الاعلام بين البلدان العربية ومحاولة تضييقها ، والقضاء عليها ولو تدريجيا .**

* انشاء مؤسسات اعلامية على المستوى القومى العربى : وكالة انباء - صحف عالمية - الاسراع فى تنفيذ المشروعات الاعلامية التى ينبغى أن تلحق باطلاق القمر الصناعى العربى ، وغير ذلك .

* دراسة التشويه والتشويش والاظلام الاعلامى ومحاولة تضيق ذلك الى أقل حد ممكن .

وبعد .. ان الوضع الراهن المتخلف للعالم العربى ، لا يضعف الحاضر العربى وحسب .. وانما ينذر بمستقبل اضعف ، فى ظل تدافع دولى نحو التقدم ، وفى ظل عالم الكيانات الكبيرة ، وليست خطى السلاحف جديرة بقفزات عصر يمشى الانسان فيه فوق سطح القمر . وهذه هى المسئولية الملقاة على عاتق رجال الفكر والاعلام فى الوطن العربى ، لأن الانسان مسئول عن **السمع والبصر والفؤاد** .

أهم مصادر الكتاب ومراجعة

أولا ــ كتب عربية ومعربة

* د. ابراهيم امام ــ الاعلام والاتصال بالجماهير ــ الطبعة الثانية ــ مكتبة الانجلو المصرية ــ ١٩٧٥ .

* د. ابراهيم أبو لغد ــ التقويم فى برامج تنمية المجتمع ــ دار المعارف ــ ١٩٦٠ .

* د. ابراهيم شحاته ــ برنامج للغد (تحديات وتطلعات الاقتصاد المصرى فى عالم متغير) ــ دار الشروق القاهرة ١٩٨٧ .

* اجاتسى ازكس (ترجمة ــ محمد صبحى الاتربى) ــ التجارة الخارجية والتنمية الاقتصادية ــ دار المعارف بمصر ــ ١٩٦٩ .

* د. أحمد بدر ــ الاتصال بالجماهير والدعاية الدولية ــ دار القلم ــ الكويت ــ ١٩٧٤

* د. الفاروق زكى يونس ــ تنمية المجتمع فى الدول النامية ــ مكتبة القاهرة الحديثة ــ ١٩٦٧ .

* البرت اشفيتسر ــ ترجمة ــ د. عبد الرحمن بدوى ــ فلسفة الحضارة ــ المؤسسة المصرية العامة للتألف والترجمة والطباعة والنشر ــ ١٩٦٣ .

* الفريدج ــ ترجمة د. صليب بطرس ــ السوق المشتركة ــ دار المعارف بمصر ــ ١٩٧٥ .

* ازيك اويتزار وآخرون (ترجمة أحمد فؤاد بلبع) ــ الاعتماد الجماعى على الذات ، كاستراتيجية بديلة للتنمية ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ــ ١٩٨٥ .

* د. اسماعيل حسن عبد البارى ــ ابعاد التنمية ــ الطبعة الثانية ــ دار المعارف ــ ١٩٨٢ .

* افريت م. روجرز ــ الافكار المستحدثة وكيف تنتشر ــ ترجمة سامى ناشد ــ عالم الكتب ــ القاهرة .

* ايف بينون ــ ما هى التنمية ؟ ترجمة سعيد أبو الحسن ــ دار الحقيقة ــ بيروت .

* د. اسماعيل صبرى عبد الله ـ فى التنمية العربية ـ دار المستقبل العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ .

* د. أنور عبد الملك ـ تغيير العالم ـ عالم المعرفة ، الكويت ـ نوفمبر ١٩٨٥ .

* اوسكارلانجه وآخرون ـ مسائل الاقتصاد السياسى للاشتراكية ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ ١٩٧٢ .

* براجينا وآخرون ـ مشكلات التصنيع فى البلدان النامية ـ دار التقدم موسكو ـ ١٩٧٤ .

* بتروورسلى ـ ترجمة ـ حسام الخطيب ـ العالم الثالث ـ الناشر وزارة الثقافة والسياحة والارشار القومى ـ دمشق ـ ١٩٦٨ .

* بول باران ـ وايف لاكوسه ـ الاقتصاد السياسى للتخلف وأسباب التخلف الأساسية ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٧٠ .

* بول بوريل ـ ترجمة ـ أديب العاقل ـ ثورات النمو الثلاث ـ مطبعة وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٧٠ .

* ت ـ س. اليوت ـ ترجمة ـ د. شكرى عياد ـ نحو تعريف الثقافة ـ وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ مطبعة مصر .

* تشيلسو فورتادرو ـ ترجمة ـ د. أنور الصباغ ـ د. سهام الشريف ـ النمو والتخلف ـ الناشر ـ وزارة الثقافة والارشاد القومى دمشق ١٩٧٢ .

* تقارير عن التنمية فى العالم الثالث ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ـ البنك الدولى للانشاء والتعمير ـ ترجمة وتوزيع الأهرام ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ .

* جاك لوب ـ العالم الثالث وتحديات البقاء (ترجمة أحمد فؤاد بلبع) عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٦ .

* د. جيهان رشتى ـ الأسس العلمية لنظريات الاعلام ـ دار الفكر العربى ١٩٧٥ .

* د. جيهان رشتى ـ نظم الاتصال ـ الاعلام فى الدول النامية ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٢ .

* ج هالكرو نرجسون ـ ترجمة ـ عبد الرؤوف عز الدين ـ ثورات أمريكا اللاتينية ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

* حربى محمد ـ النفط العربى وأزمة الطاقة فى العالم ـ مطابع دار الثورة بغداد ـ ١٩٧٤ .

* د. حامد السايح — معالم على طريق التنمية فى السبعينيات — محاضرة بمعهد الدراسات المصرية — العام الدراسى — ٦٩ — ١٩٧٠ .

* د. خليل صابات — الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم — الطبعة الثانية — دار المعارف .

* د. خليل صابات — وسائل الاعلام نشأتها وتطورها — مكتبة الانجلو المصرية — ١٩٧٦ .

* رشتون كولبورن — ترجمة — لمعى المطيعى — أصل المجتمعات المتحضرة — الدار القومية للطباعة والنشر .

* رودو لفوست متهاغن — الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية — (نقله الى العربية ناجى ابو خليل) الطبعة الأولى — دار الحقيقة للطباعة والنشر — بيروت — ١٩٧٢ .

* زبيغنيو بريجنسكى — بين عصرين ، أمريكا والعصر التكنترونى — الطبعة الأولى — دار الطليعة للطباعة والنشر — بيروت — ١٩٨٠ .

* ز.ك . ليفين — الفكر الاجتماعى والسياسى الحديث فى لبنان وسورية ومصر (ترجمة بشير السباعى) — دار ابن خلدون — بيروت — ١٩٧٨ .

* د. سلوى الخماش — المرأة العربية والمجتمع التقليدى المتخلف — مكتبة العالم الثالث — دار الحقيقة — بيروت — ١٩٧٣ .

* سيد مرعى — لكى نربح المستقبل — دار المعارف بمصر — ١٩٧٥ .

* د. سيد محمود الهوارى — الادارة ، الاصول والاسس العلمية — الطبعة الخامسة — مكتبة عين شمس — ١٩٧٣ .

* شارل بتلهيم — ترجمة — د. اسماعيل صبرى عبد الله — التخطيط والتنمية — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر — ١٩٦٨ .

* د. شاهيناز طلعت — وسائل الاعلام والتنمية الاجتماعية — الطبعة الأولى مكتبة الانجلو المصرية — ١٩٨٠ .

* صلاح مصطفى الفوال — تنمية المجتمعات الصحراوية أسس نظرية — مكتبة القاهرة الحديثة — الطبعة الأولى — ١٩٦٨ .

* صلاح مصطفى الفوال — البداوة العربية والتنمية — مكتبة القاهرة الحديثة .

* د. صلاح الدين نامق — اقتصاديات السكان — المكتبة الاقتصادية — دار المعارف بمصر — ١٩٨٠ .

* د. عاطف العبد — المرأة الريفية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف — العدد ٤٨٤ سلسلة اقرأ .

* د. عبد اللطيف حمزة — الاعلام له تاريخه ومذاهبه — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٦٥ .

* د. عبد اللطيف حمزة — أزمة الضمير الصحفى — دار الفكر العربى — الطبعة الأولى — ١٩٦٠ .

* د. عبد الهادى الجوهرى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، مدخل اسلامى — مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

* د. على لطفى — التنمية الاقتصادية دراسة تحليلية — دار القرآن للطباعة والنشر — ١٩٧٥ .

* د. عمرو محيى الدين — التخلف والتنمية — دار النهضة العربية ١٩٧٦ .

* عادل حسين — الاقتصاد المصرى من الاستقلال الى التبعية — دار المستقبل العربى — القاهرة — ١٩٨٢ .

* د. عبد الوهاب محمد المسيرى — الايدلوجية الصهيونية — عالم المعرفة — الكويت — ١٩٨٣ .

* د. عواطف عبد الرحمن — قضايا التبعية الاعلامية والثقافية فى العالم الثالث — عالم المعرفة — الكويت — ١٩٨٤ .

* د. عليه حسن حسين — التنمية نظريا وتطبيقا — الهيئة المصرية العامة للكتاب — الاسكندرية — ١٩٧٧ .

غى دى بوشير — ترجمة — فؤاد دراجى المراد — مفاتيح لأجل العالم الثالث — مكتبة العالم الثالث ، دار الحقيقة — بيروت — ١٩٧٤ .

* د. فتح الباب عبد الحليم سيد — د. ابراهيم ميخائيل حفظ الله — وسائل التعليم والاعلام — عالم الكتب — القاهرة ١٩٧٦ .

* د. فؤاد مرسى — المشاركة كأسلوب من أساليب الاستعمار الجديد — دار الثقافة الجديدة ، قضايا اقتصادية — مارس ١٩٧٥ .

* د. فرج الكامل — تأثير وسائل الاتصال (الأسس النفسية والاجتماعية) — دار الفكر العربى — القاهرة — ١٩٨٥ .

* كوامى نكروما — (تعريب خيرى حماد) — الاستعمار الجديد — دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .

* لستر بيرسون — اعداد — ابراهيم نافع — ماذا يجرى فى العالم الغنى والعالم الفقير ؟ شركاء فى التنمية — دار المعارف بمصر — ١٩٧١ .

* مالك بن نبي - ترجمة عبد الصبور شاهين - مشكلة الثقافة - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٥٩ .

* ماركوف - مشكلة التغذية وسياسة الامبريالية - دار التقدم - موسكو ١٩٧٥ .

* ماريوت كلوسون وآخرون - ترجمة - د. عبد الله العابدين - الامكانية الزراعية في الشرق الاوسط - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٧٦ .

* مجموعة من المؤلفين - مشكلات التصنيع فى البلدان النامية - دار التقدم موسكو - ١٩٧٤ .

* مارشال ماكلوهان - ترجمة - د. خليل صابات - كيف نفهم وسائل الاتصال - النهضة العربية - القاهرة ١٩٧٥ .

* محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس - الثقافة المصرية - دار الفكر - ١٩٥٥ .

* د. محمد السيد سعيد - الشركات عابرة القومية ، ومستقبل الظاهرة القومية ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٦ .

* د. محمد سيد محمد - المسئولية الاعلامية فى الاسلام - مكتبة الخانجى - القاهرة - ١٩٨٣ .

* د. مختار التهامى - الصحافة والسلام العالمى - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - نشر الرسائل الجامعية ١٩٦٤ .

* د. مختار التهامى - الاعلام والتحول الاشتراكى - الطبعة الأولى - دار المعارف بمصر - ١٩٦٦ .

* د. مصطفى المصمودى - النظام الاعلامى الجديد ، عالم المعرفة - الكويت أكتوبر ١٩٨٥ .

* د. ملاك جرجس - سيكلوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية - كتاب روز اليوسف ١٩٧٤ .

* ماركوف - مشكلة التغذية وسياسة الامبريالية - (الترجمة الى العربية والنشر - دار التقدم - الاتحاد السوفيتى - ١٩٧٥) .

* مجموعة من أساتذة الاجتماع المصريين - دراسات فى التنمية الاجتماعية - الطبعة الرابعة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٩ .

* د. محمد عبد العزيز عجمية - د. عبد الرحمن يسرى احمد - التنمية الاقتصادية - دار الجامعات المصرية - الاسكندرية - ١٩٧٩ .

* ن ب - سيليوف - ترجمة - د. مطانيوس حبيب - شوكت يوسف - التنمية الاقتصادية فى العالم الثالث - دار التقدم العربى - دمشق - ١٩٧٤ .

* ه آرنواد - ترجمة د. حسين عمر - معونة الدول النامية دراسة مقارنة - مكتبة القاهرة الحديثة .

* وليام ل. ويفرز وآخرون - ترجمة - د. ابراهيم امام - وسائل الاعلام والمجتمع الحديث - دار المعرفة - مؤسسة فرانكلين - القاهرة - ١٩٧٥ .

* ولبورشرام - ترجمة - محمد فتحى - أجهزة الاعلام والتنمية الوطنية - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٩٧٠ .

ثانيا ـ بحوث ومحاضرات ومحاضر اجتماعات وخطب ومقـالات

* أحمد بهاء الدين ـ مطلوب دولة عصرية ـ مجلة المصور ـ بتاريخ ٢٨ـ٧ـ١٩٦٧ ، ١١ـ٨ـ١٩٦٧ ، ١٨ـ٨ـ١٩٦٧ .

* أحمد بهاء الدين ـ أيام بلا تاريخ ـ جريدة الاهـرام ـ بتـاريخ ١١/١٠/١٩٧٤ .

* د. احسان هندى ـ كلمات فى الحضارة ـ مجلة العربى ـ العدد ٢٢٤ ـ يوليو ١٩٧٧ .

* د. اسماعيل صبرى عبد الله ـ منتدى العالم الثالث ـ جريدة الاهرام ـ بتاريخ ٢٥/٥/١٩٧٥ .

* د. اسماعيل صبرى عبد الله ـ ملتقى الجزائر والنظام الاقتصادى العالمى الجديد ـ جريدة الاهرام بتاريخ ٢٧/٧/١٩٧٥ .

* د. أحمد كمال أبو المجد ـ من محضر اجتماع باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢/٧/١٩٧٤ حول الاعلام والصحافة فى مصر .

* أنيس منصور ـ مواقف ـ جريدة الاخبار ـ بتاريخ ١٣/١/١٩٧٥

* النصوص الاساسية ـ تصريحات برنامج العمل من أجـل التعاون الاقتصادى ٩ سبتمبر ١٩٧٣ ـ مؤتمر القمة الرابع لرؤسـاء دول وحكومات البلدان غير المنحازة ـ الجزائر .

* حديث الرئيس الجزائرى هوارى بومدين الى لطفى الخولى ـ جريدة الاهرام بتاريخ ١٨ ـ ١٠ ـ ١٩٧٤ .

* حسنى امين وصفى ـ دور الاذاعة المسموعة فى التنمية القومية ـ فى الجمهورية العربية المتحدة ـ رسالة ماجستير بكليـة الآداب قسـم الصـحافة .

* خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى الدورة الخامسة عشر امام الجمعية العامة للامم المتحدة فى ٢٧/٩/١٦٩٠ .

* رجب البنا ـ صرخة من المسلمين فى جزر القمر ـ جريد الاهرام ـ بتاريخ ١٦ ـ ٤ ـ ١٩٧٦ .

* **رسالة الرئيس انور السـادات الى اعضـاء المجلس التنفيـذى لليونسكو الذى عقد بمبنى الجامعة العربية بالقاهرة يوم ١٣/١٠/١٩٧٥ .**

* د. سعد الدين ابراهيم ـ نحو نظرية سوسيولوجية للتنمية فى العالم الثالث ـ بحث مقدم الى المؤتمر العلمى السنوى الثانى للاقتصاديين المصريين ـ القاهرة فيما بين ٢٤ الى ٢٦ مارس سنة ١٩٧٧ الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع .

* د. عبد العظيم رمضان ـ محاضرات فى تاريخ أفريقيا .

* د. على المرشدى ـ التخطيط ـ مجلة الطليعة ـ يونيو ١٩٦٥ .

* د. على عجوة ـ دور الاعلام فى تنظيم الاسرة بالريف المصرى ـ رسالة دكتوراه من قسم الصحافة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٧٤ .

* فيصل حسنى ـ دور الاعلام فى الدول النامية ـ رسالة ماجستير بكلية الاقتصاد ـ بجامعة القاهرة .

* قرار رئيس الجمهورية بالقاهرة ٢٣٢ لسنة ١٩٦٠ ـ فى شأن التخطيط القومى والمتابعة .

* د. لويس عوض ـ ترتيب العالم ـ جريدة الأهرام بتاريخ ١٦ ـ ١٢ ـ ١٩٧٥ .

* د. منى الحديدى ـ دراسة تحليلية لصورة المرأة المصرية فى الفيلم المصرى والاثار الاعلامية والاجتماعية المترتبة على ذلك رسالة دكتوراه كلية الاعلام جامعة القاهرة ١٩٧٧ .

* محمد رضا ـ محاضرة فى دورة بغداد الاعلامية ـ ١٩٧٤ .

* محمد حسنين هيكل ـ بصراحة ـ الحسابات الاسرائيلية ـ جريدة الاهرام ـ العدد ٢٩٧٤٣ ـ بتاريخ ١٧ ـ ٥ ـ ١٩٦٨ .

* يوسف أدريس ـ من مفكرة ـ جريدة الاهرام ـ بتاريخ ٢٨ـ٥ـ ١٩٧٦ .

* يوسف ادريس ـ هل أصبح كله يوك ؟ جريدة الاهرام ـ بتاريخ ٣١ ـ ١٠ ـ ١٩٧٥ .

* يوسف السباعى ـ العبور الثقافى ـ مجلة الثقافة ـ اكتوبر ١٩٧٥ .

ثالثـا : كتب وبحوث افرنجية

❋ Alan Hancock — Technology Transfer and Communication — Unesco — Paris — 1984.

❋ Alan Hancok — Communication Planning for Development — Unisco — Paris — 1981.

❋ Alan Casty — Mass Media and Mas Man — Second edition — Halt Rinehart and Winston, Ins. — New York — U.S.A. — 1973.

❋ John Middelton — Appreaches to Communication Planning — Unisco — 1980.

❋ JuonE — Dioz Bordenave — Communication and rular Development — Unisco — 1977.

❋ A.H.W. Beek - les Telecommunications. Hechette, Paris 1967.

❋ Bissekri Faycal - Interaction du Developpement Economique et de Developpement des Mass-Media en Algérie — These pour le Doctorat de 3ème cycle en science de l'Information-Université Paris 2 — 1976.

❋ Dominique Desouches — Information et Developpement en Côte d'Ivoire.

❋ Fernand Terrou - L'information — Presses Universitaires de Franco — Paris 1974.

❋ F — Gerald Kiline and Phillip J — Tichenor — Carrent. Perspectives in Mass Communication Research — Fourth Printing. Soge Puhlications, Inc Beverly Hills, California — U.S.A. — 1972.

❋ Godwince Ch—Syed A. Rahim — D. lawrence kincaid — Communication for Group Transformation in Development — East West Centre — U.S.A. — 1976.

❋ Henry Bernstein — Underdevelopment and Development — The third World today — Penguin Book — London 1976.

❋ Heinz — Dietrich Fisher and John Cahlioun Merrill — International and Intercultural Communication — Second Edition — Hastings House pulilis hers. New York — U.S.A. 1976.

❋ James E. Combs and Michael W. Mansfield. Drama in life The use of communication in Society — Hastinge House Publishers, New York, 1976.
INC. New York — 1975.

❋ J. Samuel Bois — The Art of Awareness — Third Edition — w.m.c. Broun Company Publishers U.S.A. — 1978.

❋ J.M. Albert — Les Mecanismes du Sous-developpement — Les Editions Ouvrières — Paris — 1976.

❋ Lerner, Daniel and Wilbur Schramm Communication and change in the Developing countries. Honolulu. The University Press of Hawai, 1972.

❋ Melvin L. Defleur — Sandra Ball — Rokeach — Theories of Masscommnication — Third Edition — David Mckay Company,

❋ Michael Gurevitch — Culture, Society and the Media — Methves — London — 1982.

❋ Michael Gurevith — Culture, Society and the Media — Methven — London and New Yourk, 1981.

❋ Peter Golding — The mass media — Longman — London — 1974.

❋ Schramm, Wilbur and Donald Roberts. The Process and Effects of Mass Communication, Urbana University of Illibois Press, 1971.

❋ Scharmm, Wilbur — Men, Messages, and Media a look at human Communication — Harrer and Raw, Publishers — New York 1973.

❋ Scharmm, Wilbur, Mass Communication urabana, University of Illinois Press, 1959.

❋ Scharmm, Wilbur Men, Messages and Media, New York : Harper and Row Publishers, 1973.

❋ Shanon, Claude and warren weaver. The Mathematical Theory of Communication, Urbana University of Illinois Press, 1949.

❋ Stuart Hood — The Mass Media — Macmillan — 1972.

❋ Walter Elkan — Developement Economics, Penguin — London 1973.

❋ Yves Prats — Decentralisation et developpement — Editions Cujas — 1973.

❋ Yves Eudes — La conquête des espris. L'appareil d'exportation culturelle du gouvernement Americain vers le tiers monde — François Maspero — Paris — 1982.

رابعا : اهم الدوريات

- السياسة الدولية (مصر) .
- الطليعــة (مصر) .
- الدراسات الاعلامية (المركز العربى للدراسات الاعلامية) .
- النفط والتنميــة (العراق) .
- التعبئة العامة والاحصاء (مصر) .
- مجلة الوحدة الاقتصادية العربية (مجلس الوحدة الاقتصادية العربيــة) .

كتب للمؤلف

فى الدراسات الاعلامية :

* الاعلام والتنمية ـ الطبعة الرابعة ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٨٨ .
* صناعة الكتاب ونشره ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف ـ ١٩٨٨ .
* المؤسسة الصحفية ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الخانجى ـ ١٩٨٤ .
* المسئولية الاعلامية فى الاسلام ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة الخـانجى ودار الرفاعى بالرياض ـ ١٩٨٣ .

فى الدراسات الأدبيـة :

* الزيات والرسالة ـ دار الرفاعى بالرياض ـ ١٩٨٢ .
* هيكل والسياسة الأسبوعية ـ دار الرفاعى بالرياض ـ ١٩٨٢ .
* الصحافة بين التاريخ والأدب ـ دار الفكر العربين ـ القاهرة ١٩٨٥

فى الشـعر :

* موعد فى النجوم (ديوان شعر) ـ دار « تى » ـ ١٩٦٧ .
* سجين الربذة (مسرحية شعرية) دار المأمون للطباعة والنشر ١٩٧٩
* ما ينفع الناس (ديوان شعر) دار المأمون للطباعة والنشر ١٩٨٣ .

فى الترجمـة :

* ليوناردو دافينشى .
* أغنية المسـير (مسرحيـة) .

رقم الايداع ١٩٨٨/٣٣٤٤

الترقيم الدولي ٤ — ٠٣٠٥ — ١٠ — ٩٧٧

تم الطبع بالمراقبة العامة
لمطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى
مدير الادارة
البرنس حموده حسين
١٩٨٨\١٠\٢٢

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ٩٦٩\١٩٨٧\٥٠٠٠)